ما أعجب النعمة

فيليب يانسي



فيليب يانسي



Originally published in the U.S.A. under the title:
What's So Amazing About Grace?
by Philip Yancey

Published by permission of Zondervan, Grand Rapids, Michigan

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

الكتاب: ما أعجب النعمة
المؤلّف: فيليب يانسي

التصميم الداخلي والغلاف: دار منهل الحياة
ص.ب. ١٦٥ منصورية، المتن – لبنان
هاتف: ٤٠١٩٢٢ ٤ ٩٦١+
فاكس: ٥٣٢٤٨١ ٤ ٩٦١+
بريد إلكتروني: info@dar-manhal-alhayat.com
موقع إلكتروني: www.dar-manhal-alhayat.com
رقم الإيداع: ISBN 9789953530055

الناشر: دار منهل الحياة
بالتعاون مع



خدمة الكلمة الحيّة
بريد إلكتروني:info@the-livingWord.com
موقع إلكتروني: www.the-livingWord.com



Dar Manhal Al Hayat
دار منهل الحياة

المحتويات

كلمة تقدير



عندما أقرأ لائحة الأسماء التي تَرِد في كلمات التقدير، أتذكَّر الخطابات التي تُلقى في سهرات جوائز الأوسكار، عندما يتقدَّم الممثلون والممثلات ليشكروا معلماتهم من صف الحضانة الى معلمات الموسيقى في الصفوف العالية. لا شك أنني شاكر جدًّا لمعلمة الموسيقى، لكنني لدى كتابة أي كتاب، أجد أنني مضطر وبإلحاح أن أقدّم الشكر لنخبة من الناس. فمسوَّدة هذا الكتاب مختلفة جذريًّا عن نسخته النهائية. لذلك أقدّم الشكر لآراء هؤلاء الناس: دوغ فرانك، هارولد فيكت، تيم ستافورد، سْكوت هوزي، وهال نايت. لقد طلبت مساعدتهم لأنهم جميعًا ملمّون في موضوع الكتابة كما في موضوع النعمة، وتجاوبهم معي قد أثبت هذه الحقيقة. فأنا مدين لهم. وقد ساعدني زملائي في مجلة (Christianity Today)، وبخاصة هارولد ميرا، في بعض مواضيع هذا الكتاب الحسّاسة.

أمّا جون سلون، فقد نال أجرًا بدل تنقيح المسوَّدة الأولى، لكنّه اطّلع أيضًا على النُّسخ التالية. فالمنقّحون يعملون في الخفاء، لكنّ لمسات جون استمرَّت حتى النسخة الأخيرة.

كما أشكر بوب هدسن من زوندرفان، الذي أشرف على التنقيح الأخير. يغمرني شعور بالشكر والامتنان، لأنّ الكتاب يتمحور حول موضوع النعمة. وعندما أفكّر في أصدقائي هؤلاء، يتملّكني شعور بالكِبَر وعدم الأهلية.

لا بد من تقديم الشكر للرسول بولس، الذي علّمني من رسالة رومية العظيمة، كلَّ ما أعرفه عن النعمة، وأوحى إليّ بالخطوط العريضة لهذا الكتاب. أنا أتكلّم عن اللانعمة، وأَسبُر غوار النعمة، وأعالج الأفكار المتخالفة التي تبرز خلال هذه العملية، وأبحث في النعمة المعيشة في عالم جافٍ وقاسٍ، وهذا ما نراه في رسالة رومية.

(ما يجب الإشارة إليه، هو أنّ القصص الواردة في هذا الكتاب هي واقعية، لكن تمَّ تغيير بعض الأسماء والأمكنة حفاظًا على الخصوصية).


ما أعجب
النعمة

لا أعرفُ شيئًا أكثر ممّا يعرف

كلُّ واحد؛ وهو أنه حين تتلألأ

النعمة ينبغي لي أن أتلألأ.

و. هـ. أودِن



الفصل الأوّل

الكلمة الأخيرة الفضلى



ذكرتُ في كتابي (The Jesus I Never Knew)، قصة واقعيّة، ما زلتُ أفكّر فيها منذ ذلك الحين. وقد سمعتها من صديق يعمل مع الطبقة الدنيا من الناس في شيكاغو:

> قصدتني امرأة بغيٌ بائسة جدًّا، مشرّدة ومريضة، عاجزة عن شراء طعام لابنتها التي لم تتجاوز السنتين من عمرها. أخبرتني وهي تبكي وتنتحب، بأنها كانت تُتاجر بابنتها، ابنة السنتين، فتبيعها لرجال منحرفين جنسيًّا.
>
> وقد كانت تحصّل من الاتّجار بابنتها مدة ساعة أكثر مما كانت تحصّل هي في ليلة كاملة. وقد اضطُرت إلى ذلك، بحسب قولها، لتأمين حفنة مخدّرات. لم أتحمّل الإصغاء إلى هذا المستوى الدنيء القذر. فمن جهة، أنا مضطرّ، قانونيًّا، أن أرفع تقريرًا عن حالات الإساءة إلى الأطفال، ومن جهة أخرى لم أجد كلامًا أقوله للمرأة.

أخيرًا سألتها هل فكّرتْ يومًا في الذهاب إلى الكنيسة تطلب المساعدة. ولن أنسى الصدمة العفوية والبريئة التي أصابتها؛ فصرخت: «الكنيسة، ولماذا أذهب إلى هناك؟ فأنا أصلاً أشعر بالاستياء الذاتي، والذهاب إلى الكنيسة يضاعف هذا الشعور.»

ما أحزنني في قصة صديقي، أنّ مثيلات هذه البغيّ، كُنّ يلجأن إلى المسيح بدل الهروب منه. فكلما ازددن شعورًا بالاستياء الذاتي، ازددنَ شعورًا بضرورة الإلتجاء إلى المسيح. هل فقدَت الكنيسة هذه العطية؟ يتّضح أنّ البطّالين الذين التجأوا إلى المسيح أيام تجسّده، باتوا منبوذين لدى أتباعه، في هذه الأيام، فما الذي جرى؟

وكلّما أمعنتُ التفكير في هذا السؤال، أراني مشدودًا إلى كلمة جوهرية واحدة؛ وجميع الأمور الأخرى تتفرّع من تلك الكلمة.

بوصفي كاتبًا، فإني أعمل في صياغة الكلمات طوالَ النهار: فأقلّبها محاولاً استنباط معانيها، منتقيًا المفردات المناسبة. وقد وجدتُ أنّ الأيام تُفسد الكلمات، كما يَفسد اللحم البائت. فتراها تفقد بريقها ومعناها. خذِ الكلمة «إحسان»، على سبيل المثال، فعندما أراد مترجمو الطبعة الإنكليزية من الكتاب المقدّس المعروفة بترجمة (King James) اختيار أسمى الكلمات التي تعبّر عن المحبة، أجمعوا على الكلمة «إحسان». واليوم نسمع الاحتجاج يعلو قائلاً: «لا أريد إحسانك.»

ربما ينبغي العودة إلى الكلمة «نعمة»، لأنها الكلمة اللاهوتية الوحيدة التي لم تفسد بعد. وأدعوها «الكلمة الأخيرة والفضلى» لأنني لم أشهد بعد إساءة لاستخدام هذه الكلمة، إذ إنّ استخدامها

المتكرّر لم يمسّ مجدها وأصالتها وجوهرها. وهذه الكلمة تمثّل جزءًا واسعًا من ثقافتنا، مذكرةً إيّانا باستمرار، بأنّ الأمور الجيدة ليست نتيجة مجهوداتنا بل هي نعمة إلهية. واليوم، وعلى الرغم من النزعة العلمانية، فإننا ما زلنا نميل بشوق إلى النعمة. وإليك كيفية استخدامنا هذه الكلمة.

كثيرون يرفعون صلاة النعمة (say grace) قبل تناول الطعام، ويعتبرون الخبز اليومي عطية من الله. نحن نشكر (grateful) لُطف الآخرين، ونُسرّ (gratified) بالأخبار المفرحة، ونحصل على التهنئة (congratulate) لدى تحقيق نجاحات، ونستضيف أصدقاءنا بكرم ولياقة (gracious). وعندما يُسدينا أحدهم خدمة، نقدّم له إكرامية (gratuity). وفي هذه المرافق جميعها، نلمس شعورًا بالغبطة والفرح لدى حصولنا على أمور لا نستحقها.

وقد يزيد مؤلّف موسيقي أنغامًا إضافية (grace notes) على ألحانه، ربما غير ضرورية، لكنها تضفي على اللحن رَونقًا مميّزًا. عندما أعزف لحنًا لبيتهوفن أو شوبيرت، أعزفه دون الإضافات مرّات عدّة، فتظهر المقطوعة جميلة. لكنْ، رائع هو عزف الألحان الإضافية، مزيِّنةً المعزوفة، كما التوابل والمعطّرات في الطعام.

أما في إنكلترا، فيتمّ استخدام هذه الكلمة في صميم جوهرها اللاهوتي. إذ يطلقون على الشخصيات الملكية ألقاب «السمو والشرف» (your grace). وقد يُحصِّل تلامذة جامعتي أوكسفورد وكامبريدج درجة «امتياز» (receive grace) تعفيهم من بعض الدروس المقررة. ويطلق البرلمانيون على عملية العفو عن مجرم اسم «عمل النعمة» (act of grace).

كما يشير الناشرون في نيويورك إلى المعنى اللاهوتي للكلمة «نعمة»، عندما يستخدمونها في قانون «المنّة» (policy of gracing). إذا وقّعتُ اشتراكًا لاثنتي عشرة مجلّة، أحصل على بضع نسخ مجانًا حتى بعد المدة المحدّدة. وهذه «المجلاّت المجانية» (grace issues)، تشجعني على تجديد الإشتراك. وكذلك بطاقات الاعتماد، ومراكز تأجير السيارات، وشركات القروض، تمنح دائنيها «مهلة سماح» (grace period).

كما أتعلّم المزيد عن هذه الكلمة بواسطة أضدادها. تتحدّث الصحف عن «سقوط (الشيوعية) من النعمة» (fall from grace). نحن نوبّخ إنسانًا فننعته «بالجاحد» (ingrate)، أو «بالمخزي» (disgrace).

والرجل الحقير هو من يعيش خارج نطاق النعمة. والاستخدام المفضّل لديّ للكلمة الجوهرية «النعمة»، كما وردت في هذه العبارة السلبية: (persona non grata) فمن يتعدّى القانون في بلد غير بلاده يُعتبَر رسميًّا «إنسانًا فاقد النعمة» (a person without grace) أي أنه شخص غير مرغوب فيه.

إنّ الاستخدام المتعدّد للكلمة «نعمة» في اللغة الإنكليزية، يقنعني أنّ النعمة هي حقًّا مدهشة – وهي الكلمة الأخيرة الفضلى، تحمل في طيّاتها جوهر البشارة، كما تحمل نقطة الماء صورة الشمس. يتعطّش العالم إلى النعمة بصورة لا يستطيع أن يدركها، ولا عجب أن تُصنَّف الترنيمة «ما أعجب النعمة» (Amazing Grace)، ضمن الترانيم العشر الأُوَل، بعد نظمها بمئتي عام. ففي عالمٍ هائمٍ متقلّب، لا أجد أفضل من ملاذ النعمة، أُرسي عليه إيماني.

لعلّ حالة النعمة تبدو مزعزعة، كالأنغام الإضافية في اللحن الموسيقي. سقط جدار برلين بين ليلة وضحاها، وها السّود في جنوب أفريقيا يقفون صفوفًا طويلة للاقتراع للمرة الأولى، وها اسحق رابين وياسر عرفات يتصافحان في حديقة البيت الأبيض في لحظات تتلألأ النعمة. ثمّ تنصرف أوروپا الشرقية إلى إعادة الإعمار، تحاول جنوب أفريقيا إعادة بناء الدولة، وعرفات ينجو من الإصابة بالرصاص ورابين يُصرَع بواحدة. وكالنجمة المتهاوية، يتبدّد نور النعمة لتحجبه غيمة ظلام «عدم النعمة».

يقول هـ. ريتشارد نيبور: «إنّ أعظم النهضات المسيحية، لا تأتي نتيجة اكتشاف أمور جديدة. لكنها تحصل عندما يُحسِن أحدهم استخدام أمر جوهري معلوم سابقًا. من المؤسف، أني أجد أحيانًا نقص النعمة في الكنيسة، وهي مؤسّسة وُجدت لتعلن، كما يقول الرسول بولس، «بشارة نعمة الله».

يشير الكاتب ستيڤن براون إلى أنّ البيطري يستطيع أن يعرف الكثير عن صاحب الكلب وإن كان لم يقابله قطّ، من خلال معاينة كلبه. ماذا يعرف الناس عن الله عندما يعاينون أتباعه على الأرض؟ ابحث عن جذور النعمة تجد المعنى التالي: «أنا أتهلل، أنا فرحان». من خلال اختباري، ليس التهليل أو الفرح هو الانطباع الذي يأخذه الناس عندما يفكّرون في الكنيسة. بل هو القداسة الشكليّة. ويعتبرونها المكان الذي تقصده بعد أن تسوّي أوضاعك وليس قبل ذلك. يفكّرون في الأخلاقيّات وليس في النعمة. وكما صرخت تلك البغيّ: «الكنيسة، ولماذا أذهب إلى هناك؟ فأنا أصلاً أشعر بالاستياء الذاتي. والذهاب إلى الكنيسة سيضاعف من هذا الشعور.»

هذا الموقف يصدر نتيجة أفكار خاطئة، أو منحازة من الذين هم من

خارج. تسنّى لي زيارة بعض المطابخ المجّانية، وملاجئ المشرّدين، ونُزُل الفقراء، ومراكز خدمة السجون التي يديرها طاقم من المتطوّعين المؤمنين المملوئين نعمة. ومع ذلك فإنّ صوت تلك البغيّ لا يزال صداه يتردّد لأنها وجدت نقطة ضعف في الكنيسة. بعضنا منشغل جدًّا في تجنّب الذهاب إلى جهنّم لدرجة أنه نسيَ أن يتهلّل لأنه في الطريق إلى السماء. وبعضنا الآخر ينشغل بمسائل تُعنى «بالصراع الحضاري» في العصر الحديث، متناسيًا مهمّة الكنيسة، التي هي إعلانٌ عن النعمة في عالم خالٍ من النعمة.

«النعمة في كلّ مكان»، عبارة قالها الكاهن المحتَضر في قصة (Diary of a Country Priest) للكاتب جورج برنانوس. هذا صحيح، لكننا في سيرنا في هذه الحياة نصمّ آذاننا عن الصرخات المعذِّبة.

سبق أن التحقتُ بمدرسة اللاهوت. وحدث بعد زمن، أني كنت في الطائرة مع مدير تلك المدرسة، وطلب إليَّ أن أقيّم ما تعلّمته. فأجبته: «بعض ما تعلّمته كان جيدًا، أما بعضه الآخر فلا. لقد تسنّى لي التعرّف بالعديد من الناس الأتقياء. وفي الواقع، لقد التقيت الرب هناك. وهل من أمر أثمن من هذا؟ لكن ما اكتشفته بعد ذلك أنني لم أدرس شيئًا يُذكر عن النعمة خلال السنوات الأربع تلك. إنها أهمّ كلمة في الكتاب المقدس، وهي لبّ الإنجيل. كيف لا أجيدُ الإحاطة بها؟» وقد كرّرتُ هذا الكلام في مناسبات عامة، الأمر الذي سبّب الإحراج للمدرسة. واقترح بعضهم سكوتي في المستقبل. وكتب آخر لي طالبًا صوغ ما قلته بطريقة أفضل. أما كان أجدر بي أن أقول، إنني كتلميذ لم أستطِع إدراك النعمة المحيطة بي من كل جانب؟ ولأنني أحترم ذلك الرجل، أخذت سؤاله على محمل الجدّ. وتوصلت إلى الخلاصة التالية: ما اختبرته من فقدان النعمة في مدرسة اللاهوت يفوق أي مكان آخر في هذه الحياة.

لقد توصّل المرشد ديڤيد سيماندز بخبرته إلى المفهوم التالي:

لقد بتّ مقتنعًا بأنّ المسبّبَين الرئيسيّين لمعظم المشاكل النفسية لدى المؤمنين بالمسيح هما: الإخفاق في فهم وقبول وعيش نعمة الله وغفرانه غير المشروطين في حياتنا؛ والإخفاق في إظهار المحبة والغفران والنعمة غير المشروطة للآخرين... نحن نقرأ ونسمع ونؤمن بلاهوت صحيح عن النعمة. لكننا لا نمارس ذلك حياتيًّا. فالأخبار السارة لبشارة النعمة لم تخرق جدار عواطفنا.

يقول غوردن ماكدونالد: «يستطيع العالم أن يعمل كل شيء تقريبًا مثل الكنيسة، أو حتى أفضل. لستَ مضطرًا أن تكون مؤمنًا لتبني البيوت وتشبع الجائعين أو تداوي المرضى. هنالك أمر واحد يعجز العالم عن تقديمه، ألا وهو النعمة.» من هنا سلَّط ماكدونالد الضوء على أهم ما تستطيع الكنيسة تقديمه. وهل يستطيع العالم أن يجد النعمة في مكان آخر؟

كتب القصصي الإيطالي إيغنازيو سيلون عن ثائر تطارده الشرطة. وفي محاولة لإخفائه، ألبسه أصدقاؤه لباس كاهن وأرسلوه إلى قرية بعيدة عند سفح جبال الألب. وسرعان ما انتشر النبأ، فاجتمع أمام باب الكاهن رتل طويل من الفلاحين، يحملون قصص زلاتهم وحكايا حياتهم المدمَّرة. احتجّ الكاهن وحاول التهرّب، لكن دون جدوى. فلم يجد مفرًّا من الجلوس والاستماع إلى قصص أولئك الناس المتعطِّشين إلى النعمة.

أشعر في الواقع، أنّ هذا هو سبب مجيء الناس إلى الكنيسة: تعطّشهم إلى النعمة. يروي كتاب (Growing Up Fundamentalist) قصة اللقاء السنوي لإحدى أكاديميات الإرسالية في اليابان. وهذا ما قاله

أحد التلامذة: «ما عدا واحدًا أو اثنين، الجميع تركوا إيمانهم وعادوا. ونحن الذين عدنا نتشاطر أمرًا واحدًا مشتركًا: جميعنا اكتشفنا النعمة...»

عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء، إلى رحلة عمري المشوبة بالقلق والانزلاقات والطرق المسدودة، أدرك أنّ من دعمني لمتابعة المسير هو سعيي في إثر النعمة. رفضتُ الكنيسة فترة من الزمن، لأنني لم أجد فيها قدرًا كافيًا من النعمة. لكنني ما لبثت أن عدت لأنني لم أرَ أثرًا للنعمة في أي مكان آخر.

لا أعتبر نفسي تذوّقت طعم النعمة كاملاً. وقد قدّمت أقلّ مما أخذت، لذلك ليس من الحكمة أن أعتبر نفسي ضليعًا بموضوع النعمة. وهذه الأسباب، هي التي تدفعني إلى الكتابة. أريد أن أعرف المزيد، وأفهم المزيد، وأختبر المزيد من النعمة. لا أجرؤ – والأمر خطيرٌ إلى هذا الحدّ – أن أكتب كتابًا لا يفي النعمة حقّها. لذلك اسمحوا لي أن أبدأ بالكتابة كسائح أهليته الوحيدة سعيه الحثيث في إثر النعمة.

إنّ معالجة موضوع النعمة ليس سهلاً لأي كاتب. ودعني أقتبس كلمات إي. ب. وايت حول موضوع الفكاهة: «تستطيع أن تشرّح [النعمة] كما تشرّح الضفدعة، لكن هذه العملية تعرّضها للموت. ومنظر الأحشاء الداخلية يبقى مزعجًا إلا للعقل العلميّ الصرف.» لقد انتهيت للتو من قراءة مقالة عن النعمة من ثلاث عشرة صفحة في(New Catholic Encyclopedia)، وقد شجّعتني على عدم تشريح النعمة واكتشاف خباياها. لا أريد أن تموت المسألة. لذا سأعتمد القصص بدل البحث المنطقي.

باختصار، أفضّل أن أجسّد النعمة بدل أن أشرَحها.

الجزء الأوَّل

نغم عذب

الفصل الثاني

قصّة «بابيت»: مأدبة



تزوّجتْ كارين بليكسِن، الدانمركيّة الأصل، واحدًا من النبلاء. وعملت بين العامين ١٩١٤-١٩٣١ في إدارة مشروع لزراعة البن في مستعمرة إنكليزية في أفريقيا الشرقية، وتروي تفاصيل هذه السنوات في كتابها (Out of Africa). وبعد أن طلّقت عادت إلى الدانمارك وشرعت في الكتابة باللغة الإنكليزية تحت اسم مستعار: إيساك دينسن. وقد غدت واحدة من قصصها، (Babette's Feast) قطعة أدبية شهيرة، ذات طابع دينيّ، ما لبثت أن تحوّلت إلى فيلم سينمائي في الثمانينيات.

جعلت دينسن أحداث قصَّتها في النروج، لكنّ مُنتجي الفيلم الدانماركيّين بدّلوا الموقع إلى قرية فقيرة على ساحل الدانمارك. قرية شوارعها ترابية موحلة وسقوف بيوتها من القش. وفي هذا الجو القاتم، شيخ جليل ذو لحية بيضاء يرعى جماعة من العابدين المنضوين إلى مذهب لوثري متزمّت. وقد اعتزل هؤلاء القوم عن أبسط الملذّات العالمية التي تشكّل تجربة لفلاّح في «نور فوسبرغ». فقد اقتصر لباسهم على اللون الأسود. أما طعامهم فكان

سمك القدّ المسلوق، مع حساء يغمسون فيه الخبز اليابس. وفي يوم السبت كانت الجماعة تجتمع معًا وتنشد الترانيم عن أورشليم الجديدة موطنهم السعيد. كانت أورشليم الجديدة محطّ أنظارهم، فيما الحياة على الأرض مجرّد جسر عبور إلى السماء.

كان الشيخ الهرم أرملاً، لديه ابنتان يافعتان، الأولى تدعى مارتين نسبة إلى مارتن لوثر، والثانية فيليبا نسبة إلى تلميذ لوثر فيليب ميلانغثون. وقد لبّى أهل القرية الدعوة إلى الكنيسة لرؤية هاتين الفتاتَين، اللتين تميّزتا بجمال لا يقاوَم بالرغم من محاولة الفتاتَين إخفاءه. وما لبثت مارتين أن نالت إعجاب ضابط وسيم في فرقة الخيّالة، لكنها نجحت في إبعاده عنها، لأنها أرادت ملازمة والدها العجوز. فذهب ليتزوّج وصيفة الملكة صوفيا.

أمّا فيليبا فقد تميّزت، بالإضافة إلى جمالها، بصوت ملائكي ساحر. فعندما كانت ترنّم عن أورشليم، كنتَ تشعر وكأنّ المدينة تتلألأ بنورها أمام ناظريك. وهكذا تسنّى لفيليبا أن تتعرّف بأشهر مغنّي أوبّرا في ذلك العصر، وهو الفرنسي أشيل بابين الذي كان يُمضي فترة نقاهة في المنطقة الساحليّة. وبينما كان يسلك إحدى طرقات البلدة القذرة، سحره صوت ملائكي يستحق أن يزيّن فرقة الأوبرا الباريسيّة. فطلب من فيليبا أن تسمح له بأن يعلّمها فنّ الغناء، فتصبح نجمة لامعة تجد لها مكانًا على أرقى مسارح فرنسا، ويتوق الملوك والنبلاء إلى رؤيتها، ويتسنّى لها أن تعتلي مركبة تجرّها الخيول لتتناول الطعام في أفخم المطاعم كمطعم (Café Anglais). ومن باب الحياء، خضعت فيليبا لبعض الدروس. أما الغناء عن موضوع الحب فكان يربكها ويثير غضبها، مما زاد قلقها. وعندما كانت على وشك الانتهاء من غناء لحن (Don Giovanni) وجدت نفسها فجأة بين ذراعي بابين، وشفتاه تلامس شفتيها، فراودها شعور لا يشوبه الشكّ بأنّ عليها أن تبتعد عن هذه

الملذّات. وهكذا ألغى والدها برنامج الدروس المستقبلية، وعاد أشيل بابين إلى باريس حزينًا خائبًا كمن خسر ورقة رابحة.

مرّ خمسة عشر عامًا، وتغيّر الكثير في تلك البلدة. وها الفتاتان العانستان تعملان على إكمال رسالة والدهما الراحل. لكن الأمور لم تسر سيرًا حسنًا في غياب قيادته الصارمة. أحد الإخوة يكنّ لأخيه حقدًا بسبب مسائل مادية. وإشاعات تحوم حول علاقة مشبوهة عمرها حوالى الثلاثين عامًا بين عضوين من المجموعة. وهنالك سيدتان عجوزان لم تتحدّث إحداهما مع الأخرى منذ ما يزيد على العشر سنوات. وعلى الرغم من أنّ المجموعة ما زالت تجتمع كل يوم سبت وتنشد الترانيم القديمة، إلاّ أنّ العدد أضحى قليلاً جدًا، وقد فقدت الموسيقى بريقها. ومع وجود هذه المشاكل جميعها، حافظت هاتان الأختان على أمانتهما. فثابرتا على تنظيم الخدمة وتحضير الطعام للمسنين في البلدة.

في إحدى الليالي الماطرة، والتي يصعب فيها السير في الشوارع الموحلة، سمعت الأختان قرعًا عنيفًا على الباب. وعندما فتحتا وجدتا امرأة تسقط أرضًا مغميًّا عليها. عملتا على إسعافها ووجدتا أنّ لغتها كانت أجنبية. سلّمتهما رسالة من أشيل بابين. ولدى رؤية اسمه، تبدّل وجه فيليبا وارتعشت يداها فيما كانت تقرأ رسالة التعريف هذه. فاسم المرأة كان بابيت، وقد فقدت زوجها وابنها إبّان الحرب الأهليّة في فرنسا. ولما كانت حياتها في خطر اضطرت إلى الهرب. وقد أمّن لها بابين مكانًا على سفينة تقصد تلك البلدة حيث تجد من يحتضنها. وكتب في الرسالة: «بابيت تجيد الطهي.»

لم تملك الفتاتان مالاً لتدفعا لبابيت. ثم إنهما لم تثقا بكفاءتها في الطبخ وهما على علم بأنّ الفرنسيين يأكلون الخيول والضفادع. لكن،

أمام توسّل بابيت واسترحامها رقّ قلبهما، وسمحتا لها بأن تقوم بالأعمال اليوميّة الروتينيَّة مقابل إقامتها عندهما. وقد عملت بابيت لدى الأختين مدة اثنتي عشرة سنة. وقد علّمتها مارتين كيف تطهو الحساء، وعلى الرغم من أنها لم تُبْدِ سرورًا بادئ الأمر، فإنّها قامت بواجباتها كاملة. فعملت على إطعام فقراء البلدة واهتمّت بتنظيف منازلهم. وكذلك ساعدت في خدمات يوم السبت. وأجمع الكلّ على أنّ بابيت أضفت حيوية جديدة على مجتمعهم الراكد.

ولأنّ بابيت لم تتكلّم يومًا عن حياتها الماضية في فرنسا، فقد تفاجأت الأختان يومًا عندما وصلت لبابيت رسالة، بعد مضي اثنتي عشرة سنة. قرأت بابيت الرسالة، وأشاحت بطرفها لترى الأختين تحدّقان بها، وقد استشفّتا أنّ الرسالة تحمل أخبارًا سارة. فقد عملَ أحد أصدقائها في باريس على تجديد رقمها كل عام في دائرة اليانصيب الفرنسي. وقد ربحت ورقتها هذه السنة عشرة آلاف فرنك فرنسي!

فعمدت الأختان إلى تهنئة بابيت، لكنّ قلبهما خار في داخلهما، لأنّ بابيت لا بدّ راحلة.

وصدف أن تزامن هذا الحدث مع التحضير للاحتفال بميلاد والد الأختين المئوي. فتقدّمت بابيت من الأختين وفي جعبتها طلب وافتتحت حديثها بالقول، إنها لم تطلب منهما شيئًا مدة اثنتي عشرة سنة. ولكنها اليوم ترغب في تحضير وجبة هذا العيد، وسيكون عشاءً فرنسيًّا بامتياز. وعلى الرغم من هواجس الأختين بشأن هذا الطلب، إلا أنهما لم تجدا بُدًّا من تنفيذ رغبة بابيت.

وعندما وصل المال من فرنسا، سافرت بابيت لبعض الوقت في سبيل التحضير لذلك العشاء. وبعد مضي بضعة أسابيع من عودتها فوجئ أهل نور فوسبرغ بوصول القوارب واحدًا تلو الآخر محمّلين بكل ما تحتاجه بابيت لإقامة ذلك العشاء. فكنت ترى الحمّالين يُنزلون أقفاصًا ملأى بالطيور، وصناديق ملأى بالشمپانيا والنبيذ، ورؤوس البقر، والخضار الطازجة، والكما، والحجال، ولحوم الخنزير، وشتّى ثمار البحر، بما في ذلك سلحفة كبيرة حيّة وهي تهزّ رأسها الشبيه بالحيّة يمينًا وشمالاً – وقد حطّت هذه البضائع رحالها في مطبخ الأختين وتحت إشراف بابيت الصارم.

كان ذلك بالنسبة إلى مارتين وفيليبا أشبه بعصا سحرية حلّت عليهما. فاجتمعتا بالرعية وشرحتا لهم المسألة، وقد أضحى عددهم أحد عشر شخصًا، جلّهم من العجزة. وقد أبدوا تعاطفًا مع بابيت. وبعد نقاش قصير وافقوا على تناول وجبة فرنسية، دون إبداء أي تعليق عليها، لئلا يعطوا انطباعًا سيئًا لبابيت. فالألسن معدّة لرفع الشكر والتمجيد، وليس لتناول الأطعمة الفاخرة المتنوعة.

وحدث في ١٥ كانون الأول، ليلة العشاء، أن غطى الثلج القرية بوشاح أبيض. وقد سَرَّ الأختين نبأ وصول ضيف غير متوقّع: السيدة لوينهيلم البالغة من العمر تسعين عامًا برفقة ابن أخيها، وهو الضابط الذي سبق أن طلب مارتين للزواج. وهو الآن جنرال يعمل في القصر الملكي.

أما بابيت فكانت قد حصلت على بعض الأواني الثمينة، وزيّنت الغرفة بالشموع والأزهار، فبدت مائدتها جميلة. وعند ابتداء العشاء، تذكّر أهل البلدة اتفاقهم ولزموا الصمت، كالسلاحف حول البركة. ولم يعلّق أحد

على الطعام والشراب سوى الجنرال. فرفع كأسه وهتف: «إنه أفضل حساء تناولته في حياتي.» وكان الحساء مصنوعًا من مرق السلحفاة، وهل يُعقل أن يتواجد هذا على ساحل جوتلاند؟

وعندما تذوّق الجنرال طبقًا آخر، هزّ رأسه مبديًا إعجابه الشديد، فقال: «يا لَلطعام الفاخر.» أما الآخرون فلزموا الصمت ولم يبدوا أي تعبير. وعندما عبّر الجنرال إعجابه بالشمپانيا، أمرت بابيت مساعدها أن يُبقي كأس الجنرال ملآنةً. وهكذا اقتصرت عبارات المديح والاطراء على ذلك الجنرال.

وعلى الرغم من أنّ أحدًا لم يعلّق على الطعام أو الشراب، فإنّ تأثير الوليمة بدأ يظهر على أهل البلدة الفظّين رويدًا رويدًا، وكالسحر. فحمي دمهم، وارتخت ألسنتهم، وطفقوا يتكلّمون عن الأيام السالفة التي عاش فيها والد مارتين وفيليبا معهم وعن السنة التي تجمّد فيها الخليج في عيد الميلاد. فما كان من الأخ الذي سرق أخاه إلاّ أن اعترف أخيرًا، والسيدتان اللتان كانتا على عداء تصالحتا. وههنا سيدة تتنفّس الصعداء، وإلى جانبها أخ يهتف بشكل عفوي: «هللويا.»

أما الجنرال فانحصر كلامه في ما يخصّ الطعام. وعندما أتى الخادم بطبق (coup de grâce) وهو مصنوع من طير السلوى، قال الجنرال، إنه لم يرَ هذا الطبق سوى في مكان واحد في أوروبا، في مطعم (Café Anglais) الشهير في باريس، وقد اشتهر بفضل السيدة التي كانت مسؤولة عن مطبخ المطعم.

ثم وقف الجنرال ليلقي خطابًا، وكان رأسه قد ثقل بالخمر وشبعت نفسه حتى التخمة وكأنه لم يعد يتمالك نفسه، فقال: «أصدقائي الأعزاء، الرحمة والحق التقيا، البر والسلام تلاثما.» ثم توقف قليلاً، لأنه اعتاد أن

ينتقي كلماته بدقّة، ويصوّبها نحو الهدف الصحيح. ولكن هنا، وفي أوساط رعية ذلك الشيخ البسيطة، بدا الجنرال لوينهيلم مع كل الأوسمة المرصّعة على صدره، مجرّد ناطق يحمل رسالة يجب أن تصل. وكانت رسالة هذا الجنرال، النعمة.

وعلى الرغم من أنّ الأخوة والأخوات لم يفهموا تمامًا رسالة الجنرال، في ذلك الوقت، فإنّ أوهام هذه الأرض الباطلة، تبدّدت كالدخان أمام أعينهم، ورأوا الكون على حقيقته. وهكذا انتهى اللقاء ليخرج المجتمعون إلى بلدة يغمرها الثلج الأبيض وفوقها سماء تلمع بالنجوم.

وتنتهي «Babette's Feast» في مشهدين. في الخارج، عجزة تتشابك أيديهم حول ينبوع الماء وهم ينشدون بكل حماسة ترانيم الإيمان القديمة. إنه مشهد الشركة الحقيقية: مأدبة بابيت فتحت الباب والنعمة دخلت. وشعروا بأنّ خطاياهم قد طهرت فعلاً وغدت قلوبهم بيضًا كالصوف. وفي هذا الجو الذي استعاد براءته ونقاوته كانوا يمرحون ويطفرون كالأغنام الصغيرة.

أما المشهد الأخير فكان في الداخل، حيث تكوّنت الصحون القذرة والأواني المشحمة وبقايا الطعام والقناني الفارغة. تجلس بابيت وسط هذه الفوضى، ضائعة وحائرة. كما كانت في تلك الليلة التي وصلت فيها إلى هنا منذ اثنتي عشرة سنة. وفجأة تنبّهت الأختان إلى أنّ أحدًا لم يكلّم بابيت بشيء حول العشاء، وفق الإتفاقية.

فاقتربت مارتين من بابيت وقالت لها بتردّد: «كم كان العشاء جميلاً يا بابيت.»

أما بابيت فكانت سارحة في عالم آخر. وبعد وقت قصير قالت للأختين: «لقد عملت في ما سبق طاهية في مطعم (Caf é Anglais).»

وتابعت مارتين الكلام وكأنها لم تسمع ما قالته بابيت: «سنتذكّر أبدًا تلك الأمسية يا بابيت، بعد رحيلك إلى باريس.»

فقالت بابيت إنها لن تعود إلى باريس. فجميع أصدقائها وأقربائها قد قُتلوا أو سُجنوا. والعودة إلى باريس، حتمًا ستكون مكلفة جدًا.

فسألت الأختان: «وماذا بشأن العشرة آلاف فرنك؟»

وتُفصح بابيت عن المفاجأة المذهلة: فقد صرفت المبلغ الذي ربحته على العشاء الذي أكلوه للتو. وطلبت إليهما ألاّ تُفاجآ، لأن ذلك المبلغ هو ثمن عشاء لاثني عشر شخصًا في مطعم (Café Anglais).

ومن خلال خطاب الجنرال تؤكّد إيساك دينسون، بما لا يقبل الشك، أنها تكتب قصة (Babette's Feast) لا لتروي وقائع عشاء جميل، بل لتكون مثلاً يجسّد النعمة: الهبة التي تكلّف واهبها كل شيء ولا تكلّف المستفيد منها شيئًا. وهذا ما قاله الجنرال لونهيلم لأبناء الرعية الذين اجتمعوا حول مائدة بابيت:

> الجميع يقولون لنا إنّ النعمة في كل مكان. لكن بسبب جهلنا وقصر نظرنا نظن أنّ النعمة الإلهية محدودة... ولكن أتت الساعة التي فيها نفتح عيوننا ونرى وندرك بأنّ النعمة غير محدودة. فالنعمة أيها الأصدقاء لا تطلب منا شيئًا سوى أن ننتظرها بثقة ونتعرّف بها ونقدّر وجودها.

لقد حطّت بابيت رحالها، منذ اثنتي عشرة سنة عند قوم لا يعرفون النعمة. وبصفتهم أتباع لوثر، كانوا يسمعون عظاتٍ عن النعمة في كل أحد تقريبًا، ويحاولون بقية الأسبوع إرضاء الله من خلال أعمال التقوى والزهد بالدنيا. وقد أتتهم النعمة على شكل مأدبة، مأدبة بابيت، وجبة العمر التي استفاد من وفرتها أناس لم يدفعوا ثمنها، وليسوا مؤهلين أصلاً للحصول عليها. وصلت النعمة إلى دارهم في نورفوسبرغ كما هي دائمًا: من دون مقابل وبلا شروط.

نعمةٌ سريعة الزوال من أناس زائلين،

نطلبها أكثر مما نطلب نعمة الله.

شكسبير، مسرحيّة ريتشارد الثالث

الفصل الثالث



عالم من دون النعمة

استقلّ صديقي يومًا الحافلة في طريقه إلى عمله كالمعتاد. فسمع حديثًا دار بين سيدة كانت تجلس إلى جانبه وصديقتها التي جلست في الصف المقابل. كانت السيدة تقرأ كتابًا لسكوت بيك، وهو بعنوان (The Road Less Traveled). وقد بقي في جريدة (The New York Times) على لائحة «الكتاب الأفضل مبيعًا» مدة طويلة، لم يحظَ بها كتاب آخر.

– فسألتها صديقتها: «ماذا تقرئين؟»

– «كتابًا أعطتني إياه صديقة لي، قالت إنه غيّر حياتها.»

– «أمر جميل، وما هو موضوع الكتاب؟»

– «لست أدري بالتمام، فإنني ما زلت في بداياته. لكنه أشبه بدليل للحياة.»

وشرعت تقلّب صفحات الكتاب، متابعةً: «إليك عناوين الفصول: «الانضباط، المحبة، النعمة...»

فاستوقفها رجلٌ قائلاً: «ما هي النعمة؟»
– «لا أدري، لم أصل إلى النعمة بعد.»

أفكّر في هذه العبارة عندما أستمع إلى نشرات الأخبار المسائية. فعالم مملوء بالحروب والعنف والضيق الاقتصادي والنزاع الديني والدعاوى القضائية والتفكّك العائلي، لم يصل إلى النعمة بعد. وهذا ما عبّر عنه بأسف الشاعر جورج هيربرت: «يا لِهول الإنسان من دون النعمة.»

المؤسف، أنني أفكّر في هذه العبارة، عندما أزور بعض الكنائس. وكأنّ خمرًا فاخرة سُكبت في جرّة مملوءة ماء، هكذا تضيع رسالة النعمة العجيبة، التي أتى بها المسيح، في وعاء الكنيسة. «لأَنَّ النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ، أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا» (يوحنا ١: ١٧). لقد أنفق المؤمنون طاقة هائلة عبر السنين في سبيل تفسير الحق؛ وكل كنيسة تدافع عن قناعاتها ووجهة نظرها. لكن ماذا عن النعمة؟ من النادر أن تجد كنيسة تعمل بجهد في سبيل أن تفوق منافسيها نعمة.

إنّ النعمة هي أفضل عطية تقدّمها المسيحية إلى العالم، إنها نار روحية مستعرة في داخلنا تقوى على الانتقام والتمييز العنصري والحقد. ومن المحزن أنّ عالمًا كهذا، في أمسّ الحاجة إلى النعمة، تقدّم له الكنيسة شكلاً من أشكال عدم النعمة. فنحن أحيانًا كثيرة أشبه بقوم متجهّمين يجتمعون ليأكلوا حساءً مبلولاً بالخبز اليابس، بدل أن نكون أولئك القوم الجالسين حول مأدبة بابيت.

ترعرعتُ في كنيسة وضعت حدًّا فاصلاً بين «عهد الناموس» و«عهد النعمة». فإذْ تجاهلنا من جهةٍ، معظم قوانين العهد القديم الأخلاقية،

التزمنا من جهة أخرى، جملة نواهٍ خاصة فينا لم يلتزمها حتى اليهود المتعصّبون، وعلى رأسها عدم التدخين والشرب وارتياد دور السينما وسماع الموسيقى الصاخبة والتبرّج والتحلّي بالذهب وقراءة الجرائد يوم الأحد واللعب أو متابعة المباريات يوم الأحد والمسابح المختلطة وما شابه. ونما لديّ اقتناع بأنّ الإنسان يُعَدُّ روحيًّا إن هو التزم هذه النواهي. بالنسبة إليّ لم أستطع أن أميّز بين شريعة موسى وشريعة النعمة. ومن خلال زياراتي إلى كنائس من طوائف متعدّدة وجدت أنّ سلّم الارتقاء إلى مصاف الحالة الروحية هو واحد. فالطوائف على اختلافها، لها قوانينها وأنظمتها الناموسيّة الخاصة بها. فأنت تحظى برضى الكنيسة إن التزمت قوانينها، وهكذا طبعًا تحظى برضى الرب.

بعد ذلك، وحين بدأت أكتب عن مشكلة الألم، تعرّفت بشكل آخر من أشكال انعدام النعمة. وقد احتجّ بعض قرّائي على تعاطفي مع المتألّمين. فإنّ الناس، بحسب رأيهم، يتألّمون لأنهم يستحقون ذلك، وهذا تأديب من الله. وأحتفظ بالعديد من الرسائل المليئة بالحِكَم والأمثال التي تشبه إلى حدٍّ كبير تلك التي أطلقها أصدقاء أيوب.

يكتب الدكتور السويسري پول تورنييه، وهو ذو إيمان شخصيّ عميق، في كتابه (Guilt and Grace): «لا يمكنني أن أدرس وإياكم مشكلة بخطورة مشكلة الشعور بالذنب، من دون التطرّق إلى الحقيقة الواضحة والمأسوية التي تقول، إنّ التديّن، بشتى أشكاله، يمكنه أن يدمّر بدل أن يحرّر.»

يتحدّث تورنييه عن عيّنات من مرضاه: رجل يلازمه الشعور بالمذنبية نتيجة خطية قديمة، وسيدة لا تستطيع أن تنسى عملية الإجهاض التي خضعت لها منذ عشر سنوات. ويقول تورنييه، إنّ ما يحتاجه هؤلاء المرضى

فعلاً، هو النعمة. ومع ذلك فإنّ جلّ ما يحصلون عليه في بعض الكنائس هو الخزي، والتهديد بالعقاب، والإدانة. باختصار، إنهم حينما يبحثون عن النعمة في الكنيسة، فإنهم غالبًا ما يجدون العكس.

أخبرتني مؤخرًا امرأة مطلّقة بأنّ زوجة الراعي اقتربت منها في الكنيسة، وكانت برفقة ابنتها البالغة من العمر خمس عشرة سنة، قائلةً لها: «سمعت أنك تُطلِّقين، وما لا أستطيع فهمه أنه إن كنتما تحبّان يسوع، فلماذا تفعلان ذلك؟» ولم يسبق لزوجة الراعي أن تحدّثت يومًا مع هذه السيّدة، وقد صعقها هذا التوبيخ القارس في حضور ابنتها. فقالت لي: «ما آلمني أنني وزوجي نحبّ الرب، لكنّ زواجنا لم يعد قابلاً للإصلاح أو الترميم. لو أنها فقط طوّقتني بذراعيها وقالت: «إني آسفة لما حصل...»

سبق لمارك توين أن تحدّث عن «الصالحين – بأسوأ ما لهذه الكلمة من معنى»، وهو تعبير يرسم صورة لحال المؤمنين في زمننا هذا. عمدتُ مؤخرًا إلى طرح سؤال على الغرباء الذين ألتقيتهم، وعلى سبيل المثل، الذين يجلسون إلى جانبي في الطائرة. فكنت أبدأ الحديث بهذا السؤال: «ما الذي يتبادر إلى ذهنك عندما تسمع العبارة «مسيحيّ إنجيليّ»؟ وغالبًا ما أتى الجواب من الزاوية السياسية: معارض للإجهاض، ومعارض لحقوق مثليّي الجنس، يطالب بفرض الرقابة على الإنترنت. لكنني لم أسمع يومًا أية إشارة إلى النعمة. فمن الواضح أنّ أريج النعمة لا يفوح من الكنيسة في هذه الأيام.

وصف هـ. ل. مينكن الرجل التّقي بأنه إنسان يخشى باستمرار وجود أي إنسان في أي مكان يتمتّع بالسعادة؛ وهذا ينطبق على الكثير من الإنجيليين أو الأصوليين في أيامنا هذه، وبشهادة الكثير من الناس. ولماذا نسمع مثل هذه الشهادة؟ لعلّ هذه المقالة الساخرة التي كتبتها إيرما بومبيك توضّح بعض الأمور:

الأحد الماضي، وبينما كنت في الكنيسة، استرعى انتباهي ولد صغير يتلفّت في كل اتجاه ويتبسّم لكل من حوله. لم يكن يقهقه أو يبصق أو يمزّق كتاب الترنيم أو يعبث بحقيبة أمّه أو يقوم بأية حركات مزعجة، بل جلّ ما قام به هو توزيع الابتسامات. أخيرًا، ما كان من أمّه إلا أن شدّته نحوها بعنف وهمست في أذنه بصوت يكاد يسمعه الجميع، قائلة: «أقلع عن توزيع هذه الابتسامات! فأنت في الكنيسة.» ثم ضربته، وبينما كانت الدموع تنهمر على خدّيه أضافت قائلة: «هذا جيّد»، ثم تابعت صلاتها...

شعرت حينها بالغضب. أحسست وكأنّ العالم كلّه يبكي، وإن لم تكن أنت واحدًا من الباكين فمن المستحسن الانضمام إليهم. وأردت أن أضمّ هذا الولد إليّ بوجهه الحزين الباكي وأخبره عن إلهي، إله الفرح، وإله البسمة، الإله الذي لا بدّ يتمتع بروح مرحة حتى إنه خلق أناسًا نظيرنا... اعتدنا التقليد القائل إنّ الإيمان هو وجه وقور ومتجهّم تلبسه، وقناع عبوس من المآسي وجدّية منتمٍ إلى حزب أو نادٍ اجتماعي.

يا لِلجهل! هذه سيدة تجلس إلى جانب النور الوحيد المتبقّي في حضارتنا – الأمل الوحيد، معجزتنا الوحيدة – الوعد الوحيد نحو أفق لا حدود له. فما دام لا يستطيع أن يبتسم في الكنيسة، فهل ثمة مكانٌ آخر يذهب إليه؟

لا شكّ أنّ هذه الصفات لا تعبّر عن المسيحية بشكل صحيح، فأنا أعرف الكثير من المؤمنين الذين يجسّدون النعمة. لكنّ الكنيسة على مرّ التاريخ طبعت شهادتها بفصول تفتقر إلى النعمة. كما صلّت طفلة

إنكليزية: ((يا الله، غيّر الأشرار إلى أناس صالحين، والصالحين إلى أناس طيّبين.))

وقد عبّر الفيلسوف الأميركي وليم جيمز، الذي عاش في القرن الماضي، عن نظرته إلى الكنيسة في كتابه: (The Varieties of Religious Experiences). فقد حاول أن يُظهر مدى محدودية المؤمنين الذين اضطهدوا جماعة ((الكويكرز)) لأسباب ليست ذات قيمة. وهذا ما كتبه عن تقشّف كاهن في أحد الأرياف الفرنسية الذي قرّر ((أن لا يشمّ وردة أو يشرب عندما يعطش، أو يسافر في رحلة، أو يشمئزّ من أي أمرٍ كريه، أو يتذمّر على أي أمرٍ يُقلق راحته، أو يجلس، أو يستند على يديه عندما يكون جاثيًا.))

وقد نصح الصوفي الشهير (St. John of the Cross) المؤمنين بأن يموتوا عن كل الأفراح والملذات، وينصرفوا ((ليس إلى ما هو مسرّ بل إلى ما هو مقرف))، وأن يحتقروا نفوسهم، طالبين أن يحتقرهم الآخرون كذلك. لقد اعتاد سانت برنار أن يعصب عينه كي لا يرى جمال البحيرات السويسرية.

أما اليوم، فتبدو الناموسية في شكل مختلف. ففي وسط مجتمع علماني محض، تبدو الكنيسة في حلّة تفتقر إلى النعمة إذ تدّعي التفوّق الأخلاقي وتتّخذ موقفًا صارمًا تجاه الأطراف الأخرى في ميدان ((النزاع الحضاري)).

كذلك، تخفق الكنيسة في إبراز النعمة من خلال تشرذمها. كان مارك توين يضع كلبًا وهرةً في قفص واحد، ليرى إن كانا يستطيعان التعايش معًا. وإذ نجحا في ذلك، وضع في القفص عصفورًا وخنزيرًا وعنزة. وكذلك

استطاعوا التعايش أيضًا، مع بعض وسائل التكيّف. ثم وضع معمدانيًّا ومشيخيًّا وكاثوليكيًّا؛ وسرعان ما لم يبقَ أيّ كائن على قيد الحياة.

وهذا ما كتبه المفكّر اليهودي أنطوني هيكت:

> كلما مرّت الأيام، كنت أنمو في معرفة إيماني على نحو أفضل، كما ازداد اطّلاعي على مفاهيم المسيحيين من جيراني. والكثير من هؤلاء كانوا أناسًا صالحين أُجلّهم وأحترمهم، وقد تعلّمت منهم الصلاح بالإضافة إلى الكثير من الأمور الأخرى. كما أعجبت بالكثير من عقائدهم المسيحية. لكن أكثر ما صعقني هو العداء العميق والمتأجّج بين البروتستانت والكاثوليك.

ها أنا أنتقد المؤمنين لأني واحد منهم، ولا أرى سببًا يجعلنا نتظاهر بأننا في حال أفضل مما نحن عليه. فأنا أحارب القبضة الأخطبوطية لانعدام النعمة في حياتي. فما زالت بصمات القوانين الصارمة مطبوعة في حياتي. وأنا أجاهد يوميًا في مواجهة الكبرياء وروح الإدانة والشعور المستمر بأنه عليّ إرضاء الرب بطريقة أو بأخرى. وهذا ما يشير إليه هيلموت تيليك في هذه الكلمات: «... ينجح الشيطان في وضع بيض طير الوقواق في عش تقي... ورائحة النتانة المتصاعدة من الجحيم لا تحسب شيئًا مقارنة برائحة الشر المنبعثة من النعمة حين تفسد.»

وما نشهده في الواقع، هو نزعة سامة من انعدام النعمة، تشوب جميع الأديان. لقد سمعت تقارير من شهود عيان عن بعض الشعائر الدينية التي تمارس في طقوس «سن دانس» في الآونة الأخيرة، حيث يقوم بعضهم بتثبيت مخالب النسر في صدورهم، ثم يندفعون بقوة، بعد أن كانوا

مربوطين بحبل مثبّت إلى عامود مقدس، فتنغرز المخالب في لحمهم. ثم يدخلون إلى حجرة عازلة، حيث يكوّمون الحجارة الملتهبة إلى أن تصبح الحرارة غير محتملة، وكل ذلك في محاولة للتكفير عن خطاياهم.

لقد رأيت فلاحين أتقياء يزحفون على ركب مدمّاة في شوارع كوستاريكا المرصوفة بالحصى. كما رأيت فلاحين هندوسيين يقدّمون الذبائح لآلهة وبأ الجدري والحيات السامّة في الهند.

وما يدعو للعجب هو، الذين يدّعون أعمال الخير والإحسان، وهم يثورون على كل ما هو ديني، فيجسّدون بذلك أبشع أشكال اللانعمة. ونشهد اليوم نشأة روح معادية تمامًا للنعمة في الجامعات العصرية، وذلك بقيام الحركات «التحرّرية»، مطالبة بتحرير المرأة والبيئة والقيم الحضارية من كل القيود. ولعلّ الشيوعية السوڤياتية تمثّل أبشع الناموسية، إذ يقوم نظامها على شبكة استخبارات تتجسّس على كل من يُخالفها الرأي أو يستخدم عبارات تسيء إلى النظام أو يخالف المبادئ والقيم الشيوعية. على سبيل المثال، قضى سولجنيتسين سنوات من حياته في السجن بسبب بعض عبارات الاستخفاف التي تضمّنتها رسالة شخصيّة إلى ستالين. ناهيك بأعمال الظلم والتعسّف التي مارسها الجيش الأحمر في الصين.

حتى أكثر المنشغلين في المسائل الإنسانيّة يضعون أنظمة لا تنمّ عن النعمة كبدائل لأنظمة رفضتها دياناتهم. أرسى بنيامين فرانكلين ثلاث عشرة فضيلة في كتاب له، بحيث نالت كل فضيلة صفحة من الكتاب مع ترك فسحة مقابل كل صفحة لتسجيل «الشوائب». ومن ضمن هذه الفضائل: السكوت («لا تتكلّم إلا بما يفيدك أو يفيد الآخرين؛ تجنّب المحادثات العبثية»)، الاقتصاد («لا تنفق مالاً لا تستفيد منه أنت أو غيرك؛ تجنّب

التبذير العبثي))، المثابرة ((لا تضيّع الوقت؛ انشغل دائمًا بأمور مفيدة؛ تجنّب الأعمال غير المفيدة))، والهدوء ((لا تضطرب بشأن أمور تافهة أو حوادث عابرة أو أمور لا يمكن تجنّبها)). وكان فرانكلين يختار لكل أسبوع فضيلة يعملِ عليها، ويسجّل الأخطاء التي يرتكبها في كل يوم. وهكذا كان يعاود الكرَّة كل ثلاثة عشر أسبوعًا، ليمرّ على هذه اللائحة أربع مرات في السنة. وهكذا، لازم هذا الكتيّب فرانكلين عقودًا عدّة، في محاولة لتحقيق هذه الفضائل. وفي حين كان يحقّق تقدّمًا ملحوظًا، وجد نفسه في مواجهة رذيلة أخرى:

> لعلّ نزعة الكبرياء عند الإنسان هي من أقوى الأمور التي تسيطر عليه، ويصعب التغلّب عليها. حاول أن تحتقرها وتواجهها وتقمعها وتُميتها، فتجدها حيّة، تُطلّ برأسها بين الحين والآخر وتطلق صوتًا يثبت وجودها... حتى لو بتُّ مقتنعًا بأنني تغلّبت عليها، أظن أنه ينبغي لي أن أفتخر باتضاعي.

هل يمكن لهذه الجهود الجبّارة، بكل أشكالها، ألاّ تُشبع ذلك التوق العميق إلى النعمة؟ نعيش في أجواءٍ خانقة من دخان اللانعمة. فالنعمة ليست إنجازًا بل هبة تأتينا من الخارج. ويسهل تلاشيها في عالم يرفع هذا النوع من الشعارات: إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب، البقاء للأقوياء، احصر اهتمامك بالشخص رقم واحد – أنت.

ما يحصل في العالم هو إشارة واضحة إلى التوق الشديد إلى النعمة. تدير منظمة في لوس أنجلوس خدمة هاتفية تدعى ((خط الاعتذار العلني)). ومن شأن هذه الخدمة إفساح المجال أمام المتّصلين كي يعترفوا بأخطائهم مقابل تكلفة مكالمة هاتفية. فالذين فقدوا ثقتهم برجال الدين، يعترفون لآلة

التسجيل الهاتفية. ويتلقّى مركز الهاتف في كل يوم حوالى المئتي اتصال، لا تتعدّى رسالته الستين ثانية. والاعترافات في معظمها تتناول خطية الزنى. بعض الاتصالات تسجّل اعترافات بشأن أعمال التعدّي: اغتصاب، إساءة جنسيّة إلى الأطفال، وأحيانًا القتل. أحد الذين أقلعوا عن المسكر ترك الرسالة التالية: «أودّ الاعتذار إلى جميع الذين أسأت إليهم خلال سنوات الإدمان الثماني عشرة.» ويرنّ الهاتف وتسمع صوت سيّدة تنتحب وتقول: «ما أودّ قوله، إنّي آسفة.» وقد أعلمتنا أنها تسبّبت بحادث سير أوقع خمسة قتلى، وتتابع قائلة: «يا ليتني أستطيع استرجاعهم.»

ذات يوم، فاجأ واحد من زملائي، الممثل اللا أدريّ و.س. فيلدز يقرأ الكتاب المقدس في غرفته. وإذ شعر فيلدز بالإحراج أسرع إلى إغلاق الكتاب وقال: «أنا أحاول فقط أن أبحث عن بعض المنافذ.» لعلّه كان يبحث عن النعمة.

كتب لويس سميدس، أستاذ علم النفس في مدرسة فولر للاهوت، كتابًا يبيّن العلاقة بين العار والنعمة بعنوان (Shame and Grace). مما قاله: «لم يكنِ الذنْبُ هو المشكلة بالنسبة إليّ، بل ما آلمني هو الشعور العميق بعدم الاستحقاق والذي لم يأتِ نتيجة خطيّة محدّدة ارتكبتها. لم أكن في حاجة إلى المسامحة بقدر ما كنت محتاجًا إلى الشعور بأنّ الله قبلني وامتلكني وأمسك بي وأثبت براءتي ولن يتخلّى عني حتى لو لم أكن عند حسن ظنّه كما يجب.»

ثم يتابع سميدس فيقول إنّه اكتشف ثلاثة مصادر للعار الذي يشلّ حركة الإنسان: الحضارة العلمانية، الديانة الخالية من النعمة، والأهل الذين يرفضون أولادهم. فالحضارة العلمانية تقول، إنّ على الإنسان أن يبدو

بمظهر حسن وأن يشعر دومًا بالارتياح وأن يقوم بالأعمال الصالحة. أما الديانة الخالية من النعمة فتطلب إلينا أن نتمسّك بالنواميس بحذافيرها، لأنّ الإخفاق سيؤدي إلى رفض أبدي. وبالنسبة إلى الأهل الذين يرفضون أولادهم فهم يولّدون شعورًا عند الأولاد بأنهم لن يستطيعوا مطلقًا أن يرضوا ذويهم، وغالبًا ما يردّد الأهل هذه العبارة: «ألا تخجل من نفسك!»

نحن أشبه بسكان مدينة اعتادوا تنفّس الهواء الملوّث، نتنفّس في جوٍ خالٍ من النعمة مفروض علينا. فمن مرحلة صفوف الحضانة، نحن نخضع كتلاميذ لعملية التقويم والامتحان قبل أن نصنّف في خانة «المتقدّمين»، أو «العاديين»، أو «المتأخّرين». وبعد ذلك نحصّل علامات لقاء أدائنا في مواد العلوم والرياضيات والقراءة، وحتى في «المهارات الاجتماعية»، و«المواطنية». ثم تأتينا أوراق الامتحانات المصحّحة والتي نرى فيها أخطاءنا مصحّحة باللون الأحمر. كل ذلك يساعدنا على تهيئة نفوسنا لمواجهة الحياة التي لا ترحم، حيث تتحوّل ألعاب الطفولة إلى واقع لا مفرّ من مواجهته بكل تحدياته وقساوته.

ولعلّ الحياة العسكرية هي التعبير الأصدق عن اللانعمة. فلكل فرد مركزه ولباسه وراتبه ونمط سلوكه، وكل جندي يعرف تمامًا إطار علاقته بالآخرين: أنت تقدّم التحية والطاعة لمن هم أعلى منك، وتعطي الأوامر لمن هم أدنى منك. أما ما يجري في المؤسسات فيبدو أكثر لباقة وحذاقة. فمؤسسة فورد تصنّف موظّفيها وفق سلم أرقام من (١-٢٧)، من السكرتيرة إلى المدير الأعلى. فإذا تمّ تصنيفك بين الأرقام (١-٩)، فأنت تستحق موقفًا لسيارتك، وإن وصلت إلى الرقم ١٣، تحصل على بعض مظاهر الرفاهية في مكتبك، كالنوافذ وأحواض الزهور وهاتف داخلي خاص، أما مكاتب الرقم ١٦ فهي مجهّزة بمراحيض خاصة.

يبدو أنّ بعض المؤسسات تعمل خارج إطار النعمة، وتعتمد في سياستها على جهود الفرد الشخصية. فقصور العدل ومؤسسات التسليف وشركات الطيران لا تستطيع أن تعمل في إطار النعمة. وهذه الكلمة هي خارج قاموس الدولة. أما في مجال الرياضة، فالقوانين تكافئ من يسجّل العدد المطلوب من الرميات والأهداف، ولا مكان لمن يخفق في ذلك. تذكر مجلة (Fortune) سنويًا لائحة تضم أسماء أغنى خمسمئة رجل في العالم؛ ولا أحد يعرف أسماء أفقر خمسمئة إنسان.

إنّ مرض الأنوريكسيا (فقدان الشهية) هو نتيجة مباشرة لعدم وجود النعمة: فالعارضات مستعدات لأن يمتنَ جوعًا في سبيل المحافظة على أجسام جميلة ونحيفة. إنها ظاهرة تميّز الحضارة الغربية المعاصرة، ولا نعرف لها تاريخًا، كما أنها نادرة في مناطق كأفريقيا الحديثة (حيث يفضّلون البدانة على النحافة).

وهذا كلّه يحدث في الولايات المتحدة، المجتمع الذي ينادي حسب الظاهر بالمساواة. أما المجتمعات الأخرى فقد استبعدت النعمة، وذلك باعتماد أنظمة اجتماعية قاسية ترتكز على الطبقية والعرقية. فجنوب أفريقيا اعتمدت في الماضي تصنيف كل مواطن وفق هذه الفئات العرقية الأربع: أبيض، أسود، ملوّن، وآسيوي (وعندما احتجّ باحثون يابانيون، ابتكرت الحكومة فئة جديدة، «الأناس البيض الفخريون»). أما النظام الطبقي الهندي فقد بدا متشعّبًا ومعقّدًا. ففي العام ١٩٣٠ اكتشف البريطانيون طبقة جديدة لم يلحظ أحد وجودها على مدى قرون ثلاثة: فئة من الناس عملت في غسل ثياب المنبوذين. وقد ظنّ هؤلاء الفقراء أنهم ينجّسون الطبقات العليا إن هم نظروا إليهم، فكانوا يحرصون على الخروج في الليل فقط تحاشيًا لأي اتصال بالآخرين.

أصدرت صحيفة (The New York Times) مؤخرًا، سلسلة مقالات حول الجرائم في اليابان الحديثة. وكان السؤال: لماذا هنالك في الولايات المتحدة ٥١٩ سجينًا لكل ١٠٠،٠٠٠ مواطن، فيما لا يتعدى العدد ٣٧ سجينًا في اليابان؟ وفي محاولة لإيجاد الجواب، أجرى مراسل الصحيفة مقابلة مع رجل ياباني كان قد أكمل لتوّه مدة حكمه جرّاء جريمة قتل. ففي الخمس عشرة سنة التي قضاها في السجن لم يستقبل زائرًا واحدًا. وبعد إطلاق سراحه التقى زوجته وولده، فأخبراه بعدم رغبتهما في عودته إلى البلدة. وترفض بناته الثلاث المتزوجات مقابلته. ويقول الرجل بحزن: «لديّ، كما أظن، أربعة أحفاد»، ولم يتسنّ له حتى أن يرى صورًا لهم. فقد وجد المجتمع الياباني طرقًا يعزّز فيها اللانعمة. أما المجتمع الذي يراعي شعور الآخرين فلا مكان فيه للذين يتصرّفون بغير نعمة.

حتى العائلات، التي تساهم في ترابط الأفراد من طريق الولادة وليس من طريق الممارسات الشكلية، تعيش في مناخ اللانعمة. وإليك قصة للكاتب إرنست همينغواي توضّح هذه الحقيقة. قرّر والد إسباني أن يتصالح مع ابنه الذي فرّ إلى مدريد. وإذ كَسَر الحزن قلبه، كتب هذا الإعلان في جريدة (El Liberal): «باكو، إنسَ كل الماضي، وسألتقي بك في فندق مونتانا يوم الثلثاء ظهرًا. أبوك.» وباكو اسم شائع في إسبانيا، وعندما وصل الوالد إلى الفندق. وجد ثمانمئة شاب إسمهم باكو ينتظرون والديهم.

سبق أن خَبِر همينغواي أجواء اللانعمة التي تسود العائلات. فقد درس جدّاه في كلية ويتن الإنجيلية. أما والداه التقيّان، فقد مقتا حياة ابنهما الفاسقة، وكان بعد مدة أنّ والدته رفضت بقاءه في المنزل. ففي إحدى مناسبات عيد ميلاده أرسلت له قالب حلوى مع المسدس الذي استخدمه والده ليقتل نفسه. وفي المرة التالية كتبت له رسالة تشرح فيها كيف أنّ حياة

الأم هي أشبه بمصرف: «كل ولد يولد لأمه يدخل العالم بحساب مصرفي ضخم، لا مجال لنفاده حسب الظاهر.» وأضافت، إنّ الولد، في سني حياته الأولى يسحب من هذا الحساب، بدل أن يضيف عليه. ثم بعد أن يكبر الولد، عليه أن يتحمل مسؤولية تعويض هذا النقص في الحساب. ثم تابعت والدة همينغواي لتشرح له طرقًا محدّدة ينبغي له أن يتّبعها ليتأكّد من أنّ ديونها جميعها مسدَّدة ولا سيّما مشترياتها من أزهار وفاكهة وحلويات. والأهم من ذلك هو التصميم على عدم إهماله واجباته تجاه الله ومخلّصه يسوع المسيح، علمًا أن همينغواي لم يغيّر شيئًا من كراهيته لأمّه أو مخلّصها.

أحيانًا تتألق النعمة بمظهر الرفعة والسمو والقداسة، حتى إنك تحسب أنّ هدير اللانعمة لن يستطيع أن يطالها.

ذات يوم، وضعت يدي في جيب سروال في أحد المتاجر الكبيرة، ووجدت عشرين دولارًا. لم يكن من سبيل للتكلّم إلى صاحب المتجر، فقصدت المدير الذي طلب إليّ أن أحتفظ بالمبلغ. وكانت تلك المرّة الأولى التي حصلت فيها على سروال (بقيمة ثلاثة عشر دولارًا) مع ربح مالي. وكلّما أرتدي السروال أعيش ذلك الاختبار الجميل، وأرويه إلى أصدقائي في كلّ مرّة يُثار فيه موضوع المشتريات الرخيصة.

وفي يوم آخر، تسلّقت جبلاً يعلو حوالى الأربعة عشر ألف قدم، وكانت تلك أول محاولة لي للتسلّق. وكانت اختبارًا قاسيًا ومتعبًا، فشعرت أنني أستحق تناول وجبة دسمة، كما بإمكاني أن أعفي نفسي من التمارين الرياضية لمدة أسبوع. وبينما كنت أقود سيارتي في طريق العودة إلى المدينة مررت ببحيرة بلورية عند سفوح جبال الألب، محاطة بأشجار الحور الزاهية، وقد ظهر من ورائها في الأفق قوس القزح بألوانه

المشرقة الساحرة. فانتحيت جانب الطريق وجلست فترة طويلة أتأمّل في صمت.

وفي إحدى رحلاتنا إلى روما، قصدنا أنا وزوجتي كاتدرائية القدّيس بطرس، في الصباح الباكر، بناءً على نصيحة أحد أصدقائي. وهذا ما قاله لي: «استقلّ الحافلة، قبل انبلاج الفجر، إلى الجسر المزيّن بتماثيل النحّات الإيطالي «برنيني»، وانتظر هناك حتى طلوع الفجر، ثم ادخل إلى كاتدرائية مار بطرس القريبة من المكان. ولن ترى سوى عددٍ قليلٍ من الرهبان والراهبات وبعض الحجّاج.» لقد أشرقت الشمس في ذلك الصباح في سماء صافية موشّحة بخطوط الشفق الأحمر تعكس أشعتها التي تلوّن تماثيل الملائكة باللون الذهبي. وتبعًا للإرشادات، اضطررنا إلى ترك ذلك المشهد الجميل والدخول إلى الكاتدرائية، وقد حلّ الصباح، وروما تستفيق من نومها. وكنا بالطبع السائحين الوحيدين؛ تتردّد أصداء وقع أقدامنا على الأرض الرخاميّة، في أرجاء ذلك الصرح الكبير. وقد تسنّى لنا أن نشاهد المذبح والبييتا (صورة العذراء وهي تنتحب فوق جثمان المسيح) والتماثيل المختلفة. ثم تسلّقنا سلّمًا خارجيّة تصل بنا إلى شرفة عند قاعدة قبة ضخمة صمّمها «مايكل أنجلو». رأيت خارجًا صفًّا من الناس يتجاوز عددهم المئتين. فقلت لزوجتي: «لعلّنا وصلنا في الوقت المناسب»، ظنًّا مني أنهم سيّاح. لكنهم كانوا جوقة من الحجّاج قادمين من ألمانيا. وقد اصطفّوا على شكل نصف دائرة وابتدأوا ينشدون الترانيم. وبينما ارتفعت أصواتهم تصدح في أفق القبة بتناغم كامل، تحوّلت تحفة مايكل أنجلو من تحفة فنيّة إلى معبد للموسيقى السماوية. وقد باتت هذه الموسيقى أشبه ببحر نسبح فيه أو حلم يحملنا إلى الأجواء العليا.

لا شكّ أنّ لهذا الحدث مفهومًا لاهوتيًّا، وهو أنّ المواهب المجانيّة

والمتعة التي نحصل عليها دون أن نتوقعها، تصل بنا إلى قمة السعادة. النعمة ترفعنا. أو كما يقول أحد التعليقات: «النعمة أمر يحدث.»

بالنسبة إلى الكثيرين، الحب الرومنسي هو التعبير الأسمى عن النعمة الصافية. أخيرًا، وجدتُ مَنْ يحسبني أكثر رجل على وجه الأرض جاذبيةً ووسامة وحُسن معشر. هنالك من يأرق في الليل يفكّر بي. هنالك من تسامحني دون أن أسأل، وتفكّر بي عندما ترتدي ثيابها، وتحبّني كما أنا وتكرّس حياتها من أجلي، لذلك أظنّ أنّ الكُتّاب المعاصرين مثل جون ابدايك ووكر برسي الذين يتمتعون بحسّ مسيحيّ، قد يختارون العلاقة الجنسية كتعبير عن النعمة في قصصهم. إنهم يتكلّمون اللغة التي تفهمها الحضارة المعاصرة: النعمة بوصفها حدثًا، وليست عقيدة.

ثم يصدر فيلم بعنوان (Forrest Gump)، عن طفل دون مستوى الذكاء المطلوب، يتكلّم كلامًا سخيفًا وهي مزيّة ورثها عن أمه. وهذا الغبي يساهم في إنقاذ زملائه في ڤيتنام، ويبقى وفيًا لامرأته جيني على الرغم من خيانتها له، كما يظلّ صادقًا مع نفسه ومع ولده، يعيش حياته وهو يجهل أنه محطّ سخرية الآخرين. مشهد سحري صغير يفتتح الفيلم ويسدل الستارة عليه – وهو كناية عن ريشة طائر، في إشارة خجولة إلى النعمة، والتي لا يعلم أحد أين تحطّ رحالها. ويمثّل فيلم (Forrest Gump) في زمانه ما مثّله كتاب (The Idiot) في زمن دوستويفسكي (Dostoevsky)، وقد تشابهت ردود الفعل إزاءها. كان بالنسبة إلى الكثيرين بدائيًّا وسخيفًا ومبتذلاً. أما البعض الآخر فرأى فيه تعبيرًا عن النعمة التي تحرّر من قساوة اللانعمة التي ظهرت في فيلمَي (Pulp Fiction) و (Natural Born Killers). وفي النتيجة فإنّ فيلم (Forrest Gump) تصدّر المرتبة الأولى في زمانه. العالم في حاجة ماسة إلى النعمة.

كتب بيتر غريف مذكراته عن صراعه مع البرص، المرض الذي أصابه إبّان إقامته في الهند. فقد عاد إلى إنكلترا نصف أعمى ونصف أشلّ، ليعيش في مجمّع للراهبات الأنغليكان. وبسبب عجزه عن العمل ورفض المجتمع له، عاش حياة المرارة والأسى، حتى إنه فكّر في الانتحار. وطالما خطّط ليهرب من المجمّع، إلاّ أنه كان يتراجع لأنه لا يملك مكانًا آخر يلجأ إليه. وذات صباح، وعلى غير عادة، نهض باكرًا جدًا وطفق يجول في أرجاء المجمّع. وسمع غمغمة ناحية الكنيسة، توجّه إلى هناك حيث رأى الراهبات يصلّين من أجل المرضى الذين كُتبت أسماؤهم على جدران الكنيسة، ووجد اسمه مدرجًا بين تلك الأسماء. هذا الاختبار غيّر مجرى حياته، فشعر أنه إنسان له قيمته وهو محاط ببحر من النعمة.

إنّ ممارسات الإيمان – على الرغم من كثرة سلبياتها وإمكانية تحوّلها إلى أعمال تفتقر إلى النعمة – لا تزال قائمة لأننا نتلمّس فيها روعة نعمة لا نستحقها، تأتي إلينا في وقت لا نتوقع فيه الحصول على شيء. ولأننا نرفض أن نقتنع بأنّ الشعور بالذنب والخجل من نفوسنا يدمّر حياتنا، فإننا نحاول باستمرار الهرب من الواقع والانضواء تحت لواء أنظمة جديدة. فنعيش في توق دائم إلى المحبة، ونسعى جاهدين لكي نكسب محبة خالقنا. أنا لم أتعرف بالنعمة من خلال كلمات الإيمان أو ممارساته. فقد ترعرعت في كنيسة استخدمت لغة الإيمان مجرّدة من فحواها. فالنعمة، كسائر المصطلحات الروحية، تجرّدت من معناها الحقيقي حتى بتّ لا أثق بها.

فأول اختبار لي مع النعمة أتى من طريق الموسيقى. عندما كنت في كلية اللاهوت، كنت منحرفًا في نظر الكثيرين. فكانوا يصلّون من أجلي علنًا، ويحاولون مساعدتي على التخلّص من الأرواح التي كانت تمتلكني

بحسب زعمهم. وقد لازمني شعور بالانزعاج والقلق والاضطراب. وإذ كانوا يقفلون أبواب مبنى سكن الطلبة في الليل، (إنما من حسن حظي أنني كنت أعيش في الطابق السفلي) كنت أخرج من غرفتي عبر النافذة متوجهًا إلى قاعة العبادة، حيث كان البيانو الخشبي الضخم. فكنت أقضي في قاعة العبادة المظلمة حوالى الساعة في كل ليلة، أسلّط ضوءًا خافتًا يمكّنني من قراءة كتاب الموسيقى، فأعزف مقطوعات لبيتهوفن وشوبان وشوبيرت. وكأنّ أصابعي كانت تصدر الأوامر إلى العالم. لقد كانت أفكاري مشوّشة وجسدي مضطربًا والعالم من حولي قلقًا – لكنني في تلك اللحظات كنت أتلمّس عالمًا من الجمال والنعمة يزهو كالسحاب ويتألّق كأجنحة الفراشة.

وهذا ما اختبرته في عالم الطبيعة. فكلما أردت الهرب من زحمة الناس والأفكار الكثيرة، قصدت غابة الصنوبر، أتمشى في ظلّ أشجارها الباسقة. وأسلك طريق الفراشات المتعرّج على حافة النهر، وأراقب أسراب الطيور التي تحلّق في السماء. وكنت أفتّش بين الأغصان عن الخنافس الملوّنة. ولطالما أحببت الطبيعة السخيّة التي تجد فيها مكانًا لكل الكائنات الحية. ولعلّها الشاهد الأكبر على أنّ العالم مكان جليل وعظيم، مليء بالصلاح، ولا يخلو من النشوة والسعادة.

في ذلك الوقت، وقعت في الحبّ. فأحسست وكأنني شلّال متيّم بالحب، لا تسعه الدنيا. لم أكن أؤمن بالحب الرومنسي في ذلك الوقت، وظننته من صنع البشر، وابتكار شعراء القرن الرابع عشر الإيطاليين. لم أكن مهيّأ للحب أو الصلاح أو الجمال. وفجأة شعرت بأنّ قلبي أضحى كبيرًا لا يسعه صدري. لقد اختبرت «النعمة العامة» كما يسمّيها اللاهوتيون. إنه لأمر رهيب أن تكون ممتنًّا ولا تجد أحدًا تشكره، وأن تشعر بالرهبة ولا تجد أحدًا تعبده. وشيئًا فشيئًا عدت بالذاكرة إلى مخزون إيماني في

أيام طفولتي. لقد اختبرت يومها «النعمة الصبيانية» كما يسميها سي. إس. لويس. وهي أشبه «بأريج وردة لم تمتلكها، وصدى لحن لم تسمعه، وأخبار بلاد لم تتسنَّ لك زيارتها.»

النعمة موجودة في كل مكان، كالعدسات التي لا تراها لأنك تنظر من خلالها. إنما أعطاني الله عيونًا لأرى النعمة من حولي. أصبحت كاتبًا، وأشعر بالثقة واليقينية لأعاود إصلاح الكلمات التي أفسد معناها كتّاب خلت حياتهم من النعمة. في بداية عملي لحساب مجلة مسيحية، عملت لدى مدير حكيم ودمث الأخلاق يدعى هارولد ميرا، الذي أفسح لي في المجال كي أعبّر عن إيماني بكل حرية ودون تصنّع.

وقد اشتركت في كتاباتي الأولى مع د. پول براند، الذي قضى معظم حياته في منطقة حارّة وقاحلة في جنوب الهند، يخدم المصابين بمرض البرص، والذين في معظمهم من أفراد الطبقة الدنيا في الهند. وفي تلك المنطقة عاش براند حياة النعمة الإلهية ونقلها إلى الآخرين. وقد تعلّمت النعمة المعاشة من أناس أمثال براند.

وفي سيرة النمو في النعمة هذه، اكتشفت أنّ مفهومي لشخصية الله كان ناقصًا. فتعرّفت بحقيقة الله من خلال ما كتبه صاحب المزامير: «أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَإِلهٌ رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَالْحَقِّ» (المزمور ٨٦: ١٥).

النعمة هبة مجانية يحصل عليها أناس لا يستحقونها، وأنا واحد من هؤلاء. أعود بالذاكرة إلى ما كنت عليه، فأجد أنّي كنت إنسانًا مملوءًا بالنقمة والغضب والقسوة وما إلى هنالك من سلسلة مزايا اللانعمة التي تعلّمتها في العائلة والكنيسة. وأحاول الآن بطريقتي الخاصة المتواضعة أن

أعزف لحن النعمة. وأنا أفعل ذلك لأنني على يقين تام من أنّ كل شفاء أو غفران أو صلاح حصلت عليه يأتي حصرًا من فيض النعمة الإلهية. أتوق إلى كنيسة تهيّء جوًّا تترعرع فيه تلك النعمة.

الضالُّ فقط... تعاوده ذكريات

بيت الآب. فلو كان الابن قد عاش

حياة الاقتصاد في النفقة، لما فكّر

قطُّ في العودة.

سايمون وايل



الفصل الرابع



أب مريض حبًّا

إبّان مؤتمر أُقيم في بريطانيا عن مقارنة الأديان، دار نقاشٌ بين أوساط ذوي الاختصاص الذين قدِموا من حول العالم، إن كان هنالك من معتقد يتفرّد به الإيمان المسيحي. وقد تناولوا موضوعًا بعد الآخر. ففي شأن التجسّد مثلاً، تدّعي بعض الأديان ظهور الآلهة في شكل بشر. كذلك، في شأن القيامة، تسجّل بعض الأديان حوادث عن قيامات من الأموات. وهكذا استمر النقاش إلى أن دخل سي. إس. لويس الغرفة وسأل: «ماذا يجري؟» فكان الجواب، إنّ زملاءه كانوا يتناقشون حول ما إذا كان ثمّة في المسيحيّة موضوع تتفرّد به عن سائر الأديان. فأجاب لويس: «الأمر في غاية البساطة، إنها النعمة.» وبعد نقاش قصير، أجمع المؤتمرون على ذلك. فكأنّ فكرة محبة الله المجانية وغير المشروطة تستطيع أن تدحض كل الأفكار والمعتقدات البشرية. فمجمل الديانات تعتمد وسائل مختلفة في سبيل إرضاء الله. وحدها المسيحية تنادي بمحبة الله غير المشروطة.

ولأنّ الإنسان بطبيعته يقاوم فكرة النعمة، لذلك، تكلّم المسيح كثيرًا عن هذا الموضوع. فقد تكلّم عن عالم تغمره نعمة الله: حيث يشرق شمسه على الصالحين والطالحين؛ وحيث تجمع الطيور طعامها دون أن تزرع أو تحصد؛ وحيث تزهر زنابق الحقل بين صخور الجبال. لقد رأى يسوع النعمة في كل مكان، فكان أشبه بزائر غريب قصد مدينة واستطاع أن يكتشف فيها ما غفل سكان تلك المدينة عن اكتشافه. ومع ذلك فإنه لم يعد إلى تعريف النعمة وتحليلها، حتى إنه لم يسمّها بالاسم. لكنه أظهر النعمة من خلال الأمثال التي تفوّه بها – والتي سأنطلق منها لأعرض قصصًا معاصرة.

يعيش أحد المشرّدين قرب متجر كبير للسمك يقع في شارع فُلتون شرق منهاتِن في مدينة نيويورك. كانت روائح بقايا الأسماك تزعجه كثيرًا، وكذلك هدير الشاحنات الكبيرة التي تقصد المكان في الصباح الباكر. وحين يشتد الزحام في وسط المدينة، يتمادى رجال الشرطة في مضايقته. أمّا إذا قعد بين الأكواخ الخشبية، فلن يجد من يحمل نفسه على الاستماع إلى متشرد منزوٍ، متمدِّد على رصيف المرفأ خلف مستوعب النفايات.

ذات صباح، وبينما كان العمال منهمكين بتفريغ حمولة الشاحنات من السمك، وهم يصرخون واحدهم للآخر باللغة الإيطالية، انسلّ من وراء مستوعب النفايات الذي يقع خلف مطاعم السيّاح. ولأول وهلة بدا له أنّ الغنائم كثيرة: بقايا الخبز المحشو بالثوم، والبطاطا المقلية والبيتزا وبعض الحلوى. ملأ جوفه، ووضع الباقي في كيس من الورق. أمّا القناني والعلب الفارغة، فكان يحتفظ بها في أكياس من النايلون في عربة قديمة.

أشعة الشمس تخترق الضباب لتسطع على الأبنية المحاذية للرصيف. ويقع نظره على أوراق «يانصيب» تعود إلى الأسبوع الفائت مرمية فوق

كومة من الخسّ المهترئ. لم يكترث لها في بادئ الأمر، لكنّ عادة السرقة غلبت عليه، فالتقطها ووضعها في جيبه. لقد اعتاد من قبل، عندما كان في حال أفضل، أن يشتري ورقة واحدة في كل أسبوع. وها هو اليوم يحمل هذه الأوراق ويُهرَع إلى مركز نشر الأرقام ليقابل أرقامه، فإذا بالأرقام السبعة تأتي مطابقة لأرقامه! هل من الممكن أن يكون ذلك صحيحًا! لم يعتد يومًا على حصول أمر كهذا. فالمتسكّعون لا يربحون اليانصيب في نيويورك.

لكنّ ما حصل كان صحيحًا. وها هو يسير تحت الأضواء، وعدسات المصوّرين تلتقط الصور، والإعلاميون يقدّمون ذلك المتسكّع بثيابه الرثّة، والذي سيحصل سنويًا، ولمدة عشرين عامًا، على مبلغ ٢٤٣،٠٠٠ دولار. وتتجه نحوه سيدة أنيقة، ترتدي تنورة جلدية قصيرة تحمل المذياع وتبادره السؤال: «ما هو شعورك في هذه اللحظات؟» فيقف حائرًا مبهورًا وقد سحره أريج العطور المنبعث منها. مرّ زمن طويل وطويل جدًا لم يطرح عليه أحد مثل هذا السؤال.

هو الآن يشعر بأنه ذلك الرجل الذي اختبر مرارة الجوع، ولن يعود البتّة إلى مرارة ذلك الاختبار.

قرّر مقاول في لوس أنجلوس الاستفادة من الرخاء الاقتصادي والقيام بمغامرة تجارية. لكن، ليس جميع الأميركيين الذين يسافرون عبر البحار، ينزلون في فنادق مثل «هوليداي إنْ»، أو يأكلون في مطاعم مثل «ماكدونالدز»، فالبعض يفضّل سلوك طريق مختلف. راودت هذا المقاول فكرة استطلاع عجائب الدنيا السبع، لكنه يفاجأ حين يجد أنّ معظم عجائب الدنيا السبع القديمة تلك، يكاد لا يظهر منها أثر يذكر. بَيْد أنّ محاولات تُبذَل الآن لإحياء صورة الجنائن المعلّقة في بابل. وبعد جهد مضنٍ في سبيل

جمع المعلومات، حجز مقاولنا هذا طائرة خاصة وحافلة، وغرفة في فندق، وتعرّف بدليل يَعِد بأن يجعل السيّاح يعملون جنبًا إلى جنب مع علماء الآثار المحترفين، وهو النوع المحبب من المغامرات التي يتمنّاها السيّاح. كما طلب سلسلة من الإعلانات التلفزيونية ذات الأسعار المرتفعة، وحرص على وضع جدول بثّها أثناء مباراة «الغولف»، حين يكون معظم المشاهدين من السيّاح الأثرياء.

ولتحقيق حلمه هذا دبّر المقاول قرضًا من رأسماليٍّ مغامر بقيمة مليون دولار، وفي حسابه أنه بعد الرحلة الرابعة يكون قد غطّى التكاليف وبدأ بتسديد القرض.

أمرٌ واحد لم يكن في الحسبان؛ فقبل أسبوعين من الرحلة التي كان سيُقيم فيها حفل تدشين مشروعه، غزا صدام حسين الكويت، وألغت الدولة كل الرحلات إلى العراق وهو المكان الذي تقوم على جزء من أرضه الجنائن المعلَّقة.

ظلّ ثلاثة أسابيع في عذابٍ شديد يفكّر في كيفية إعلام مموّله بالخبر. قصد مصارف عدة دون جدوى. حاول أن يرهن منزله لكن كلّ ما استطاع أن يحقّقه كان قرضًا بقيمة مئتي ألف دولار وهو يعادل خُمس ما يحتاجه. أخيرًا توصَّل إلى وضع خطةً تلزمه دفع مبلغ خمسة آلاف دولار شهريًّا مدى الحياة لإرجاع الدين. وفيما كان ينظّم عقدًا بذلك، وجد أن الأمر في منتهى الحماقة. فمبلغ خمسة آلاف دولار شهريًّا لا يكفي لتسديد فوائد المليون دولار. ثمّ من أين سيأتي بمبلغ الخمسة آلاف دولار شهريًّا؟ وإن هو أعلن إفلاسه سوف يدمّر سجل حسابه المصرفي. فجأة يقرر الذهاب إلى مكتب مموّله، ولدى دخوله بدأ بعصبية ظاهرة يقدّم اعتذاره، ثم سحب من بين

أوراقه مسوّدة عقود الدفع المثيرة للتهكّم. كان العرق يتصبّب منه على الرغم من وجوده في مكتب مكيّف.

رفع الدائن يده وقاطعه قائلاً: «ما هذا الكلام السخيف الذي تتفوّه به: إرجاع الدين؟» قال ذلك ضاحكًا. ثم أضاف: «لا تكن سخيفًا، فأنا أيضًا مغامر، أربح حينًا وأخسر أحيانًا. وقد عرفت أنّ مشروعك كان ينطوي على بعض المغامرة، لكنها كانت فكرة جيدة، أضف أنّ نشوب الحرب لم يكن من اختراعك، إنسَ الأمر وحسب.» وقد أخذ الدائن مسودة عقود الدفع ومزّقها ثم رماها في سلة المهملات.

تحدّث يسوع كثيرًا عن النعمة، إلاّ أنّ واحدة من هذه القصص عن النعمة دُوّنت في ثلاثة أناجيل، مع فارق بسيط بين كل نسخة. أما نسختي المفضلة فقد ظهرت في مكان مختلف تمامًا: تقرير من جريدة (Boston Globe) في حزيران ١٩٩٠ عن وليمة عرس شديدة الغرابة.

فقد خرجت سيدة في صحبة خطيبها متوجهة إلى فندق (Hyatt) وسط مدينة بوسطن، وطلبت لائحة الطعام. وما إن قُدمت لهما حتى انكبّا عليها، وقد اختارا أنواعًا مختلفة من الأطعمة الصينية والأشربة، ثم وضعا إشارة حول رسوم الزهور التي يحبونها كي يصار إلى جمعها في باقات جميلة. فكلاهما كانا يتمتعان بحسّ جمالي رفيع، لذا جاءت الفاتورة بثلاثة عشر ألف دولار. تركا لإدارة الفندق شيكاً بنصف المبلغ كدفعة أولى، وعادا إلى البيت، وراحا كلاهما يفتشان في كتب الأعراس عن أجمل نصٍّ ينمّقان به بطاقات الدعوة.

وفي ذات اليوم الذي يفترض أن تُرْسَل بطاقات الدعوة إلى أصحابها، قال العريس العتيد، يتملّكه التردّد والفزع: «لستُ واثقًا من قدرتي على كل ذلك، إنه التزام كبير. دعينا نأخذ وقتًا أطول في التفكير في هذا الأمر.»

وحين عادت العروس الغاضبة إلى فندق (Hyatt) لإلغاء الوليمة، كانت مديرة المراسم في الفندق كثيرة التفهّم، وقد بادرتها القول: «يا عزيزتي! إنّ هذا بالذات ما حدث لي أنا أيضًا»، ثم راحت تسرد لها قصة تعثّر حفل زفافها. أمّا بخصوص استرجاع مالها، فالخبر لم يكن سارًا. فقد أخبرتها مديرة المراسم بأنّ العقد ملزم لها، ولن تتمكن من استرجاع سوى ١٣٠٠ دولار. وتابعت تقول: «أمامك خياران: فإما خسارة باقي المبلغ، أو المضيّ قدمًا في مشروع الوليمة. أنا آسفة، أنا حقًا آسفة.»

للوهلة الأولى بدا الأمر للعروس الذاهلة وكأنّ مجرد التفكير في الوليمة هو جنون، لكن شيئًا فشيئًا بدأت فكرة إحياء الحفلة تروق لها – ليس وليمة العرس طبعًا – بل عشاء عظيم. فمنذ عشر سنوات خلت، كانت هذه المرأة ذاتها تعيش في ملجأ للمشردين. لكنها عادت ووقفت على قدميها. فقد حصلت على وظيفة مرموقة، واستطاعت أن تدّخر رصيدًا لا بأس به. وها هي الآن تقرر بعزيمة صلبة أن تستضيف مشرّدي بوسطن ومنبوذيها في عشاء فاخر في أحد الفنادق الفخمة في المدينة.

وهكذا، فقد استضاف فندق (Hyatt) وسط مدينة بوسطن، في حزيران ١٩٩٠، حفلة ساهرة لم يسبق لها مثيل. وقد غيَّرت صاحبة الدعوة قائمة الطعام فجعلتها من الدجاج المسحوب العظام – «وعلى شرف العريس»، كما قالت – وأرسلت الدعوات إلى جميع مشردي المدينة. في تلك الليلة الدافئة من ليالِ الصيف، كان المشرّدون ينعمون بأكل الدجاج اللذيذ بدل

قضم بقايا البيتزا اليابسة والعفنة. وها هم نُدُل فندق (Hyatt) في زيّهم الموحّد يقومون بخدمة أناس من البؤساء يَفِدون إلى الوليمة بعضهم يستند إلى عكّازات، وبعضهم الآخر يحمل أكياسًا من البلاستيك وآخرون جوّالون أو مدمنون، وقد أسقطوا من قاموس الأيام الجُهم ليلةً نعموا فيها بعشاء فاخر، وجرعات من الشمپانيا أو النبيذ إضافة إلى قطع الحلوى من قالب العرس، كما رقصوا حتى طلوع الفجر.

فتاة شابّة كانت تعيش مع ذويها في بستان من الكرز في مدينة تراڤيرس في ولاية ميشيغان. كان والداها يضيّقان عليها بسبب عقليتهما المحافظة، فينتقدانها بسبب خزامة في أنفها، أو بسبب الموسيقى العالية أو لقصر فساتينها. كانا يؤنّبانها باستمرار فكانت تغلق على نفسها في غرفتها. «أكرهكم» هكذا كانت تصرخ كلما قرع والداها باب غرفتها بعد كلّ مشادة كلامية. ذات ليلة وضعت خطة كانت تجول في رأسها باستمرار. فقد لاذت بالفرار.

لم تكن فيما مضى قد زارت مدينة ديترويت سوى مرة واحدة، وذلك في حافلة، ضمّت العديد من شبيبة الكنيسة لمشاهدة مباراة لفريق النمور الرياضي. وبما أنّ الجرائد في مدينتها تراڤيرس سيتي تكتب بكثير من الإسهاب عن العصابات والمخدرات والعنف، في ديترويت، جزمت بأنّ هذه المدينة هي آخر مكان قد يبحث فيه والداها عنها. ربما يبحثان عنها في كاليفورنيا أو فلوريدا لكن ليس في ديترويت.

في يومها الثاني هناك قابلت رجلاً يقود أكبر سيارة شاهدتها في حياتها. أخذها في نزهة قصيرة، واشترى لها طعام الغداء ثم جهّز لها مكانًا للإقامة فيه. أعطاها بعض الأقراص التي جعلتها تعيش حالة من الراحة والنشوة لم

تعرفها من قبل. «إنه لوضع مريح»، قالت في نفسها، فوالداها قد حرماها من كل هذه السعادة.

استمرت الحياة الهنيئة شهرًا، شهرين، سنة. كان الرجل ذو السيارة الكبيرة – كانت تناديه، «المدير» – يُعلِّمها بعض الأمور التي يحبّها الرجال. وبما أنها كانت قاصرًا، فقد دفع لها الناس مالاً إضافيًا. أقامت في شقة فخمة وكانت تطلب خدمة الغرف كلما أرادت ذلك. بين الحين والآخر كانت تعاودها ذكريات أهل بيتها، إلا أنّ حياتهم بدت لها الآن مملّة ومضجرة لدرجة أنها تكاد لا تصدق أنها ترعرت هناك.

يعتريها الهلع فترة وجيزة عندما ترى صورتها ملصقة على كرتونة علب الحليب وتحتها هذه العبارة: «هل رأيتم هذه الطفلة؟» بيد أنها الآن بشعرها الأشقر ومساحيق الوجه، والحلي التي تضعها في أماكن عدة من جسدها، لن يفطن أحد إلى أنها هي بالذات المقصودة بالطفلة الضائعة. إلى ذلك، فإنّ معظم رفاقها هم من الهاربين ولن يشيَ أحد بالآخر.

بعد مضي سنة بدت على وجهها ملامح المرض الأولى، وقد أدهشها كيف أنّ المدير سرعان ما أصبح خسيسًا. «لا نحتمل المزاح في هذه الأيام»، قالها بنبرة حادة، وقبل أن تأخذ كلماته طريقها إلى أذنها كانت مرميّة في الشارع دونما فلس واحد في جيبها. لكنها ما زالت قادرة على تدبّر أمرها، إلا أنهم لا يدفعون الكثير، وما تحصّله من مال بالجهد يكفي لتلبية إدمانها. وعند قدوم فصل الشتاء العاصف كانت تنام على بضعة ألواح من الحديد خارج المحال التجارية الضخمة. إنّ كلمة «تنام» لا تعبّر عن الحقيقة – إذ كيف يمكن لفتاة وحيدة، وفي سن المراهقة أن تطمئن وتنام في مدينة مثل ديترويت. حلقات سوداء تحيط بعينيها وسعالها يزداد سوءًا.

في إحدى الليالي، وبينما كانت يقظة تصغي إلى وقع الخطى، فجأة بدا كل شيء في حياتها مختلفًا. لم تعد تشعر وكأنها امرأة في هذا العالم. شعرت وكأنها طفلة صغيرة، ضائعة في مدينة باردة ومخيفة. أجهشت بالبكاء. جيوبها فارغة، وقد عضّها الجوع. كانت في حاجة إلى ترتيب أوضاعها. سحبت ساقيها وطوتهما تحتها، وكانت ترتجف تحت كومة من الجرائد المرتفعة فوق معطفها. شيء ما في داخلها يحرّك في لحظة مكمن الذكريات، فتغمر فكرها صورة واحدة: إنه الربيع في ترافيرس سيتي، حيث تتفتح دفعة واحدة مليون شجرة كرز، وكلبها الذهبي الذي يعدو بين الأشجار المصطفة مطاردًا كرة «التّنِس».

يا إلهي، لماذا تركتُ المنزل؟ تساءلت والحزن يخترق قلبها. إنّ كلبي هناك في المنزل يأكل أفضل مما آكل الآن. بكت بمرارة تلك اللحظة. إنّ شوقها إلى الرجوع إلى المنزل الأبوي لم يكن ليضاهيه شيء في الوجود. ثلاث مكالمات هاتفية، ثلاث اتصالات متتالية ولم يجبها أحد سوى آلة التسجيل. لم تترك رسالة، لا في المرة الأولى ولا في المرة الثانية، لكنها في المرة الثالثة قالت: «بابا، ماما، هذه أنا. كنت أتساءل إن كان بإمكاني الرجوع إلى البيت. سأستقل حافلة، وسأكون عندكم غدًا حوالى منتصف الليل. إن لم تكونوا بانتظاري في المحطّة، أفترض أنني سأبقى في الحافلة إلى أن تصل إلى كندا.»

تحتاج الحافلة إلى سبع ساعات وهي تعبر جميع المحطات بين ديترويت وترافيرس سيتي. في هذه الأثناء تدرك فتاتنا تداعيات خطتها. فماذا إذا كان والداها خارج المدينة ولم تصلهما رسالتها؟ ألم يكن من المفترض بها أن تنتظر يومًا إضافيًّا حتى تتمكن من التحدث معهما؟ وحتى لو وُجدوا في

البيت، فقد يكونان حسباها في عداد الأموات منذ زمن طويل. كان ينبغي لها أن تعطيهما بعض الوقت كي يتغلّبا على الصدمة.

كانت أفكارها تتأرجح بين تلك الهواجس، وبين ما تحضّر من كلام لأبيها. «أبي أنا آسفة. أنا أعلم أنني كنت على خطأ. ليس الذنب ذنبك؛ إنه ذنبي أنا. أبي هل تستطيع أن تسامحني؟» كانت تعيد الكلمات مرارًا وتكرارًا، وقد تصلّبت حنجرتها. فهي لم تعتذر لأحد منذ زمن بعيد.

كانت الحافلة تسير وأضواؤها تشع من بعيد. حبّات الثلج كانت تتطاير تحت آلاف العجلات لتستقر على الرصيف، بينما البخار يتصاعد من الزفت. وقد نسيت كم يصبح الظلام شديدًا هنا في الليالي. فجأة يقطع أحد الغزلان الطريق فينحرف السائق متجنبًا الاصطدام به. تطالعنا بين الحين والآخر لائحة إعلانات، أو لافتة بالأميال، المسافة المتبقية إلى ترافيرس سيتي. يا إلهي!

حين وصلت الحافلة أخيرًا إلى المحطة، قال السائق بنبرة حادة عبر مكبّر الصوت: «سنتوقف هنا خمس عشرة دقيقة لا غير.» إذًا، أمامها خمس عشرة دقيقة لتقرر مصير حياتها. راحت تُصلح من مظهر وجهها وهي تنظر في مرآة صغيرة، ثم تمسّد شعرها وتمتصّ أحمر الشفاه عن أسنانها. كانت تنظر إلى أصابعها الصفراء من كثرة تعاطي التدخين وتتساءل إن كان والداها سيلاحظان ذلك، هذا في حال كانا هناك.

سارت في اتجاه مخرج المحطة غير عالمة ماذا تتوقّع. فليس ثمة مشهد واحد من آلاف المشاهد التي كانت ترتسم في ذهنها أثناء الرحلة، يساعدها الآن على استيعاب ما ترى. فقد بدا أمامها في محطة ترافيرس سيتي بولاية ميشيغان أربعون أخًا وأختًا، وعدد كبير من الأقارب والأصحاب،

متجمهرين، وقد وضعوا على رؤوسهم قبعات كبيرة الأطراف، وراحوا يطلقون الهتافات مصحوبة بأصوات آلات النفخ والطبول، وقد زينوا جدار المحطة بلافتة كبيرة كتب عليها: «أهلاً بعودتك إلى البيت!» وإذا بوالدها يخرج من وسط هذا الجمهور الحاشد. التفتت إليه بعينين مغرورقتين بالدموع الغزيرة وبدأت تتفوه بالكلمات التي كانت تستذكرها: «أبي، أنا آسفة. أنا أعلم...» قاطعها قائلاً: «كفى يا طفلتي. ليس لدينا وقت لذلك. لا وقت للاعتذارات. سوف تتأخرين عن الحفلة، فثمة وليمة تنتظرك في المنزل.»

نحن كبشر تعوّدنا وجود قطبة مخفية في كل وعد، أما قصص يسوع عن النعمة الفيّاضة فليس فيها قطب مخفيّة أو استثناءات تجعلنا غير مؤهّلين لاختبار محبة الله. فكل وعد له في جوهره نهاية صالحة قد لا تصدّق، ولا يمكن إلاّ أن تكون صادقة. كم تختلف القصص التي جمعتها في طفولتي عن الله: صحيح أنه إله يسامح، لكنه بطيء، ولا يفعل ذلك إلا بعد أن يجعل التائب يتلوّى من الندم. كنت أتخيّل الله كائنًا بعيدًا مرعبًا يفضّل الخوف والاحترام على المحبة. بينما نجد يسوع بالمقابل، يخبرنا عن والد يحطّ من مقامه علنًا، إذ يخرج مسرعًا ليحتضن ابنًا كان قد بدّد نصف ثروة العائلة. لم يلقِ الأب محاضرة صارمة من مثل: «أتمنّى أن تكون قد تعلّمت الدرس!» على العكس، فإننا نجد يسوع بالمقابل، يخبرنا عن تشجيع الأب بقوله: «ابْنِي هذَا كَانَ مَيِّتًا فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالاً فَوُجِدَ»، وقد أضاف إلى ذلك العبارة المفصليّة «فَابْتَدَأُوا يَفْرَحُونَ.»

ليس الله من يعيق المغفرة – «وَإِذْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بَعِيدًا رَآهُ أَبُوهُ، فَتَحَنَّنَ وَرَكَضَ» – بل نحن. فذراعا الله مفتوحتان باستمرار؛ أما نحن فنستدير ونهرب.

تأمّلت طويلاً في قصص يسوع عن النعمة محاولاً الوقوف على معانيها العميقة. إلاّ أنني في كل مرة كنت أكتشف أنّ حجابًا كثيفًا يحول دون ذلك. فربّة المنزل التي كنَّست البيت وفتَّشت باجتهاد عن درهمها المفقود حتى وجدته، ليست في الواقع الصورة الطبيعية التي أرسمها في ذهني عندما أفكر في الله. بيد أنها هي بالذات الصورة التي أصرّ عليها يسوع.

إنّ قصة الابن الضال تأتي كما هو واضح في سياق ثلاث قصص تكلّم بها يسوع – الخروف الضائع، والدرهم المفقود، والابن الضال – وهي جميعًا تطرق الفكرة عينها. فكل قصة تصوِّر مرارة صاحبها لسبب الخسارة التي أصابته، ثم غبطته لحظة يجد ما فقده، وأخيرًا فرحه واحتفاله. كأنّ يسوع يريد أن يقول: «هل تريد أن تعرف كيف يشعر الله؟ كلّ إنسان يصغي إليّ، يُشعرني بأنني قد استرجعت أغلى ما أملك، أغلى ما كنت قد فقدته.» إنه بالنسبة إلى الله نفسه، شعور بأنه استرجع أغلى ما في الدنيا.

مما يدعو إلى الغرابة أنّ استرجاع الشيء بعد فقدانه يلامس في الوجدان شعورًا أعمق من ذاك الذي يحدث أول ما نحصل عليه. أن تفقد قلم حبر ثمينًا مثلاً، ثم تجده، يجعلك أكثر سعادة من يوم حصولك عليه أول مرة. حدث في يوم ما قبل الحاسوب (الكومبيوتر) أنني أضعت أربعة فصول من كتاب كنت أكتبه عندما كنتُ نزيل أحد الفنادق، ولم أكن أملك سوى نسخة واحدة. وقد أصرّ الفندق على أنّ فرق التنظيف قد رمت تلك الأوراق في مكب النفايات. لم أجد ما يعزيني. وكيف لي أن أستجمع طاقتي وأبدأ من جديد، وكنت لشهور عدة منكبًّا على تلميع وتحسين تلك الفصول الأربعة؟ لن أجد مطلقًا تلك الكلمات عينها التي كتبتها. وفي أحد الأيام اتصلت بي امرأة من عمّال الفندق تعرف القليل من الإنكليزية، وقالت لي إنها لم تتلف الأوراق. صدقوني، فقد انتابني شعور

من الفرح أعظم بكثير من ذاك الذي أحسسته يوم كنت منكبًّا على كتابة تلك الفصول.

هذا الاختبار يذيقني شيئًا قليلاً من لذة الشعور الغامرة التي قد تتملّك الوالدين اللذين يتلقيان مكالمة هاتفية من الشرطة الفدرالية تخبرهما بأنّ ابنتهما التي اختطفت منذ ستة أشهر قد وُجدت أخيرًا وهي على قيد الحياة. أو زوجة يزورها مسؤول رفيع من الجيش، ويقدم لهاْ اعتذارًا عن الأخبار المُشوِّشة وغير الدقيقة؛ فزوجها لم يكن على متن الطوافة التي تحطّمت. هذه الصور تعطينا لمحة سريعة وواضحة عما يمكن أن يشعره صانع هذا الكون حين يسترجع فردًا من أفراد عائلته. فكلمات يسوع تقول: «هكَذَا، أَقُولُ لَكُمْ: يَكُونُ فَرَحٌ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ اللهِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ.»

النعمة هي مسألة شخصيّة فعلاً. وكما قال هنري نُوِين: «الله يفرح؛ ليس لأنَّ مشاكل العالم قد حُلَّت، ولا لأنّ كلَّ آلام البشرية ومعاناتها قد انتهت، ولا لأنّ آلاف الناس قد تجدّدوا، وهم الآن يسبّحون الله لأجل صلاحه؛ بل يفرح لأنّ واحدًا من أولاده كان ضالاًّ فوُجِد.»

إن رحتُ أُسلّط الضوء على النواحي الأخلاقية لكل واحد من شخصيات القصص التي سبق أن دونتها – المتسكّع في شارع فلتون، ورجلُ الأعمال الذي خسر المليون دولار، وجمهور المتشردين الذين دُعوا إلى وليمة فندق بوسطن، وبائعة الهوى التي من ترافيرس سيتي – سوف أخرج برسالة غريبة حقًّا. فمن الواضح أنّ يسوع لم يتكلّم بأمثال كي يعلّمنا كيف نعيش. تكلّم بأمثال، حسب ظني، ليصحّح مفهومنا عن ماهية الله، وعن الذين يحبّهم.

ثمة لوحة زيتية للفنان باولو ڤيرونيس معلّقة على جدار أكاديمية الفنون

الجميلة في مدينة البندقية، وقد سبّبت تلك اللوحة متاعب لصاحبها مع هيئة محاكم التفتيش الكنسيّة حينذاك. تُظهر اللوحة يسوع مع تلاميذه في وليمة، ومعهم في جانب من اللوحة جنود من الرومان يلعبون، وفي جانب آخر رجل تسيل من أنفه الدماء، كلاب تركض هنا وهناك، بعض السكّيرين وبعض الرجال الأقزام جدًّا، وغير ذلك. ولدى مثوله أمام محاكم التفتيش ليقدّم تفسيرًا عن هذا الافتراض، دافع ڤيرونيس عن زيتيّته مبيّنًا من الأناجيل أنّ هؤلاء هم بالذات الجماعة الذين كان يسوع يخالطهم. وإذ شعرت محاكم التفتيش بالصدمة والانزعاج الشديد جعلته يُغيِّر عنوان لوحته فيجعله بالتالي علمانيًا بدل أن يكون دينيًّا.

إنّ محاكم التفتيش، في تصرفها ذاك، أعادت إلى الأذهان صورة الفريسيّين زمن تجسّد يسوع. فهم كذلك، كانوا يستحون بالعشّارين والغرباء والنغول والنساء ذوات السمعة السيئة اللواتي كنّ يسرن مع يسوع. ولم يستطيعوا، هم أيضًا، أن يستسيغوا فكرة أنّ الله يحب مثل هؤلاء الناس. ففي حين كان يسوع يستأسر الجماهير بأمثاله عن النعمة، كان الفريسيون يقفون في طرف الجماهير الآخر، يتذمّرون ويُصِرّون بأسنانهم. وقد تعمّد يسوع في قصّة الابن الضال، وبشكل تحريضي، استحضار الأخ الأكبر إلى المشهد، بصورته الغاضبة ضد أبيه الذي كافأ سلوكًا غير مسؤول. ما هي «القيم العائلية» التي يريد أبوه أن يوصِلَها، بإقامة حفلة كبيرة لهذا المرتد؟ وما هي الفضائل المرتجاة منها؟[١]

١ إنّ الواعظ المعاصر فريد كرادوك تلاعب مرة بتفاصيل هذا المثل بغية إيضاح هذه النقطة. ففي إحدى عظاته، ألبس الأب الخاتم والرداء للأخ الأكبر، ثم ذبح له العجل المسمّن تكريمًا للسنين التي أمضاها في الأمانة والطاعة. في هذا الوقت صرخت امرأة من المقعد قائلةً: «كان ينبغي أن تُكتب القصة بهذا الشكل.»

يختلف الإنجيل اختلافًا تامًا عمّا قد يتبادر إلى ذهننا من أفكار حوله. فقد أتوقع منه أحيانًا أن يفضّل المتديّن على المبذّر. أو أن أحسّن من مسلكي قبل أن أطالب بالمثول في حضرة الإله القدّوس. لكنّ يسوع تحدث عن الله الذي تجاهل معلّم الدين المتأنّق، والتفت إلى خاطئ من عامة القوم يتضرّع ويقول: «اللهمّ ارحمني.» والحقيقة، أنّ الله في كل الكتاب المقدس، يُظهر تفضيلاً واضحًا للناس «الواقعيين» على «الصالحين». وكلمات يسوع واضحة هنا إذ يقول: «إِنَّهُ هكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارًّا لاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ.»

يسوع، وفي واحدة من أعماله الأخيرة قبل أن يموت، غفر للّص المعلّق على الصليب إلى جانبه، عالمًا بالتمام أنّ الخوف كان دافع اللّص في طلب الخلاص. فذاك اللّص لم يكن قد درس الكتاب من قبل، ولا دخل مجمعًا أو كنيسة، ولا قدّم اعتذارًا واحدًا لأي من الذين أخطأ إليهم. كل ما قاله ببساطة كان: «يا يسوع، اذكرني.» وقد وعده يسوع قائلاً: «إنك اليوم تكون معي في الفردوس.» هذا يذكّرنا مرة أخرى، وبقوة، بأنّ النعمة لا تتوقّف على ما فعلناه لله، بل بالحري على ما فعله الله لنا.

اسأل الناس عمّا ينبغي أن يفعلوا كي يذهبوا إلى السماء، فيجيب معظمهم بالقول: «افعل الصلاح.» أما كلمات يسوع فتخالف ذلك الجواب. كل ما علينا فعله هو أن نصرخ: «النجدة.» فالله يرحّب بكل من يأتي إليه، بل هو نفسه بالحقيقة، قد قام بالخطوة الأولى. إنّ معظم الاختصاصيّين، من أطباء ومحامين ومستشاري زواج... يقوّمون أنفسهم عاليًا، وينتظرون الزبائن كي يأتوا إليهم. ليس هكذا الله. وكما كتب سورِن كيركيغارد (Søren Kierkegaard):

حين يكون الخاطئ هو المقصود، فهو تعالى لا يقف جامدًا، بل يفتح ذراعيه ويقول، «هلمَّ تقدّم»؛ لا! إنه يقف هناك وينتظر كما انتظر والد الابن الضال، لا، بالحري لا يقف وينتظر، بل ينطلق مفتّشًا، كما فعل الراعي الذي فقد خروفه الضائع، وكما فتّشت المرأة عن الدرهم المفقود. إنه يذهب – لا، بل ذهب، وبدون شك، أبعد من أي راعٍ وامرأة، سلك لأجلنا الدرب الطويل من كونه الله إلى صيرورته إنسانًا، وكل ذلك الدرب الذي ساره، كان لكي يفتش عن الخطاة.

إنّ كيركيغارد ربما وضع أصبعه على أهم مفصل في أمثال يسوع. فهذه الأمثال لم تكن مجرد قصص مسلّية تشد انتباه السامع، أو قوالب أدبية تحوي حقيقة لاهوتيّة. كانت بالحقيقة، المعيار لحياة يسوع على الأرض. كان الراعي الذي ترك الأمان والراحة داخل الحظيرة لينطلق إلى العراء حيث الظلام الدامس والخطر. كان يرحب بالعشارين والبطّالين والزناة إلى وليمته. وقد أتى لأجل المرضى لا الأصحاء، وللخطاة وليس للأبرار. وأمّا ردة فعله من نحو الذين أنكروه – وبخاصة التلاميذ، الذين تركوه في أشدّ أوقات الحاجة – فكانت مثل والدٍ يضنيه الشوق والحب لأولاده البعيدين.

بعد أن دوّن اللاهوتي كارل بارث آلاف الصفحات في كتابه (Church Dogmatics) وصل إلى هذا التعريف البسيط عن الله: «إنه الذي يحب.»

منذ زمن ليس ببعيد سمعتُ من راعٍ صديق عن عراكه مع ابنته ذات السنوات الخمس عشرة. كان يعلم أنها تتناول أقراصًا لمنع الحمل، وتبيت خارج المنزل لليالي عدّة. وقد جرّب الوالدان أشكالاً متعددة من العقاب دون طائل. كانت الابنة تكذب عليهما وتخدعهما

وتجد دائمًا الوسيلة لإسكاتهما: «إنها غلطتكم لأنكم متشدِّدون معي بإفراط.»

وقد أخبرني صديقي قائلاً: «أذكر كيف كنت أقف أمام النافذة في غرفة الجلوس، محدِّقًا في الظلام خارج منزلي، منتظرًا عودتها إلى البيت. كنت أشعر بالغضب الشديد. تمنّيت أن أكون كوالد الابن الضال، بيد أنني كنت أغضب من ابنتي للطريقة التي تحاول من خلالها أن تتحكّم بنا وكأنها تحمل السكين لتؤذينا. بالطبع كانت تؤذي نفسها أكثر من أي شخص آخر. فهمت حينئذ كلام الأنبياء حين عبّروا عن غضب الله. فقد عرف الناس كيف يجرحونه، وقد صرخ الله من الألم.

«ولا بدَّ أن أخبرك، أنه حين عادت ابنتي إلى البيت تلك الليلة، أو بالأحرى في الصباح التالي، لم أُرد شيئًا من هذه الدنيا أكثر من أن آخذها بين ذراعيّ، وأحبها، وأُخبرها بأنني أريد لها الأفضل. فقد كنت الوالد المشتاق المغلوب على أمره.»

الآن وفيما أفكر في الله، تطالعني صورة ذلك الأب المريض حبًّا، البعيدة كل البعد عن صورة ذلك الإله القاسي التي كنت أرسمها له. وأفكر في صديقي ذاك الواقف أمام زجاج نافذته يحملق في الظلام متوجّعًا. أفكر في وصف يسوع للوالد المنتظر، المجروح القلب، المحطَّم، لكنه بالرغم من كل ذلك، يريد أن يسامح ويبدأ من جديد، يريد أن يعلن بسعادة غامرة: «ابني هذا كان ميّتًا فعاش وكان ضالاً فوجد.»

تتضمّن المقطوعة الجنائزية (Requiem) للموسيقار موزار فصلاً أصبح بالنسبة إليّ كالصلاة اليوميّة، أصلّيها بكل ثقة: «تذكّر يا يسوع الرحوم، أنّني السبب في مجيئك.» أعتقد أنه يتذكّر.

باستثناء هذه النقطة، هذه النقطة

الهادئة، لن يكون ثمّة رقص،

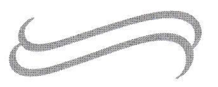
ولا يوجد سوى الرقص.

ت. إس. إليوت



الفصل الخامس

حساب النعمة الجديد



عندما ظهر مقالي في مجلة (Christianity Today) تحت عنوان (The Atrocious Mathematics of the Gospel) علمت حالاً أنْ ليس الجميع يقدّرون النقد الساخر. فالرسائل الجوابيّة ملأت صندوق البريد خاصتي. كتب لي أحدهم غاضبًا يقول: «هذا المقال هو تجديف»، منتقدًا فلسفتي «العقلانيّة المضادة للمسيحيّة». قارئ آخر وصمني بالقول: «شيطاني.» وسأل رئيس التحرير «أليس ثمّة محرِّرون كفاة في مجموعتك، قادرون أن يقتلعوا هذه العشبة الضارة؟»

بعدما انتُهِرْتُ بهذا الأسلوب، ولا سيما أنني لم أعتد أن يتّهمني أحد بالتجديف وضد المسيح وشيطاني، رحت أعيد قراءة ذلك المقال. ما الخطأ الذي حصل؟ انتقيت أربع قصص، واحدة من كل إنجيل، وبشيء من عدم الرزانة أشرت إلى الحسابات المثيرة للسخرية ضمنها.

فلوقا يخبرنا عن راعٍ ترك قطيعه المؤلَّف من تسعة وتسعين خروفًا، واندفع في الظلام ليفتشَ عن خروف واحد ضال. إنه عمل نبيل بالتأكيد،

لكن لنلتفت قليلاً إلى الناحية الحسابية. يقول يسوع إنّ الراعي ترك التسعة والتسعين خروفًا «في البريّة» يعني من باب الافتراض، عرضةً لسُرّاق المواشي والذئاب، أو الرغبة الغرائزية في الانعتاق والإفلات. كيف سيكون شعور الراعي إذا عاد بالخروف الضال المحمول على منكبيه ليجد أنّ ثلاثة وعشرين آخرين قد فقدوا؟

ثمة حادثة يسردها يوحنا عن امرأة تدعى مريم، أخذت قارورة طيب – تعادل مُرتَّب سنة كاملة – وسكبتها على قدمي يسوع. فكروا في الإتلاف: فالكنز الذي يجري الآن جداول عطر عبر الأرض الوسخة، كان يمكن أن يباع من أجل مساعدة الفقراء.

كذلك مرقس يسجل مشهدًا ثالثًا. فبعد مراقبة يسوع أرملة تلقي فلسين في صندوق التقدمات في الهيكل، قلّل من قيمة التبرعات الكبيرة إذ قال: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هذِهِ الأَرْمَلَةَ الْفَقِيرَةَ قَدْ أَلْقَتْ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ أَلْقَوْا فِي الْخِزَانَةِ.» أرجو أن يكون قد همس بهذه الكلمات لأن المتبرّعين الكبار لن يقدّروا هذه المقارنة.

أمّا القصّة الرابعة من متّى، فتتضمّن مثلاً سمعت عدة عظات حوله وعالجت النص بمنطق سليم. فقد أخبر يسوع عن مُزارع استأجر فعلة ليعملوا في كرمه. بعض هؤلاء الفعلة بدأ العمل عند طلوع الشمس، والبعض وقت شرب القهوة الصباحية، والبعض وقت الغداء، والبعض وقت شرب القهوة عصرًا والبعض قبل ساعة من ترك العمل. كل واحد بدا راضيًا إلى أن حان وقت المحاسبة إذ علم الذين اشتغلوا اثنتي عشرة ساعة محتملين حرّ النهار بكل طاعة أنّ الذين أتوا قبل الانتهاء بساعة واحدة، ولم يتعبوا ولا عرقوا، سوف يتقاضون الأجر ذاته. إنّ تصرف رب العمل يتعارض مع كل ما نعرفه عن تحفيز العمّال والتعويض العادل. بكلّ بساطة، إنّه نوع من الإقتصاد المجحف.

فإلى جانب تعلّمي درسًا عن النقد الساخر في ذلك المقال، تعلّمت أيضًا درسًا مهمًّا عن النعمة. فربما لم يكن وصفي لحسابات الإنجيل بأنها «سيّئة» اختيارًا موفّقًا، لكنّ النعمة حتمًا توحي بشيء من اللاعدل. لماذا يجب أن يكون فلسا الأرملة أكثر من ملايين الرجل الغني؟ وأيّ رب عمل يدفع لموظّف حديث ما يدفعه لعماله الدائمين الموثوقين؟

بعد فترة قصيرة من كتابة ذلك المقال شاهدت مسرحيّة (Amadeus) (كلمة لاتينيّة تعني «حبيب الله»)، وهي تحكي عن مؤلِّف من القرن الثامن عشر يحاول أن يفهم فكر الله. إنّ أنطونيو ساليري يكرّس رغبة صادقة في سبيل خلق مقطوعة حمد وتسبيح خالدة، إلا أنه لا يملك الموهبة الطبيعية لذلك. ويثير حنقه الشديد مجرد التفكير بأنّ الله سكب بكل غنى موهبة عبقرية الموسيقى التي لم يعرف لها العالم نظيرًا، على صبيٍّ دون سن المراهقة يُدعى وولفغانغ أماديوس موزار.

أثناء مشاهدتي العرض، بدا لي أنني أشاهد الجانب الآخر من مشكلة لطالما أزعجتني. فالمسرحية كانت تثير السؤال نفسه الذي يثيره سفر أيّوب، ولكن بطريقة معكوسة. فكاتب السفر يطيل التفكير حول هذا السؤال: لماذا «يعاقب» الله إنسانًا هو أكثر الناس صلاحًا على وجه الأرض؛ كذلك كاتب مسرحية (Amadeus) يسأل لماذا «يكافئ» الله ولدًا عاقًّا عديم الاستحقاق؟ إنّ مشكلة الألم تجد ضالتها في فضيحة النعمة. ثمة في المسرحية فِقرة تعبّر عن تلك الفضيحة: «ما الفائدة من الإنسان إذًا، إن كان لا يلقّن اللهَ دروسه؟»

لماذا يختار الله يعقوب المحتال، مفضلاً إياه على عيسو المطيع؟ لماذا تجتمع القوى الخارقة في شاب متهوّر يدعى شمشون؟ لماذا يؤتى براعي

غنم مغمور، هو داود، ليتوَّج ملكاً على إسرائيل؟ ولماذا تُعطى الحكمة الكاملة لسليمان الذي هو ثمرة علاقة زنا أقامها الملك أبوه؟ بالطبع، فإنّ فضيحة النعمة في كل واحدة من قصص العهد القديم هذه تلقي بثقلها إلى أن تتبلّج الحقيقة في أمثال يسوع، وبصورة دراماتيكية، لكي تعيد تشكيل المشهد الأخلاقي.

إنّ مثل يسوع عن الفعلة ورواتبهم غير العادلة، يواجه هذه الفضيحة مباشرة. ففي نسخة يهودية معاصرة لهذه القصة، يقول التعليق إنّ الفعلة الذين أتوا آخر النهار، اشتغلوا بجد ونشاط ممّا جعل رب العمل يقرر أن يكافئهم بأجر النهار كاملاً. ليس الأمر هكذا في نسخة يسوع التي تشير إلى أنّ المجموعة الأخيرة من العمال كانت تقف بطّالة في السوق؛ الشيء الذي لن يفعله سوى الكسالى البطالين ولا سيما وقت الحصاد. زد على ذلك، أنّ هؤلاء الثقيلي الخطى لم يفعلوا – بحسب مثل يسوع – ما يثير الاهتمام وقد صُعِق الفعلة الآخرون للأجر الذي نالوه. وأيّ رب عمل متّزن سوف يدفع أجرَ ساعة كأجر اثنتي عشرة ساعة!؟

إنّ قصة يسوع لم تُقم وزنًا للناحية الماديّة، وهذا كان قصده بالذات. أراد أن يعطينا مثلاً عن النعمة التي لا يمكن أن تُحسب كأجرِ يوم. النعمة ليست مسألة مَن ينتهي قبل مَن؟ إنها لا تدخل في عِلم الحساب. فنحن نأخذ النعمة هبةً من الله، وليس كشيء نجدّ في تحصيله، وهذه النقطة بالذات نبّر عليها يسوع بوضوح حين أظهر ردَّة فعل رب العمل:

> «يَا صَاحِبُ، مَا ظَلَمْتُكَ! أَمَا اتَّفَقْتَ مَعِي عَلَى دِينَارٍ؟ فَخُذِ الَّذِي لَكَ وَاذْهَبْ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ هذَا الأَخِيرَ مِثْلَكَ. أَوَ مَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَفْعَلَ مَا أُرِيدُ بِمَا لِي؟ أَمْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةٌ لأَنِّي أَنَا صَالِحٌ؟» (متّى ٢٠: ١٣–١٥).

هل أنت يا ساليارى حسود لأنني بهذا السخاء مع موزار؟ وأنت يا شاول، هل يتآكلك الحسد لأنني سخيّ مع داود؟ وهل غرتم أيها الفريسيون لأنني فتحت الباب للأمم ولو متأخرًا! أم لأنني أُكرِم صلاة العشار دون صلاة الفريسيّ؟ أم لأنني قبِلتُ لصًّا تاب في اللحظات الأخيرة ورحّبت به في الفردوس؟ أهذا ما يثير غيرتكم؟ هل تحتقرون كوني تركت القطيع المطيع لأفتش عن الضال أم لأني قدّمتُ العجل المسمّن لابن ضال وجحود؟

إنّ ربّ العمل في مَثَل يسوع عن الفعلة لم يغشّ الذين جاءوا إلى الكرم مع طلوع الشمس بدفعه أجرة ساعة عمل واحدة لكل منهم بدل أجرة اثنتي عشرة ساعة. بل على العكس، فالذين عملوا طول النهار نالوا ما يحقّ لهم. وعدم رضاهم نشأ بسبب حسابات النعمة، الشائنة. لم يستطيعوا تقبّل الحقيقة، بأنّ مخدومهم له الحق في عمل ما يريد بماله، بما في ذلك دفعُ اثني عشر ضعفًا زيادة عما يحق لعامل بليد.

الجدير بالذكر، أنّ العديد من المسيحيين الذين يدرسون هذا المثل، ينحازون إلى فعلة ساعات الصباح الأولى الذين اشتغلوا طول النهار، لا إلى الذين جاءوا في الساعة الأخيرة. نحن نميل إلى أن نظن أنفسنا عمّالاً مسؤولين، وتصرُّف صاحب العمل الشاذّ يحيّرنا، تمامًا كما حصل للذين سمعوه لأول مرة. نحن في خطر أن نضيِّع هدف القصّة: فالله يوزِّع عطايا لا أجورًا. لا أحد منّا يُعطَى نتيجة أعماله، لأن ليس أحد منا يستطيع أن يعمل ما يرضي الله. ولو كان ما سنتقاضاه على أساس الاستحقاق، لانتهينا في جهنّم.

يقول روبرت فرّركابون: «لو كان العالم سيخلص بواسطة الحسابات الصحيحة، لكان خَلُص بواسطة موسى لا المسيح.» لا يمكن تحجيم

النعمة لتصير بحجم القوانين الحسابية. ففي حيّز العمل، لا النعمة، يستحق بعض العمال أكثر من سواهم؛ أما في نطاق النعمة، فإنّ كلمة يستحق غير موجودة.

يقول فريدريك بوكنر:

> إنّ الناس مستعدّون لكل شيء ما عدا الحقيقة التي تقول بوجود نور عظيم وراء الظلمة التي تحيط بعماهم. فهم على استعداد للمضيّ قُدمًا في قصم ظهورهم مرة تلو المرة، وهم يحرثون ذلك الحقل عينه، إلى أن تعمى الأبقار من شدة التعب، أو تصطدم أرجلهم صدفةً بشيءٍ مثير، وهو أنّ ثمة كنزًا عظيمًا مدفونًا في ذلك الحقل يكفي ليشتري أرضًا بحجم ولاية تكساس. إنهم يقبلون بإله يُجري مساومات صعبة، لكن ليس بإله يعطي من يعمل ساعة كمن يعمل طول النهار. إنهم يقبلون بملكوت الله بحجم حبة الخردل، لكنهم لا يقبلون بالشجرة العظيمة التي ستصبحها تلك الحبة، لتتآوى بين أغصانها طيور السماء التي تنشد أغاني موزار. إنهم مستعدّون للذهاب إلى العشاء في الكنيسة، مهما كان نوع الطعام، ولكن ليس إلى عشاء عرس الخروف...

في حساباتي، يبدو يهوذا وبطرس الأذكى حسابيًا من بين جميع الرسل. لا بد أنّ يهوذا كان قد أظهر شيئًا من البراعة في الحساب، وإلّا لما كان الباقون قد اختاروه أمينًا للصندوق. كذلك، فإنّ بطرس كان دقيقًا في التفاصيل، يحاول دائمًا إظهار المعنى الدقيق لما يقوله يسوع. وقد دوَّنت الأناجيل أنه عندما هندس يسوع معجزة صيد السمك، سحب بطرس ١٥٣ سمكة كبيرة. فمَن غير رجل الحساب يكلِّف نفسه عناء عدِّ هذه الكومة من السمك؟

فانسجامًا مع شخصيّته، كان من الطبيعي بالنسبة للرسول المدقّق بطرس أن يضع قاعدة حسابيّة لمعادلة النعمة، فيسأل يسوع: «كَمْ مَرَّةً يُخْطِئُ إِلَيَّ أَخِي وَأَنَا أَغْفِرُ لَهُ؟ هَلْ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ؟» (متّى ١٨: ٢١). كان بطرس هنا متماديًا في تسامحه، لأنّ الرابيين في أيامه اقترحوا ثلاث مرّات كحد أقصى للمسامحة.

«ليس إلى سبع مرات»، أجاب يسوع، «بل إلى سبع وسبعين مرة.» بعض النسخ أورد «سبعين مرة سبع مرات»، لكن ليس الأمر بذات الأهمية سواء قال يسوع ٧٧ أو ٤٩٠: فالمغفرة ليست كمن يعُدّ على لوحة الأطفال.

لكنّ سؤال بطرس هذا أثار قصّة أخرى من قصص يسوع المؤثّرة، وذلك عن عبد تراكم عليه بطريقة ما مبلغ كبير من الدَّين يُعَدُّ بآلاف الدنانير. إنّ حقيقة عدم وجود عبد يستطيع أن يكوّم على نفسه دَينًا عظيمًا مثل هذا، تُسلِّط ضوءًا ساطعًا على قصّة يسوع؛ فمصادَرَةُ عائلة العبد وأولاده وممتلكاته كلها، لن تسدّ ثغرة صغيرة من الدين. إنه أمر لا يمكن مسامحته. ولكنّ الملك، وقد مسّت الرحمة قلبه، تجده حالاً يسامح العبد بجميع الدَّين ويطلقه حرًا.

فجأةً، تعود عقدة القصة لتتأزّم. فالعبد الذي تُرِك له جميع الدّين أمسك بعنق زميله الذي يدين له ببعض الدريهمات محاولاً خنقه. «ادفع لي دَيْني!» قال هذا، ثم ألقاه في السجن. باختصار، إنه لعبد ناكر الجميل.

أمّا لماذا يقدّم يسوع المثل بهذه المبالغة الظاهرة، فالجواب على ذلك يتّضح حين يُظهِر أنّ الملك يمثّل الله. وهذا يقرّر موقفنا من الآخرين: ذلك أنّ الله قد سامحنا بدَيْن بحجم الجبال الشامخة، حتى ليبدو أيّ خطإٍ بحقّنا من أيّ إنسان أشبه بعرمة النّمل. فكيف لا نقدر أن نسامح بعضُنا بعضًا في ضوء كلِّ ما سامحنا الله به؟

سي. إس. لويس عبّر عنها بهذا الشكل: «أنْ تكون مسيحيًّا يعني أن تسامح ما لا يُسامح عليه، لأنّ الله غفر لك ما لا يُغتفر.» لويس نفسه، أدرك عمق مغفرة الله في لحظة إعلان، بينما كان يردّد المقطع من قانون إيمان الرسل: «أومن بمغفرة الخطايا» في عيد القديس مرقس. خطاياه ولّت، غُفرت! «هذه الحقيقة»، يُتابع قائلاً، «بدت في ذهني جليّةً مشعّةً حتى إنّني أدركت أنّني لم أؤمن بها من قبلُ بكل قلبي.»

كلّما أمعنتُ التأمل في أمثال يسوع، وجدت نفسي مدفوعًا لاستعمال كلمة «سيّء» في وصف الحساب في الإنجيل. فأنا واثق بأنّ يسوع قدّم لنا هذه القصص عن النعمة كي يدعونا إلى الخروج من عالم انعدام النعمة، عالم العين بالعين والسنّ بالسنّ، والدخول إلى فيض النعمة الإلهية التي لا حدود لها. وكما عبّر عنها ميروسلاف ڤولف بالقول: «إنّ حساب النعمة غير المستحِقّة له الأولوية على حساب الصحاري الأخلاقية.»

نحن نبدأ من سنيّ الحضانة فصاعدًا، نتعلّم كيف ننجح في عالم تغيب عنه النعمة، فمن يسبِق له الغلبة. ليست الحال كذلك في عالم الناس؛ فمن لا يعمل لا يأكل. أُطلُب فقط ما هو حقّ لك، واحصل على ما دفعت لأجله من مالك. لا شكّ أنني أعرف هذه القاعدة جيدًا لأنني أعيشها كل يوم. فأنا أتقاضى مُرتّبي نتيجة ما أقوم به من عمل؛ أحبُّ أن أربح؛ وأُصرُّ على تحصيل حقوقي. أحبُّ للناس أن يحصلوا على ما يستحقّونه، لا أكثر ولا أقل.

لكن إذا همّني أن أصغي بوضوح، فسوف أسمع همسًا عاليًا من الإنجيل يقول لي إنني لم آخذ ما استحقّيت. أستحقّ العقاب، لكنني نلت الغفران. أستحقّ الغضب، لكنني نلت المحبة. أستحقّ السجن بسبب الدَّين الكبير،

لكنّني نلت عوضه، سجلاً ماليًّا نظيفًا. أستحقّ محاضرات صارمة، وندمًا زاحفًا على الركبتين، لكنْ أُعدّت لي وليمة فاخرة - كوليمة بابيت.

إنّ النعمة، تحلُّ المشكلة لله، إن صحّ التعبير. ولن تحتاج إلى كثير من القراءة في الكتاب المقدس حتى تدرك التشنّج الذي يشعر الله به تجاه الإنسان. فمن جهة، نجد أنّ الله يحبُّنا؛ بينما سلوكنا، من جهة ثانية، يبعده عنا. إنه يشتاق كثيرًا إلى أن يرى في الإنسان شيئًا من صورته؛ لكن، في أفضل الحالات، لا يكاد يجد سوى قطع صغيرة مبعثرة، من تلك الصورة. بَيْد أنّ الله لا يقدر أن، ولن يستسلم.

ثمّة مقطع من إشعياء، يُنظر إليه دائمًا كبرهان على تناهي الله في التعالي والقدرة:

«لأَنَّ أَفْكَارِي لَيْسَتْ أَفْكَارَكُمْ، وَلاَ طُرُقُكُمْ طُرُقِي، يَقُولُ الرَّبُّ. لأَنَّهُ كَمَا عَلَتِ السَّمَاوَاتُ عَنِ الأَرْضِ، هكَذَا عَلَتْ طُرُقِي عَنْ طُرُقِكُمْ وَأَفْكَارِي عَنْ أَفْكَارِكُم» (إشعياء ٥٥: ٨ و٩).

على أنّ الله في المقابل، يصف فعلاً رغبته في أن يغفر. الإله نفسه، الذي خلق السموات والأرض، له القدرة على ردم الهوّة التي تفصله عن خليقته. إنه سيصالح، وسيغفر، بصرف النظر عمّا قد يضع أولاده الضالون من عوائق في الطريق. وكما يقول النبيّ ميخا: «لاَ يَحْفَظُ إِلَى الأَبَدِ غَضَبَهُ، فَإِنَّهُ يُسَرُّ بِالرَّأْفَةِ» (ميخا ٧: ١٨).

إنّ عواطف الله المتصارعة أحيانًا، قد تتصادم بعضها ببعض في المشهد ذاته. ففي سفر هوشع مثلاً، يتردّد الله بين تذكير شعبه بأسلوب رقيق،

وبين التهديد الصارم بالدينونة. يقول مهدّدًا: «يَثُورُ السَّيْفُ فِي مُدُنِهِم» (هوشع١١: ٦)، ثمّ بعدها بقليل يطلق صرخة المحبّة:

«كَيْفَ أَجْعَلُكَ يا أفرايم. أُصَيِّرُكَ يا إِسْرَائيل... قَدِ انْقَلَبَ عَلَيَّ قَلْبي. اضطرَمَتْ مَراحِمي جَمِيعًا» (هوشع ١١: ٨).

ثُمَّ يَخلُصُ الله أَخيرًا إلى القَوْلِ: «لا أُجْري حُمُوَّ غَضَبِي... لأنِّي الله لا إِنْسانٌ – القُدُّوسُ في وَسَطِكَ» (هوشع ١١: ٩). مرة جديدة نرى الله يحتفظ بحق تغيير قوانين العقاب. فعلى الرغم من أنّ بني إسرائيل يستحقّون صدَّ الله الكامل، إلاّ أنهم لن ينالوا ما يستحقّون (أنا الله لا إنسان... أَوَما يحلُّ لي أنْ أفعلَ ما أريدُ بمالي؟) الله مستعدّ أن يذهب إلى أقصى حد ليعيد عائلته إليه.

يطلب الله من النبيّ هوشع، في مثل شديد الغرابة، أنْ يتزوج بامرأة تدعى جومر، بغية إيضاح الله محبته لإسرائيل. وقد أنجبت جومر ثلاثة أولاد لهوشع، ثمّ هجرت العائلة لتعيش مع رجل آخر. ولفترة ما عاشت جومر كعاهرة. وكان أنْ أمرَ الله هوشع، وفي ذلك الحين بالذات، قائلاً: «اذهبْ أيضًا أَحْبِبِ امرأةً حبيبةَ صاحبٍ وزانيةً كمحبّةِ الرب لبني إسرائيل، وهم ملتفتون إلى آلهةٍ أخرى...» (هوشع ٣: ١).

إنّ فضيحة النعمة في هوشع، أصبحت بالفعل حديث المدينة بأسرها. فماذا يدور في ذهن الإنسان عندما تعامله زوجته كما عاملت جومر زوجها هوشع؟ أراد أن يقتلها وأراد أنْ يسامحها. أراد الطلاق وأراد المصالحة. ألحقت به العار وكسرت قلبه. وما يثير السخرية، أنّ قوّة المحبّة التي لا تقاوم، كانت الرابح الأكبر على الرغم من جميع المفشّلات. هوشع المهيض الجناح، أُضحوكة القوم، أعاد زوجته إلى البيت.

إنّ جومر لم تعامَل بالحق، ولا بالعدل؛ بل بالنعمة. كلّما قرأت قصتهما، أو قُلْ حديث الله الذي يبدأ بالصرامة وينتهي بالدموع، يدهشني هذا الإله الذي يقبل لنفسه بهذا الهوان فقط ليعود من أجل المزيد. «كيف أجعلك يا أفرايم. أصيّرك يا إسرائيل؟» ضع اسمك الشخصي مكان أفرايم وإسرائيل. ففي قلب الإنجيل ثمّة إله يُقدِّر باستمرار قوّة المحبّة الجبّارة التي لا تقاوم.

بعد ذلك بقرون، يشرح أحد الرسل الملهمين ردَّة فعل الله بأسلوب تحليلي أشمل إذ يقول: «وَلكِنْ حَيْثُ كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِدًّا» (رومية ٥: ٢٠). فقد عرف بولس أفضل من أيِّ كائن على وجه الأرض، أنّ النعمة تأتي بدون استحقاق وبمبادرة من الله وليس منا. وبسقوطه منطرحًا على الأرض وهو في طريقه إلى دمشق، رسخ مفعول النعمة في ذاكرته، حتى إنّه ما استطاع أن يكتب أكثر من بضعة أسطر من دون أن يأتي على ذكرها، في كلِّ رسائله. وكما يقول فريدريك بوكنر: «إنّ النعمة هي أفضل ما يرغبه بولس لهم، لأنّ النعمة كانت أفضل ما حصل عليه هو بالذات.»

شدّد بولس على النعمة لأنه يعرف تمامًا، ماذا كان يمكن أنْ يحدث لو نحن حصلنا على محبّة الله بمجهودنا الشخصي. فإن أحسسنا بحاجتنا الشديدة إلى الله في الظروف الصعبة أو لسبب بسيط، ظننّا أنّنا غير محبوبين منه، نشعر بأننا واقفون على أرض متحرّكة. وقد نخاف من مجرّد التفكير بأنّ الله لن يحبّنا فيما بعد حين يكتشف حقيقة أمرنا. بولس «أوّل الخطاة»، كما دعا نفسه مرّةً، علم دون شكّ، أنّ الله يحبّ الناس بسبب كونه الله، وليس بسبب من نكون نحن.

وإذ فهم بولس ما ظهر على أنه فضيحة النعمة، بذل جهدًا كبيرًا ليشرح كيف صنع الله سلامًا مع البشر. فالنعمة تُربكنا لأنها تعترض سبيل الحدس

الطبيعي عند كل واحد منا، حيث كلّ عمل ظالم لا بد أن يدفع صاحبه الثمن. المجرم لا يجدر أن يُطلق حرًّا بهذه البساطة. كذلك، إذا اغتصب أحدهم طفلاً، لا يستطيع أن يهزّ كتفيه بكل بساطة ويقول: «شعرت في حاجة إلى ذلك.» استبق بولس هذه الاعتراضات مشددًا على كون الثمن قد دُفع – بواسطة الله نفسه. فقد قدّم الله ابنه الوحيد بدل أن يقدّم البشرية جمعاء.

ومثل وليمة بابيت، فإنّ النعمة لا تكلّف المتلقّي شيئًا، إلاّ أنها تكلّف المعطي كلّ شيء. وليست نعمة الله قصة مسلّية يحكيها الجد لأحفاده، لأنها كلّفت ثمنًا باهظًا جدًّا، هو ثمن الجلجثة. «ثمّة قانون واحد حقيقي لا غير»، قالت دوروثي سايِرز، «إنه قانون الكون. وهذا القانون إمّا أن يُطبّق من طريق القصاص أو من طريق النعمة، إنّما يجب أن يُطبّق بطريقة أو بأخرى.» وبقبول يسوع القصاص في جسده، فقد طبّق الناموس، وبذلك وجد الله طريقة للمسامحة.

عاش الصبيّ الذي تُوّج كآخر أباطرة الصين في فيلم (The Last Emperor) حياة البذخ الجنوني، يقوم على أمره وخدمته ألف خصيّ. «ماذا يحصل عندما ترتكب خطأ ما؟» سأله أخوه. «عندما أرتكب خطأً ما، شخص آخر سوف يعاقب»، أجاب الأمبراطور الصغير. ولكي يوضح مقولته، كسر إبريقًا، فضُرِب أحد الخدم. أمّا في اللاهوت المسيحي، فقد عكس المسيح هذا النموذج القديم: فعندما يخطئ الخادم، يُعاقَب الملك. والنعمة مجّانية فقط لأن الواهب نفسه قد تحمّل الثمن.

عندما زار اللاهوتي الذائع الصّيت، كارل بارث، جامعة شيكاغو، تجمهر حوله عدد كبير من الطلاب والأساتذة. وفي أحد الإجتماعات

سأله أحدهم: «دكتور بارث، ما هي أعمق حقيقة تعلّمتها من دراساتك الكثيرة؟» وبدون تردد، أجاب: «سيّدي الفادي الغني قلبه يحبّني. هذا ما يخبرني به الكتاب المقدّس.» أنا أتفق مع كارل بارث. فلماذا إذًا، أتصرّف في معظم الأحيان، وكأنني أسعى إلى تحصيل تلك المحبّة؟ لماذا أتعب في الحصول عليها؟

عندما اخترع الدكتور بوب سميث وبِل ويلسون، مؤسّسا مركز تأهيل السكّيرين، برنامجهما المؤلف من اثنتي عشرة خطوة، ذهبا لعيادة بِلْ د.، وهو محام بارز، فشِل خلال ستة أشهر في ثمانية برامج تأهيل ضد الإدمان. لم يجد مفرًّا من الإصغاء إلى ضيفيه إذ كان مربوطًا في سريره في المستشفى، عقابًا له على مهاجمته ممرضتين. فحدّثاه عن إدمانهما، وعن الرجاء الذي اكتشفاه مؤخرًا، وذلك من طريق إيمانهما بقوة أسمى. حالما ذكرا له القوة الأسمى، هزّ بِلْ د. رأسه بحزن وقال: «لا! لا! تأخر الوقت كثيرًا. أنا لا أزال أثق بالله، لكنني أعلم تمامًا أنه لم يعد يثق بي.»

عبّر بِلْ د. عما يشعره العديد منّا أحيانًا. فنحن، تحت وطأة الأخطاء المتكررة، والرجاء المفقود، والشعور بعدم الاستحقاق، نتقوقع على ذاتنا مثل صَدَفة، مقفلة تقريبًا إقفالاً تامًا في وجه النعمة. وكأولاد منبوذين، يعودون المرّة تلو المرّة إلى أحضان البغاء والإدمان، هكذا نبتعد بعناد عن منابع النعمة.

أعرف ردّة فعلي تجاه رفض رؤساء تحرير المجلات إحدى مقالاتي، وكذلك ردّة فعلي تجاه رسائل القرّاء اللاذعة. أعلم الغبطة العارمة التي تغمرني عندما يصلني شيك بمبلغ من المال يفوق بكثير ما كنت أتوقّعه، وكيف أهبط إلى الحضيض عندما يكون المبلغ صغيرًا. أعلم أنّ منظر وجهي

عند انتهاء النهار، يتوقف إلى حد بعيد، على نوع الرسائل التي استلمتها من الناس. هل أنا مقبول؟ هل أنا محبوب؟ أنتظر الأجوبة عن ذلك من أصدقائي ومن جيراني، ومن عائلتي كمن أصابه الجوع الشديد لذلك.

إنني من حين لآخر، أحسُّ حقيقة النعمة. فثمّة أوقات، حين أدرس الأمثال، أدرك أنها عنّي. فأنا الخروف الضائع الذي جعل الراعي يترك القطيع كيما يجده، والابن الضال الذي لأجله رصد أبوه الأفق، والعبد الذي تُرك له الدَّين. أنا الولد الذي يحبّه الله.

وصلتني بالبريد منذ وقت قصير بطاقة معايدة من صديق، حَوَت أربع كلمات: «أنا الذي يحبّه يسوع.» تبسّمت عندما عرفت صاحب البطاقة من عنوان المرسِل، لأن صديقي هذا ممتاز في صياغة العبارات المؤثّرة. على أنني عندما اتصلت به، أخبرني أنّ هذه العبارة المؤثّرة هي للمؤلف والمُحاضِر بْرِنان مانِنْغ. ففي إحدى محاضراته، أشار مانِنْغ إلى أقرب صديق ليسوع على الأرض، التلميذ يوحنا، حيث يعرِّفه الإنجيل بأنه «الذي كان يسوع يحبّه.» قال مانِنْغ: «لو سُئل يوحنا السؤال التالي: ما هي هويّتك الأساسيّة في الحياة؟» فلن يجيب هكذا: «أنا تلميذ ورسول ومبشِّر ومؤلِّف أحد الأناجيل الأربعة...»، بل بالحريّ سيجيب: «أنا التلميذ الذي كان يسوع يحبّه.»

مرارًا أسأل نفسي هذا السؤال: ماذا يعني لو أنني أنا أيضًا كنت مكان يوحنا ورأيت هويّتي الأساسيّة، أي: «التلميذ الذي كان يسوع يحبّه»؟ كم ستكون رؤيتي لنفسي مختلفة في نهاية اليوم؟

ثمّة نظرية في علم الاجتماع عن مرآة الذات تقول: إنك تحاول أن تكون في نظر محبّيك (الزوج، الزوجة، الأب، المعلّم، الخ) الإنسان الذي يجب أن تكون عليه. ما هو التبدّل الذي سوف يطرأ على حياتي إذا آمنت بصدق

بكلام الكتاب المقدس عن محبّة الله لي، وتطلّعت في المرآة ورأيتُ ما يراه الله؟

يخبرنا بْرِنان مانِنغ قصة عن كاهن إرلندي أثناء جولة له راجلة في أبرشيّة ريفيّة، أنه رأى فلاحًا جاثيًا بجانب الطريق يصلّي. أثّر هذا المشهد كثيرًا بالكاهن فقال للرجل: «لا بد أنك قريب جدًا من الله.» قطع الفلاح صلاته، ورفع رأسه، وفكّر قليلاً ثم ابتسم وقال: «نعم، إنه مغرمٌ بي.»

يخبرنا اللاهوتيون بأنّ الله كائن خارج نطاق الزمن، فقد خلق الله الزمن مثلما يخلق الفنان حيّزًا ليعمل في نطاقه، ولا يكون مقيّدًا به. فهو يرى المستقبل والماضي في نوع من الحضور الأزلي. إذا كانت هذه الصفة في الله صحيحة، فيكون اللاهوتيون قد ساهموا في شرح الكيفيّة التي يقدر الله فيها أن يعتبر إنسانًا مثلي «محبوبًا»، في حين أنني متقلّب وغير أمين ومزاجيّ. فعندما ينظر الله إلى لوحة حياتي لا يرى تقلّبات حادّة نحو ما هو بار وما هو شرير، بل يرى خطًّا مستقيمًا بارًّا: إنه برّ ابن الله الذي أنا له في لحظة من الزمن، ويصبح كافيًا إلى الأبد. وقد وضعها شاعر القرن السابع عشر جون دَنْ بهذا الشكل:

> إنّ اسم مريم المجدلية دُوّن في سفر الحياة، على الرغم من كثرة خطاياها، بالاهتمام ذاته الذي سُجِّل فيه اسم العذراء المباركة، على الرغم من كثرة أمانتها، كما دُوّن اسم بولس الذي جرَّد سيفه ضد المسيح، تمامًا كما جرَّد بطرس سيفه دفاعًا عنه: لأن سفر الحياة لم يُكتب بالتسلسل كلمة بعد كلمة، سطرًا بعد سطر، بل سُلِّم كلُّه مطبوعًا دفعة واحدة.

ترعرعتُ ولديَّ صورة عن إله مدقّق في حساباته، يَزِنُ حسناتي وسيّئاتي، وأمامه مجموعة من المعايير، وكنت أخرج ناقصًا باستمرار. وبطريقة ما، كان يغيب عن بالي إله الأناجيل، إله الرحمة والسّخاء الذي لا يزال يبتكر الوسائل باستمرار كي يُزيل الحواجز التي تقف عائقًا في وجه النعمة. الله يمزّق جداول الحسابات تلك، ويستبدلها بجدول حساب النعمة، تلك النعمة المدهشة والمفاجِئة واللامحدودة.

فالنعمة تبدو في أشكال متعدّدة لدرجة أنني أواجه صعوبة في تحديدها. مع ذلك سأحاول أن أقترب قدر المستطاع مما يبدو تعريفًا لها في ضوء العلاقة بالله. النعمة تعني في جانب من معانيها، أنه لا يوجد شيء في إمكاننا عمله لنجعل الله يحبنا أكثر - لا الرياضة الروحيّة ولا التخلّي عن أمور نحبّها، ولا المعرفة الروحيّة العميقة ولا المدارس اللاهوتيّة، ولا المجاهدة في سبيل قضيّة محقّة... كما تعني النعمة أيضًا أنه لا يوجد شيء في إمكاننا عمله لنجعل الله يحبّنا أقل. لا التطرف العنصريّ ولا العجرفة ولا الخلاعة ولا الزنا ولا حتّى القتل. فالنعمة تعني أنّ الله يحبّنا بقدر ما يستطيع إله غير محدود أن يحب.

ثمّة علاج بسيط للناس الذين يشكُّون في محبة الله، ويجعلون من النعمة موضع تساؤل: ليرجعْ هؤلاء إلى الكتاب المقدس، ويبحثوا عن نوع الأشخاص الذين يحبهم الله. فيعقوب الذي تجرّأ على تحدّي الله في مصارعة عنيفة، والتي كانت نتيجتها كَسْرَ حُقِّ فخذه، الذي ظلّ يخمع مدى الحياة بسببه، أصبح يحمل لقب شعب الله: «بني اسرائيل». والكتاب يخبرنا عن قاتل وزانٍ أصبح أشهر وأعظم ملك في كتاب العهد القديم «رَجُلاً حَسَبَ قَلْبِي» (أعمال ١٣: ٢٢). كما يخبرنا عن الكنيسة التي أصبح يقودها تلميذ، كان منذ وقت قصير يلعن ويحلف بأنّه لم يعرف يسوع قطّ؛ وعن رسول

بلغ شأوًا بعيدًا في تعذيب المؤمنين. تصلني رسائل بريدية من مؤسّسة العفو الدوليّة، وحين أنظر إلى صور الرجال والنساء التي تحويها تلك الرسائل، وأرى كيف خضعوا للضرب والتعذيب والجرح بآلة حادّة والبصق والتعرّض للصدمات الكهربائية، أسأل نفسي: «أيّ نوع من البشر يستطيع أن يفعل مثل ذلك ببشر آخرين؟» ثم أقرأ سفر الأعمال فأقابل نفس نوع الرجال، الذي يفعل مثل ذلك؛ وإذا به يُصبح رسول النعمة والخادم ليسوع المسيح، بل أعظم رسول عرفه التاريخ. فإنْ كان الله يقدر أن يحبّ ذلك النوع من الناس، ربّما، وربّما فقط، يقدر أن يحبّ من هم مثلي.

لا أستطيع أن أكون معتدلاً في تعريف النعمة، لأن الكتاب المقدس يدفعني إلى ذلك. فالله، هو بكلمات الرسول بطرس: «إِلهُ كُلِّ نِعْمَة.» والنعمة تعني أنه ليس ثمة ما أستطيع أنْ أفعله كيما أجعل الله يحبّني أكثر، كما أنه لا يوجد شيء أستطيع أن أفعله كيما أجعل الله يحبني أقل. وهذا يعني أنني أنا بالذات، أنا الذي لا أستحق سوى الرفض والنبذ، مدعوّ إلى أخذ مكاني إلى طاولة عائلة الله.

أشعر بدافع الغريزة، أنه ينبغي عليّ أن أعمل شيئًا كيما أكون مقبولاً، إلاّ أنّ النعمة تنبّهني بصوت مفاجئ، كي ألاحظ التناقض والحرية، وأنه ينبغي لي كل يوم أن أصلي من جديد من أجل القدرة على سماع رسالتها.

يُظهر يوجين بيترسون تباينًا بين خصمين لاهوتيين من القرن الرابع هما أوغسطينوس وبلاجيوس. وكان بلاجيوس لطيفًا، دمث الأخلاق، قويّ الإقناع ومحبوبًا من الجميع. بينما أوغسطينوس، بدّد شبابه في الفجور، وكانت علاقته بأمّه غريبة الأطوار، وأصبح أعداؤه كثيرين. لكنّ أوغسطينوس ابتدأ حيث نعمة الله فاستقام له الأمر، بينما بلاجيوس ابتدأ

من المجهود البشري وانتهى بالفشل. أوغسطينوس لاحق الله بصبر؛ بينما عمل پلاجيوس بشكل مُنظَّم لكي يرضي الله. يتابع پيترسون، فيقول إنّ المسيحيّين يبدون «أوغسطينيين» نظريًا، و«پلاجيين» بالممارسة. فهم يعملون بكل جهد كي يُرضوا الناس وحتى الله.

كلّ سنة، في الربيع، أجدُني ضحيّة ما يدعوه الرياضيون «جنون آذار». فلا أستطيع أن أقاوم إغراء المباراة الأخيرة في كرة السلَّة، والتي يتبارى فيها على تصفيات بطولة الجامعات الأميركيّة أربعة وستون فريقًا. ويبدو أنّ المباراة الأخيرة، والتي تكون الأكثر تشويقًا، غالبًا ما يتقرّر مصير الفريق الرابح فيها مع فتًى في الثامنة عشرة من عمره، يقف أمام السلة عند خط الضِربة الحرّة، ولم يتبقّ من الوقت سوى ثانية واحدة. تراه هناك يقف بعصبية لافتة، والعرق يتصبّب منه. فإذا أخطأ السلّة في كلا الرميتين، يعلم جيّدًا أنه سيكون كبش محرقة الجامعة، بل الولاية. وستجِدُهُ بعد عشرين سنة بحاجة إلى علاج نفسي، إذ تتجدّد الصورة في ذهنه كل يوم. أما إذا نجح في تسديده، فسيكون بطلاً. صورته ستتصدّر الصفحات الأولى. وقد يترشّح في ما بعد لِمركز حاكم الولاية. يبلع ريقه مرة أخرى، بينما الفريق الآخر يرصد الوقت مُحْدِثًا جلبةً لإرباكه. يقف وراء الخط، وكأنه يرى مستقبله كلّه على المحك. كل شيء الآن يعتمد عليه. رفاقه في الفريق يُرَبّتون على كتفه مشجّعين، دون أن يتفوهوا بكلمة.

منذ سنة، تقريبًا، أذكر أنني تركت الغرفة لأردّ على الهاتف، لحظة كان الفتى يستعدّ لرمي الكرة. كانت تجاعيد جبهته تعلن شدّة قلقه. وكان يعضّ شفته السفلى. ساقُه اليسرى كانت ترتجف عند ركبته. عشرون ألف مُعجبٍ كانوا يصيحون ويلوِّحون بالأعلام والمناديل لإلهائه.

طالت المكالمة الهاتفية أكثر مما توقَّعت، وعندما عدتُ رأيت مشهدًا جديدًا. هذا الفتى نفسه، وقد ابتلّ شعره بالعصير، تراه الآن وقد حمله رفاقه على الأكتاف، بينما راح هو يقصّ حبال شبكة السلّة، فلا همّ عنده الآن في الدنيا، بل ابتسامته العريضة ملأت الشاشة.

مشهدان متقابلان – الفتى نفسه وقد انكمش جسده على خط الضربة الحرّة، ثم محمولاً على أكتاف رفاقه منتشيًا نشوة النصر، جسّدا أمامي الفرق بين النعمة وعدم النعمة.

العالم يسير من دون النعمة، وكل شيء يتوقَّف على ما أقوم به من أعمال. وأنا دائمًا، الذي يأخذ المبادرة.

أما ملكوت يسوع فيدعونا إلى طريق آخر لا يعتمد على ما نقوم به نحن بل على ما يقوم به هو. ليس علينا أن نشق النفس لكي نحصّل، بل فقط أن نتبع. فقد سبق وأنجز لنا النصر الثمين، وذلك بقبول الله لنا.

عندما أفكر بهاتين الصورتين يتبادر إلى ذهني سؤال مقلق: أيٌ من هذين المشهدين يمثّل حياتي الروحية أكثر؟

الجزء الثاني

كَسرُ حلقة انعدام النعمة

الفصل السادس

الحلقة التي لم تنكسر: قصّة



وُلدت ديزي في شيكاغو، سنة ١٨٩٨ في عائلة من الطبقة العاملة. وكانت المولود الثامن بين عشرة أولاد. كان الوالد يجد صعوبة في تحصيل ما يكفي لطعامهم جميعًا، وقد أصبح تحصيل المال أصعب عندما ابتدأ يعاقر الخمرة. ديزي التي احتفلت بعيد ميلادها المئة حين كنت أكتب هذه السطور، كانت ترتجف عندما تتكلّم عن تلك الأيام. قالت إنّ والدها كان «سكّيرًا فظًّا». وكانت ديزي تنكمش على نفسها في الزاوية تتشنّج حين كان والدها يركل أخاها الطفل وأختها ويطرحهما على الأرض. فقد كرِهَتْه من كل قلبها.

ذات يوم أعلن الوالد أنّ زوجته يجب أن تهجر المنزل عند الظهر. تحلّق الأولاد العشرة حول أمّهم متشبّثين بثوبها وهم يصرخون: «لا، لا تذهبي!» لكنّ الأب لم يتراجع عن موقفه. وفيما كانت ديزي تستند إلى إخوتها وأخواتها، راحت تراقب أمها من وراء زجاج النافذة وهي تسير إلى جانب الطريق محنيّة الظهر، في كل يد حقيبة، وقد راحت تصغر شيئًا فشيئًا واختفت أخيرًا عن الأبصار.

بعض الأولاد التحقوا فيما بعد بوالدتهم، والبعض الآخر ذهبوا ليعيشوا مع بعض الأقارب. أمّا ديزي، فقد كُتِب لها أن تبقى مع والدها. كبُرت ديزي، وتأصّلت في داخلها عقدة صعبة من المرارة، بل وَرَمٌ من الكراهية إزاء ما فعله والدها بالعائلة.

كل أفراد العائلة تركوا المدرسة باكرًا في سبيل الحصول على وظائف، أو للالتحاق بالجيش، ومن ثمّ بدأوا واحدًا تلو الآخر، ينتقلون إلى مدن أخرى. تزوجوا، وأنشأوا عائلات وحاولوا أن يجعلوا الماضي خلف ظهورهم. أمّا الوالد، فقد اختفى – لا أحد علم أين، ولا أحد اهتم.

بعد سنوات عديدة، ظهر الوالد من جديد، وكان ظهوره مفاجأة للجميع. وقد روى قائلاً: «كنتُ في إحدى الليالي في حالة يرثى لها، سكران، أرتجف من شدة البرد، فدخلت فجأة إلى إرسالية إنقاذ لجيش الخلاص. ولكي يحصل المرء على بطاقة طعام، عليه أولاً أن يحضر اجتماع عبادة. وعندما سأل الواعظ إن كان أحد يريد أن يقبل يسوع، فكّرتُ أنه من باب الكياسة، ربما، عليّ أن أتقدم إلى الأمام مع بعض السكّيرين الآخرين. فُوجئتُ أكثر من أيِّ شخص آخر عندما عمِلَت فيّ عَجبًا «صلاة الخاطئ». فالأرواح الشريرة التي كانت فيّ، تركتني إلى غير رجعة. صحوت تمامًا. بدأت أدرس الكتاب المقدس وأصلّي. ولأول مرة في حياتي شعرت أنني محبوب ومقبول. أحسست بأنني نقي.»

والآن، بدأ يزور أولاده، الواحد تلو الآخر ليسألهم المغفرة والصّفح. لا قِبَل له بالدفاع عن شيء مما حصل. لن يستطيع أن يقوّم شيئًا. لكنه نادم، حقًا نادم أكثر بكثير مما يستطيعون أن يتصوّروا. في البداية، ساورت الأولاد الشكوك، وقد أصبحوا الآن في سنّ الكهولة، ولهم أولاد. البعض شكّوا في

إخلاصه متوقّعين أن يسقط من العربة في أية لحظة. بعضهم الآخر قدَّر أنه سوف يطلب مالاً. شيء من ذلك لم يحدث، ومع مرور الوقت ربح الوالد الجميع ما عدا ديزي.

منذ وقت طويل كانت ديزي قد قطعت عهدًا أنها لن تتكلّم قطّ مع «الرجل»، أي والدها كما كانت تدعوه. وظهوره الآن أربكها كثيرًا، وقد عادت ذكريات الماضي البعيد عن سكره وغضبه تطفو أمامها من جديد فيما كانت تتمدّد على سريرها مساءً. «لا! لا يمكن أنْ يمحو كل ذلك بمجرّد قوله: أنا آسف»، قالت ديزي ذلك، وأضافت أنها لا تريد أيّ شيء منه.

قد يكون الوالد أقلع عن الشرب، لكنّ المُسكر كان قد أتلف كبده إلى حد كبير. أصبح مريضًا جدًّا، وقد قضى آخر خمس سنوات من عمره مع إحدى بناته، شقيقة ديزي. كانوا يعيشون في بيتٍ يفصلهم عن بيت ديزي ثمانية بيوت، إنّما في الشارع نفسه. لم تتخلّ ديزي قط عن موقفها إزاء والدها المُحتضر، فما زارته مرّة على الرغم من أنها كانت تمرّ بجانب بيته كلما ذهبت للتسوّق أو لركوب الحافلة. على أنها أظهرت نوعًا من التساهل إذ سمحت لأولادها بزيارة جدهم. قُبيل النهاية، لمح الوالد فتاة صغيرة تقف في الباب، ثم تخطو إلى الداخل. «يا ديزي! يا ديزي! أخيرًا قد أتيت إليّ»، صرخ الوالد وهو يضمّها بين ذراعيه. الكبار الموجودون في الغرفة، لم تطعهم قلوبهم كي يخبروه بأنّ الفتاة ليست ديزي، بل ابنتها مارغرت. فقد كان يهذي ويردّد: «النعمة، النعمة.»

صممت ديزي أن تكون كل حياتها عكس والدها، وبالفعل لم تلمس قطرة واحدة من الكحول. وقد ربّت عائلتها بأسلوب استبدادي ألين من الأسلوب الذي عاشت تحت وطأته. كانت تتمدّد على الأريكة، تحت

رأسها كيسٌ من المطاط المليء بالثلج، وكانت تصيح بالأولاد «اسكتوا! لماذا أنجبتكم أيها الأولاد الأغبياء؟ قد أفسدتم حياتي!» كانت فترة الركود الإقتصادي قد ضربت البلاد، وكل طفل كان عبارة عن فم إضافي يجب إطعامه. كان لها ستة أولاد، تعيش معهم في منزل مؤلَّف من غرفتي نوم، ولا تزال تعيش فيه إلى هذا اليوم. ففي الحجرات الضيّقة، غالبًا ما يدوس الأولاد بعضهم بعضًا. وفي بعض الليالي كانت تجلدهم جميعًا فقط لتسجّل موقفًا ما: كانت واثقة بأنهم فعلوا خطأ حتى ولو لم تمسكهم بالجرم المشهود.

كانت ديزي صلبة كالفولاذ، لم تعتذر قطّ ولم تسامح. ابنتها مارغِرت تتذكّر عندما كانت طفلةً، كيف كانت تأتي إليها باكيةً لتعتذر عن شيء فعلته بغير قصد. وكانت ديزي تردُّ عليها: «لا يمكن أن تكوني آسفة، فلو كنتِ حقًا آسفة، لما كنتِ فعلت ذلك أبدًا.»

سمعْتُ من مارغرت، التي أعرفها جيدًا، الكثير من مثل هذه القصص عن عدم النعمة. فقد قرَّرَتْ أن تكون طيلة حياتها مختلفة عن أمها ديزي. لكنّ حياة مارغريت كان لها مآسيها الشخصيّة، الكبيرة منها والصغيرة، وعندما دخل أولادها الأربعة عتبة المراهقة شعرت بأنها بدأت تفقد السيطرة عليهم. فهي بدورها، أرادت أن تتمدّد على الأريكة، وتحت رأسها كيسٌ من الثلج، ثمّ تصيح: «اخرسوا!» أرادت هي أيضًا أن تجلدهم، فقط لتسجّل موقفًا، أو ربما لتخفيف هذا التوتّر المحتقن في داخلها. ابنها مايكل، الذي بلغ السادسة عشرة سنة ١٩٦٠، كان يغضبها إلى حدٍّ بعيد. فكان باستمرار، يسمع موسيقى «الروك أند رول»، ويضع نظارات سوداء، ويُطيل شعره. وقد طردته مارغريت من البيت عندما قبضت عليه يدخّن، فانتقل ليعيش في مُجمّع «للهبّيين». استمرّت في تهديده وتوبيخه. وقد شَكَتْه إلى القاضي. حَرَمتْه من الوصيّة. جرّبت كلّ الوسائل التي قد تخطر في بالها، ولكنّ شيئًا

ما لم ينفع مع مايكل. وكل كلمة قذفتها في وجهه كانت ترجع بلا جدوى إلى أن جاء يوم وكانت مارغرت تستشيط غيظًا، فقالت: «لا أريد أن أراك ثانيةً ما دمت على قيد الحياة.» كان ذلك منذ ستٍ وعشرين سنة ولم تعد تراه منذ ذلك الحين.

مايكل، هو أيضًا صديق مقرّبٌ لي. وقد حاولت مرات عدّة خلال تلك السنوات الست والعشرين أن أقوم بعمليّة مصالحة بين الاثنين، وفي كلّ مرّة كنت أواجه قوة عدم النعمة الرهيبة. وعندما سألت مارغرت إن كانت تحسّ بالندم على الكلمات التي قالتها لابنها، أو إن كانت تريد أن تتراجع عن شيء مما قالته، التفتت إليّ بنظرة من الغيظ المستعر كما لو كُنتُ مايكل نفسه، وقالت: «لا أدري لماذا لم يأخذه الله من زمن بعيد بسبب كل الأمور التي صنعها!» أدهشني غضبها، ورحت أحدِّق إليها: يداها منقبضتان، ووجهها متجهِّم، والتجاعيد حول عينها متصلِّبة وقلتُ: «هل تعنين أنك كنت تتمنّين الموت لابنك بالذات؟» لم تجب عن سؤالي قطّ.

ترك مايكل عتبة الستينيات أكثر نضجًا. إلاّ أنّ عقله تبلّد بسبب كثرة تناوله مادة مخدِّرة قوية (LSD). ذهب إلى هاواي، وهناك ساكن امرأةً ثمّ تركها وجرّب أخرى ثم تركها أيضًا، وأخيرًا تزوّج. وعندما زرته مرةً قال لي: «مع زوجتي سُوْ يبدو أنّ الأمر قد نجح هذه المرّة.» لكنّ النجاح لم يدم طويلاً. أتذكّر مكالمة هاتفية مع مايكل، عندما قاطعني ذلك الشيء التكنولوجي المزعج الذي يُسَمّى «مكالمة بانتظارك» فالخط أحدث صوتًا صغيرًا، ثم قال لي مايكل: «أعذرني للحظة»، ثم تركني أحمل السمّاعة الصامتة لأكثر من أربع دقائق. عندما أصبح على الخط ثانيةً اعتذر مني. كان مزاجُهُ سيِّئًا. قال: «كانت هذه سُوْ، إننا نُسَوّي آخر الأمور الماليّة للطلاق.»

«لم أعلم أنّ ثمة اتصالات لا تزال قائمة بينك وبين سُوْ»، قلت ذلك ممازحًا. قاطعني بنبرة صوتيّة ذكّرتني بنبرة أمه مارغرت، قائلاً: «لا! وأرجو ألا أراها ثانية طالما حييت.»

انقطع الاتصال بيننا لفترة طويلة. لم نتكلّم فيما بعد إلاّ عن مارغرت، وبالرغم من أنني لم أقل شيئًا، إلاّ أنه بدا لي أنّ مايكل عرف أنّ نبرة صوته تُشبه نبرة صوت أمّه، التي بدورها ورثتها عن أمّها، مما يعيد إلى الذاكرة ما حصل في ذلك البيت القديم في شيكاغو منذ قرنٍ تقريبًا.

وكمرضٍ روحيٍّ مُرَمّز في حَمْضِ العائلة النووي، هكذا كان انعدام النعمة ينتقلُ من حلقة إلى أخرى في سلسلة لم تنكسر قطّ.

يعمل انعدام النعمة عمله بهدوء ويقتل مثل الغاز السامّ الذي لا نحسّ به. فالوالد مات دون أن يُسامح. الأم التي حملت طفلها في بطنها، لم تتكلّم مع ذلك الطفل فترة تساوي نصف حياته. والسُّم يسير خلسةً من جيل إلى جيل.

أما مارغرت، فمؤمنة صادقة، تدرس الكتاب المقدس كل يوم، وقد كلّمتها ذات يوم عن مثل الابن الضال؛ قلت: «ما رأيك بهذا المثل؟ هل تسمعين رسالته عن المغفرة؟»

بدا واضحًا لي على الفور أنها كانت تفكر في هذا الموضوع، إذ من دون تردد أجابت بأنّ المثل يظهر في لوقا ١٥ ثالثًا بين سلسلة من ثلاثة أمثلة هي: الدرهم المفقود، والخروف الضائع والابن الضال. أضافت أنّ موضوع الابن الضال تحديدًا، هو لإظهار الفرق بين الإنسان والأشياء الجامدة من جهة (الدرهم)، وبين الإنسان والحيوان (خروف) من جهة

ثانية. «فالناس يملكون إرادة حرّة»، كما قالت، «وعليهم لذلك، أن يكونوا مسؤولين أخلاقيًا. ذاك الولد (أيْ الابن الضال) كان ينبغي له أن يرجع زاحفًا على ركبتيه وأن يتوب. ذلك ما كان يرمي إليه يسوع.» قلتُ: «تلك لم تكن نقطة يسوع، يا مارغرت. فالقصص الثلاث تشدّد على فرح الواجد. صحيح أنّ الابن الضال عاد إلى البيت بملء إرادته، لكن من الواضح أنّ التركيز الأساسيّ في القصّة يظهر في محبّة الأب الفائقة: «وَإِذْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بَعِيدًا رَآهُ أَبُوهُ، فَتَحَنَّنَ وَرَكَضَ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ.» وعندما حاول الابن أن يعبّر عن توبته قاطع الأب كلام ابنه، الذي كان قد حضّره سابقًا، كي يعلن عن بدء الاحتفال برجوع ابنه سالمًا.»

مرّةً قرأ مُرسل في لبنان هذا المثل على مسامع جماعة من القرويين الذين يعيشون في منطقة تلتقي تقاليدها مع تقاليد البيئة التي يصفها يسوع في المثل، والذين لم يسمعوا هذا المثل من قبل، قال: «ماذا تلاحظون في هذا المثل؟»

خرج القرويون بتفسيرين: الأول يقول إنّ الابن بطلبه حصّته من الميراث، بدا وكأنه يقول لأبيه: «أتمنّى أن تكون ميتًا!» فالقرويون لم يستطيعوا أن يتصوّروا الإهانة العظيمة التي لحقت بالأب أو الاستجابة لطلب مثل هذا. أما الأمر الثاني فكان أنّ القرويين لاحظوا أنّ الوالد ركض كي يلاقي ابنه المفقود منذ عهد بعيد. ففي الشرق الأوسط، يسير الرجل ذو المكانة الجليلة بخطى بطيئة ورزينة ولا يركض مطلقًا. لكننا نرى في قصّة يسوع، أنّ الأب يركض، ومما لا شك فيه أنّ جمهور يسوع إذ ذاك، شهق لدى سماع هذه التفاصيل.

النعمة غير عادلة، هذه إحدى أقسى الحقائق عنها. فمن غير المعقول أن تتوقع من امرأة أن تسامح الأشياء الفظيعة التي فعلها والدها بحقّها فقط لمجرّد أنه قدّم اعتذارًا بعد كل تلك السنين؛ كما أنه من الظلم الطلب إلى تلك الأم أن تتخطّى كل تلك الإساءات التي ارتكبها ابنها المراهق. إلاّ أنّ النعمة على كل حال، ليست ربيبة العدل.

وما يصح في العائلات، يصح كذلك في القبائل وفي الأجناس البشرية وفي الأمم.

الإنسان الذي لا يستطيع

أن يسامح إنسانًا آخر، يهدم

الجسر الذي لا مفر من أن يعبره

هو كذلك.

جورج هيربرت



الفصل السابع

سلوك غير طبيعي



أخبرتُ في ما سبق قصّة عن عائلة تسلسلت أحداثها على مدى قرن من انعدام النعمة. كذلك في تاريخ الشعوب، تتسلسل قصص مشابهة على مدى قرون، وبنتائج شديدة الهول. فإذا سألت مراهقًا من إرلندا الشمالية لماذا ترمي هذه القنبلة اليدوية، أو سألت جنديًا من رواندا لماذا تقطع الرؤوس بهذه المديَّة الحادة، وإن سألت قنّاصًا من يوغوسلاڤيا السابقة لماذا تقتل؟ يجيبك هؤلاء جميعهم بأنهم ربما لا يعلمون لماذا! فالإرلنديون لا يزالون يطلبون الانتقام بسبب الفظاعات التي ارتكبها أوليڤر كرومويل في القرن السابع عشر؛ ورواندا وبوروندي لا زالتا تخوضان حربًا قبليّة عمرها أبعد مما تستطيعه الذاكرة؛ ويوغوسلاڤيا تثأر بسبب ذكريات الحرب العالمية الثانية، محاولةً منع تكرار ما حدث قبل ستة قرون.

إنّ انعدام النعمة هو مثل التشويش الذي تسمعه في الراديو يظهر في الحياة اليوميّة سواء في العائلات أو في الشعوب أو في المؤسّسات. إنها للأسف حالة البشر الطبيعيّة.

تغدَّيت مرةً مع اثنين من العلماء اللذين كانا قد خرجا حديثًا من كبسولة زجاجية مغلقة قرب مدينة تاكسون في ولاية أريزونا. أربعة رجال وأربع نساء تطوعوا لاختبار العَزْل لمدة سنتين. جميعهم كانوا علماء محترفين، والجميع كانوا قد خضعوا لاختبارات نفسيّة وإعدادية، وجميعهم كانوا قد دخلوا الغلاف الجويّ مستعدّين تمامًا لمواجهة ما قد يعترضهم من صعوبات حين ينعزلون عن العالم الخارجي. وقد أخبرني العالِمان أنه في غضون أشهر قليلة انقسم هؤلاء العلماء الثمانية بعضهم على بعض، مؤلفين فريقين، كل فريق أربعة علماء، وقد رفض كل فريق التكلّم مع الفريق الآخر طيلة الشهور الأخيرة من الاختبار. تصوّر، ثمانية أشخاص في قُبّة پلاستكية منقسمة إلى نصفين، يفصل كل نصف منها جدارٍ خفيٌّ من انعدام النعمة.

فرانك ريْد، مواطن أميركي، كان رهينة في لبنان، صَرَّح بعد إطلاق سراحِهِ بأنه لم يتكلّم مع أي من رفاقه الرهائن الآخرين لشهور عدّة بسبب خلاف بسيط، علمًا أنّه كان معظم الوقت مقيّدًا بالرهينة التي كان على خصام معها.

إنّ انعدام النعمة، يسبّبُ شروخًا بين الأم وابنتها، وبين الأب وابنه، وبين الأخ وأخته، وبين العلماء والمساجين والقبائل والأجناس البشرية على اختلاف أنواعها. وإذا تُرِكَ هذا التصدّع دون علاج، يتّسع؛ ومعالجة هذه الشروخ من انعدام النعمة لها دواء واحد: إنه جسر المسامحة المتهاوي.

أثناء مناقشةٍ حامية خرجت زوجتي بصياغة لاهوتيّة ذكيّة. كنّا نُناقش مواضع الخلل فيّ بطريقة جريئة عندما قالت: «أظن أنه لأمرٌ مدهش حقًا، أنني أُسامحك على بعض الأفعال الخسيسة التي فعلتها!»

وحيث أنني أكتب عن المغفرة، لا عن الخطيّة، فسوف أُهمل التفاصيل المثيرة، المتعلّقة بتلك الأشياء الخسيسة. ما هزّني في تعليقها ذلك، كان بصيرتها النافذة إلى طبيعة المغفرة. ليس الأمر كمثاليّة أفلاطونية تنتشر في العالم مثلما ينتشر معطّر الأنفاس من عبوة. فالمغفرة أمر موجعٌ جدًّا، وبعد أن تغفر بوقت طويل، يستمرّ الجرح - أفعالي الخسيسة - عائشًا في الذاكرة. ليست المغفرة عملاً طبيعيًّا، وبموقفها ذاك، أرادت زوجتي أن تعبّر عن رفضها لهذا الواقع غير المنصف.

ثمّة قصّة من العهد القديم، في سفر التكوين، تستوحي الفكرة عينها. فعندما كنت فتًى أُصغي إلى تلك القصّة في صف مدرسة الأحد، لم أستطع إذ ذاك، أن أفهم التداخل والتشابك في مصالحة يوسف مع إخوته. فحينًا كان يوسف يتصرّف بفظاظة، فيلقي إخوته في السجن، وحينًا آخر تراه، وقد اجتاحته موجة من الحزن، فيترك الغرفة لينتحب كالسكران. احتال على إخوته، وخبأ المال في عِدلهم، ثمّ قبض على واحد منهم واحتجزه كرهينة، متّهمًا أحدهم بسرقة طاسه الفضّي. ولشهور، وربما لسنوات ظلّت هذه المكائد تتململ إلى أن بات يوسف أخيرًا غير قادر على ضبط نفسه. استعلَنَ لأخوته وسامحهم بطريقة دراماتيكيّة.

اليوم، بِتُّ أرى تلك القصّة كتفسير واقعيٍّ لعمل المسامحة غير الطبيعيّ. فالإخوة الذين صارع يوسف من أجل مسامحتهم، كانوا هم أنفسهم من تجبّروا عليه، وأعدّوا مكيدة لقتله وباعوه عبدًا. وبسببهم، قضى أجمل أيام شبابه محطّمًا في زنزانة مصريّة. وعلى الرغم من أنه تغلّب على روح العداء، وأصبح يتوق من كل قلبه إلى مسامحة هؤلاء الإخوة، إلاّ أنه لم يستطع أنْ يرقى بنفسه إلى تلك النقطة بعد. فالجرح لا يزال يؤلم كثيرًا.

إنني أنظر إلى تكوين ٤٢-٤٥ وكأنّ يوسف يقول: «أظن أنه لأمر مدهش حقًا، أن أسامحكم على الأفعال الخسيسة التي فعلتموها!» فعندما شَقّت النعمة طريقها إلى يوسف، تردّد صدى حزنه ومحبته بين جنبات القصر. ما كلّ ذلك العويل؟ هل وزير الملك مريض؟ لا! إنّ صحّة يوسف جيدة. كان هذا صوت رجل يسامح.

إنّ وراء كل فعل مسامحة جرح خيانة، وألم جرح كهذا لا يُشفى بسهولة. فقد ظنّ ليو تولستوي أنّ زواجه سوف يكون على الطريق الصحيح عندما طلب من خطيبته اليافعة أن تقرأ يومياته المدوّنة بكثير من التفاصيل المزركشة، حول مداعباته الغرامية. أراد أن لا يُبقي سرًّا مخفيًّا عن سونيا، كيما يبدأ زواجًا نظيفًا ومُسامحًا. وعلى نقيض ذلك، فقد بَذَر تولستوي باعترافاته تلك، بذارًا لزواج سوف يُطلِع عناقيدًا من الكراهية بدل الحب.

وقد كتبت سونيا تولستوي في يومياتها فيما بعد تقول: «عندما يُقبّلُني، أُفكّر دائمًا بأنني لست المرأة الأولى التي أحبَّها.» قد تسامح بعض فوراته الصبيانية، ولكن ليس تلك العلاقة مع أكسينيا، وهي فلاّحة استمرت تعمل في أملاك تولستوي بعد زواجه. «سوف أقتل نفسي يومًا، من شدّة الغيرة»، كتبت سونيا هذا بعد أن رأت ابن السنوات الثلاث الذي لتلك الفلاّحة، وقد بدا صورةً طبق الأصل عن زوجها. «لو بمقدوري أن أقتله (تقصد تولستوي)، وأخلق شخصًا جديدًا، تمامًا كما هو الآن، كنتُ لأفعلُ ذلك بسرور.»

مما كتبت سونيا في يومياتها أيضًا هذه الحادثة المؤرخة في ١٤ كانون الثاني ١٩٠٩: «إنه لا زال يشتهي تلك الفلاّحة العاهرة بجسدها الأنثوي القوي، وساقيها المحروقتين من الشمس، إنها تغريه اليوم بالقوة عينها كما كانت تفعل كل تلك السنوات الماضية...»

هذه الكلمات كتبتها سونيا عندما كانت أكسينيا عجوزًا متجعّدة في الثمانين من عمرها. ولنصف قرن كانت الغيرة وعدم المسامحة قد أعمتاها، ودمّرتا كل حب لزوجها.

أيّة فرصة يمتلكها المؤمن للوقوف في وجه قوة حاقدة كهذه؟ إنها المسامحة كفعل غير طبيعي. وسونيا تولستوي ويوسف وزوجتي يمثِّلون هذه الحقيقة ولو بطريقة غرائزية.

نعلم أنا وجميع البشر
ما يتعلّمه الأولاد في المدرسة
أنّ الذين نفعل لهم الشر
يفعلون لنا الشرور المضاعفة

و.هـ. أُودِن الذي كتَبَ هذه الكلمات، فهِمَ أن ناموس الطبيعة لا يقبل السّماح. هل السنجابيات تسامح القطط على مطاردتها لها فوق أغصان الأشجار؟ أم تسامحُ الدلافين أسماك القرش لالتهامها رفاقها في اللعب؟ إنه عالم، فيه يأكلُ الكلبُ الكلبَ، وليس عالمًا يسامحُ الكلبُ فيه الكلبَ.

وبالنسبة إلى الجنس البشري، فإنّ نظمنا الأساسية – الماليّة والسياسيّة وحتى الرياضيّة – تسير وفق المبدأ الصلب عينه. فلا يُعقَل أن يقول الحكَمُ لأحد اللاعبين في مباراة ما: «أنت خارج الخط، ولكن من أجل روحك الرياضية المثالية لن أحسبها ضدك.» أو أية دولة تجيب جيرانها المعتدين عليها بهذا الكلام: «أنتم على حق، نحن اعتدينا على حُدُودكم. فهلا سامحتمونا؟»

إنّ طعم المسامحة يبدو سيئًا إلى حدٍّ ما. فحتّى حين نرتكب خطأ ما، نريد أن نعود إلى نِعَم الجماعة التي ألحقنا بها الأذى. نفضِّل أن نزحف على

رُكبنا وإن نتلوّى وإنْ نُكفِّر بشكل ما – مثل ذبح شاة، وغالبًا ما يُلزِمنا الدِّين هذا الأمر. عندما قرّر الامبراطور الروماني المقدّس هنري الرابع أن يطلب الصّفح من البابا غريغوريوس السابع سنة ١٠٧٧، وقف حافيَ القدمين على الثلج مدة ثلاثة أيام في باحة المقر البابوي في إيطاليا. قد يكون هنري قد عاد بشعور الرضى حاملاً في قدميه ندوب لسعات الصقيع كعلامات الغفران.

كتبت إليزابيث أوكونور تقول: «بالرغم من مئات المواعظ عن المسامحة، لا نسامِح ولا نسامَح بسهولة. فنحن نكتشف أنّ المسامحة هي دائمًا أصعب مما تبدو عليه في المواعظ.» نحن نغذّي الآلام، ونستفيض في خلق المبرِّر لسلوكنا، ونُطيل أمد العداوات العائلية، ونعاقِبُ أنفسنا، ونعاقب الآخرين – كل ذلك لتجنّب هذا الأمر غير الطبيعي.

شاهدتُ في زيارة إلى باث – إنكلترا، أمرًا كان بمثابة ردٍّ طبيعي على الإساءة إلى شخص ما. فقد اكتشف علماء الآثار في الخرائب الرومانية هناك العديد من «اللعنات»، مكتوبة باللاتينية ومنقوشة على لوحات من التنك أو البرونز. فمنذ قرون رمى الذين كانوا يستعملون هذه الحمّامات بصلواتهم تلك كتقدمة لآلهة الحمّامات، كما يرمي الناس اليوم بالقطع النقدية إلى مياه النوافير من أجل حُسن الطالع. أحدهم مثلاً، طلب من الآلهة الانتقام الدموي من الذي سرق قطعه النقدية الست. لوحة أخرى كُتب عليها: «دوسيميدز فقد قفّازيه. إنه يطلب أنّ الذي سرقهما يفقد عقله وعينيه في الهيكل حيث تُقرر الآلهة.»

عندما نظرتُ إلى اللوحات اللاتينية وقرأتُ ترجمتها، ما صدمني هو أنّ هذه الصلوات منطقيّة. فلماذا لا نُسَخِّر القوة الإلهية لمساعدتنا في تحقيق العدالة البشريّة هنا على الأرض؟ إنّ العديد من المزامير يُعبِّر عن الفكرة

نفسها مترجيًا الله أن ينتقم من الخطأ. قالت صاحبة الظرف والفكاهة، إرْما بومبِك: «يا رب، إن كنتَ لا تقدر أن تصيِّرني نحيلةً، اجعل أصدقائي بُدناء.» هل ثمّة ما هو بشري أكثر من هذا؟

بالمقابل، وفي موقف مغاير، يعلِّمنا يسوع أن نصلِّي هكذا: «وَاغْفِرْ لَـنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا» (متى٦ : ١٢). ففي قلب الصلاة الربّانيّة التي علّمنا يسوع أن نصلّيها، يكمن فعل المغفرة. بينما نجد المستحمّين الرومان يحثّون آلهتهم على إجراء العدالة البشرية، نجد من جهة أخرى أنّ يسوع يجعل غفران الله الكامل متوقّفًا على استعدادنا لمغفرة الأعمال الشريرة.

قال تشارلز وليامز عن الصلاة الربانيّة: «لا يوجد في اللغة الإنكليزية كلمة قد تحمل معنًى مرهبًا أكثر من تلك الكلمة الصغيرة «كما» الواردة في الصلاة الربّانية.» ما الذي يجعل هذه «الكما» مرهبة إلى هذا الحد؟ إنها تُبيِّن في الواقع، أنّ يسوع، وبكل وضوح، ربط مسألة غفران الله لنا بمدى استعدادنا لمسامحة الناس الآخرين. وليس أوضح من تعليق يسوع الوارد مباشرة بعد هذه الصلاة: «وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلاَتِهِمْ، لاَ يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمْ أَيْضًا زَلاَتِكُمْ» (متّى ٦: ١٥).

أن تعلقَ في حلقةٍ من انعدام النعمة مع زوجة أو شريك في العمل شيء، وأن تعلق في ذات الحلقة مع الله القدير شيء آخر. بَيْد أنّ الربّ في صلاته الربّانية يربط هذين الأمرين معًا: فبقدر ما نسمح لأنفسنا بالانعتاق، وبكسر الحلقة والبدء من جديد، يسمح الله لنفسه بالانعتاق وكسر الحلقة والبدء من جديد.

كتب جون درايدن عن تأثير هذه الحقيقة الشافي، قال: «كثيرٌ من مقالات التجريح كُتِبت ضدّي، ربّما أكثر من أيّ إنسان يعيش على هذه

الأرض»، وكان درايدن يستشيط غضبًا ويتهيّأ للرد على أعدائه: «لكنَّ هذه الحقيقة غالبًا ما جعلتني أرتجف كلّما كنت أردّد صلاة مخلّصنا؛ وذلك أنّ الشرط الواضح للمغفرة التي نرجوها هو أن نغفر للآخرين زلاّتهم التي فعلوها ضدّنا؛ ولهذا السبب كنت دائمًا أتجنّب الوقوع في هذا الخطأ، حتى حين كنت أغضب بصورة ملحوظة.»

كان درايدن مُحقًّا في أن يرتجف. ففي عالمٍ تُسَيِّره نواميس من عدم النعمة، يطلب يسوع – لا، بل يأمر – بوجوب المغفرة. فالحاجة إلى المغفرة مُلحّة إلى حد أنها تتقدّم على «الواجبات الدينيّة»: «فَإِنْ قَدَّمْتَ قُرْبَانَكَ إِلَى الْمَذْبَحِ، وَهُنَاكَ تَذَكَّرْتَ أَنَّ لأَخِيكَ شَيْئًا عَلَيْكَ، فَاتْرُكْ هُنَاكَ قُرْبَانَكَ قُدَّامَ الْمَذْبَحِ، وَاذْهَبْ أَوَّلاً اصْطَلِحْ مَعَ أَخِيكَ، وَحِينَئِذٍ تَعَالَ وَقَدِّمْ قُرْبَانَكَ» (متّى ٥: ٢٣ و٢٤).

خَتَمَ يسوع مثله عن العبد الشرّير بمشهد عن سيّده كيف سلّمه إلى المعذّبين. قال يسوع: «فَهكَذَا أَبِي السَّمَاوِيُّ يَفْعَلُ بِكُمْ إِنْ لَمْ تَتْرُكُوا مِنْ قُلُوبِكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ لأَخِيهِ زَلاَتِهِ» (متّى ١٨: ٣٥). كنتُ أتمنّى لو أنّ هذه الكلمات لم تكن في الكتاب المقدس، ولكن ها هي هناك، ومن فم المسيح نفسه. الله وهبنا وكالة مخيفة: بإنكارنا المغفرة للآخرين، نقرّر أنهم غير مستحقّين مغفرة الله، وكذا نكون نحنُ أيضًا. فبشكل ما مدهش، يعتمد الغفران الإلهي علينا. وقد وضعها شكسبير بهذا الشكل الموجز في مسرحيّته «تاجر البندقية» (Merchant of Venice) فقال: «كيف ترجو الرحمة وأنت لم تقدّم شيئًا من ذلك؟»

أحيانًا يسأل طوني كامپولو التلامذة في الجامعات العلمانية ماذا يعرفون عن يسوع. وهل يذكرون شيئًا مما قاله؟ وكان هؤلاء يجيبون

بالإجماع: «أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُم.»[١] هذه الآية تَبْرز أمام الخاطئ أكثر من أي تعليم آخر علّمه يسوع. فموقف كهذا هو ربما محض انتحار. إنه من الصعوبة بمكان أن تسامح إخوتك الفاسدين، كما فعل يوسف؛ وماذا في شأن أعدائك؟ وأعضاء العصابات الذين تراهم في الشارع القريب؟ ومروِّجي المخدّرات الذين يسمِّمون أمّتنا؟

إنّ معظم علماء الأخلاق يتّفقون مع الفيلسوف عمّانوئيل كانْت، ويزعمون في جدليتهم أنّ الإنسان يجب أن يُسامَح فقط إن كان يستحق ذلك. لكنّ كلمة يُسامح (forgive)، تشتمل على كلمة يُعطي (give) (تمامًا مثل كلمة (pardon) التي تتضمن كلمة (donum) أو عطيّة). فالمغفرة مثل النعمة تغلّفها صفة مثيرة للحنق هي عدم الاستحقاق أو عدم الأهلية أو عدم الإنصاف.

لماذا يطلب الله منّا عملاً غير طبيعيّ يتحدّى كل غريزة أصلية؟ ما الذي يجعل المغفرة بهذه الأهمية لدرجة أنها تصبح محوَريّة في إيماننا؟ في اختباري كشخص يُغفَر له دائمًا، ويَغْفِر أحيانًا، أَستطيع أن أفترض أسبابًا عدّة. السبب الأول لاهوتي، (السبب الثاني، والأكثر واقعية سوف أحتفظ به للفصل التالي).

لاهوتيًّا، تُعطي الأناجيل جوابًا مباشرًا عن السؤال: لماذا يطلب الله منّا أنْ نغفر: لأن هذه هي ماهيّة الله. فحين أعطى يسوع الوصيّة، «أحبّوا أعداءكم»

١ يقول ل. جريجوري جونز: «إنّ دعوةً كهذه إلى محبة الأعداء لا تخلو من الرَيبة، إذ تعترف بصراحة أنّ للمؤمنين الأمناء أعداء. ففي حين أنّ المسيح أحرز نصرةً نهائيةً على الخطية والشر عبر صلبه وقيامته، إلّا أنّ تأثير ذينك الشر والخطية لم يتلاشَ. وعليه، فالتفكير من ناحية هي أننا ما زلنا ننتظر أن يحقِّق الفصح نصرة نهائية في حياتنا.»

(متّى ٥: ٤٤)، أضاف إليها هذه القرينة الأساسية: «لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذي فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ» (متّى ٥: ٤٥).

قال يسوع إنّ كل واحد يقدر أن يُحبَّ الأصدقاء والعائلة: «أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ ذلِكَ؟» (متّى ٥: ٤٦). فأبناءُ الآب وبناتُه مدعوّون إلى ناموس أفضل لكي يشابهوا الآب الذي يغفر. نحن مدعوّون لنكون مثل الله، لنحمل شبه عائلة الله.

بينما كان ديتريخ بونهوفّر يُضطَهدُ تحت حُكم النازية الألمانية، كان في صراع مع الوصيّة: «أحبوا أعداءكم»، الى أن وصل أخيرًا الى هذه الخلاصة التي مفادها أنّ ما يميّز المؤمن عن الآخرين هو هذا الأمر «الفريد... الرائع غير العادي.» حتى حين كان يعمل بونهوفّر على تقويض الحكم، كان يتبع وصيّة يسوع أنْ «صَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ» (متّى ٥: ٤٤).

> بواسطة الصلاة نذهب إلى عدوّنا ونقف إلى جانبه ونتوسّل إلى الله من أجله. لم يعِدْنا يسوع بأننا حين نُبارك أعداءنا، ونعمل ما هو صالح لهم، لن يستغلّونا ويضطهدونا. من المؤكد أنهم سوف يفعلون. لكنْ، حتى هذا الشيء لن يؤذينا أو يغلبنا ما دمنا نصلّي لأجلهم... نحن نعمل لهم ما لا يستطيعون أن يفعلوه لأنفسهم.

لماذا جاهد بونهوفّر كي يحبّ أعداءَه ويصلّي لأجل مضطهديه؟ كان لديه جواب واحد: «الله يحبُّ أعداءَه – هذه هي عظمة محبته، كما يدرك ذلك كل من يتبع يسوع.» فإن كان الله قد سامحنا بالدَّين كلّه، فكيف لا نفعل الشيء نفسه؟

مرّةً ثانية يتبادر إلى الذهن مَثَلُ العبد الشرّير. كان لذلك العبد كامل الحق في أن يستاء من رفيقه بسبب ذلك الدَّين البسيط. وبحسب قوانين العدالة الرومانية كان في مقدوره أن يرمي رفيقه في السجن. لم يناقش يسوع خسارة العبد الشخصيّة، بل بالحري وضع تلك الخسارة مقابل ما سامحه به سيده (الله) من دَين للتوّ، والبالغ عشرة آلاف وزنة. فقط اختبار الغفران يجعلنا قادرين على أن نغفر.

كان لي صديق (صار في عداد الأموات) عمل موظّفًا في كلّية ويتون لسنوات عدّة، سمع في أثنائها آلاف العظات في اجتماع العبادة الخاص بالطلبة والموظفين. وبمرور الزمن تلاشى معظم هذه العظات ما خلا بعضًا منها. كان بالأخص يحب إعادة سرد قصّة سام موفات، وهو پروفسور في كليّة پرنستون للاّهوت خدم كمرسل في الصّين. أخبر موفات طلاّب ويتون قصّة مثيرة عن هربه من متعقّبيه الشيوعيين. فقد صادروا بيته وكل ممتلكاته وأحرقوا مبنى الإرسالية وقتلوا بعضًا من أصدقائه الخُلّص. أما عائلة موفات فقد هربت بأعجوبة. عندما ترك موفات الصين، حمل معه ضدّ أتباع الزعيم ماو نقمة عميقة، كانت تتغلغل في كل كيانه. أخيرًا، كما قال لطلابه في ويتون، واجه أزمة إيمان فريدة. «أدركتُ»، قال موفات «أنني إن لم أستطع أن أغفر للشيوعيين، فلن يكون لديّ البتّة، أيّة رسالة أُقدِّمها.»

إنّ إنجيل النعمة يبدأ وينتهي بالغفران. والناس يكتبون الترانيم بعناوين مثل «ما أعجب النعمة» (Amazing Grace)، لسبب واحد: النعمة هي القوة الوحيدة في الكون القادرة على تحطيم السلاسل التي تستعبد الأجيال. النعمة وحدها تُذيب عدم النعمة.

جلستُ مرةً في عُطلة نهاية الأسبوع مع عشرة يهود وعشرة مسيحيين وعشرة مسلمين بما يشبه جلسة المواجهة، وكان يقود الحلقة الكاتب والطبيب النفسي م. سكوت پك، الذي كان يرجو أن يقود هذا اللقاء إلى نوع من التطابق أو على الأقل بداية مصالحة مصغّرة. لكنّ شيئًا من ذلك لم يحصل. بل كان هؤلاء المثقفون الحاذقون على وشك الاشتباك بالأيدي. فاليهود أخبروا عن الأشياء الفظيعة التي عملها بهم المسيحيون. والمسلمون تكلّموا عن الأعمال الرهيبة التي عملها اليهود بهم. بينما رحنا نحن المسيحيّين نحاول التكلّم عن مشاكلنا الخاصة، لكنّها كلّها بدت سخيفة أمام قصص الإبادة الجماعية لليهود ومشكلة اللاجئين الفلسطينيين، وهكذا أصبحنا على الخط الجانبي نصغي إلى أعضاء تينك الجماعتين يعدّدون مظالم التاريخ.

من ناحية أخرى، فإن سيدة يهودية مثقّفة، وكانت في محاولات سابقة تنشط في سبيل المصالحة مع العرب، التَفَتَتْ إلى المسيحيين وقالت: «أعتقد أننا نحن اليهود لدينا الكثير لنتعلّمه منكم أنتم المسيحيين عن الغفران. أنا لا أجد خشبة خلاص أخرى غير ذلك. بيد أنه يبدو من عدم الإنصاف مسامحة الظلم. فأنا عالقة بين المغفرة والعدالة.»

عادت بي الذاكرة إلى إحدى عُطل نهاية الأسبوع، عندما عثرت أثناء قراءتي على هذه الكلمات لِهلموت تِيْليك، وهو ألماني عاش إبّان الرعب النازي؛ يقول:

> إن عمل الغفران هذا، ليس أمرًا بسيطًا بأي شكل... فنحن نقول: «حسنٌ جدًا، إذا كان الطرف الآخر آسفًا، ويرجوني أن أغفر له، فسوف أغفر له، وعندئذٍ أستكين.» فنحن نعمل من الغفران ناموس

المعاملة بالمثل، وهذا أمر لا ينجح قطّ، إذ عندها يقول كل واحد منا لنفسه: «على الطرف الآخر أن يقوم بالخطوة الأولى.» وبعدها أُراقب مثل الصَّقر، كي أرى إن كان الشخص الآخر سيلتفت نحوي بإشارة من عينيه، أو إن كنت أستطيع أن أتحرَّى إشارة صغيرة بين سطور رسالته تظهر أنه متأسف. إنني دائمًا على مشارف الغفران... لكنني لا أغفر أبدًا. إنني متطرِّف في صلاحي.

يخلص ثيليك إلى أنّ العلاج الوحيد كان إدراكه أنّ الله قد سامحه بخطاياه وأعطاه فرصةً أخرى، وهي الأمثولة التي نستقيها من مَثَل العبد الشرير. إنّ كسر حَلَقة عدم النعمة يعني أخذ المبادرة. فبدل انتظار الطرف الآخر كي يأخذ الخطوة الأولى، على ثيليك أن يفعل ذلك متحدّيًا ناموس الطبيعة لجهة الاستحقاق والعدل. وقد فعل ذلك فقط عندما تحقّق أنّ مبادرة الله تكمن في قلب الإنجيل الذي كان يعظه دون أن يمارسه.

ففي قلب أمثال يسوع عن النعمة يقف إله يأخذ المبادرة نحونا: إنه أبٌ مُحبّ يركض ليعانق الضال، وملك يسامح الدَّين الهائل الذي ليس بوسع أي خادم أن يعيده، وربٌّ عمل يدفع لعمَّال الساعة الأخيرة مثلما يدفع لعمال الساعة الأولى، والداعي إلى وليمة العشاء، الذي يخرج إلى مفارق الطرق والأزقّة بحثًا عن الضيوف غير المستحقين.

حطّم الله ناموس الخطيّة العنيد، وذلك بنزوله إلى أرضنا، مستوعِبًا أسوأ ما يمكن أن نقدِّمه؛ الصّلبْ، ومن ثم فصّلَ من ذلك العمل الشرّير العلاج لحالة البشرية. حلّت الجلجثة المشكلة القائمة بين العدل والغفران، وحطّم يسوع إلى الأبد حلقة عدم النعمة، وذلك بقبوله في ذاته البريئة كل متطلبات العدالة الصارمة.

أراني مثل هلموت ثيليك، غالبًا ما انكفئُ نحو صراع المعاملة بالمثل ذاك الذي يُغلق الباب في وجه الغفران. لماذا عليّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى؟ أنا مَنْ اعتُديَ عليه. وهكذا لا أقوم بأيّة خطوة في اتجاه الآخر، وتبدأ التصدّعات في العلاقة تظهر إلى العيان، ثم تتّسع. ومع الوقت تقوم هوّة واسعة من المستحيل عبورها. أشعر بالحزن ولكنْ، نادرًا ما أقبل الملامة. وبالمقابل، أحاول تبرئة نفسي، وأحاول الإشارة إلى المحاولات الخجولة التي قُمتُ بها باتجاه المصالحة. وأستمر في ذكر تلك المحاولات وكأنني أُحَصِّن نفسي في حال اتُّهمت بتدهور العلاقة. أهربُ من تبعة النعمة إلى طمأنينة عدم النعمة.

هنري نُوين، الذي يصفُ الغفران بأنه «المحبة التي يمارسها الناس الذين يحبّون ببساطة» يشرح ذلك بصورة عملية:

كنتُ أقول باستمرار: «إنني أسامحُك»، ولكنْ حتى حين كنت أقول هذه الكلمات، كان قلبي يبقى غاضبًا أو مستاءً. كنت أريد باستمرار أن أسمع من الآخرين الكلام الذي يُخبرني بأنني كنت على حق؛ لا زلت أريد أن أسمع اعتذارات؛ وأشعر بالرِّضى لسماعي بعض المديح ولا سيما إذا كان هذا المديح حول اعتقادي بأني مسامح عظيم!!

لكنّ غفران الله غير مشروط؛ فهو يصدر من قلب لا يطلب شيئًا لنفسه، قلب فارغ تمامًا من الأنانيّة. إنه ذلك الغفران الإلهي الذي ينبغي لي أنْ أمارسه في حياتي اليوميّة. إنّه يدعوني إلى تخطّي كل مجادلاتي التي تقول إنّ الغفران أمر غير حكيم وغير صحّي وغير قابل للتطبيق عمليًا. إنه يتحدّاني أن أتخطّى كل عبارات المديح

والعرفان الموجهة إليّ. وأخيرًا، إنه يطلب مني أن أتخطّى ذلك القِسمَ المجروح من قلبي، والذي يشعر بأنه تأذّى وظُلِم، والذي يريد أن يظلّ مسيطرًا، وأن يضعَ بعض الشروط بيني وبين الشخص الذي يُفترَض بي أن أغفر له.

ذات يوم اكتشفتُ هذا التذكير من الرسول بولس، والمنضوي بين العديد من النصائح الواردة في رومية ١٢: «اَلْمَحَبَّةُ فَلْتَكُنْ بِلاَ رِيَاء. كُونُوا كَارِهِينَ الشَّرَّ، مُلْتَصِقِينَ بِالْخَيْرِ. وَادِّينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِالْمَحَبَّةِ الأَخَوِيَّةِ، مُقَدِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي الْكَرَامَةِ» (رومية ١٢: ٩ و١٠) وتتابع هذه القائمة... إلى أنْ يظهر هذا العدد: «لاَ تَنْتَقِمُوا لأَنْفُسِكُمْ أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، بَلْ أَعْطُوا مَكَانًا لِلْغَضَبِ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِيَ النَّقْمَةُ أَنَا أُجَازِي يَقُولُ الرَّبُّ» (رومية ١٢: ١٩).

فَهمتُ في آخر الأمر أنّ الغفران هو عملُ إيمان. فعندما أغفر للآخرين، أكون واثقًا بأنّ الله هو صانع عدلٍ أفضل مني. وبالغفران أتخلّى عن حقي الشخصيّ، وأترك كل أمور العدلِ لله كي يحُلّها هو. أتركُ في يدي الله الموازين التي ستزين العدل والرحمة.

عندما وصل يوسف إلى نقطة مسامحة إخوته، لم يكن الأذى قد اختفى، لكنّ ثقل الحمل نتيجة تصرّفه كقاضٍ قد سقط عن كاهله. فمع أنّ الأذى لا يختفي عندما أسامح، إلاّ أنه يفقد قبضته عليّ، ويصبح الأمر بين يدي الله الذي يعرف ماذا يفعل. إنّ قرارًا كهذا يحمل في طيّاته مجازفة: والمجازفة هي أنّ الله قد لا يتعامل مع ذلك الشخص كما أرغبُ. (النبي يونان مثلاً، لامَ الله لأنه كان رحومًا مع أهل نينوى أكثر مما يستحقّون).

أنا لا أجد الغفران سهلاً البتّة، ونادرًا ما وددته كافيًا. فالظُلم المؤلم باقٍ، والجراح لا تزال توجِع. عليّ الاقتراب إلى الله أكثر فأكثر مُسَلِّمًا إليه ما تبقّى مما كنت أظن أنني كرّسته له منذ أمد بعيد. وإذْ أفعل هذا، فلأن الأناجيل توضح تلك العلاقة بالقول: الله يغفر ذنوبي كما أغفر للمذنبين إليّ. والعكس صحيح أيضًا: لن أجد القوة للردِّ بالنعمة على الآخرين إلاّ إنْ كنت أعيش في نهر نعمة الله.

إنّ وَقْفَ إطلاق النار بين البشر يتوقف على وَقْفِ إطلاق النار مع الله.

في صحاري القلب

ليبدأ ينبوع الشفاء

من سجن الأيام

فيعلِّم الحرَّ كيف يُسبِّح

و. هـ. أودِن



الفصل الثامن

لماذا نغفر؟



اشتركتُ في مناقشة حامية حول موضوع الغفران الأسبوع الذي فيه مات جِفري دامِر في السجن، وهو قاتل جماعي، اغتصب ثم قتل سبعة عشر يافعًا، وقطّع أجسادهم واحتفظ ببعضٍ من هذه الأعضاء في برّاده. وقد سبّب اعتقاله هزّة في دائرة شرطة ميلووكي عندما عُلم أنّ الضّباط تجاهلوا التوسّل اليائس الذي أطلقه مراهق ڤيتنامي حاول أن يهرب من شقّة دامِر عاريًا ونازفًا. ذاك الفتى أصبح هو أيضًا، ضحيّة دامِر وواحدًا بين إحدى عشرة جثّة عُثر عليها في شقّته.

قُتل دامِر في شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٩٤ حين ضربه زميلٌ له في السجن بعصا مكنسة ضربًا حتى الموت. ذلك اليوم، تضمّنت نشرة أخبار التلفزيون مقابلات مع أقارب ضحايا دامِر المتألمين، وقد صرّح معظمهم بأنهم يأسفون لمقتل دامِر فقط لأن حياته انتهت هكذا بسرعة. كان ينبغي أن يعيش أطول ليذوق الأذى، وليفكّر في الأمور الفظيعة التي فعلها.

أظهرتْ إحدى المحطات التلفزيونية برنامجًا مسجَّلاً قبل أسبوعين من مصرع دامِر. سأله محاوِره كيف استطاع أن يفعل هذه الأمور التي أُدين بها. فأجاب دامِر بأنه في ذلك الوقت لم يكن يؤمن بالله، ولذلك أحسَّ بأنه غير مسؤول تجاه أحد. بدأ بجرائم ثانوية، جرّب أفعال الشرّ الصغيرة، ثم بعدها ذهب أبعد فأبعد. لم يردعه شيء.

أخبر دامِر في ما بعد عن تجديده. وقد تعمَّد في مسبح السجن، وكان يقضي كل وقته في قراءة الكتب الروحيّة التي كانت تصله من خادم «كنيسة المسيح» في المحلّة. بعدها تحوّلت الكاميرا إلى مقابلة مع قسيس السّجن الذي أكَّد أن دامِر قد تاب بالفعل وأصبح الآن أحد العابدين الأمناء.

انقسم النقاش في مجموعتي الصغيرة بين أولئك الذين شاهدوا برامج الأخبار عن مصرع دامِر، وبين الذين كانوا قد شاهدوا المقابلة التلفزيونية معه. المجموعة الأولى رأت في دامِر وحشًا، وأيُّ تقرير عن تجديده في السجن هو هراء. وإنّ وجوه أقارب الضحايا البالغة التأثّر، تركت انطباعًا عميقًا. أحدهم قال بصراحة: «إنّ جرائم بهذه الفظاعة لا يُمكن مسامحتها. لا يمكن أن يكون مُخْلصًا في توبته.»

أمّا الذين كانوا قد شاهدوا المقابلة مع دامِر، فلم يستطيعوا الجزم في الأمر. وقد أجمعوا على أنّ جرائمه كانت مقيتة فوق التصديق. بيْد أنه بدا نادمًا ومتواضعًا. أخيرًا تحوَّلت المناقشة إلى السؤال التالي: «هل يستثني الغفران أحدًا؟» ذلك المساء لم يذهب أحد وهو يشعر بالارتياح الكامل للأجوبة التي أُعطيت.

إنّ فضيحة الغفران تتصدّى لأيّ شخصٍ يقبل بهدنة أخلاقية، لمجرّد أنّ أحدهم قال: «أنا آسف.» فعندما أشعر بأنني مظلوم، بمقدوري أن أخترع مئة حجّة في وجه الغفران. هاك بعض الأمثلة: يحتاج إلى أن يُلَقَّن درسًا؛ أو، لا أريد أن أُشجِّع السلوك غير المسؤول؛ أو، أودّ أن أجعلها تتحرّق قليلاً، هذا لفائدتها. تحتاج إلى أن تتعلّم أنّ كل فعل له عواقبه؛ أو، أنا المظلوم – لستُ أنا من يقوم بالخطوة الأولى. كيف أقدر أن أسامحه وهو غير نادم؟ أستمرُّ في تقديم أعذاري إلى أن يحصل ما يوهِن مقاومتي. وعندما ألينُ أخيرًا إلى حدّ منح المغفرة، يظهر ذلك وكأنه إذعان أو وثبة من المنطق الصارم إلى العاطفة الرقيقة.

لماذا أقوم بتلك القفزة على الإطلاق؟ سبق وذكرت عاملاً واحدًا يحرّكني كمؤمن: إنّني أُوصيت بذلك كابنٍ للآب الذي يغفر. لكن ليس للمؤمنين هيمنة على الغفران. لماذا يختار أيُّ واحدٍ منا، مؤمنًا كان أو غير مؤمن، هذا العمل غير الطبيعي؟ أستطيع أن أتبيّن على الأقل ثلاثة أسباب عمليّة، وكلّما أجَلْتُ الفكر في أسباب هذا الغفران رأيت فيها منطقًا يبدو ليس فقط «صلبًا» بل أساسيًا.



أولاً: الغفران وحده يستطيع أن يوقف دوّامة اللوم والألم محطّمًا بذلك سلسلة عدم النعمة. إنّ الكلمة الأكثر شيوعًا في اليونانية لمعنى الغفران في العهد الجديد تعني حرفيًا يُعتق أو يرمي بعيدًا أو يحرّر.

إنّني أُقرُّ ببساطة، بأنّ الغفران غير منصف. فالهندوسية بتعليمها عن الكارما (تصرّف وسلوك الشخص يحدّد مصيره)، تُقدّم إحساسًا بالعدل أكثر إقناعًا. والدّارسون الهندوس يحسبون بدقة رياضية كم يحتاج صلاح

الإنسان لكي يصبح مؤهّلاً: فلكي يوازن العقاب كل خطاياي في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى، يكفيه ٦،٨٠٠،٠٠٠ عملية تقمّص.

يُعطي الزواج لمحة عن عملية الكارما. إنسانان عنيدان يعيشان معًا، ويوتّران بعضهما أعصاب بعض ويطيلان أمَدَ النزاع بعملية شد حبال انفعاليّة. يقول أحدهما: «لا أصدّق أنك نسيت يوم عيد ميلاد أمّك.»

«انتظري لحظة، أليس من المفترض أن تكوني المسؤولة عن الرُزنامة؟»
«لا تحاول إلقاء اللوم عليَّ – إنها أُمّك.»
«أجل، لكنني أوصيتك الأسبوع الفائت بالذات، بأن تُذَكّريني. فلماذا لم تفعلي؟»
«أنت مجنون – إنها أمّك أنت. ألا تقدر أن تحفظ تاريخ عيد ميلاد أمّك؟»
«لماذا عليّ ذلك؟ إنه واجبكِ أن تُذكّريني.»

يستمر هذا الحوار التافه أيضًا وأيضًا، لِنَقُلْ ٦،٨٠٠،٠٠٠ دورة إلى أن يقول أحد الشريكين أخيرًا، «توقف! أنا سوف أكسرُ الحلقة.» والطريقة الوحيدة لعمل ذلك هي الغفران: أنا آسف. هلا سامحتني؟

إنّ الكلمة «استياء» تُعبّر عما يحصل أعلاه في حال استمرّ السِّجال دون انقطاع. ويعني ذلك حرفيًّا «يُحسُّ من جديد»: فالاستياء يتّصل بالماضي، ويحييه باستمرار. إنه يقتلع كل نموّ جلدي جديد لكي لا يدع الجرح يلتئم. هذا النموذج بدأ بدون شك، مع أول زوجين على الأرض. وعلى حدِّ تعبير مارتن لوثر «فكِّر بذلك الشِّجار الذي كان يحصل باستمرار بين آدم وحوّاء على مدى عمرهما البالغ أكثر من تسعمائة سنة، ربما كانت حوّاء تقول لآدم: أنتَ أكلتَ الثمرة، وآدم يردُّ بسرعة: أنت أعطيتها لي.»

ثمة روايتان لفائزَيْن بجائزة نوبل للآداب توضّحان هذا النموذج بطريقة مرتّبة. ففي كتاب (Love in the Time of Cholera)، يصوّر غبريال غارسيا ماركيز زواجًا يتفسّخ بسبب قالب من الصابون. كانت مهمّة الزوجة أنْ تجعل البيت مرتّبًا بما في ذلك تجهيز المناشف وورق المرحاض والصابون في الحمّام. ذات يوم نسيَت أن تبدّل قالب الصابون، وهي هفوة غير مقصودة، إلاّ أنّ الزوج علّق عليها بكثير من المبالغة: ((ظَلَلْتُ أستحمّ لمدة أسبوع تقريبًا من دون صابون))، وهذا ما نفته بشدّة. وعلى الرغم من أنّ الأمر بدا جليًا بأنها نسيت بالفعل، إلاّ أنّ كبرياءها كانت في الميزان ولم تتراجع. ولسبعة شهور تلت كانا ينامان في غرفتين منفصلتين، وكانا يأكلان صامتين. ويكتب ماركيز فيقول: «حتى حين أصبحا مُسنَّين وقانعَين، كانا شديدَي الحرص على ألاّ يثيرا ذلك الأمر من جديد، لأنّ الجراح التي بالجهد التأمت، قد تعود للنزف ثانيةً وكأنها حصلت أمس.» كيف يستطيع قالب من الصابون أن يهدم زواجًا؟ لأنّ أحدًا من الشريكين لم يكن مستعدًّا أن يقول للآخر: «كفى. هذا لا يمكن أن يستمرّ. أنا آسف. سامحني.»

أما فرنسوا موریاك فيخبرنا في كتابه (The Knot of Vipers) قصة مشابهة عن رجل عجوز قضى العقود الأخيرة – نعم، عقودًا! من زواجه وهو ينام في الرواق بعيدًا عن زوجته. حصل خلاف بينهما منذ ثلاثين سنةً حول ما إذا كان الزوج إذ ذاك، قد أظهر اهتمامًا كافيًا عندما مرضت ابنتهما ذات السنوات الخمس. اليوم، لا الزوج ولا الزوجة مستعدان أن يأخذا الخطوة الأولى. كل ليلة كان ينتظر أن تأتي إليه لكنها لم تفعل. وكل ليلة كانت هي تبقى مستيقظة، تنتظر منه أن يأتي إليها، لكنه لم يظهر. أحد منهما لم يكسر الدوّامة التي بدأت منذ سنوات. لا أحد يريد أن يسامح.

كتبت ماري كار في ذكرياتها (The Liar's Club)، عن عائلة مفكّكة، فتُخبر عن عمٍّ من تكساس ظلّ مع زوجته مدَّة أربعين سنة دون أن يتكلّم أحدهما مع الآخر، وذلك بعد شجار حول كمية المال التي صرفتها زوجته على السُّكر. ذات يوم أخذ منشار الخشب ونشر بيتهما إلى نصفين تمامًا من أعلى إلى أسفل. وقد غلّف الجهتين المكشوفتين من كل جزء بألواح خشبية، وجرّ أحد نصفي البيت خلف أيْلة غضّة من الصنوبر العكش على قطعة الأرض ذاتها. هناك عاش الزوج والزوجة طيلة أيامهما الباقية في نصفين منفصلين من البيت.

الغفران يقدّم طريقًا للخروج. إنه لا يُسَوّي وضع كل الأسئلة حول الملامة والمساواة، وغالبًا ما يتجنب هذه الأسئلة، لكنه يُفسح في المجال أمام العلاقة كي تبدأ من جديد. بهذا، يقول سولجنيتسين، نمتاز عن جميع الحيوانات، وليست قدرتنا على التفكير، بل قدرتنا على التوبة والمغفرة هي التي تجعلنا مختلفين. وحدهم البشر، يستطيعون أن يقوموا بهذا العمل غير الطبيعي الذي يتجاوز حدود الناموس الطبيعي الصارم.

إن كنا لا نتجاوز الطبيعة، نبقى مشدودين إلى الناس الذين لا نقدر أن نغفر لهم، مُمسَكين في قبضة ملزمتهم. هذا المبدأ يسري حتى عندما يكون أحد الطرفين بريئًا تمامًا، والطرف الآخر هو الملوم، لأن الطرف البريء سوف يحمل الجرح إلى أن يستطيع هو أو هي أن يجد مخرجًا لذلك. والغفران هو المخرج الوحيد.

كتب أوسكار هيولوس رواية مؤثّرة بعنوان (Mr. Ive's Christmas)، وهي تتحدّث عن رجل تخنقه المرارة، إلى أن استطاع من قلبه، وبطريقة ما، أنْ يغفر للمجرم اللاتيني الذي قتل ابنه. وبالرغم من أنّ أيفز نفسه لم يفعل شيئًا سيئًا، إلاّ أنّ الجريمة أبقته لعقود أسير عواطفه.

أحيانًا أُطلِق لفكري العنان في تخيّل عالم بدون غفران. ماذا يحدث لو أنّ كل ولد حمل الضغينة ضدّ والديه، وكل عائلة أورثت العداوة للأجيال القادمة؟

تحدّثت عن عائلة واحدة – ديزي ومارغرت ومايكل – وعدوى انعدام النعمة التي أصابتهم جميعًا. أنا أعرف وأحترم وأستعذب العلاقة مع كل فردٍ من أفراد تلك العائلة على حدة. وعلى الرغم من ذلك فهم يتقاسمون تقريبًا المقياس الوراثي نفسه، واليوم، لا يستطيعون أن يجلسوا معًا في الغرفة ذاتها. جميعهم احتجّوا لديّ بأنهم أبرياء – لكنّ الأبرياء أيضًا يتألّمون من نتائج غياب النعمة. فهذه مارغرت تصرخ في ابنها قائلةً: «لا أريد أن أراك أبدًا ما دمتُ حيّة!» وقد نالت ما تمنّت، وهي الآن تتألّم بسبب ذلك كل يوم. أستطيع أن أرى الألم في عينيها الضيّقتين، والتوتّر في حنكِها كلّما ذكرت اسم «مايكل».

وأُرخي العنان لخيالي ليجمح أكثر، إلى عالمٍ، كلُّ جماعةٍ فيه تضْمر الضغينة لحكّامها الأباطرة السابقين، وكلُّ عرقٍ يكره العرقَ الآخر، وكلُّ قبيلة تحارب الأخرى وتنافسها وكأن كلّ مظالم التاريخ تجمّعت خلف كل احتكاك لأمّة أو عِرق أو قبيلة. أُحسُّ بانقباض الصدر عندما أتخيّل مشهدًا كهذا، لأنه يُحاكي عصرنا الآن. وكما قال الفيلسوف اليهودي هانّا أرِنْدت، إنّ العلاج الوحيد لحتميّة التاريخ هو الغفران؛ وإلاّ فسوف نبقى محصورين في «مأزق عدم الرجوع».

عدم المسامحة يحبسني في الماضي ويُغلق علي كل قدرة للتغيير. وهكذا أتنازل عن السيطرة لشخص آخر، لعدوّي، وأقضي على نفسي بتحمّل نتائج الخطأ. سمعت مرةً حاخامًا مهاجرًا ينطق بعبارة مثيرة، قال: «قبل أن آتي إلى

أميركا، كان عليّ أن أُسامح أدولف هتلر، فلم أشأ أن أجلب هتلر في داخلي إلى بلدي الجديد.»

نحن نغفر ليس لمجرد تكميل ناموس أخلاقيّ سام؛ نحن نفعل ذلك من أجل أنفسنا. وكما قال لويس سميدس: «إنّ الشخص الأول، وربّما الوحيد الذي يُشفى من جرّاء المغفرة هو الشخص الذي يغفر... وعندما نغفر بصورة صادقة، نُطلِق سجينًا من سجنه، وعندها نكتشف أنّ السجين الذي أُطلق سراحه هو نحن.»

وبالنسبة إلى يوسف الذي كان يحمل ضغينة مُحِقّةً ضدّ إخوته، فقد تدفّقت المغفرة منه على شكل دموع وأنين. وكولادة طفلٍ، كانت هذه بشائر تحرير، وبها استعاد يوسف أخيرًا حرّيته. وقد سمّى ابنه منَسّى، «أيْ الذي يُنسيه». وليس أصعب من المغفرة إلاّ بديلها.

مقدرة الغفران العُظمى، ثانيًا، هي أنها تستطيع أن تحلّ عقدة الذنب في المذنِب. فالذنب يفعل فعل التآكل في صاحبه حتى لو قمُع بشكل واعٍ. هنري ألكسندر كان عضوًا في منظّمة كوكلاكس كلان العنصريّة. وفي عام ١٩٩٣ باح باعترافٍ لزوجته عن ماضيه. سنة ١٩٥٧ سحب هنري وزمرة من رفاقه في التنظيم سائق شاحنة أسود من مقصورته وساروا به إلى جسر عالٍ مهجور فوق نهر سريع، وحملوه على القفز وهو يصرخ ليلاقي حتفه.

سنة ١٩٧٦ دين ألكسندر بالجريمة. انقضت حوالى عشرين سنةً حتى جيء به إلى المحاكمة. ادّعى البراءة وقد بُرِّئت ساحته بواسطة قاضٍ أبيض. ولمدة ستٍ وثلاثين سنة أصرّ على براءته حتى جاء يوم في سنة ١٩٩٣ حين اعترف بالحقيقة لزوجته، قال لها: «لا أعلم حتّى، ما هي

خطة الله لي. لا أعرف حتى، كيف أصلّي لأجل نفسي.» بعد أيام معدودة فارق الحياة.

كتبت زوجة ألكسندر رسالة اعتذار إلى أرملة الرجل الأسود، وفي ما بعد نُشرت الرسالة في جريدة (The New York Times)، وقد كتبت تقول: «عاش هنري كل حياته على كذبة، وجعلني أعيشها كذلك.» كانت طيلة تلك السنين تصدّق ادّعاءات زوجها بالبراءة. لم يُظهر أية إشارة ندم حتى الأيام الأخيرة من حياته، وقد تأخّر كثيرًا في محاولة التعويض العلني عن الخسارة. بيْد أنه لم يستطع أن يحمل معه سرّ ذنبه الرهيب إلى قبره. بعد ستٍّ وثلاثين سنة من الإنكار العنيد، وجد أنه لا يزال في حاجة إلى الانعتاق الذي لا شيء سوى الغفران يستطيع أن يؤمِّنه.

عضو آخر في التنظيم عينه، لاري تراپ من مدينة لنكولن في ولاية نبراسكا، وضع عناوين وطنية عريضة في سنة ١٩٩٢ حين تخلّى عن عداوته ومزّق أعلامه النازيّة وحطّم كل مقالات أدب الكراهية. وكما تروي كاثرين واترسون في كتابها (Not by the Sword)، كانت المحبة الغافرة التي عاشها مرنّم يهودي وعائلته سببًا في عودة «تراپ» إلى جادة الصواب. وعلى الرغم من أنّ «تراپ» كان قد أرسل إليهم العديد من الكراريس الكريهة وسخِر من اليهود ذوي المناخر الكبيرة، وأنكر المحرقة التي تعرضوا لها، ومع أنه هدّدهم بالعنف بالمكالمات الهاتفية، واستهدف مَجمَعَهم لتفجيره، إلاّ أنّ عائلة هذا المرنّم ردّت بالعطف والاهتمام المستمر. ولأن «تراپ» هذا كان منذ طفولته يعاني من مرض السّكري، فقد أصبح الآن محصورًا في كرسيّ ذات عجلات، ولم يمضِ وقت قصير حتى أُصيب بالعمى؛ وقد دعت هذه العائلة «تراپ» إلى منزلها للاهتمام به. وقد قال «تراپ» فيما بعد: «أظهروا لي محبة عظيمة، حتى إنني لم أستطع إلا أن

أحبّهم بدوري.» وقد أمضى الشهور الأخيرة من حياته يطلب المغفرة من الجماعات اليهودية، والجمعية الوطنية للأميركيين السود، ومن أفراد كثيرين كان يكرههم.

شاهَدَت الجماهير الكثيرة في السنوات الأخيرة، وعلى نطاق عالمي، تجسيد الغفران في المسرحيّة المُغنّاة الشهيرة، البؤساء (Les Misérables). وقد تَتَبَّعَت المُغنّاة مصدرها الأساسي، رواية ڤيكتور هيغو الواسعة الانتشار، حيث تخبر قصّة جان ڤالجان، وهو سجين فرنسي، لاحقه الغفران وغيّره في النهاية.

حُكِمَ على جان ڤالجان بالأشغال الشاقة لمدة تسعة عشر عامًا بجُرم سرقة الخُبز، وقد تحوّل جان ڤالجان مع الوقت إلى محكوم صلب المراس. لم يستطع أحد أن يهزمه في «الملاكمة» أو يثبّط عزيمته. وأخيرًا حصل ڤالجان على حريّته. كان على المحكومين في تلك الأيام أنْ يحملوا معهم بطاقاتهم الشخصيّة، فلم يكن أي مدير فندق يسمح لمرتكب جناية خطِر أن يقضي ليلة واحدة في نَزله. فكان على ڤالجان أن يجوب شوارع القرية لأربعة أيام، بحثًا عن مأوى يقيه قساوة الطقس، إلى أن أشفق عليه أخيرًا أسقف لطيف.

ظلّ جان ڤالجان تلك الليلة مستلقيًا على سرير مريح للغاية، إلى أن شعَر بأنّ الأسقف وأُخته قد استسلما للنوم. نهض من سريره، وراح يفتش في الخزانة إلى أن وجد فضّيات العائلة، ثم انسَلَّ خارجًا تحت جنح الظلام.

صبيحة اليوم التالي قرع باب الأسقف ثلاثة من رجال الشرطة، وكان ڤالجان برفقتهم. فقد أمسكوا به أثناء الليل وهو يحاول الهرب حاملاً ما سرقه من الفضّة وكانوا على وشك وضعه في السجن مدى الحياة.

ردَّ الأسقف بطريقة لم يتوقّعها أحد ولا سيّما جان ڤالجان نفسه: «ها أنت مجدّدًا!» ناداه الأسقف: «أنا مسرور لرؤيتك ثانيةً. هل نسيت أنني أعطيتك الشمعدانات كذلك؟ فهي أيضًا من الفضّة، وتساوي ٢٠٠ فرنك على الأقل. هل نسيتَ أن تأخذها؟»

اتّسعت حدقتا جان ڤالجان. كان الآن يحدِّق في الأسقف العجوز، وتعابير وجهه يعجز الكلام عن وصفها.

لم يكن ڤالجان لصًّا، كان هذا ما أكّده الأسقف للشرطة. «فهذه الفضة كانت هدية منّي له.»

عندما انسحب رجال الشرطة، أعطى الأسقف الشمعدانات لضيفه الذي كان الآن يرتجف صامتًا. قال له الأسقف: «لا تنسَ، لا تنسَ أبدًا أنك وعدتني بأن تستخدم هذا المال لتجعل من نفسك رجلاً شريفًا.»

إنّ تأثير ما فعله الأسقف، الذي تحدّى كل رغبة بشرية غريزية في الانتقام، غيّر حياة جان ڤالجان إلى الأبد. مُواجهة مكشوفة مع المغفرة، وخاصةً لأنه لم يكن قد تاب بعد، ذوَّبت كل دفاعات نفسه الصوّانيّة. فقد احتفظ بالشمعدانات باعتبارها لحظة ثمينة من النعمة وكرّس نفسه من تلك اللحظة لمساعدة المحتاجين.

إنّ روايةَ هيغو هي في الحقيقة، مَثَلٌ للمغفرة، ذات حدَّين. ثمّةَ تحَرٍّ يُدعى جاڤير لم يعرف قانونًا سوى العدالة، ظل يتحرّك متوعّدًا جان ڤالجان دونَ رحمة، طيلة العقدين التاليين. وبما أنَّ ڤالجان تغيّر من طريقِ الغفرانِ فقدْ ظلّ التحريّ يتآكلُهُ التعطّشُ للانتقام. وحينَ أنقذَ ڤالجان حياةَ التحرّي جاڤير – وهنا تُظهِرُ الطريدة رحمةً لمطاردِها –

يبدأُ تصلُّب التحرّي بالتفتّت. ولأنه لم يستطع أن يكتسي بالنعمة التي تتحدّى كل غريزة، ولا قدِر أن يجد في داخله مساحة للغفران، فقد قفز جاقير من فوق جسرٍ ليغوص في نهر السين.

إنّ الغفران الشافي للنفس، كالذي منحه الأسقف لڤالجان، يفسح في المجال للتغيير في أوساط جماعة المذنبين. يُفَصِّل لويس سميدس هذه العملية من «الجراحة الروحية» كما يلي:

> عندما تغفر لأحدهم، أنت تُزيل الخطأ من الشخص الذي فَعَله. أنت تُعتق هذا الشخص من فعله المؤذي ذاك. أنت تُحفّزه من جديد. في لحظة، أنت تعتبره الشخص المخطئ بحقك بطريقة يتعذّر محوها، ثم في اللحظة التالية أنت تغيّر تلك الهويّة. فقد أعَدْتَ صُنعه في ذاكرتك. إنّك لا تفكر فيه الآن باعتباره الشخص الذي آذاك، بل الشخص الذي يحتاج إليك. لا تشعر الآن بأنه الشخص الذي نبذك، بل الذي ينتمي إليك. فإذا اعتبرته إنسانًا عنيدًا في الشر، فإنك الآن، تحسبه إنسانًا ضعيفًا في حاجاته. بذلك تكون قد أعَدْتَ خَلْقَ ماضيك بخلقِكَ الشخص الذي خطأهُ صَنَعَ ماضيك الأليم.

يُضيف سميدس تحذيرات عدّة. إنه ينصح بأنّ المغفرة ليست تمامًا كالعفو: فقد تسامح شخصًا أخطأ إليك، مع إصرارك بإنزال عقوبة عادلة بحقّه. أمّا إذا استطعت أن تصل بنفسك إلى نقطة الغفران، فسوف تُطْلق قوّتها الشافية، في ذاتك وفي الشخص الذي أخطأ إليك.

سأل صديقٌ لي يعمل في وسط المدينة إن كان الغفران للذين لم يتوبوا أمرًا ذا معنًى. فهذا الرجل يرى يوميًّا نتائج الشرّ، من اغتصاب الأطفال إلى

المخدِّرات إلى العنف والعُهر... وقد سأل: «إذا كنتُ أعلمُ أنّ هذا الشيء خطأ، وسامحتُه دون أن أُخاطب الخاطئ، فماذا أكون قد عملت؟ إنني أشجِّعه على التمادي بدل تحريره.»

أخبرني صديقي هذا قصصًا عن أشخاص يعملون معه، وأنا أوافق أنّ بعضًا منهم يظهر وكأنّه تجاوز حدود المغفرة. إلاّ أنني لا أستطيع أن أنسى مشهد الأسقف المثير للإعجاب في غفرانه لجان ڤالجان الذي لم يعترف بأي خطأ. فالغفران له قوته غير العادية، والتي تصِل إلى أبعد من الناموس وأبعد من العدالة. قبْل البؤساء قرأت (The Count of Monte Cristo) وهي رواية لإسكندر دوما زميل هيغو، والتي تُخبر قصة رجل استُذنِب لإحكامه خطّة انتقام من الرجال الأربعة الذين شهدوا زورًا ضده. إنّ رواية دوما أثارت فيّ شعور الرغبة بتحقيق العدالة؛ بينما رواية هوغو أيقظت فيَّ إحساس النعمة.

العدالة لها قوة حسنة وصالحة وعاقلة. أما قوة النعمة فمختلفة: فهي ليست دنيوية، إنها مُغيِّرة وخارقة للطبيعة. ريجينالد دِنّي، وهو سائق الشاحنة الذي هُوجم خلال أعمال الشّغب في لوس أنجلس، أثبت قوة النعمة. فالأمة بأسرها شاهدت شريط الڤيديو بواسطة الطوّافة، عن رجُلين كسرا زجاج شاحنته بحجر قرميد، ثم سحباه من مقصورته وراحا يضربانه بزجاجة مكسورة ويركلانه إلى أن سقط جانب من وجهه. في المحكمة، أظهر معذّباه العداوة وعدم التوبة والإذعان. وبينما كانت كل وسائل الإعلام تغطّي هذا الحدث، تخلّص ريجينالد دِنّي من محاميّيه المحتجّين، وشقّ طريقه نحو والدَتَي ذينك المتّهمَين فيما كان وجهه لا يزال متورمًا ومشوّهًا، وعانق السيّدتين وأخبرهما أنه سامح ولديهما. ضمّت الوالدتان دِنّي، ثم قالت إحداهما: «أنا أحبُّك.»

لا أعلم مدى تأثير ذلك المشهد على المتّهَمين القابعَين في أصفادهما على مقربة منه. لكنني أعرف بالتأكيد أنّ المغفرة وحدها تستطيع إجراء التحوّل في الفريق المذنب. كما أنني بدوري أعرف مدى تأثيرها عليّ عندما يأتي إليّ زميلي في العمل، أو زوجتي من دون تأخير ويغفران لي ذنبًا لم أشأ الاعتراف به بسبب كبريائي وعنادي.

المغفرة، غير المستحقّة وغير المكتسبة، تستطيع أن تُقطّع الرُّبُط وتلقي بحمل الذنب بعيدًا عن كاهل صاحبه. يُظهِر العهد الجديد يسوع المُقام، وهو يقود بطرس من يده في خطوات الغفران الثلاث. لم يكن بطرس في حاجة إلى المضيّ في حياة يلازمها الشعور بالذنب بسبب خيانته ابن الله. كلاّ البتّة. فعلى أكتاف خطاة تغيّروا سوف يبني المسيح كنيسته.

المغفرة تكسر حلقة اللوم وتحلّ قبضة الذنب المستحكمة. إنها تُنجز هذين الأمرين برباط رائع، واضعةً المُسامِح في الجانب نفسه مع الفريق الذي ارتكب الخطأ. بهذا نتحقّق من أننا لا نختلف عن المذنب ذلك الاختلاف الذي كنا نظن. قال سايمون وايل: «أنا أيضًا أختلف عمّا كنت أظنه في نفسي. ومعرفة هذا هي المغفرة بالذات.»

ذكرتُ في بداية هذا الفصل مناقشةً جماعية صغيرة حول الغفران، وكان الموضوع يدور حول قضيّة جفري دامِر. وكالكثير من مثل هذه المناقشات، فقد كان الحديث يبتعد عن الإيضاح الشخصي نحو المجرّد والنظري. ناقشنا جرائم أخرى فظيعة والبوسنة والمحرقة اليهودية. وبالمصادفة تقريبًا، أتينا على ذكر كلمة «طلاق» ولدهشتنا تكلّمت ربيكا.

ربيكا امرأة هادئة، وطيلة أسابيع من لقائنا معًا، بالجهد فتحت فمها. ولدى ذكر الطلاق، مضت في سرد قصّتها. فقد تزوّجت بخادم له بعض الشهرة في التدريب على القيادة. بدا لنا في ما بعد أنّ الزوج كان لحياته جانب مُعتِم. فقد تلوّث بالدعارة، وفي رحلاته إلى مدن أخرى عاشر المومسات. أحيانًا كان يسأل ربيكا المغفرة، وأحيانًا لا. بعد فترة قصيرة تركها ليعيش مع امرأة أخرى تُدعى جوليان.

أخبرتنا ربيكا كم كان مؤلمًا لها كزوجة راعٍ أن تعاني هذا الذل. بعض أعضاء الكنيسة الذين كان يحترمون زوجها، عاملوها وكأنها هي السبب في ضلاله الجنسي. وإذ بدت محطّمة، وجدت نفسها تنسَلّ من التواصل مع الناس، غير قادرة على الثقة بشخص آخر. لم تستطع البتّة أن تُخرج زوجها من فكرها إذ كان لهما أولاد، وكان عليها أن تبقى على اتصال منظّم به كي ترتّب حقوقه في زيارة أولاده.

كان يراود ربيكا إحساس متزايد بأنّها ما لم تسامح زوجها السابق، فسوف تنقل إلى أولادها كتلة صلبة من النقمة. قضت شهورًا في الصلاة. بدت صلواتها في بادئ الأمر مليئة بالنقمة مثل بعض المزامير: طلبت من الله أن يعطي زوجها السابق «ما يستحق». أخيرًا وصلت إلى مكان حيث تركت لله وليس لنفسها، أن يقرر «ما يستحقّه زوجها».

ذات ليلة اتصلت ربيكا بزوجها السابق وقالت له بصوت مرتجف متردّد: «أريدك أن تعلم أنني أُسامحك على كل ما فعلته بي، كما أسامح جوليان أيضًا.» ضحك لهذه المسامحة رافضًا الإقرار بأنه أخطأ. وعلى الرغم من رفضه، فقد ساعدت تلك المحادثة ربيكا على تخطّي مشاعرها المُرّة.

بعد بضع سنوات، تلقّت ربيكا مكالمة هاتفيّة هستيريّة من جوليان، المرأة التي «سرقت» منها زوجها. كانت تحضر اجتماعًا راعويًّا معه في مدينة مينيابوليس، وقد ترك غرفة الفندق ليتمشّى قليلاً. مضت بضعُ ساعات قبل أن تعلم جوليان من الشرطة أنّ زوجها اعتُقل بسبب تحرّشه بمومس.

كانت جوليان تنتحب في حديثها مع ربيكا على الهاتف. ومما قالت: «لم أصدّقكِ أبدًا، ظللتُ أقول لنفسي إنه وإن كان ما قلتِه صحيحًا، إلاّ أنه قد تغيّر. والآن ها هو. أشعر بالخزي والأذى والذنب. ليس لي أحد في الدنيا يقدر أن يفهم. ثم تذكّرتُ تلك الليلة عندما قلتِ إنّكِ سامحتِنا. وفكرتُ أنك ربّما تفهمين ما أمرُّ به. إنه لأمر رهيب أن أطلب إليكِ، أعلم هذا، لكن هل أستطيع أن آتي وأتكلّم معك؟»

لا أعلم كيف وَجَدَت ربيكا الشجاعة لتدعو جوليان في تلك الليلة نفسها. جلستا في غرفة الضيوف وبكتا معًا وتشاركتا قصص الخيانة معًا، وفي النهاية صلّتا معًا.

أصبحت جوليان اليوم تشير إلى تلك الليلة باعتبارها ليلة تجديدها.

لزِمت جماعتنا الصمت فيما كانت ربيكا تخبر قصّتها. كانت تصف الغفران ليس في الإطار النظري المجرّد، بل بمعنى عجيب لا يصدّق من العلاقة الإنسانيّة: سارقة الزوج، والزوجة المتروكة، راكعتان جنبًا إلى جنب في غرفة الجلوس تصلّيان.

قالت ربيكا: «شعرت بالحماقة لوقت طويل لأنني غفرت لزوجي. لكن، تلك الليلة عرفت معنى ثمر الغفران. جوليان كانت على حق. كنت الوحيدة ربما، التي تفهم ما كانت تعانيه. ولأنني كنت هناك أيضًا، استطعت أن أكون

إلى جانبها بدل أن أكون عدوّتها. كلانا خُدعَت من الرجل نفسه. أمّا الآن، فالأمر متوقِّف عليّ، كي أعلّمها كيف تجتاز محنتها، وتتغلّب على الكراهية والانتقام والذنب الذي كانت تحسّ به.»

يُقدِّم لويس سميدْس ملاحظة قيّمة في كتابه (The Art of Forgiving)، بقوله إنّ الكتاب المقدّس يصوّر الله، وهو يمرّ في مراحل متتابعة حين يغفر، مثلما نعمل نحن البشر تمامًا. أولاً، يعيد الله اكتشاف إنسانية الشخص الذي أخطأ إليه، وذلك بإزاحة العائق الذي سبّبته الخطيّة. ثانيًا، يتنازل الله عن حقه حتى يصبحا متعادلَين، ثم يختار عوض ذلك أن يحمل الثمن في جسده بالذات. وأخيرًا، يُراجع الله مشاعره نحونا، فيجد طريقة كي «يبرّرنا» حتى حين ينظر إلينا، يرى أولاده الذين تبنّاهم، وعليهم من جديد صورته الإلهية.

خَطَر في بالي، بينما كنت أفكر في منظور سميدس، أنّ معجزة النعمة الإلهية في الغفران أصبحت ممكنة بسبب هذا الارتباط الذي حصل عندما جاء الله إلى أرضنا في المسيح. كان الله يريد، بطريقة ما، أن يَصِل إلى اتفاق مع هذه الخليقة التي أراد أن يحبها حبًّا مفرطًا - إنّما كيف؟ لم يعرف الله، اختباريًّا، كيف يبدو الأمر حين يُجرَّب الإنسان من خطيةٍ ما. لكن، حين عاش بيننا على الأرض، اختبر كيف يكون ذلك. فقد وضع نفسه إلى جانبنا.

كتاب العبرانيين يوضح سرّ التجسّد هذا: «لأنْ لَيسَ لَنا رَئيسُ كَهَنَة غَيْرُ قَادرٍ أَنْ يَرْثِيَ لِضَعَفَاتِنَا، بَلْ مُجرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا، بِلاَ خَطِيَّة» (عبرانيين ٤: ١٥). بينما الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس تذهب إلى أبعد من ذلك إذ تقول: «لأنَّهُ جَعَلَ الَّذي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، خَطِيَّةً لأجْلنَا، لِنَصِيرَ

نَحْنُ بِرَّ اللهِ فيه» (٢كورنثوس ٥: ٢١). لا تقدر أنْ تحصل على ما هو أوضح من ذلك. اللهُ رَدَم الهوّة؛ وقف إلى جانبنا طول الطريق. ولأنه فعل هذا، كما تؤكِّد الرسالة إلى العبرانيين، لذلك يستطيع يسوع أن يعرض قضيّتنا أمام الآب. فقد كان هنا. إنه يفهم ما بنا.

يبدو من روايات الأناجيل، أنّ الغفران لم يكن سهلاً على الله كذلك. فقد صلّى يسوع قائلاً: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ» (متى ٢٦: ٣٩)، فيما كان يفكِّر في الثمن الباهظ، والعَرَق يتصبّب منه كقطرات دم. لم يكن ثَمَّة طريقة أخرى. أخيرًا، وفي العبارة الأخيرة التي نطق بها قبل أن يموت قال: «يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ» (لوقا ٢٣: ٢٤). لهم كلِّهم، للجنود الرومان، وللقادة الدينيين، ولتلاميذه الذين هربوا في الظلام، لك، ولي، «اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ» (لوقا ٢٣: ٢٤). فقط بصيرورته إنسانًا، استطاع ابن الله حقًّا أن يقول: «لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ.» ولأنه عاش بيننا، فقد فَهِم الآن...

في كابوس الظلام القبيح

جميع كلاب أوروپا تصيح

والأمم الحيّة متأهبة

وكلها تعزلها الكراهية

و. هـ. أودِن



الفصل التاسع

تصفية الحساب



إبّان الحرب الأخيرة في يوغوسلاڤيا سابقًا، تناولتُ كتابًا كنتُ قرأته قبل سنوات عدّة وكان بعنوان (The Sunflower) لسايمون ڤيزنتال. يروي هذا الكتاب حادثة صغيرة جرت حوادثها أثناء أكبر حملة «تطهير عرقي» ناجحة عرفها هذا القرن، وهي لا شك حادثة حَوَت الكثير من العناصر كي تدفع بفيزنتال ليصبح أهم صائد للنازيّين، والصوت العلني المتواصل ضد جرائم الكراهية. يُركّز الكتاب على الغفران، وقد تناولته كي أنفُذ إلى كُنه ذلك الدور الذي يلعبه الغفران على المستوى العالمي، لِنَقُلْ، مثلاً، المستنقع الأخلاقي الذي كان مرةً يُدعى يوغوسلاڤيا.

في سنة ١٩٤٤ كان ڤيزنتال سجينًا پولنديًّا شابًّا لدى النازيّين. وقد بدا عاجزًا حين قَتَل الجنود النازيّون جدّته على دَرَج بيتها، وحين أكرهوا أمه على ركوب سيارة شحن محشوّة بالنساء اليهوديات المُسنّات. وقد سيق إلى الموت على يدي النازيّين تسعة وثمانون من أقاربه اليهود. وڤيزنتال نفسه حاول الانتحار حين قُبض عليه، ولكنه لم ينجح.

ذات يوم مُشمس، وبينما كان الملحقون بسجن ڤيزنتال ينظِّفون النفايات من مستشفى للجرحى الألمان، اقتربَتْ منه ممرّضة وسألته متردّدة: «هل أنت يهوديّ؟» ثمّ أومأت إليه كي يرافقها. تبعها ڤيزنتال خائفًا، فصعد بعض الدرجات ثم نزل إلى رواق حيث وجدا نفسيهما في غرفة مُعتمة عفِنة، يتمدّد فيها جندي متوحِّد وقد غطّت الضمادات جروحه. كان يلفّ وجهه نسيجٌ أبيضُ رقيقٌ، فيه فتحات صغيرة للفم والأنف والأذنين.

اختفت الممرّضة بعد أن أغلقت الباب وراءها، تاركةً السجين الشاب وحده مع ذلك الشخص الذي يشبه الطّيف. كان الرجل الجريح ضابطًا في الوحدات النازية الخاصة (SS)، وقد استُدعي ڤيزنتال لسماع اعترافه الأخير، وهو على فراش الموت.

«اسمي كارل»، قال هذا بصوت أجَشّ خارج من مكان ما خلف الضّمادات. ثمّ تابَعَ يقول: «ينبغي أنْ أُخبركَ عن هذا الفعل الرهيب، أُخبرُك لأنك يهوديّ.»

بدأ كارل قصّته مُعيدًا إلى الذاكرة نشأته الكاثوليكية، وإيمانه الطفولي، الذي فقده حين انضمّ إلى فيلق الشباب الهتلري. تطوّع في ما بعد في الوحدات النازية الخاصة (SS)، وخدم بطريقة متميّزة، وقد عاد منذ فترة وجيزة من الجبهة الروسيّة مثخنًا بالجراح. ثلاث مرات همَّ ڤيزنتال بالنّهوض وتَرْك المكان فيما كان كارل يروي قصّته، وفي كلّ مرّة كان الضابط يسرع بالإمساك بذراعه بيد بيضاء خالية من الدم تقريبًا. وقد رجاه أنْ يُصغي إلى ما اختبره لتوِّه في أوكرانيا.

أخبره بأنه بينما كانوا يسيرون في مدينة دنيبروبيتروڤسك المهجورة من الروس المتقهقرين، تعثّرت وحدة كارل، واصطدمت بلغم أرضي، أودى

بحياة ثلاثين جنديًّا. وكردٍّ فعل انتقامي، جمعت الوحدات النازيّة الخاصة (SS) ثلاثماية يهودي وساقتهم مثل قطيع من الماشية إلى بيت من ثلاث طبقات، ورشّوا البيت بالبنزين ثم أطلقوا القنابل عليه. طوّق كارل ورجاله المنزل وصوّبوا بنادقهم ليطلقوا النار على كل من يحاول الهرب.

«كان الصراخ من داخل المنزل رهيبًا»، قال كارل وهو يحاول إحياء المشهد. «رأيتُ رجلاً يحمل بين ذراعيه طفلاً صغيرًا. كانت ثيابه مشتعلةً، وقد وقَفَتْ إلى جانبه امرأة، لا شك أنها كانت أم الطفل. كان الرجل يغطّي عيني الطفل بيده الطليقة، ثم يقفز إلى الشارع. بعد ثوان تبعته الأم. بعدها كانت تقفز من النوافذ الأخرى أجساد مشتعلة. أطلقنا النار... يا إلهي!»

طيلة هذا الوقت، كان ڤيزنتال يجلس صامتًا، وقد ترك الجنديّ يتكلّم. استمرّ كارل في وصف فظاعات أُخرى، لكنه كان لا يلبث أن يعود إلى مشهد ذلك الصبي الشاب ذي الشعر الأسود والعينين الداكنتين، والذي كان هدفًا لرماة الوحدات النازية الخاصة (SS) أثناء سقوطه من المبنى.

«وها أنا الآن متروك هنا مع ذنبي.» قال هذا، ثم أضاف: «أنت هنا معي في الساعات الأخيرة من حياتي. لا أعلم من تكون، كلّ ما أعرفه هو أنك يهوديّ وهذا يكفي.

«أنا أعلم أنّ ما أخبرتك به رهيب. وفي الليالي الطوال، فيما كنت أنتظر الموت بين لحظة وأخرى، كنت أتوق إلى التكلّم عن هذا إلى يهودي، وأطلب منه الغفران. لم أكن متأكّدًا إن كان ثمّة من يهودٍ بعد... أنا أعلم أنّ ما أطلبه منك هو كثير، ولكن بدون جوابك لا أستطيع أن أموت بسلام.»

سايمون ڤيزنتال، المهندس المعماري في أوائل العشرينات، والذي هو الآن سجين في ثياب بالية عليها نجمة داود الصفراء، شَعَرَ بأنّ حِمْل بني جنسه الهائل الساحق ينهال عليه. حدّق في الساحة الخارجية المضاءة بنور الشمس. ثم نظر إلى تلك الكومة من الضمادات من دون عينين، الممدّدة في السّرير. راقبَ ذبابة زرقاء تَطنُّ طائرة فوق الرجل ذي الجسد المائت، وقد جذبتها رائحته. «أخيرًا حزمتُ أمري»، كَتَبَ ڤيزنتال، «ومن دون أيّة كلمة غادرت الغرفة.»

إنّ رواية (The Sunflower)، تُخرجُ موضوع الغفران من الحيّز النظري، وتدفعه في وسط التاريخ الحي. وقد اخترت قراءة هذا الكتاب بالذات لأنّ المأزق الذي واجهه ڤيزنتال، يلتقي على أكثر من خطٍّ متوازٍ مع المآزق الأخلاقية التي لا تزال تمزّق العالم إلى مجموعات كما في يوغوسلاڤيا مثلاً ورواندا والشرق الأوسط.

النصف الأول من كتاب ڤيزنتال يُخبر القصة التي اختصرتها لتوّي. أمّا النصف الثاني، فيُسجِّل ردود الفعل على تلك القصّة من قبل شخصيات لامعة مثل أبراهام هِشِل ومارتن مارتي وسينثيا أُوزِك وغبريال مارسيل وجاك ماريتاين وهيربرت ماركيوز وپريمو لِڤي. وفي النهاية تحوّل ڤيزنتال إلى هؤلاء طالبًا النُّصح حول ما إذا كان قد فعل الصّواب.

أمّا الضابط كارل فمات بعد وقت قصير من دون أن يغفر له أحد اليهود، بينما حرّرت الفيالق الأميركية سايمون ڤيزنتال من معسكر الموت. أما ذلك المشهد في غرفة المستشفى، فظلّ يطارده كالشّبح. بعد الحرب زار ڤيزنتال أُمّ الضابط في شتوتغارت آملاً بطريقة ما أن يتخلّص من أشباح ذكريات ذلك اليوم. إلاّ أنّ الزيارة جعلت الضابط أكثر إنسانيةً،

إذ راحت الأمّ تتكلّم بلطافة عن حياة التقوى في ابنها الشاب. لكنّ ڤيزنتال لم يستطع أن يخبرها كيف كانت نهاية ابنها.

لسنوات كان ڤيزنتال يسأل الحاخامين والكهنة ماذا كان ينبغي له أن يفعل. أخيرًا، وبعد انقضاء عشرين سنةً على الحرب، كتب القصّة وأرسلها إلى ألمع الشخصيات التي عرفها إذ ذاك، والتي اشتهرت برفعة الأخلاق: من يهود وأمم، كاثوليك وپروتستانت وممّن لا دين لهم. وقد وجَّه إليهم السؤال التالي: «ماذا كنتم لتفعلوا لو قُدِّر لكم أن تكونوا في مكاني؟»

ستّة فقط من أصل اثنين وثلاثين رجلاً وامرأة من الذين استجابوا لندائه قالوا، إنّ ڤيزنتال أخطأ في عدم غفرانه للألماني. مسيحيّان اثنان، أشارا إلى أنّ قلق ڤيزنتال الذي لم يفارقه، وظلّ كوخزة في ضميره لا يمكن التخلّص منه إلا بالمغفرة. واحد من أولئك، وهو رجل أسود، كان قد خَدَم في صفوف المقاومة الفرنسيّة، قال: «يمكنني أن أفهم رفضك للغفران. فعملك هذا ينسجم مع رو ح التوراة تمامًا؛ مع ناموس العهد القديم. لكن ثمّة ناموس جديد، إنه ناموس المسيح كما هو واضح في الأناجيل. أنا كمسيحي أعتقد بأنه كان عليك أن تغفر.»

قليلون آخرون راوغوا، لكنّ معظم الردود اتّفقت على أنّ سايمون ڤيزنتال قد فعل الصواب. وقد طرحوا السؤال التالي: ما هو السلطان الأخلاقي أو القانوني الذي يملكه ڤيزنتال لكي يغفر جرائم ارتكبها شخص ما؟ كاتب آخر اقتبس من الشاعر درايدن: «الغفران هو شأن المتضرّر فقط.»

بعض الذين ردّوا من اليهود قالوا إنّ فظاعة الجرائم النازية تعدّت كلّ إمكانٍ للغفران. هِربرت غولد، وهو مؤلف أميركي وأستاذ جامعي صرّح قائلاً: «إنّ مذنبيّة بهذا الهول تُلقي بثقلها على ألمان ذلك الزمان، لدرجة أنّ

كل ردَّة فعلٍ شخصيَّة حيالها له ما يبرّره.» آخر قال: «إنّ الملايين من الناس الأبرياء الذين عُذِّبوا وذُبحوا يجب أن يرجعوا إلى الحياة قبل أن أتمكّن من الغفران.» أما الروائية سينثيا أُوزِك فكانت عنيفة: «لِيَمُت رَجُل الوحدات النازية الخاصة من دون رحمة. ليذهب إلى الجحيم.» كاتب مسيحيّ اعترف قائلاً: «أعتقد بأنني كنت سأخنقه على فراشه.»

بعض المعلّقين طرحوا تساؤلات حول مفهوم الغفران ككل. أستاذة جامعية احتقرت الغفران واعتبرته تصرّفًا يدخل في نطاق اللذّة الحسيّة، إنه شيء يفعله العاشقان بعد مشادّة، وقبل أن يصعدا مجدّدًا إلى السّرير. ثمّ تابعت تقول أن ليس للغفران مكان في عالم الإبادة الجماعية والمحرقة البشرية. سامحْ، ثم ترى العمل نفسه قد يتكرَّر من جديد.

عندما قرأتُ (The Sunflower) للمرّة الأولى، وذلك قبل عشر سنوات، فوجئت بهذا التطابق في الآراء لدى الذين ردّوا على طلب الكاتب. فقد توقّعتُ وجود عدد أكبر من اللاهوتيين المسيحيين يتكلّمون عن الرحمة. لكنْ، هذه المرّة، عندما قرأت الردود البليغة على سؤال ڤيزنتال، صَدَمني هذا المنطق المخيف والمتحجّر لعدم الغفران. ففي عالم مليء بالوحشيّة التي لا يحيط بها وصف، يبدو الغفران ظالمًا ومتحيّزًا وغير منطقي. على الأفراد والجماعات أنْ يتعلّموا كيف يغفرون، أَجَلْ، إنّما كيف يمكن لمبادئ في هذا السمو الأخلاقي أن تنطبق على حالة مثل نازيّة ألمانيا؟ وكما عبّر عنها الفيلسوف هيربرت ماركيوز حين قال: «لا يقدر أحد، ولا يجوز له أن يقتل ويُعَذِّب بأعصاب باردة، ثُمّ في اللحظة المعيّنة يطلب المغفرة وينالها هكذا بكل بساطة.»

هل كثير أنْ نتوقّع من مُثُل الإنجيل الأخلاقية السّامية، والتي لبُّها الغفران،

أن تعمل على تغيير سياسات العالم الوحشيّة والدبلوماسية العالميّة؟ في عالم كهذا، أيّة فرصة ستُتاح لشيء غير مادي كالغفران؟ هذه الأسئلة عذّبتني باستمرار عندما قرأت قصة ڤيزنتال للمرة الثانية، فيما كنت أتتبّع الأخبار السّيئة عن يوغوسلاڤيا السابقة.

كان أصدقائي من اليهود يتكلّمون بإعجاب عن التشديد المسيحي على الغفران. وقد قدَّمتُ الغفران باعتباره أقوى سلاح في وجه عدم النعمة. وكما أشار الباحث اليهودي المشهور جوزف كلاوسْنر في مستهلّ هذا القرن إلى أنّ تشديد المسيحيّين على مُثُل كهذه يجعلنا عُرضة لانتقادات مُربكة. وقد كتَبَ كلاوسنر يقول: «يمثّل الدِّين ما هو سام أخلاقيًّا ومُثُليًّا، فيما ظلّت الحياة السياسيّة والاجتماعيّة على الطرف الآخر من البربريّة والوثنيّة.»

ويعلن كلاوسنر أنّ إخفاقات التاريخ المسيحي تبرهن وجهة نظره أنّ يسوع علَّم مجموعة من المبادئ الأخلاقية غير العمليّة والتي لا تنفع في واقع عالمنا. ولقد ذَكَرَ أنّ محاكم التفتيش الإسبانيّة (Spanish Inquisition)، «لم يُنظر إليها على أنها متعارضة مع المسيحيّة.» كما أنّ انتقادات معاصرة قد تُضيف إلى قائمته يوغوسلاڤيا ورواندا وحتى ألمانيا النازية لأن هذه الصراعات الثلاثة جميعها دارت في ما يُسمّى دولاً مسيحيّة.

هل للتشديد المسيحي على المحبّة والنعمة والغفران أيّة أهميّة خارج الخصومات العائلية أو الجماعات التي تتصادم مع الكنيسة؟ ففي عالم حيث القوة لها التأثير الأعظم، يبدو المثال السامي مثل الغفران مجرّد وهم كالبخار. وقد فهم ستالين هذا المبدأ جيدًا عندما سَخِرَ من سلطان الكنيسة الأخلاقي حين سأل: «كم مقاطعة يمتلك البابا؟»

ولكي أكون أمينًا، لستُ أدري كيف كنت سأردُّ لو وَجَدْت نفسي مكان سايمون ڤيزنتال. هل نقدر وهل يمكن أن نسامح على الجرائم التي لسنا فيها الضحية؟ كارل، ضابط الوحدات النازية الخاصة (SS) تاب، جاعلاً قضيّته أكثر صفاءً، لكن ماذا عن تلك الوجوه المتحجّرة المصطفّة في محاكم نورمبرغ وشتوتغارت التي علاها الغرور؟ مارتن مارتي، أحد المسيحيّين الذين ردّوا في كتاب ڤيزنتال، كتبَ هذه السطور التي تغريني بالموافقة عليها: «لا أقدر أن أجيب إلاّ بالصّمت. فغير اليهود، وربما بالأخصّ المسيحيون، ينبغي ألاّ يعطوا أيّة نصيحة عن تجربة المحرقة للّذين ورثوها وعلى مدى الألفي سنة القادمة. وبعدها لن يكون لنا شيء نقوله.»

أُقِرُّ بأنني حين قرأتُ الأصوات البليغة الداعمة لعدم الغفران، لم أستطع أنْ أتصوّر أيهما يحمل ثمنًا أغلى: الغفران أم عدم الغفران.

رأى هيربرت غولد أنّ «انعدام وجود ردة فعل شخصية عليها (الجريمة الألمانية) غير مبرَّر.» آه! ماذا بشأن الانتقام من كل الناجين الألمان؟ هل هذا مبرَّر؟

إنّ الحجّة الأقوى لدعم النعمة هي نقيضها، أيْ عالم من انعدام النعمة. الحجّة الأقوى للغفران هي نقيضه، أيْ حالة دائمة من عدم الغفران. أنا أوافق على أنّ المُحرقة خلقت ظروفًا خاصة. ماذا عن الأمثلة الأخرى المعاصرة؟ فيما أكتب هذه الكلمات ثمّة حوالى مليوني لاجئ هوتو يقبعون دون عمل في مخيّمات للّاجئين على حدود رواندا، رافضين كل مناشدة للرجوع إلى ديارهم. كان قادتهم يصرخون عبر مكبِّرات الصوت، محذّرينهم كي لا يثقوا بوعود تُوتسي من أنّ «كل ما حصل مغفور.» سوف يذبحونكم، قال قادة الهوتو. سوف ينتقمون للخمسماية ألف جريمة التي ارتكبناها بحق التوتسيين.

وفيما أكتب هذا أيضًا، يحاول الجنود الأميركيون إبقاء الوحدة قائمة بين الدول الأربع المنقسمة، والتي كانت تكوّن ما يُسمّى يوغوسلافيا الممزّقة بالحروب. وكمعظم الأميركيين، أجد كل شيء يخصّ منطقة البلقان محيّرًا وصعبًا ومتناقضًا. وبعدما قرأتُ (The Sunflower) للمرة الثانية، بدأت أرى البلقان وكأنه في المرحلة الأخيرة من صياغة التاريخ له. وكما قال كاتب المقالات المعروفة، لانس مورو: حيث يسود عدم الغفران يبدأ قانون نيوتن بالعمل: فمقابل كل فظاعة ووحشيّة، ينبغي أن يكون هناك فظاعة ووحشيّة مضادة ومساوية لها.

والصِّرب، هم طبعًا كبش فداء الجميع نتيجة ما حصل ليوغوسلافيا. (لاحظ اللغة المستعملة لوصفهم في مجلة (Time)، في الجزء المخصَّص للأخبار: «إنّ ما حصل في البوسنة هو مَحْض قذارة وهمجيّة. إنه عمل جماعة من المنافقين والأنانيين الذين يستغلّون العصبيّات القبليّة، ويستعملون الدعاية الوحشيّة وعداوات الدم القديمة، كي يحقّقوا النتائج السياسيّة القذرة للتطهير العرقي.») وإذِ اهتم العالم بالصلاح، وبما اعتبره قرفًا تامًّا ممّا بدا من فظاعات الصرب، فقد خرج العالم بحقيقة واحدة: إنّ الصِّرب يتبعون منطق عدم الغفران المخيف.

ألمانيا النازية، النظام نفسُهُ الذي أباد تسعةً وثمانين فردًا من عائلة سايمون ڤيزنتال، والذي حرّض أُناسًا مهذّبين مثل سينثيا أُوزِك وهيربرت ماركيوز على التفوّه بمثل تلك الكلمات القاسية، ألمانيا النازية تلك شملت أيضًا صربيا في حملة التطهير العرقي إبّان الحرب العالمية الثانية. صحيح أنّ الصِّرب قتلوا عشرات الآلاف في التسعينيات، لكن خلال الاحتلال النازي للبلقان في الأربعينيات، قتل الألمان والكروات مئات الآلاف من الصِّرب والغجر واليهود. التاريخ يعيد نفسه: ففي الحرب الحديثة تجنّد

النازيون الألمان الجُدُد للحرب جنبًا إلى جنب مع الكروات، ووحدات من الجيش الكرواتي رفعت بكل جسارة أعلام الصليب المعقوف، ورمز الفاشية الكرواتية القديم.

«لن تتكرّر»، كانت هذه صرخة الناجين من المُحرقة، والتي استوحاها الصّربيّون ليتحدَّوا الأمم المتحدة، بل بالحري العالم بأسره. لن يتكرّر السماح للكروات أن يسيطروا على مقاطعة سكانها من الصّرب. لن تتكرّر أيضًا سيطرة المسلمين، فآخر حرب خاضوها ضد المسلمين كانت نتيجتها خمسة قرون من الحكم التركي (هي بالمنظار التاريخي فترة تُعادل مرّتين تاريخ وجود الولايات المتحدة).

إنّ عدم مجابهة العدو، في منطق عدم الغفران، هو خيانة للأجداد وللضحايا التي قدموها. ثمّة، على كل حال، خَلَلٌ رئيسيٌّ في ناموس الانتقام وهو أنّه لن يُصفّي الحساب. فالأتراك ثأروا لأنفسهم سنة ١٣٨٩، في معركة كوسوڤو، والكروات انتقموا منهم في الأربعينيات، والآن جاء دورنا، يقول الصربيّون. بَيْد أنّه في يوم من الأيام، وكما يعرف الصربيّون تمامًا، سوف يقوم المتحدّرون من هؤلاء الضحايا الذين اغتُصبوا اليوم وقُطّعوا، ويثأرون لأسلافهم. باب المصيدة قد فُتح والوطاويط المتوحشة تحوم حوله.

قال لويس سميدس:

> إنّ الانتقام هو التّوق إلى تصفية الحساب. إنه رغبةٌ حارّة للردّ للآخر ما سبّب لك من ألم... والمشكلة في المنتقم أنه لن يحصل مطلقًا على ما يريد، ولن يصل إلى نقطة التعادل. والعدل لن يأتي أبدًا. وسلسلة ردود الفعل التي تأتي نتيجة كلّ فعل انتقام، تأخذ طريقها دون تأخير. فهي تربط كليهما: المجروح والجارح إلى سُلّم متحرّك

من الألم. وكلاهما عالق على السُّلّم ما دام التعادل هو المطلوب، والسُّلّم لا يتوقف ولا يُسمح لأحد بالنزول عنه.

قد يكون الغفران غير عادل، إنه كذلك في صُلبِ تعريفه، إلاّ أنه على الأقل، يُقدِّم وسيلةً لوقف الانتقام الأعمى المتبادل. اليوم، وفيما أكتب هذه السطور، قد ينفجر العنف في أيّة لحظة، بين الصّين وتايوان، وبين الهند وپاكستان، وبين روسيا والشّيشان، وبين بريطانيا وإرلندا، وخصوصًا بين اليهود والعرب في الشرق الأوسط. كل واحدة من هذه النزاعات تشدّنا إلى الوراء عقودًا، وفي حال اليهود والعرب، ألوفًا من السنين. فكل جهةٍ تُناضل لتسحق نظامًا ظالمًا من الماضي، فإذا بها تقترف خطأً مميزًا جديدًا.

يُقدِّم اللاهوتي رومانو غارديني هذا التّشخيص حول الخَلَل المُميت، في البحث عن الانتقام، يقول: «ما دُمت متورطًا في الخطأ والانتقام، في الضربة والضربة المقابلة، في الهجوم والدفاع، فسوف تجد نفسك باستمرار، مدفوعًا لارتكاب خطأ جديد... وحده الغفران يحرِّرنا من جَور الآخرين.» قال غاندي: «لو تبع كل واحد مبدأ «العين بالعين»، لكان العالم كله سيُصاب بالعمى حتمًا.»

لدينا الكثير من الشواهد الحيّة عن ناموس عدم الغفران. ففي التراجيديا التاريخية عند كل من شكسپير وسوفوكليس، تتكوّم الجثث على المسرح. فمَكبِث وريتشارد الثالث وتيطس أندرونيكوس وإلكترا يجب أن يقتلوا ويقتلوا ويقتلوا إلى أن يُحقّقوا انتقامهم، ثم يعيشون في الخوف، خشية أن يكون بعض الأعداء قد نجوا ويحاولون الانتقام المضاد.

إنّ فيلم (Godfather) بأجزائه الثلاثة لِفرانسيس فورد كوپولا، وفيلم (Unforgiven) لكِلنت إيستوود يوضّحان الناموس عينه. نرى هذا الناموس

يعمل في منظَّمة الجيش الجمهوري الإرلندي (IRA) الإرهابية التي تفجِّر المتسوِّقين وسط مدينة لندن إلى أشلاء، وذلك بسبب أعمال عنف ارتُكِبت منذ ١٦٤٩، والتي بدورها كانت أوامر أوليڤر كرومويل للانتقام للمذبحة التي جرت سنة ١٦٤١. نرى ذلك في سريلانكا والجزائر والسودان وفي العداوة بين جمهوريات الاتحاد السوڤياتي سابقًا.

يقول الأرمن للأتراك: اعترفوا بكل بساطة بجرائمكم ضدنا وسوف نتوقف عن تفجير طائراتكم وذبح دبلوماسييكم. وتركيا ترفض بإصرار. من جهة أخرى وأثناء أزمة الرهائن في إيران، أعلنت حكومة إيران أنها سوف تطلق سراح الرهائن سالمين إذا اعتذر رئيس الولايات المتحدة بسبب دعمه السابق لحكم الشاه الإستبدادي. جيمي كارتر، وهو مؤمن مسيحي يفهم حقيقة الغفران، وقد استحقّ سمعة جيدة كصانع سلام، ردَّ بالقول: «لا اعتذارات. إنّ شرفنا الوطني على المِحك.»

قال جون دلّنچر: «وجدتُ أنّ الكلمة الحسنة مع المسدس تُحصِّل أكثر مما تحصِّله الكلمة الحسنة وحدها.» إنّ ملاحظته هذه، تفسِّر لماذا تصرُف الدول الفقيرة اليوم ما يقارب نصف مدخولها السنوي على الأسلحة. فللقوّة مفعولها في عالم ساقط.

يتذكّر هلموت ثيليك أول مرّة قام بخدمة درس الكتاب بعد رسمه قسًّا في الكنيسة الألمانية الرسميّة. وإذ عقد العزم على الثقة بقول يسوع: «دُفع إليَّ كلُّ سلطانٍ في السماء وعلى الأرض» (متى ٢٨: ١٨)، فقد حاول أن يؤكد لنفسه أنّه حتى أدولف هتلر، وكان يومها في السلطة، هو مجرّد دمية معلَّقة بخيوط بين يدي الإله الكلّي القدرة. الجماعة الذين أتوا إلى اجتماع درس الكتاب كانوا عبارة عن سيدتين مسنّتين وعازف پيانو أكبر منهما سنًّا

مصاب بالارتجاف. في غضون ذلك، كانت في الخارج، كتائب هتلر من الشباب تجوب الشوارع. راح ثيليك يُذكِّر نفسه بالآية: «يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَل...» (متى ١٣: ٣١).

إنّ صورة حفنة من القدّيسين الذين يصلّون في الداخل، فيما فيالق القوة تمشي في الخارج على وقع الطبول تعبّر عمّا كنت أُحسُّه. إنَّ أسلحة الإيمان تبدو في الواقع عاجزة أمام قوات عدم النعمة. وهل يستطيع أحد أن يحارب الرؤوس النووية بمقلاع؟

بيْد أنّ التاريخ يُظهِر أنّ النعمة لها قوتها الخاصّة. فقادة كبار مثل لنكولن وغاندي وكِنغ ورابين والسّادات يُذكَرون، وقد دفعوا الثمن الأغلى مُتحدّين ناموس عدم النعمة. مثل هؤلاء يستطيعون أن يخلقوا مناخًا وطنيًّا يقود إلى المصالحة. كم كان التاريخ الحديث سيكون مختلفًا، لو أنّ السادات وليس صدّام حَكَم العراق؟ أو أنّ لنكولن آخر طَلَعَ من بين أنقاض يوغوسلاڤيا؟

السياسة تتعاطى الأمور الخارجية: الحدود والثروة والجرائم. أمّا الغفران الحقيقي، فيتعامل مع الشرّ في قلب الإنسان، وهو أمر لا تملك السياسة له علاجًا. فالشر الخبيث «التمييز العنصري، الكراهية العِرقيّة» تنتشر في المجتمع انتشار الوبإ في الهواء، حيث السُّعال مرّةً يعدي حافلة من الرّكّاب. من هنا فالعلاج، مثل التلقيح يجب أن يُعطى لإنسان واحد تلو الآخر في كل مرّة. وهكذا، عندما تتواجد النعمة، ينبغي للعالم أن يهدأ ويصمت ويعترف بأنّ المغفرة تقدّم بالحقيقة نوعًا من العلاج.

سنة ١٩٨٧ ألقَتْ منظّمة الجيش الجمهوري الإرلندي (IRA) الإرهابيّة قنبلة في مدينة صغيرة غرب بلفاست، بين جماعة من البروتستانت اجتمعوا لتكريم قتلى الحرب بمناسبة يوم الهدنة. سَقَط أحد عشر قتيلاً وثلاثة وستون

جريحًا. أمّا السبب الذي جعل هذا الحَدَث الإرهابي بارزًا من بين العديد من مثل تلك الحوادث، فهو ردَّة فعل أحد الجرحى ويدعى غوردُن ويلسون، وهو إنجيلي مُخْلِص هاجر شمالاً من الجمهورية الإرلندية ليعمل كتاجر ألبسة جاهزة.

طمرت القنبلة ويلسون وابنته البالغة من العمر عشرين سنة، تحت خمسة أقدام من الإسمنت والقرميد. «أبي، أنا أحبك كثيرًا» كانت هذه آخر كلمات ماري وهي تمسك بيد والدها، بينما كانا ينتظران فرق الإنقاذ. عانت الكثير نتيجة جروح بليغة في عمودها الفقري ودماغها، ثمَّ ماتت بعد بضع ساعات في المستشفى.

كتبت إحدى الجرائد في ما بعد تقول: «لا أحد يذكر ما قاله السياسيّون في ذلك الوقت. لكنْ ما مِن أحد سمع غوردُن ويلسون يتكلّم، سوف ينسى ما اعترف به... نعمته ارتفعت فوق أعذار الإرهابيين التعيسة.» وقد صرّح ويلسون في سريره في المستشفى، فقال: «فقدتُ ابنتي، لكنني لا أحملُ أية ضغينة. الكلام اللاذع لن يعيد ماري ويلسون إلى الحياة. سوف أصلّي الليلة وكل ليلة، عسى الله أن يسامحهم.» كانت كلمات ابنته الأخيرة كلمات المحبّة، لذا قرّر غوردن ويلسون أن يعيش حياته على ذلك المنبَسَط من المحّبة. أحد التقارير قال: «إنّ العالم بكى» عندما أجرى ويلسون مقابلة مماثلة على راديو هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) ذلك الأسبوع.

بعد خروجه من المستشفى، قاد غوردن ويلسون حملة للمصالحة بين البروتستانت والكاثوليك. بيْدَ أنّ المتطرفين البروتستانت الذين خطّطوا للانتقام قرّروا بسبب المعلومات المنتشرة بواسطة العديد من وسائل الإعلام حول ويلسون، أنّ سلوكًا كهذا لا بد أن يكون سلوكًا سياسيًّا أحمق. كتب ويلسون كتابًا عن ابنته، هاجم فيه العنف، وكان يردِّد فيه باستمرار: «المحبّة

هي الأساس.» تقابل مع منظمة (IRA)، وقد سامحهم شخصيًا على ما فعلوه، وطلب منهم أن يُلقوا سلاحهم. قال لهم: «إنني أعلم أنكم فقدتم أحبّاء مثلي تمامًا. هذا يكفي! فقد هُرِق دمٌ كثير.»

في النهاية مَنَحَتِ الجمهورية الإرلندية ويلسون عضوية مجلس الشيوخ. وعندما مات سنة ١٩٩٥ كرّمت جمهورية إرلندا وإرلندا الشمالية وكل بريطانيا العظمى هذا المواطن المسيحي العادي الذي اكتسب شهرةً لما فيه من روح النعمة والغفران غير العادية. إنّ روحه التي عارضت أعمال العنف الانتقامية، وحياته الدائبة في صنع السلام، جسّدتا الرغبة المُلحّة للسلام لدى الكثيرين ممّن لم تُذكر أسماؤهم على صفحات الجرائد.

كتبت إليزابيث أوكونور تقول: «أنْ نبارك الناس الذين استبدّوا بنفوسنا، وحرمونا من التعبير عن عواطفنا، أو بأسلوب آخر جعلونا معاقين، لهو أكبر عمل مميَّز نقوم به.»

منذ عدّة سنوات، شدّت انتباه العالم من جديد دراما أخرى عن الغفران الشخصي. فقد ذهب البابا يوحنا بولس الثاني إلى داخل سجن ربيبيا في مدينة روما ليزور محمّد علي أقجا، وهو قاتل مأجور حاول أن يقتل البابا، وكان على وشك أن ينجح. «إنني أغفر لك» قال البابا.

ولشدّة تأثّر مجلّة (Time) بهذا الحدث، كرّست صفحة الغلاف لها، وقد كتب فيها لانس مورو يقول: «قصد يوحنا بولس الثاني، من جملة ما قصد، أن يبيّن كيف يمكن للبعد الإنساني الخاص والعام أن يلتحم بالعمل الأخلاقي... أراد يوحنا بولس أن يعلن للملأ أنّ الأشياء العظيمة تتقرّر، أو على الأقل تتأثر بالدوافع الفطريّة التي في القلب البشري، ألا وهي الكراهية أو المحبة.» وقد تابع مورو كلامه مُقتبسًا من جريدة تصدر في مدينة ميلانو،

قال: «لن تكون نجاةٌ من الحروب ولا من المجاعة ولا من البؤس ولا من التمييز العنصري ولا من إنكار حقوق الإنسان ولا حتى من الصواريخ، إن لم تتغيّر قلوبنا.»

وقد أضاف مورو يقول:

إنّ المشهد في سجن ربيبيا كان له بهاءٌ رمزي. فقد سطع بِتَباين محبّب مع ما شهده العالم في الأخبار مؤخرًا. فلبعض الوقت، سَرَت ريبة من أنّ مسار التاريخ آخذٌ بالانحدار، وأنّ العالم ينتقل من فوضى إلى فوضى أكبر، نحو الظلمة، أو نحو الانفجار الكوني النهائي. أما الرّمزيّة التي تكوّنت في صورة سجن ربيبيا، فهي بالتأكيد الرسالة المسيحيّة، وهي أنَّ ثمّة فداء للبشر، وأنَّ بإمكانهم أن يرتقوا نحو النور.

إن عمل يوحنا بولس الثاني كان أكثر إشراقًا وسطوعًا بسبب خلفيته الباهتة: زنزانة من الاسمنت، عارية، كانت الخلفية الصحيحة لقانون عدم الغفران. فالمجرمون يجب أن يُسجَنوا ويُعدَموا، لا أنْ يسامَحوا. إلاّ أن رسالة الغفران أضاءت للحظة بين جَنَبات السجن، مُظهِرة للعالم طريقًا للتغيير لا للانتقام.

كان البابا طبعًا، يتّبع مثال الشخص الذي لم يبقَ حيًّا إثر محاولة قتله. فمحاكم اليهودية الزائفة، وجدت طريقة لكي تُنزل عقوبة الإعدام في الرجل الوحيد الكامل الذي عاش على هذه الأرض. ومن فوق الصليب، أعلن يسوع بوضوح عبارته الصريحة، موجّهًا ضربةً أبديّة ضد ناموس عدم الغفران. من الواضح أنه غفر لأولئك الذين لم يتوبوا: «لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ» (لوقا ٣٢: ٤٣).

إنّ الجنود الرومان وبيلاطس وهيرودس وأعضاء السّنهدريم كانوا «يقومون بواجبهم» ليس إلاّ. إنه العذر الملتوي نفسه الذي استُخدم في ما بعد لشرح المحرقة النازية في أَوشفيتز (Auschwitz) ومجزرة ماي لاي (My Lai) في ڤيتنام والأشغال الشاقة والموت في سجون الغولاغ (Gulag) السوڤياتية. لكنّ يسوع أزال القشور وتكلّم إلى القلب البشري. فقد كانوا في حاجة إلى الغفران أكثر من أيّ شيءٍ آخر. نعلم، نحن الذين نؤمن بالكفّارة، أنّ يسوع، عندما تكلّم تلك الكلمات الأخيرة، كان في فكره أشخاص غير صالبيه. كُنا نحن في فكره. ففي الصليب، وفي الصليب فقط، وضع حدًّا نهائيًّا لناموس العواقب الأبدية.

هل ثمّة من أهميّة للغفران في مكان مثل يوغوسلاڤيا حيث عُمل الكثير من الشر؟ بالتأكيد، وإلاّ فلن يكون للناس هناك أي أمل في العيش معًا. وكما يتعلّم العديد من الأولاد المعنَّفين، أنه من دون الغفران لا نقدر أن نحرّر أنفسنا من قبضة الماضي، كذلك، فإنّ المبدأ نفسه يصحّ على جميع الشعوب.

لي صديق تعرَّض زواجه للاضطراب أحيانًا. ذات ليلةٍ وصل جورج إلى نقطة الانهيار. كان يضرب الطاولة والأرض وقد صرخ في زوجته قائلاً: «أكرهُكِ! لم أعد أحتمل أكثر! يكفي! لا أريد لحياتي أن تستمر! لن أسمح لهذا أنْ يحصل مرة ثانية! لا! لا! لا!» بعد بضعة شهور نهض صديقي من نومه في منتصف الليل، وسمع أصواتًا غريبة منبعثة من الغرفة حيث كان ينام ابنه البالغ من العمر سنتين. سار بهدوء في الممرّ المؤدّي إلى غرفة ابنه، ووقف لحظة أمام الباب، وقد سَرَت قشعريرة في جسده. لم يستطع التنفّس. كان الولد ذو السنتين يردِّد بصوت ناعم، وبتغيير في نبرات صوته، كل كلمة

من المشاجرة الكلاميّة التي دارت بين أمه وأبيه: «إني أكرهك... لا أستطيع أن أحتمل أكثر... لا! لا! لا!»

تأكّد جورج من أنّه وبشكل ما قد أورث ألمه وغضبه وعدم غفرانه إلى الجيل التالي. أليس هذا ما يحصل في أنحاء مختلفة من العالم اليوم؟

بدون المغفرة، فإنّ وحش الماضي قد يستيقظ في أية لحظة من سُباته، ويفترس الحاضر، والمستقبل دون شك.

إنّه لشرخٌ طفيف...

لكنّ الشّروخ تجعل الكهف ينهار.

ألكسندر سولجِنيتسين

الفصل العاشر

ترسانة النعمة



يُخبر والتر وينك عن داعيتي سلام، زارا مجموعة من المسيحيين البولنديين بعد عشر سنوات على انتهاء الحرب العالمية الثانية. وقد وجّه داعيتا السلام هذان إلى البولنديين السؤال التالي: «هل تقبلون أن تلتقوا مسيحيّين آخرين من ألمانيا الغربية؟ إنهم يريدون أن يطلبوا الغفران على ما فعلَتهُ ألمانيا ببولندا إبّان الحرب ومن ثمّ يبدأون ببناء علاقة جديدة.» حصل سكوتٌ تام في بادئ الأمر. ثم ما لبث أحد البولنديين أن تكلّم: «ما تطلبه منّا مستحيل. فكل حجر في وارسو مغطّس بالدم البولندي! لا نستطيع أن نسامح!»

قبل أن تغادر الجماعة، صلّوا الصلاة الربانية معًا. وحين وصلوا إلى الكلمات التي تقول: «وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا...» (متى ٦: ١٢) توقّف الجميع عن الصلاة. ساد التوتّر الغرفة. فالطرف الذي كان قبل قليل يعارض بشدّة قال: «لا بُدّ لي من الإجابة بنعم وإلا فلن أستطيع أن أصلّي فيما بعد الصلاة الربّانية، ولن أستطيع بالتالي أن أُسمّي نفسي

مسيحيًّا إنْ رفضت أن أغفر. بشريًّا، لا أستطيع ذلك، لكنّ الله سوف يعطينا القوة!» بعد ثمانية عشر شهرًا التقى معًا مسيحيّو پولندا وألمانيا الغربية في ڤيينا، وقد أسّسوا صداقة لا تزال مستمرّة إلى هذا اليوم.

ثمّة كتاب حديث بعنوان (The Wages of Guilt)، يستكشف الاختلاف في وجهات النظر بين ألمانيا واليابان حول فكرة على من يقع الذنب في الحرب. فالذين بقوا على قيد الحياة من الألمان، كالذين اعتذروا للپولنديين مثلاً، يميلون إلى قبول المسؤولية عن الجرائم التي ارتُكبت خلال الحرب. وعلى سبيل المثل، عندما زار رئيس بلدية برلين ڤيلي براندت مدينة وارسو سنة ١٩٧٠، سقط على ركبتيه أمام النصب التذكاري لضحايا حي «الغيتو» في وارسو. «هذا التصرّف... لم يكن من ضمن برنامج الزيارة»، كما كتب براندت «ولسبب ضغط ذكريات تاريخ ألمانيا الحديث عليّ، فقد فعلت بكل بساطة، ما يفعله جميع الناس عندما تخونهم الكلمات.» وبالمقابل، فقد ظلّت اليابان تعارض الاعتراف بأي ذنب حول دورها في الحرب. وقد أعلن الإمبراطور هيروهيتو استسلام اليابان بالتصريح الكلاسيكي، إذ قال: «إنّ تطوّر وضع الحرب ليس في مصلحة اليابان»، وقد كانت تصاريح ما بعد الحرب تمامًا كما كان محسوبًا. فقد اعتذرت الحكومة اليابانية عن حضور الاحتفال بالذكرى الخامسة عشرة لپيرل هاربور، لأنّ الولايات المتحدة اشترطت في الدعوة اعتذار اليابان. وقد صرّح أحد مستشاري رئاسة الوزراء الياباني بالقول: «إنّ العالم بأسره مسؤول عن الحرب.» والحقيقة أنّ اليابان لم تستعمل كلمة «اعتذار» على أفعالها قبل سنة ١٩٩٥.

اليوم، يتعلّم التلامذة في المدارس الألمانية تفاصيل عن المُحرقة، وعن جرائم نازية أخرى. أمّا نُظراؤهم اليابانيون، فيتعلّمون عن القنابل الذريّة التي

أُلقيت عليهم، ولكن ليس عن مذبحة نانْكِنْغ، ولا عن معاملة أسرى الحرب والتجارب الطبيّة التي أُجريت على السجناء الأميركيين، ولا عن «عبيد الجنس» الأجانب المسخَّرين لخدمة الجنود اليابانيين. نتيجة ذلك، لا تزال النقمة تعتمل في دول مثل الصّين وكوريا والفليبّين.

هذا التباين يجب ألا يبتعد بنا كثيرًا لأنّ كلاًّ من اليابان وألمانيا قد أحرزتا قبولاً في المجتمع الدولي، إشارةً إلى «مسامحة» دُوَلية على عدوانهما. على أنّ ألمانيا رُحِّب بها كشريك كامل في أوروبا الجديدة، جنبًا إلى جنب مع ضحاياها السابقين، بينما لا تزال اليابان تُجري مفاوضات مع أعدائها السابقين الحذرين. وقد أخّر تباطؤها في الاعتذار عملية القبول الكامل.

سنة ١٩٩٠ شهد العالم دراما من المغفرة جرت حوادثها على مسرح السياسة العالمية. فبعد أن انتَخَبَتْ ألمانيا الشرقية أعضاء برلمانها في أول انتخابات حرّة، اجتمع النوّاب لتقليص عُمر الحكومة. فالكتلة الشيوعية كانت تتغيّر كل يوم، وألمانيا الغربية كانت تقترح عليهم الخطوة الجذرية وهي توحيد الألمانيتين، وكان على البرلمان الجديد حمل ثقيل من قضايا الدولة ينبغي البتّ به. وقد قرّروا في أول عمل رسمي أن يقترعوا على هذه العبارة المأخوذة من لغة اللاهوت لا السياسة:

> نحن نوّاب جمهورية ألمانيا الديمقراطية المنتخبون للمرة الأولى بإرادة شعبية حرّة... وباسم مواطني هذه البلاد، نُقرُّ بمسؤوليتنا عن إذلال وتهجير وقتل اليهود، رجالاً ونساءً وأطفالاً. نشعر بالأسف والخجل، ونعترف بهذا الحمل الثقيل في تاريخ ألمانيا... معاناة لا تقاس ابتُليت بها شعوب العالم خلال حقبة الاشتراكية الوطنية... نطلب من كل اليهود في العالم أن يسامحونا. نطلب من شعب إسرائيل أن يسامحنا بسبب رياء وعدائية سياسة ألمانيا الشرقية

الرسميّة نحو إسرائيل، وبسبب قتل وإذلال المواطنين اليهود في بلادنا بعد سنة ١٩٤٥ أيضًا.

وافق برلمان ألمانيا الشرقية على هذه الفقرة بالإجماع. وقد وقف الأعضاء على أقدامهم وهم يصفّقون لفترة طويلة، ثم توقفوا لفترة صمت تذكارًا لليهود الذين ماتوا في المحرقة.

ماذا حقّق عمل البرلمان هذا؟ من المؤكّد أنه لم يُرْجع الضحايا اليهود إلى الحياة، ولا أبْطَلَ عمل النازية الوحشي. لكنه ساعد في فكّ طوق الذنب الذي كان يخنق ألمانيا الشرقية طيلة نصف قرنٍ تقريبًا. خمسة عقود ظلّت فيها حكومتهم تنفي بشدّة أيّة حاجة للغفران.

من جهتها، كانت ألمانيا الغربية قد ندمت رسميًّا على تلك الرجاسة. إضافة إلى ذلك، فقد دفعت ألمانيا الغربية ستّين مليار دولار كتعويض لليهود. في الواقع، إنّ مجرّد وجود علاقة بين ألمانيا وإسرائيل، لهو إشارة مؤثّرة للغفران المتعدّد الجنسيات. فالنعمة لها قوّتُها الخاصّة حتى في السياسات الدُّولية.

في الماضي القريب رأينا مشاهد من الغفران في بلدان كانت الشيوعيّة تسيطر عليها. ففي سنة ١٩٨٣ قبل أن ينهار الستار الحديدي وإبّان فترة الحكم العرفي، زار البابا يوحنا بولس الثاني پولندا، حيث ترأس قدّاسًا ضخمًا في الهواء الطلق. حشود من الناس، منتظمة في جماعات تحت إشراف أبرشيّاتهم انطلقت في مسيرات فوق جسر پونياتوڤسكي، مندفعةً نحو المدرّجات. وأمام الجسر بالتحديد، عَبَر الحشد الكبير مباشرة من أمام مبنى اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعي، وساعة بعد ساعة راح المجتمعون ينشدون معًا: «إننا نسامحكم، إننا نسامحكم!» فيما كانوا يجتازون المبنى،

كان البعض يردِّد الشعار بإخلاص قلبي. آخرون ردّدوه بازدراء، كأنهم يقولون لهم: «أنتم نَكِرة، حتّى إننا لا نكرهكم.»

بعد سنوات قليلة، كاهن في الخامسة والثلاثين من عمره اسمه جيرزي پوپْيلوشكو، كهرَبت عظاته پولندا وقد عُثر على جثّته طافية فوق نهر ڤيستولا، مقوّر العينين، ومسحوب الأظافر. ومرة ثانية نزل الكاثوليك إلى الشارع يسيرون حاملين أعلامًا كُتب عليها: «نحن نسامح. نحن نسامح.» پوپْيلوشكو قدّم العظة نفسها أحدًا بعد أحد للحشود التي ملأت الساحة أمام كنيسته: «دافعوا عن الحق. اغلبوا الشرّ بالخير.» بعد موته، استمرّوا في طاعته، وفي النهاية كانت روح النعمة هذه، هي التي تسبّبت في سقوط ذلك النظام.

إنّ الكفاح من أجل الغفران في كل أوروپا الشرقية، لا يزال يدفع الثمن. فهل يجب على قسّيس في روسيا أن يسامح ضباط الـ ك.ج.ب. الذين سجنوه وأزالوا كنيسته؟ وهل على الرومانيين أن يسامحوا الأطباء والممرضات الذين ربطوا الأيتام المرضى بسلاسل إلى أسرّتهم؟ وهل على مواطني ألمانيا الشرقية أن يسامحوا الجواسيس، بمن فيهم أساتذة الجامعة والقُسس والأزواج والزوجات الخائنات، الذين كانوا يتجسّسون عليهم؟ عندما عَلِمَت الناشطة في حقوق الإنسان ڤيرا ڤولْلِن برغر أنّ زوجها كان الخائن الذي وشى بها إلى الشرطة السرّية، مما تسبَّب باعتقالها ونفيها، أسرعت إلى الحمام وراحت تتقيّأ. ومما قالت: «لا أريد لأحد منكم أن يختبر الجحيم الذي كنت فيه.»

عرّف پول تيليك الغفران مرّة بأنه تَذَكُّرُ الماضي كي يُصار إلى نسيانه، وهو مبدأ ينطبق على الدّول كما على الأفراد. وعلى الرغم من أنّ الغفران

ليس سهلاً، والبعض يحتاجون أجيالاً لبلوغه، لكنْ أيّة وسيلة سواه تستطيع أن تحطّم السلاسل التي تربط الناس إلى ماضيهم التاريخي؟

لن أنسى أبدًا ذلك المنظر الذي شاهدته بأمّ العين في الاتحاد السوڤياتي في شهر تشرين الأول من سنة ١٩٩١. وقد أخبرت القصّة في كتاب صغير نُشر مباشرة بعد زيارتنا، ولكنها قصّة تستحق إعادة السّرد. في ذلك الوقت، كانت الإمبراطورية السوڤياتية في طريق الانحلال، وكان ميخائيل غورباتشوف لا يزال مشدودًا إلى السُّلطة بخيط رفيع، في وقت كان بوريس يلتسن يعيد تجميع السلطة في قبضته. رافقتُ موفدين مسيحيين تقابلوا مع قادة روس استجابة لالتماسهم المساعدة في «إعادة الأخلاق» إلى بلادهم.

وعلى الرغم من أنّ غورباتشوف وكل الرسميين في الحكومة الذين زرناهم، استقبلونا بحرارة، إلاّ أنّ القُدامى في مجموعتنا حذّرونا من توقع معاملة مختلفة في المساء حين نزور رؤساء الـ ك.ج.ب. كان ثمّة نُصُب تذكاري لمؤسس هذه الوكالة ك.ج.ب.، فيليكس دْزِرْنسْكي ربّما دحرجه الجمهور عن قاعدته خارج المبنى، إلاّ أن ذكراه كانت لا تزال تعيش في الداخل. ثمّة صورة كبيرة لصاحب التمثال السيّء السمعة ما برحت معلقةً على الحائط في الغرفة التي ضمّت اجتماعنا. عملاء، وجوههم خالية من التعبير وفاقدة الحسّ، وقفوا متأهبين في الممر المؤدي إلى قاعة الاجتماعات المغلَّفة بالخشب، فيما كان الجنرال نيكولاي ستولياروف نائب رئيس الـ ك.ج.ب. يعرّف عن نفسه لوفدنا. حضّرنا أنفسنا.

«إنّ اللقاء معكم هنا هذا المساء» قال الجنرال ستولياروف، «لم يكن بإمكان أبرع روائي كتابة نصّه.» كان الجنرال على حق. ثمّ فاجأنا بالقول: «نحن هنا في الاتحاد السوڤياتي، ندرك أننا غالبًا ما كنا غير مبالين بقبول

ذوي الإيمان المسيحي. لكنّ المسائل السياسية لا يمكن تقريرها من دون توبة صادقة، أي رجوع الشعب إلى الإيمان. هذا هو الصليب الذي عليّ أن أحمله. ففي دراسة الإلحاد العلمي، كان ثمّة فكرة أنّ الدِّين يفرّق الشعوب. أمّا اليوم فنحن نرى العكس: المحبة لله، وحدها تجمع.»

ارتبكت أفكارنا، أين تَعَلّم العبارة: «يحمل الصليب؟» والكلمة الثانية: «التوبة؟» هل المترجم ترجم بطريقة صحيحة؟ حدّقتُ إلى پيتر وأنيتا داينيكا، المنفيَّين من روسيا منذ ثلاث عشرة سنة بسبب خدمتهما المسيحية، وها هما الآن يمضغان الحلوى في مركز الـ ك.ج.ب.

جويل نِدِرهود سيّد لَبِق، كان يدير قسم الإرسال الإذاعي والتلفزيوني للكنيسة المَسيحية المُصْلَحة، وقف مُوَجهًا سؤالاً لستولياروف، قال: «أيها الجنرال، العديد منا قرأوا تقرير سولجنيتسين عن الغولاغ (Gulag) (سجن المنشقّين السياسيين). والبعض منا كذلك، فقدوا هناك أفرادًا من عائلاتهم.» جرأته جعلت زملاءَه يأخذون حذرهم، والتوتّر في الغرفة بدا شديدًا. «إنّ وكالتكم طبعًا، مسؤولة عن الإشراف على السجون، بما في ذلك السجن الكائن في الملجأ تحت هذا البناء بالذات. كيف تردّ على هذا الماضي؟»

أجاب ستولياروف بنبرة صوت موزونة: «لقد سبق وتكلّمت عن التوبة. هذه خطوة أساسيّة. ربّما تعرف عن فيلم (Abuladze). لن يكون هناك پيريسترويكا (سياسة الانفتاح) بمعزل عن التوبة. حان الوقت للتوبة عن الماضي. كسرنا الوصايا العشر ولهذا ندفع الثمن اليوم.»

كنت قد شاهدت فيلم التوبة (Repentance) للمخرج (Tengiz Abuladze)، وتلميح ستولياروف له كان باهرًا. إنّ الفيلم يصوّر بالتفصيل الاتهامات الكاذبة والسجن القسري وإحراق الكنائس – وهي الأعمال

التي بسببها اكتسبَت المخابرات الروسية شهرتها على صعيد القسوة وبالأخصّ ضد الدِّين. وخلال فترة حكم ستالين قُدِّر عدد الكهنة الذين قُتلوا بحوالى ٤٢،٠٠٠ كاهنٍ، وقد انخفض عدد رجال الدين من ٣٨٠،٠٠٠ إلى ١٧٢. وقد أُغلق ألفُ دير وستون مدرسة لاهوت وثمانٍ وتسعون كنيسة أرثوذكسية من أصل كلّ مئة.

إنّ فيلم «التوبة» يُصوّر الوحشية من منظار مدينة في مقاطعة روسيّة. والمشهد الأكثر إثارة للعواطف في الفيلم يُظهر نساءً من القرية ينقبن بين وحول مستودع للخشب، ويفحصن حمولة سفينة من قطع الخشب حملتها مياه النهر. إنّهن يبحثن عن رسائل من أزواجهن الذين قطعوا هذه الجذوع في معسكر للسجن. إحدى النساء وجدت الأحرف الأولى من اسم زوجها محفورة في قشرة الجذع، فضمَّت الجذع إلى صدرها بلطف، باكيةً لأنه خيط الاتصال الوحيد بزوجٍ لا تستطيع أن تعانقه. ينتهي الفيلم بمشهد امرأة فلاّحة تسأل عن عنوانِ الكنيسة. وحين قيل لها إنّها في الشارع الخطأ أجابت: «ما نفع الشارع الذي لا يقود إلى الكنيسة؟»

الآن وبينما كنا نجلس في مركز قيادة نظام الاستبداد في غرفة بُنِيت تمامًا فوق غُرف الاعتقال حيث كان سولجِنيتسين يُستجوب، أخبَرَنا نائب رئيس الـ ك.ج.ب. شيئًا مشابهًا تمامًا: ما نفع الطريق الذي لا يؤدي إلى التوبة وإلى الوصايا العشر وإلى الكنيسة؟

فجأةً، أخذ الاجتماع منحًى شخصيًّا حين نهض ألكس ليونوڤيتش ليتكّلم. كان ألكس يجلس على رأس الطاولة يترجم لستوليا روف. إنه مواطن من روسيا البيضاء، كان قد هرب خلال حكم ستالين الإرهابي،

وهاجر إلى الولايات المتحدة. ولمدة ستة وأربعين عامًا ظلّ يذيع البرامج المسيحية الموجَّهة إلى أرض مولده بالرغم من التشويش عليه. وقد عرف شخصيًّا العديد من المسيحيين الذين عُذّبوا واضطُهدوا بسبب إيمانهم. وبالنسبة إليه، أن يكون الآن مَن يترجم رسالة عن المصالحة مثل هذه مِن مسؤول كبير في ك.ج.ب. فهو أمر مُربِك ومُبهَم.

ألكس، الجدُّ الجريء، يمثِّل الجيل القديم من المحاربين الذين صلّوا لِما يزيد عن نصف قرن، عسى أن تأتي رياح التغيير إلى الاتحاد السوڤياتي. هذا التغيير ذاته الذي نشهده اليوم على ما يبدو. تكلّم ببطء وصوت خفيض إلى الجنرال ستولياروف.

قال ألكس: «أيها الجنرال، إنّ عددًا كبيرًا من عائلتي قاسى بسبب هذا الحزب، أنا نفسي أُجبرت على ترك الأرض التي أحببت. عمّي الذي كان عزيزًا جدًّا عليّ، ذهب إلى سجن الأشغال الشاقة في سيبيريا ولم يعد قطّ. جنرال، أنت تقول إنك تائب. المسيح علّمنا كيف نجيب. باسم عائلتي، وباسم عمّي الذي مات في الغولاغ أنا أسامحك.»

بعدها، اقترب ألكس ليونوڤيتش المبشِّر المسيحي، من نيكولاي ستولياروف، نائب رئيس جهاز المخابرات الروسية، وعانقه بقوة على الطريقة الروسيّة. وفيما كانا متعانقين هَمَسَ ستولياروف شيئًا لألكس، ولم نعرف إلا فيما بعد ماذا قال: «مرّتين فقط في حياتي بكيت. مرةً حين ماتت أمّي، والثانية الليلة.»

ذاك المساء، في حافلة العودة، قال ألكس: «أشعر مثل موسى، فقد رأيتُ أرض الموعد. أنا مستعدّ للمجد.»

المصوّر الروسي الذي كان برفقتنا كانت له وجهة نظر مغايرة، قال: «كلُّ شيء كان مجرّد تمثيليّة. كانوا يضعون قناعًا أمامكم. فأنا لا أصدّق هذا.» بَيْدَ أنه هو أيضًا تحيَّر، وقد اعتذر بعد وقت قصير، قال: «ربما كنت مخطئًا. لست أدري ماذا أصدّق بعد الآن.»

سوف تمضي عقود وربّما قرون، يواجه فيها الاتحاد السوفياتي سابقًا مواضيع الغفران. فأفغانستان والشيشان وأرمينيا وأوكرانيا ولاتفيا وليتوانيا وإيستونيا، كل واحدة من هذه الدّول تحمل ضغينة ضد الإمبراطورية التي حكمتهم. كل دولة منهم سوف تسأل عن الدوافع، تمامًا مثل المصوّر الذي رافقنا إلى مبنى الـ ك.ج.ب. الروسي، ولأسباب وجيهة، لا يثقون بعضُهم ببعض أو بحكومتهم. والماضي يجب تذكُّره قبل تخطّيه.

مع ذلك، يبقى تخطّي التاريخ ممكنًا، وإن ببطء وبصورة غير تامة. وسلاسل عدم النعمة يمكن بالطبع كسرها. نحن في الولايات المتحدة، كانت لنا تجربة مع المصالحة على الصعيد الوطني: فعَدوّان لدودان من الحرب العالمية الثانية مثل ألمانيا واليابان، هما الآن اثنان من أقوى حلفائنا. ثمة أمر أكثر دلالة، وذو صلة مباشرة بالموضوع مثل الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا السابقين. فقد خُضنا حربًا أهلية دموية قاتلت فيها العائلة ضد العائلة والأمّة قاتلت بعضها بعضًا.

ترعرعتُ في أتلانتا، جورجيا، حيث المشاعر نحو الجنرال شيرمان، الذي أحرق أتلانتا إلى الأرض، تعطي فكرةً عن ماهيّة شعور مسلمي البوسنة نحو جيرانهم الصّرب. كان شيرمان بالذات، من أدخل فكرة «الأرض المحروقة» كتكتيك حربيّ حديث، وهي سياسة سوف تُحقّق كمالها في البلقان. بطريقة ما عاشت أُمّتنا موحَّدة. والجنوبيون لا يزالون يتأمّلون

في حسنات العَلَم الكونفدرالي (الذي يمثّل الولايات الأميركية الجنوبية) ونشيد (Dixie) (الذي كان بمثابة النشيد الوطني لهذه الولايات أثناء الحرب الأهلية الأميركية)، لكنني لم أسمع كلامًا كثيرًا عن الانفصال، أو عن تقسيم الأمة إلى مقاطعات عرقيّة. اثنان من رؤساء جمهوريتنا الحديثة متحدِّران من ولايتي أركنسا وجورجيا الجنوبيتين.

بعد الحرب الأهلية، حثَّ المستشارون والسياسيون الرئيس أبراهام لنكولن كي يعاقب الجنوب بشدّة بسبب كل تلك الدماء التي سفكها. أجاب الرئيس: «ألا أُدَمِّر أعدائي عندما أجعلهم أصدقائي؟» وقد وضع بالمقابل مشروعًا نبيلاً لإدارة إعادة البناء. قادت روح لنكولن الأمة بأسرها، حتى بعد موته، وربما كان السبب المركزي في بقاء الولايات «متحدة».

أمّا الأمر الأكثر إثارة فهو المصالحة المستمرّة بين البيض والسود حيث كان الواحد يمتلك الآخر. هذا وإنّ عدم زوال التمييز العرقيّ التام يبرهن أنّ الأمر يتطلّب سنوات عدة وعملاً مُضنيًا لمحو الظلم. على أنّ كل خطوة يخطوها الأفارقة الأميركيون في اتجاه المشاركة كمواطنين تتطلّب تحركًا نحو الغفران. ليس جميع السود يسامحون، ولا جميع البيض يندمون؛ فالعرقية تُقَسِّم هذه البلاد في العمق. لكنْ، قارنْ وضعنا بما حصل، لنَقلْ في يوغوسلافيا السابقة. فإنني لم أرَ أيّ رام بالرشّاش يقطع الطرق إلى مدينة أتلانتا أو قذائف مدفعية تُمطر مدينة برمنغهام.

أنا نشأتُ في جوّ من التمييز العنصري. ومع أنني لم أبلغ الخمسين من العمر، إلاّ أنني أتذكر جيدًا عندما مارس الجنوب شكلاً قانونيًّا من التمييز العنصري. فالمخازن في وسط مدينة أتلانتا كان فيها ثلاثة بيوت خلاء: للرجال البيض وللنساء البيض وللسّود. محطّات الوقود كان فيها نافورتا

مياه للشّفة: واحدة للبيض وأخرى للسّود. أمّا الفنادق فكانت للزبائن البيض فقط، ولكن حين اعتبَر قانون الحقوق المدنيّة أنّ التمييز العنصري غير قانوني، أقفل العديد من رجال الأعمال مؤسساتهم.[١]

لِسْتِر مادوكس الذي انتُخب في ما بعد حاكمًا لولاية جورجيا كان أحد أصحاب المطاعم المعارضين. فبعد إقفاله متاجره التي كانت لبيع الدجاج المقلي، بنى نصبًا تذكاريًّا، يمثّل موت الحرية، ووضع في مكان بارز نسخةً من شُرعة الحقوق المدنيّة، في تابوت مجلّل بالسواد. ولكي يُعيل نفسه، راح يبيع الهراوات ومقابض الفؤوس ذات الأحجام المختلفة، وهي نسخة عن تلك العصي التي استُعملت لضرب المتظاهرين السود المطالبين بحقوقهم المدنيّة. اشتريت واحدة من تلك المقابض الخشبية بنقود كنت قد حصَّلتها من توزيع الجرائد. كان لستر مادوكس يحضر أحيانًا اجتماعات كنيستي، حيث شقيقته عضوٌ فيها. وهناك تعلّمت مبدأً لاهوتيًّا ملتويًّا يبرّر انحيازي العنصري.

قرّر مجلس شمامسة الكنيسة في الستّينيات، تسيير دوريات مراقبة، وقد تناوب هؤلاء أيام الآحاد على مراقبة المداخل لئلا يدخل أحد من «مثيري المتاعب» من السّود، ويجتمع معنا. لا أزال أحتفظ ببطاقة نصَّها الشمامسة وكانت تُعطى للمتظاهرين من أجل الحقوق المدنيّة الذين قد يظهرون فجأة، وقد جاء فيها:

١ لقد زرتُ متحف المحرقة النازية في واشنطن العاصمة وتأثَّرت جدًّا بوصف ظُلم النازيين ضد اليهود. والأمر الذي أثّر فيّ تأثيرًا بالغًا هو الجزء من المعرض الذي يُظهِر قوانين التمييز العنصري الأولى ضد اليهود – كيف أنّ المحال والمقاعد في المنتزهات والحمّامات وأمكنة الشرب المخصّصة «لليهود فقط» – استُنسِخت عن قوانين التمييز العنصري في الولايات المتحدة.

اعتقادًا منّا بأنّ دوافع جماعتكم غامضة وغريبة عمّا تُعلّمه كلمة الله، لا نستطيع أن نرحّب بكم، ونطلب منكم بكل احترام أن تغادروا ممتلكاتنا بهدوء. إنّ الكتاب المقدس لا يُعلِّم عن «الأخوَّة الإنسانية كلها، وعن أبوّة الله لنا جميعًا.» صحيح أنه خالق الكل، لكنه أبٌ فقط للذين تجدّدوا.

فإن كان ثمّة أحد بينكم هنا، لديه رغبة صادقة في التعرّف بيسوع المسيح مخلّصًا وربًّا، فسيكون من دواعي سرورنا أن نتعامل معه عبر كلمة الله، وبصورة فرديّة.

(قرار بالإجماع من الراعي والشمامسة، آب ١٩٦٠).

عندما أقرّ مجلس النواب الأميركي قانون الحقوق المدنيّة، أسّسَت كنيستنا مدرسة خاصة كملاذ للبيض وحظّرت بشكل صارم دخول التلامذة السود. عدد قليل من الأعضاء «المتحرّرين» تركوا الكنيسة احتجاجًا، عندما رفض صف الروضة ابنة معلّم الكتاب المقدس الأسود، إلاّ أن معظمنا استساغ القرار. بعد مرور سنة رفض مجلس الكنيسة تلميذًا من معهد كارڤر للكتاب المقدّس يريد الانضمام إلى عضويّة الكنيسة (كان اسمه طوني إيڤانس وقد تابع دراسته ليصبح راعيًا ومتكلّمًا بارزًا).

درَجْنا على مناداة مارتن لوثر كنغ الابن، بـ «مارتن لوسيفر كوون» (وهي عبارة تربطه بالشيطان). كنا نقول إن كِنغ هو عضو في الحزب الشيوعي وجاسوس ماركسي، يتّخذ من مظهر رجل الدِّين غطاءً. وقد مضى عليّ وقت طويل حتى استطعت أن أقدّر طاقة الرجل الأخلاقية، والذي يعود له الفضل الكبير، ربّما أكثر من أي رجل آخر، في الحؤول دون اندلاع حرب أهلية شاملة في جنوب البلاد.

زملائي البيض في المدرسة وفي الكنيسة ابتهجوا لدى مشاهدتهم المواجهة المتلفزة بين كِنغ ورجال الشرطة في الجنوب، وكلاب الشرطة وخراطيم المياه. لم نكن ندري أننا بعملنا هذا كنا نساعد بشكل مباشر على نجاح استراتيجية كِنغ. فهو كان يتعمّد انتقاء الأفراد من مثل شرطي البلدية بُول كونور، ومشاهد المواجهة المدروسة سلفًا، والرضوخ للضرب، والحبس وأعمال وحشية أخرى، لأنه كان يؤمن بأنّ أمةً طيّبة سوف تلتقي حول قضيّته، فقط عندما ترى شرّ التمييز العنصري باديًا بأبشع مظاهره. ومن مأثور قوله: «إنّ المسيحيّة تُشدّد دائمًا على أن حَمْلَ الصليب يسبق لبس التاج.»

وقد سجّل كِنغ كفاحه جنبًا إلى جنب مع غفرانه في: «رسالة من سجن مدينة برمنغهام». خارج السجن كان القساوسة الجنوبيّون يتّهمونه بالشيوعية، والحشود كانت تصرخ: «اشنقوا الزنجيّ!» وكانت الشرطة تضرب مناصريه بالهروات. يكتب كِنغ أنّه كان عليه أن يصوم لعدة أيام كيما ينال الهدوء الروحي اللازم له من أجل المغفرة لأعدائه.

كان كِنغ في استدراجه الشرّ إلى مواجهة مكشوفة في الشارع، يحاول شحن مخزون من السخط الوطني الأخلاقي، وهي فكرة لم نكن، أصدقائي وأنا مهيّئين لفهمها. يُشير العديد من المؤرّخين إلى حادثة واحدة باعتبارها اللحظة الوحيدة التي اكتسبت الحركة فيها أخيرًا حجمًا هائلاً من الدعم لقضية الحقوق المدنية. حصل ذلك على الجسر خارج سِلْما، ألاباما، عندما أطلق شرطي البلدية جيمْ كلارك جماعته من رجال الشرطة لمواجهة المتظاهرين السّود العزّل. فالفرسان على ظهور جيادهم، نخسوا الجياد في مواجهة جمهور المشاة، وهم يضربونهم بهراواتهم، شاجّين الرؤوس وملقين بأجساد المتظاهرين إلى الأرض. وفيما كان البيض على الخطوط

الجانبية يطلقون صيحات الابتهاج، راح الفُرسان يلقون القنابل المسيّلة للدموع على المشاة المصابين بالذعر. معظم الأميركيين رأوا المشاهد الأولى للتظاهرة، عندما قطعت قناة (ABC) بثّها لسينما الأحد التي كانت تعرض فيلمًا عن محاكمة مجرمي الحرب النازيين بعنوان (Judgement at Nuremberg) لتبُثّ مشاهد عن الحَدَث. فما رآه المشاهدون من بثٍّ مباشر من ألاباما حَمَل تشابهًا فرعيًّا مع ما كانوا يشاهدونه من فيلم عن ألمانيا النازية. بعد مضيّ ثمانية أيام على هذه الحادثة، أحال الرئيس ليندون جونسون قانون ١٩٦٥ لجهة حقوق الاقتراع إلى مجلس النواب الأميركي.

كان كِنغ قد نمّى استراتيجية محنَّكة للحرب التي تُدار بالنعمة لا بالسلاح. فلم يرفض مرة واحدة أن يتقابل مع مناوئيه. فقد عارض السياسة لا الأشخاص. وأهم من هذا كلّه أنه قابل العنف باللاعنف والكراهية بالمحبة. ولطالما حثّ أتباعه بالقول: «دعونا ألاّ نروي ظمأنا للحريّة بالشرب من كأس المرارة والكراهية. ينبغي ألا نسمح لاحتجاجنا الخلاّق أن ينحطّ إلى العنف الجسدي. ينبغي لنا أيضًا وأيضًا أن نرتقي إلى المستويات السامية، حيث نقابل القوة الجسديّة بقوة الروح.»

أندرو يونغ، زميل كِنغ، يتذكر تلك الأيام العنيفة، حيث كانوا يحاولون أنْ «يخلّصوا أجساد الرجال السّود وأرواح الرجال البيض.» كان هدفهم الحقيقي، كما قال كِنغ، ليس أن يهزموا الرجل الأبيض بل «أن يوقظوا في مضطهديهم الشعور بالخجل، ومقارعة إحساسهم الخاطئ بالفوقيّة وتحقيق المصالحة في نهاية الأمر؛ والفداء، وخلق مجتمع تسوده المحبة.» وهذا ما حقّقه مارتن لوثر كِنغ أخيرًا حتى في عنصريِّين معاندين مثلي. فقوة النعمة جرّدت عنادي الشرير من أسلحته.

اليوم، حين أنظر إلى الوراء، إلى طفولتي، أشعر بالخجل والندم، وبالتوبة كذلك. أحتاج الله عدّة سنوات ليخترق دروع العنصريّة التي في داخلي — أتساءل إن كان أحدنا يستطيع أن يدرك دقّة أشكالها الغامضة. وإنني إلى الآن أرى تلك الخطيّة كأخبث ما يكون، وربما المسبّبة لأعظم تصادم مجتمعي. أسمعُ الكثير من الحديث هذه الأيام، عن طبقات المجتمع المحرومة، وعن أزمة في المدن الأميركية. والخبراء بدورهم، يلومون المخدرات وتدنّي القِيَم والفقر وانقسام المجتمع. أتساءل ما إذا كانت كل هذه المشاكل هي نتيجة لمسبّب أعمق: خطيّة قديمة هي العنصرية.

على الرغم ممّا تطاير من العنصريّة من جزئيات سامّة، إلاّ أنّ الأمّة استطاعت أن تبقى متماسكة، واندمج جميع الناس بمختلف ألوانهم في العمليّة الديمقراطية، بما في ذلك الجنوب، ولسنوات باتت مدينة أتلانتا تنتخب رئيس بلدية أسود. وفي سنة ١٩٧٦ شاهد الأميركيون الحدث الأكثر غرابة حين ظهر جورج والاس في مقر قيادة السّود في ألاباما واعتذر بسبب سلوكه السابق نحو السّود، كما كرّر اعتذاره عبر التلفاز في عرض البلاد وطولها. كان ظهور والاس — وهو يحتاج إلى أصوات السّود في تنافس حاد على مقعد حاكم الولاية، يسهل فهمه أكثر من الردّ عليه. فالقادة السّود قبلوا اعتذاره والمواطنون السّود سامحوه وصوّتوا له بكثافة. وحين توجّه والاس ليعتذر من الكنيسة المعمدانية في مونتغومري، المكان الذي أطلق منه كِنغ حركة الحقوق المدنية، كان من بين القادة الذين حضروا ليتقبّلوا اعتذاره كوريتّا سكوت كنغ وجيسّي جاكسون وشقيق الشاب الأسود القتيل مِدْغار إِڤرز.

حتى كنيسة طفولتي تعلّمت كيف تتوب. وإذ تبدّل المحيط المجاور للكنيسة، بدأ الحضور في تلك الكنيسة يتضاءل. وعندما حضرتُ أحد

اجتماعات العبادة في تلك الكنيسة قبل بضع سنوات، صُدِمتُ إذ وَجَدْت بضع مئات من العابدين مبعثرين في القاعة الضخمة، والتي كانت أيام طفولتي تعجّ بما يزيد على ألف وخمسمئة عابد. بدت الكنيسة وكأنها ملعونة أو موبوءَة. جَرَّبَتْ رعاةً مختلفين وبرامج مختلفة ولكنّ ذلك لم ينجح. ومع أنّ القادة سعوا إلى مشاركة أفرادٍ أفارقة أميركيين إلاّ أنّ قلّة قليلة من الجوار استجابت.

أخيرًا خطا راعي الكنيسة – وهو زميلي منذ الطفولة – الخطوة الاستثنائية بوضعه برنامجًا لخدمة التوبة. وقبل بدء العبادة كتب إلى طوني إڤانس وإلى معلّم الكتاب المقدس طالبًا منهما المغفرة. إذ ذاك، ذَكَرَ، وبصورة علنيّة وألم، وبحضور قادة أفارقة أميركيين، خطيّة التمييز العنصري كما كانت تمارَس في الكنيسة في ما مضى. اعترَفَ – ونال مغفرتهم.

وعلى الرغم من أنّ حملاً ثقيلاً انزاح عن كاهل المجتمعين بعد تلك الخدمة، إلاّ أنه على ما يبدو، لم يكن كافيًا ليُنقذ الكنيسة. بعد بضع سنوات، تحرّكت جماعة البيض خارجًا نحو الضواحي السكنيّة، واليوم أصبحت جماعة الأفارقة الأميركيين، تملأ المبنى وتجلجل عبر النوافذ من جديد.

يشير إِلتون تروبْلَد إلى أنّ الصورة التي يستعملها يسوع ليصف مصير الكنيسة: «وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا» (متى ١٦: ١٨)، هي مجاز لغوي، المراد به الهجوم لا الدّفاع. فالمؤمنون يعصفون بالأبواب، وسوف يتغلّبون عليها. فلا يهمُّ كيف تكون عليه حال تلك الأبواب في ظروف التاريخ المختلفة، لأن تلك الأبواب التي تحرس قوّات الشر، لن تصمد أمام هجمات النعمة.

تُفضِّل الجرائد أن تركِّز على أعمال الحرب العنيفة: التفجيرات في لبنان ولندن مثلاً، وزُمَر الإجرام في أميركا اللاتينيّة، والإرهاب في الهند وسريلانكا والجزائر... فهذه وأمثالها تعطي الصورة القبيحة عن الوجوه النازفة والأعضاء المبتورة التي نتوقّعها في هذا القرن الأكثر عنفًا. بَيْد أنْ لا أحد يقدر أن ينفي قوّة النعمة.

من منّا يقدر أن ينسى تلك الصّور من الفيلبّين، عندما ركع عامة الشعب أمام دبّابات تزن الواحدة منها خمسين طنًّا، والتي اندفعت نحوهم ثم توقّفت فجأة وكأنها اصطدمت بدروع خفيّة من الصلاة. والفيلبّين هي الدولة الوحيدة ذات الأكثرية المسيحية في آسيا، من هنا، كان أنّ أسلحة النعمة تغلّبت على أسلحة الطّغيان. حين نزل بنِنيو أكينو سُلّم الطائرة في مانيلاّ قُبيل اغتياله، وكان يحمل في يده خطابًا، ضمّنه هذا الاقتباس من غاندي: «إنّ تضحية البريء الاختيارية هي الجواب الأقوى في وجه الطغيان الوقح الذي لا يزال يحتمله كل من الله والإنسان.» لم يحظ أكينو بفرصة إلقاء هذا الخطاب، لكنّ حياته وحياة زوجته برهنتا نبويّة هذه الكلمات. فقد واجه حكم ماركوس ضربة قاتلة.

قال أحد أعضاء مجلس النواب الأميركي السابقين، سام نَنْ، إنّ الحرب الباردة انتهت، «ليس بجحيم نوويّ بل بإضاءة الشموع في كنائس أوروپا الشرقيّة.» ومع أنّ نشرة الأخبار المسائيّة لم تُظهر صفوف حاملي الشموع المضاءة بشكل بارز، إلاّ أنهم ساهموا في تغيير وجه العالم. كان في البداية بضع مئات ثم ألف ثم ثلاثون ألفًا، خمسون ألفًا، وأخيرًا خمسمئة ألف – مجموع سكان المدينة تقريبًا – خرجوا في لَيبزِغ (Leipzig) للاعتصام في ضوء الشموع. وبعد اجتماع صلاة في كنيسة القديس نقولا، سار المتظاهرون في مسيرة سلمية عبر الشوارع المعتمة وهم يرتّلون. الجيش ورجال الشرطة بدوا عاجزين أمام قوة كهذه على الرغم من كامل

أسلحتهم. أخيرًا، وفي الليل، قامت مسيرة في برلين الشرقية جاذبةً إلى الشارع مليون محتجٍّ، وإذ بجدار برلين الكريه بدأ يهوي من دون طلقة نار واحدة. ثمّ ظهرت لافتة كبيرة رُفعت عبر شارع في مدينة لَيْبزغ تقول: نشكُرُكِ أيتها الكنيسة.

انتشرت الثورة السلميّة عبر الكرة الأرضيّة كهبوب ريح شديدة من الهواء النقي، راحت تطرد أمامها غيوم التلوّث الفاسدة. ففي سنة ١٩٨٩ وحدها، عشر دول: پولندا وألمانيا الشرقية والمجر وتشيكوسلوڤاكيا وبلغاريا ورومانيا وألبانيا ويوغوسلاڤيا ومونغوليا والاتحاد السوڤياتي، أيْ ما يزيد على خمسمئة مليون نسمة، عاشوا ثورات من اللاعنف. وقد لعبت الأقلية المسيحية في العديد من هذه الدول دورًا مفصليًّا. وقد عاد سؤال ستالين الساخر: «كم مقاطعة يملك البابا؟» ليجد جوابه.

بعدئذٍ، وفي سنة ١٩٩٤، جاء دور الثورة الأكثر غرابةً، كانت غريبة ومفاجئة لأن الجميع كانوا يتوقّعون مجزرة دموية. إنها جنوب أفريقيا، مثالُ الاحتجاج السلمي، لأنه هناك كان المهاتما غاندي يدرس تولستوي والموعظة على الجبل، وهناك بالتالي طوّر استراتيجية اللّاعنف (والتي تبنّاها فيما بعد مارتن لوثر كِنغ). وإذْ أُتيحت لشعب جنوب أفريقيا فُرص كثيرة للتدرّب، فقد أحسنوا بالتالي استخدام أسلحة النعمة. يُخبر والتر وِينك عن امرأة سوداء كانت تسير مع أولادها في الشارع حين بصق رجل أبيض في وجهها. توقفت وقالت له: «شكرًا، والآن جاء دور الأولاد.» لدهشته لم يدرِ ذاك الرجل ماذا يجيب.

نساء سوداوات من جنوب أفريقيا، وجدن أنفسهن مرةً محاطات بجرّافات لرجال الشرطة في قرية لا يمتلكنها. وقد أعلن الجنود عبر

مكبرات الصوت أنّ على السكّان مغادرة المكان خلال دقيقتين قبل أن تُجرف قريتهم. لم تكن واحدة من النساء تمتلك سلاحًا، وكان الرجال يعملون بعيدًا عن القرية. كان النساء يعرفن مدى حِشمة الأفارقة الهولنديين المُصْلَحين ولا سيّما منهم أبناء الريف، لذلك خلعنَ ثيابهن ووقفن أمام الجرافات عاريات تمامًا. هرب رجال الشرطة ولا تزال القرية قائمة إلى الآن.

بالجهد كانت نشرات الأخبار تشير إلى الدّور الأساسي الذي لعبه الإيمان المسيحي في ثورة جنوب أفريقيا السلميّة. فبعد أن فقد فريق الوساطة برئاسة هنري كيسينجر، كلّ أمل في إقناع منظّمة الإنكاتا بالمشاركة في الانتخابات، تقابل دبلوماسيٌّ مسيحيٌّ من كينيا سرًّا مع رؤساء تلك المنظّمة، وصلّى معهم وساهم في تغيير مواقفهم. (عُطل غامض طرأ على بوصلة إحدى الطائرات، تسبّب في تأخير إِقلاعها، مما جعل هذا الاجتماع الحاسم ممكنًا).

نلسون مانديلا كسر سلسلة عدم النعمة تلك، عندما خرج من السجن بعد ستٍّ وعشرين سنة، وفي حوزته رسالة عن المغفرة والمصالحة لا عن الانتقام. إف. و. دوكليرك نفسه، الرئيس المنتخب من الأقليّات الكلڤينيّة المتشدِّدة في كنائس جنوب أفريقيا، شعر بما وصفه فيما بعد بأنه «إحساس قوي بالدعوة.» أخبر رعيّته بأنّ الله كان يدعوه ليخلّص كل شعب جنوب أفريقيا، بالرغم من أنه كان يعلم أنّ ذلك يعني رفضه من شعبه الخاص.

أصرّ القادة السّود على أنّ دوكليرك ينبغي أن يعتذر بسبب سياسة التمييز العنصري. لكنّه امتنع عن ذلك لأنّ الأشخاص الذين شرعوا في هذه السياسة كان من بينهم والده بالذات. لكنّ الأسقف دِسموند توتو رآه أمرًا أساسيًّا أن تبدأ عملية المصالحة بالغفران، وأنه لن يتسامح في هذا الأمر. وبالنسبة

إلى توتو: «ثمة درس واحد ينبغي لنا أن نُعَلِّمه للعالم، وهو نفسه ينبغي أن نعلِّمه لشعب البوسنة ورواندا وبوروندي، وذلك أننا مستعدّون للمغفرة.» في النهاية، لم يجد دوكليرك بُدًّا من الاعتذار. الآن، وإذْ أصبحت السُلطة السياسية بيد الأكثرية السّود، فإنهم يعتمدون مواضيع الغفران بشكل أساسي. فوزير العدل مثلاً، يبدو لاهوتيًّا بالتمام حين يشترع صيغة سياسية معيّنة. يقول: لا أحد يقدر أن يغفر باسم الضحايا؛ على الضحايا أن يغفروا بأنفسهم. ولا أحد يقدر أن يغفر بدون الكشف الكامل: ماذا حصل، ومن فعل ذلك... هذا يجب أن يعلن أولاً. كذلك، الذين ارتكبوا الفظاعات ينبغي أن يوافقوا على طلب المغفرة قبل أن توهب لهم. شيئًا فشيئًا يتذكّر سود جنوب أفريقيا ماضيهم من أجل أن ينسوه.

ليس الغفران سهلاً كما اكتشف سود جنوب أفريقيا، ولا هو واضح المعالم. فقد يغفر البابا لمن حاول اغتياله، ولكن، لن يطلب اطلاق سراحه من السجن. قد يغفر أحدهم للألمان، ولكنه يضع قيودًا على قوّاتهم المسلّحة، وقد يغفر لمغتصب طفل، ولكنه يبقيه بعيدًا عن ضحيّته، وقد يغفر للتمييز العنصري في جنوب أفريقيا، ولكنه يفرض القوانين عليه لكي لا يحدث مرة ثانية.

بَيْد أنّ الشعوب التي تناضل من أجل الغفران بكل تعقيداته، تقدر على الأقل، أنْ تتجنّب النتائج المخيفة لما هو ضدّه، أي عدم الغفران. فعوضًا عن مشاهد المذابح والحرب الأهليّة، دُعي العالم لمشاهدة سود جنوب أفريقيا وهم يؤلّفون صفوفًا وصلت أحيانًا إلى مسافة تزيد عن الميل، وهم يرقصون احتفالاً بأول فرصة تتاح لهم لينتخبوا ممثليهم.

ولأنّ الغفران يسير عكس الطبيعة البشريّة، لذلك يجب أن نتعلّمه ونمارسه كممارستنا لأيّة مهنة صعبة. قال مارتن لوثر كِنغ: «ليس

الغفران مجرّد عمل نقوم به من وقت إلى آخر، إنه موقف دائم.» أيّة هبة يستطيع المسيحيون أن يقدّموها للعالم أعظم من إنشاء حضارة عمادها النعمة والغفران؟

الرهبان البينيدكتيّون، مثلاً، لديهم خدمة متحرِّكة من الغفران والمصالحة. فبعد تقديمهم إرشادات من الكتاب المقدّس، يسأل القادة كل واحد من الحضور أن يبيّن الأمور التي تتطلّب الغفران. بعدها يغمس العابدون أيديهم في وعاء ماء زجاجي، «قابضين» على الخطأ الذي تسبّب بشكواهم. وفيما هم يصلّون للنعمة كي تسامح، تبدأ أيديهم بالانفتاح تدريجيًا «للتخلّي» عن هذه الشكوى بصورة رمزيّة. يقول بروس ديمَرست وهو أحد المشتركين: «إنّ ممارسة طقس كهذا فعليًّا (بجسدك)، ليَمتلك قوة مُغيِّرةً أكثر من مجرَّد تمتمة كلمات: أنا أغفر.» أيّ تأثير سيكون لو أنّ سود جنوب أفريقيا وبيضها أو الذين في الولايات الأميركية، غطّسوا أيديهم تكرارًا في وعاء مشترك من الغفران؟

يسرد لورِنز ڤان درِ پوست، في كتابه (The Prisoner and the Bomb)، اختباراته التعيسة في الحرب، في سجن ياباني في جزيرة جاوا. وقد روى عن ذلك المكان البغيض ما يلي:

> إنّ الأمل الوحيد للمستقبل يتوقف على مدى استعدادنا لمسامحة الناس الذين كانوا أعداءنا. فالغفران الذي علّمتني إياه اختباراتي في السجن، لم يكن مجرّد عاطفة دينية، إنه كان ناموسًا للنفس البشريّة مثل قانون الجاذبيّة. فالذي يكسر قانون الجاذبية، يكسر عنقه؛ كذلك، من يكسر قانون الغفران يُنزِل بنفس الإنسان جرحًا مُميتًا، ويبدأ من جديد، بالدوران في حلقة السبب والنتيجة، الأمر الذي تَعِبَتْ منه الحياة طويلاً وتألَّمت طالبةً الهرب.

الجزء الثالث

رائحة العار

بيت النّغول[1]: قصّة

نشأ وِلْ كامبل في مزرعة بولاية ميسيسبّي. كان مولعًا بالكتب، ولم يَبِن علاقة مع محيطه الريفي، فكان ينكبّ على دروسه باجتهاد، وفي النهاية فُتِح الطريق أمامه إلى مدرسة اللاهوت في جامعة يال. بعد تخرّجه، رجع إلى الجنوب ليَعِظ، وقد دُعيَ مدير الحياة الدينيّة في جامعة ميسيسبّي. حصل ذلك في أوائل الستينيّات، عندما تعاضد معًا أهل مسيسيبي الأصليون للحدّ من هجمة الناشطين في منظّمة الحقوق المدنيّة. وعندما علم الطلاب والمدراء بتطلّعات كامبِل التحرّرية لجهة إزالة الحواجز بين البيض والسّود، حرموه فورًا من وظيفته في المدرسة.

وجد كامبل نفسه فجأة في قلب المعركة، يقود حركة تسجيل الناخبين والإشراف على الشباب الآتين من الولايات الشماليّة الذين كانوا يؤمنون بهذه المثاليّات، الذين هاجروا جنوبًا لينضمّوا إلى حمْلة الحقوق المدنيّة. كان من بين هؤلاء المهاجرين طالب من مدرسة اللاهوت في جامعة هارڤرد يُدعى

١ النغول: الأبناء غير الشرعيين.

جوناثان دانيالز الذي استجاب لدعوة الدكتور كِنغ من أجل وجود مشجّعين للنزول إلى مدينة سِلْما. عاد معظم المتطوّعين إلى بيوتهم بعد تلك المسيرة الضخمة، أمّا جوناثان دانيالز فبقيَ وقد اتخذه وِلْ كامبل صديقًا له.

كان لاهوت كامبل يجتاز بعض الاختبار في تلك الأيام. وقد جاء الكثير من الاعتراض على عملِه من «المسيحيين الصالحين»، الذين رفضوا دخول الناس من أجناس أخرى إلى كنائسهم، كما امتعضوا من كل من حاول التلاعب بالقوانين التي هي لصالح البيض. وقد وجد كامبل مناصرين بسهولة بين اللاأدريّين والإشتراكيين وقلّة من أهل الشمال المتديّنين.

أحد اللاأدريّين تحدّى كامبل قائلاً له: «في عشر كلمات أو أقل، أخبرني ما هي الرسالة المسيحيّة؟» كان المحاور يُدعى پ.د. إيسْت وهو محرّر ثائر يعمل لإحدى الجرائد، كان ينظر إلى المسيحيّين كأعداء ولم يستطع أن يفهم تمسّك وِلْ العنيد بالإيمان المتديّن.

> كنا ذاهبين إلى مكان ما، أو ربما راجعين من مكان ما عندما قال: «أعطني الجواب. عشر كلمات.» قلتُ: «كلّنا نغول لكنّ الله أحبنا على كل حال.» لم يعلّق على ما جاء في تلك الخلاصة، إلاّ أنه قال بعد أنْ عَدّ الكلمات على أصابعه: «أعطيتك مجالاً لعشر كلمات. فإذا أردت المحاولة مرة ثانية، فلديك مجال لزيادة كلمتين بعد.» لم أجرِّب ثانيةً لكنه غالبًا ما كان يُذَكّرني بما قلت ذلك اليوم.

هذا التعريف وَخَزَ پ.د. إيست في الصميم، وهو كان بالفعل نغلاً دون علم كامبل المسبق، وقد دُعي نغلاً كل حياته. لم ينتقِ كامبل تلك الكلمة لمجرّد التأثير وإحداث الصّدمة، بل، من أجل الدِّقة اللاهوتيّة: فنحن روحيًّا نغول، وقد دُعينا بالرغم من أصلنا هذا، إلى الدخول في عائلة الله. وكلّما

كان كامبل يفكر في تعريفه الإرتجالي ذاك، والذي يختصر الإنجيل، كان يزداد إعجابًا به.

وضع پ.د. إيست ذاك التعريف أمام امتحان صعب، ولا سيّما في أَحْلَك أيام حياة كامبل سوادًا، ذاك اليوم المشؤوم، حين أطلق النار نائب شرطي البلدية من ولاية ألاباما توماس كولمان على صديق كامبل الذي يبلغ من العمر ٢٦ سنةً وأرداه. كان جوناثان دانيالز قد اعتُقل بسبب اعتصامه أمام مخازن البِيض. وحين أطلق سراحه، اقترب من مخزن بقّال كي يُجري مكالمة هاتفية يؤمِّن فيها وسيلة نقلٍ، في تلك اللحظة ظهر كولمان يحمل بندقيةً، ثمّ ما لبث أن أفرغها في أمعائه. وقد أصاب الرصاص شخصًا آخر أسود مراهقًا، وتسبّب بجروحٍ بليغة في ظهره.

يُسجّل كتاب كامبل بعنوان (Brother to a Dragonfly) الحديث الذي دار بينه وبين پ.د. إيست، تلك الليلة، والذي قاد إلى ما ينظر إليه كامبل باعتباره «أعظم درس لاهوتي أنارني روحيًّا في حياتي.» على أنّ پ.دِ. إيست استمرّ في عدوانيّته، حتى في تلك اللحظة البالغة الأسى. فقال لي:

«أجل يا أخي، لنَرَ إذا كان تعريفُك للإيمان سيصمُد أمام الامتحان.»

اتصلت بوزارة العدل وباتحاد الحريات المدنية الأميركي وبمحام صديق في ناشڤيل. وكنت قد تكلّمت عن موت صديقي باعتباره مهزلة في تطبيق العدالة، وانهيار كُلّي للقانون والنظام، وانتهاك لقانون الولاية كما للقانون الفدرالي على السواء. وقد استعملت كلمات مثل حقارة، وشريعة الغاب، وجهل مطبق، وتعابير أخرى كثيرة. وكنت درست علم المجتمع وعلم النفس وعلم الأخلاق

الاجتماعي، وكنت أتكلّم وأفكّر انطلاقًا من هذه المفاهيم. كما كنتُ قد درستُ لاهوت العهد الجديد.

كان پ.د. يتعقّبني كالنّمر، قال: «هيا يا أخي، دعنا نتكلّم عن تعريفك.» هنا التفت جو (أخو وِلْ) إليه وقال له: «كُفّ يا پ. د. ألا تلاحظ عندما يكون المرءُ منزعجًا؟» إلاّ أنّ پ.د. تجاهله مصمِّمًا ألاّ يدعني وشأني. ثم ما لبث أن وجّه إليّ السؤال التالي: «هل كان جوناثان نغلاً؟» أجاب كامبل أنّه على الرغم من كون جوناثان واحدًا من ألطف الشباب الذين عرفهم، فالحق يُقال إنّ كل إنسان هو خاطي. وبهذا المعنى، نعم كان «نغلاً».

«حسنًا. هل توماس كولمان نغل؟» هذا السؤال وجده كامبل أسهل للإجابة عنه. من المؤكّد أنّ القاتل كان نغلاً.

عندها قرّب پ. د. كرسيّه، ووضع يده التي برزت عظامها على ركبة كامبل، ونظر مباشرةً في عينين غطّاهما الاحمرار وقال: «أيٌّ من هذين النّغلين في اعتقادك، يحبّه الله أكثر؟» جاء السؤال كسهمٍ يشقُّ القلب.

فجأةً بدا كل شيءٍ واضحًا، كل شيء. كان كالرؤيا. التورّد الذي كان عندئذٍ باديًا على وجوهنا جرّاء شرب الجعة، بدا وكأنه أضاء الرؤيا وزادها كثافة. سرتُ عبر الغرفة وفتحت الستارة ثمّ حدّقت مباشرة في النور المنبعث من مصباح الشارع، وبدأت بالبكاء. كان البكاء يختلط بالضحك، وكان اختبارًا غريبًا. أتذكر أنني حاولت أن أتبيّن سبب الحزن والفرح. لماذا كنت أبكي ولأي سبب كنت أضحك. عندئذٍ أصبح الأمر واضحًا.

كنت أضحك على نفسي، بل على عشرين سنة من الخدمة التي أصبَحَت، مِنْ غير أن أدرك ذلك، فذلكة متحررة...

وافقت على الفكرة أنّ رجلاً ما قد يذهب إلى مخزن حيث جماعة من الناس العُزّل يشربون المرطّبات ويأكلون الفطائر، ثمّ يطلق رشقًا من بندقيته على أحدهم، ممزقًا رئتيه وقلبه وأمعاءه، يلتفت إلى آخر، ويمطره بوابل من الرصاص الذي يمزّق لحمه وعظامه، وبالرغم من ذلك سيطلقه الله حرًّا، فهذا أكثر مما أستطيع أن أحتمل. لكنْ، ما لم تكن تلك هي القضيّة بالذات، فليس هناك من إنجيل، ولا من أخبار سارّة. وما لم تكن تلك هي الحقيقة، فليس لدينا سوى أخبار سيّئة، ولا يعود في حوزتنا سوى الناموس، والناموس فقط.

ما تَعَلَّمه وِلْ كامبل تلك الليلة كان نظرة جديدة إلى النعمة. فعطيّة النعمة المجانيّة تمتد ليس فقط إلى غير المستحقّين، بل إلى أولئك الذي يستحقّون ما هو بخلاف ذلك: أيْ إلى جماعة التمييز العنصري كما إلى المطالبين بالحقوق المدنيّة، إلى إيْست كما إلى وِلْ كامبل، إلى توماس كولمان كما إلى جوناثان دانيالز.

هذه الرسائل انغرست عميقًا في داخل وِلْ كامبل حتى إنه اجتاز في ما يشبه زلزالاً من النعمة. استقال من منصبه في مجلس الكنائس الوطنية وأصبح ما يطيب له أن يسمّيه الناس: «رسول المتعصّبين». اشترى مزرعة في تينيسّي، وهو اليوم بقدر ما يحبّ أن يقضي وقته بين العنصريّين والمتعصّبين، يحب كذلك قضاء وقته بين الأقلّيات العرقيّة والمتحرّرين البيض. وجد أنّ كثيرين من الناس يريدون أن يتطوّعوا لمساعدة الأقلّيات؛ لكنه لم يعرف أحدًا يخدم أناسًا أمثال توماس كولمان.

أحبُّ قصة وِلْ كامبل بسبب تربيتي في أتلانتا بين أُناس لبسوا التمييز العرقيّ كشعار الشرف. باختصار أحبّ قصة وِلْ كامبل لأنني لوقت من الأوقات كنت أُمثّل توماس كولمان أكثر مما كنت أُمثّل جوناثان دانيالز. لم أقتُلْ أحدًا، لكن من المؤكّد أنني كرِهْتُ. كنت أضحك عندما تُحرِق جماعة التمييز العنصري صليبًا على المرجة الخضراء أمام منزل أول عائلة سوداء تخاطر بالدخول إلى جيرتنا. وعندما كان الوافدون من ولايات الشمال مثل جوناثان دانيالز يُقتلون، كُنّا رفاقي وأنا نهزّ أكتافنا من دون مبالاة ونقول: «هذا جزاؤهم، فَهُم يأتون إلى هنا لإثارة المتاعب.»

عندما جاء الوقت لأرى نفسي على حقيقتها، عنصريٌّ يُثيرُ الشّفقة، بل مراءٍ يلتفُّ بعباءة الإنجيل، بينما يعيش ضد الإنجيل، عندما جاء ذلك الوقت، تشبّثت كالغريق، بوعد النعمة لأناس يستحقّون عكس ذلك؛ لأناس مثلي.

أحيانًا تقوم اللانعمة بهجوم مضاد، وتغريني بأنّ ذاتي التي استنارت هي أسمى خُلُقًا من الحقيرينَ والعنصريّين الذين لم يستنيروا بعد. لكنني أعرف الحقيقة، «لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا» (رومية ٥: ٨). أعلم أنني وقفتُ وجهًا لوجهٍ أمام محبّة الله وأنا في أسوأ حال، وليس العكس، وأنّ النعمة المدهشة خلّصت شقيًّا مثلي.

وهنا في الوحول والقذارة

تزهر زنابق محبته

جورج هِربرت



ممنوع دخول النجاسة

مرّةً واحدة تجرّأت على تقديم عظة للأولاد. ففي صبيحة ذلك الأحد جلبتُ معي حقيبة تسوّق ملوَّثة وذات رائحة كريهة، وأثناء الخدمة الصباحية طلبتُ من الأولاد في الكنيسة أن ينضمُّوا إليَّ على المنبر، حيث رحتُ رويدًا رويدًا، أكشف عن محتويات الحقيبة.

أولاً سَحَبْتُ بعض الرُّزم من شرائح لحم الخنزير المشويّة لنأكلها (فيما بعد، كانت هذه أفضل وجبة سريعة عند الرئيس جورج بوش الأب). بعدها، أخرجتُ من الحقيبة حيّة مزيّفة وذبابة مطاطيّة كبيرة حيث انطلقت صيحات كثيرة من مُشاهِدِيَّ الصغار. بعد ذلك سَحَبْنا من الحقيبة عيّنات مختلفة من الصّدف. أخيرًا، مددت يدي بحذر إلى الحقيبة فوقعتُ على كركند حيًّا، ما جعل الأولاد في منتهى السعادة. أطلقنا عليه اسم الكركند لاري، وكان لاري يَرُدّ محرِّكًا كلاّبيه بطريقة مهدِّدة وعنيفة.

المسؤول عن النظافة في الكنيسة اشتغل ذلك اليوم أكثر من المعتاد، كذلك أنا، إذْ بعد أنْ نزل الأولاد إلى القاعة السفليّة، كان عليَّ أن أشرح

لذويهم لماذا يرفض الله كل هذه الأطعمة. فالناموس اللاوي في العهد القديم منع بصورة واضحة أكل لقمة مما أكلنا، وليس ثمة يهودي مدقّق يَمَسُّ شيئًا من محتويات حقيبة التسوّق خاصتي. وقد وضعت عنوانًا لعظتي بهذا الشكل: «ماذا لدى الله ضدّ الكركند؟»

انتقلنا معًا إلى مقطع آسر من العهد الجديد، وهو رواية الرسول بطرس حول الرؤيا التي رآها على السطح. صعد بطرس إلى السطح ليصلّي على انفراد، من ثمّ بدأ يشعر بألم الجوع. إذ ذاك وقعت عليه غيبة، فرأى مشهدًا مروّعًا أمامه: ملاءة عظيمة نزلت من السماء وفيها جميع الحيوانات «النجسة» من زحافات وثدييات وطيور وغيرها. الأصحاح العاشر من سفر أعمال الرسل لا يعطي تفصيلاً لتلك الحيوانات، على أننا نستطيع أن نتعرف إلى تلك الحيوانات في سفر اللاويين أصحاح ١١: الخنازير، الجمال، الأرانب، النسور، الغربان، البوم، اللقلق، الخفاش، النمل، الخنفساء، الدببة، السحالي، بنات عرس، الفئران، والحيات.

لا شكّ أنّ بطرس تذكّر صوت أمه تناديه: سمعان، هذا نجس! لا تحاول حتّى أن تلمسه. اذهب اغسل يديك في الحال! لماذا؟ لأننا مختلفون، هذا هو السبب. نحن لا نأكل خنازير. إنها قذرة ونجسة. وقد أوصانا الله ألّا نلمسها. فبالنسبة إلى بطرس، كما إلى كل يهودي في فلسطين، كان مثل تلك الأطعمة أكثر من كريه – كان محرّمًا ورجسًا. قال الله «ينبغي أن تمقتها.»

إذا حدث خلال النهار أن مسّ بطرس جثّة حشرةٍ ما، عليه أن يغتسل ويغسل ثيابه ويبقى نجسًا إلى المساء، ولا يقدر أن يذهب إلى الهيكل وهو على تلك الحال. وإذا صادف أن سقط من السقف أبو بريص أو عنكبوت ومسّ وعاء الطبخ الفخاري، عليه أن يرمي محتويات الوعاء ثُمّ يحطّمه.

وها هو بطرس الآن يرى هذه الأشياء الممنوعة نازلة في ملاءة كبيرة وصوت من السماء يأمر قائلاً: «قُمْ يَا بُطْرُسُ، اذْبَحْ وَكُلْ» (أعمال ١٠: ١٣).

بطرس هنا يُذكِّر الله بنواميسه هو: «كَلاَّ يَا رَبُّ!» (أعمال ١٠: ١٤)، وقد أضاف معترضًا: «لأَنِّي لَمْ آكُلْ قَطُّ شَيْئًا دَنِسًا أَوْ نَجِسًا» (أعمال ١٠: ١٤).

أجابه الصوت: «مَا طَهَّرَهُ اللهُ لاَ تُدَنِّسْهُ أَنْتَ!» (أعمال ١٠: ١٥). وقد تكرّر هذا المشهد مرتين أخريين إلى أن ارتجف بطرس في أعماقه، ومن ثمّ نزل الدرجات ليواجه صَدْمة يومه الثانية: جماعة أمميّة «نجسة» تريد أن تنضمّ إلى أتباع يسوع. المسيحيون اليوم، الذين يستمتعون بأكل لحم الخنزير والبزاق والمحار والكركند يغفلون بسهولة ذلك المشهد الذي حصل على السطح منذ وقت طويل. إنّ أقرب مثيل يخطر في بالي الآن هو تصوّر تجمّع رسمي للكنيسة المعمدانية في إستاد رياضي، وتنزل فجأة من السماء، وبقوة خارقة، خزانة مليئة بمختلف أنواع المشروبات الكحولية وتستقر في الملعب أمام المجتمعين، ويدوي صوت من السماء يأمر هؤلاء الممتنعين عن تعاطي المسكر امتناعًا تامًا، قائلاً: «اشربوا!»

أستطيع أن أتصوّر ردّة فعلهم: «كلاّ يا رب! نحن معمدانيون. لم نمسّ هذه الأشياء قط.» هذا كان نوع التحريم الذي أطلقه بطرس على مثل تلك الأطعمة النجسة.

ربّما تكون الحادثة الواردة في أعمال ١٠ قد وسّعَت نظام الأكل في الكنيسة الأولى الطريّة العود، لكنها لم تقدّم بعد جوابًا عن سؤالي الأساسي: «ماذا لدى الله ضدّ الكركند؟» لذلك عليّ أن أعود إلى سفر اللاويّين حيث نرى الله يشرح المحظور: «إِنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ فَتَتَقَدَّسُونَ وَتَكُونُونَ قِدِّيسِينَ، لأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ» (لاويين ١١: ٤٤). إنّ شرح الله

الموجز يفسح في المجال للتفسير، وقد ناقش الدارسون مطوّلاً الأسباب الكامنة وراء هذا الأمر.

أشار البعض إلى الفوائد الصحيّة العديدة الناتجة عن النواميس اللاّويّة. فتحريم لحم الخنزير مثلاً أَبْعَدَ تهديد داء الشعرينة (Trichinosis)، وتحريم المحار حَمى بني إسرائيل من الڤيروسات الموجودة أحيانًا في الصدف والمحار. البعض الآخر يشير إلى أنّ العديد من الحيوانات الممنوعة هي جوارح تقتات على الجِيَف. كذلك لاحظ البعض أنّ نواميس معيّنة تبدو موجّهةً ضدّ عادات الشعوب الوثنية المجاورة لبني إسرائيل. إلى ذلك، فإنّ تحريم الكتاب على اليهودي أن يطبخ جَدْيًا بلَبن أمه كان على ما يبدو كي يتجنّب بنو إسرائيل تقليد طقوسٍ سحريّة عند الكنعانيين.

إنّ كلّ هذه الإيضاحات لها مغزىً، وهي بالطبع، تُلقي الضوء على المنطق الكامِن وراء قائمة الله الغريبة تلك. بَيْد أنّه يصعُب تفسير بعض ما حُرِّم من حيوانات أخرى. لماذا الكركند مثلاً؟ أو ما المشكلة بالنسبة إلى الأرانب التي لا تحمل معها أية مخاطر صحّيّة، كما أنها تقتات بالأعشاب لا بالجيَف؟ ولماذا تُضاف الجمال والحمير، وهي الحيوانات العاملة في كل منطقة الشرق الأوسط، إلى القائمة التي سبق ذكرها؟ من الواضح أنّ في هذه القوانين بعض الاعتباطية.[١]

[١] لا شك أنّ كل عادات الأكل عند مختلف الشعوب هي اعتباطية، وكل حضارة تُميِّز بين «الطاهر» من الحيوانات و«النّجس». فالفرنسيون مثلاً، يأكلون لحم الخَيْل والصّينيّون يأكلون الكلاب والسعادين، والإيطاليون يأكلون الطيور المغرّدة، وشعب نيوزيلاندا يأكلون الكانغارو، والأفارقة يأكلون الحشرات، وأَكَلَةُ لحوم البشر يأكلون الناس. الأميركيون يجدون كل هذه العادات بغيضة لأن مجتمعنا له قائمته الخاصة من الأطعمة المتعمّقة في تركيبته الاجتماعيّة. أما بالنسبة إلى النباتيّين فالقائمة الغذائية أقل بكثير.

ماذا لدى الله ضدّ الكركند؟ يقول الكاتب اليهودي هِرْمَن ووْك إنّ كلمة «مناسب» (Fit) هي أفضل ما يقابل الكلمة العبرية (kosher)، تلك الكلمة التي لا تزال تُرشِد عادات اليهودي إلى هذا اليوم. وسفر اللاويين يحكم على بعض الحيوانات بأنها «مناسبة» والبعض الآخر «غير مناسبة». ماري دوغلاس، الخبيرة في علم الأنثروپولوجيا، تذهب إلى أبعد من ذلك، ملاحظةً أنّ الله في كل حالة يحرّم الحيوانات التي تُظهر شذوذًا وغرابة. فبما أنّ السمك يفترض به أن يكون ذا زعانف وحراشف، لذلك فإنّ المحار والأنَقليس، أيْ ثعبان الماء، لا يستوفيان الشروط. خُلقت الطيور لتطير، وعليه فالإيمو (طائر استرالي كبير شبيه بالنعامة) والنّعام لا يستوفيان الشروط. الحيوانات البريَّة ينبغي أن تدبَّ على الأربعة، لا أن تزحف على الأرض كالحيّة. الماشية الأليفة والغنم والماعز تجترّ طعامها وتشق ظلفًا؛ لذلك هكذا ينبغي أن تكون كل الثدّييات التي تؤكل لحومها. ويُثير الحاخام جايكوب نيوسنِر الفكرة نفسها التي ذكرتها ماري دوغلاس: «إذا كان عليّ أن أقول بكلمات قليلة ما الذي يجعل شيئًا ما نجسًا، فيكون هذا الشيء لسبب ما غير طبيعي.»

بعد دراستي لمختلف النظريات، خرجت بمبدأ شامل، وذلك في اعتقادي، يُعبّر عن جوهر نواميس العهد القديم بما يختصّ بالنجاسة: الأشياء الغريبة غير مسموح بها. فطعام بني إسرائيل استثنى بكل تدقيق، أيّ شيء غريب من الحيوانات، وقد سرى المبدأ نفسه على الحيوانات «الطاهرة» التي كانت تُقدَّم في العبادة. لم يكن مسموحًا لأيّ عابد أن يقدِّم شاةً فيها عيب ما إلى الهيكل، لأنّ الله كان يريد الذبيحة بلا عيب. فمن قايين فصاعدًا، كان على الشعب أن يتبع إرشادات الله بحذافيرها لئلا تُرفض تقدماته. فقد أوصى الله بالكمال؛ وهو تعالى يستحقّ الأفضل؛ ممنوع دخول النجاسة.

يضع العهد القديم ترتيبًا لمقامات العابدين يتسبّب لي بالانزعاج. أذكر مرةً أنني حضرت خدمة العبادة في شيكاغو حيث قَسَمَ القس بِلْ لَسْلي قاعة العبادة بطريقة تشبه الهيكل في أورشليم. يستطيع الأمم أن يجتمعوا في الشرفة الداخلية وقد سمّاها قاعة الأمم، إلا أنهم كانوا مفصولين عن القاعة العامة. النساء اليهوديات يستطعن الدخول إلى الدار الرئيسية، لكن إلى جناح النساء فقط. معلّمو الشريعة لهم مساحة واسعة في المقاعد الأماميّة إلاّ أنهم لا يقدرون أن يقتربوا من المنبر، فهو مخصَّص للكهنة وحدَهم. القسم الخلفي من المنبر حيث يقوم المذبح، جعله بِلْ قدس الأقداس. ثم قال: «تصوّروا معي حجابًا بسماكة قدم يغطي هذه المساحة برمّتها! وكاهن واحد كان يدخل إلى ما وراء الحجاب، مرّةً واحدةً في السنة – يوم الكفّارة المقدس – وليس من دون ربط رسغ قدمه بِحَبل. فإن فعل خطأ ما ومات في الداخل، كان على الكهنة الآخرين أن يسحبوه خارجًا بالحبل. لن يجازفوا بالدخول إلى قدس الأقداس حيث الله يَسْكن.»

ليس أحد، ولا حتى الأكثر ورعًا وتقوى، يفكّر بالولوج إلى قدس الأقداس لأنّ العقاب سيكون بالموت المحتّم. هذا الطراز كان يُذكّر بني إسرائيل بأنّ الله محتجبٌ، قدوس.

خُذْ نموذجًا حديثًا يتقاطع مع ما تقدّم أعلاه، وهو أنّ شخصًا ما يرغب في إرسال رسالة إلى رئيس الولايات المتحدة. فأيُّ مواطن يستطيع أن يكتب رسالة إلى الرئيس، أو برقيّة أو رسالة بالبريد الإلكتروني. لكنْ، حتى لو سافر هذا الشخص إلى واشنطن العاصمة، ووقف في الصفّ مع باقي السوّاح منتظرًا دوره، في البيت الأبيض، لن يتوقّع الحصول على موعد مع الرئيس. ولو تكلّم مع أمين السّر، أو مع ممثّله في البرلمان كي يُسَهِّل

له اللقاء مع أحد رسميي مكتب الرئيس، فإن أيّ مواطن عادي لن يكون قادرًا على الدخول إلى المكتب البيضاوي وتقديم التماس. والحكومة تسير وفقًا للتّسلسل الهرميّ، الذي على أساسه يتقيّد الرسميّون الرّفيعو المستوى ببرنامج خاص من السلوك الدبلوماسي. هكذا الحال أيضًا في العهد القديم، فثمَّة سُلّم من التسلسل الهرمي يفصل الشعب عن إلهه، لكن هذا لا يرتكز على مقام الإنسان بل على «الطهارة» أو «القداسة».

من السهل إلصاق سمة «النجاسة» بالحيوانات، أما أن تلصق بالناس فمسألة أخرى، إلاّ أنّ العهد القديم لم يستحِ من عمل ذلك:

«كَلِّمْ هَارُون قَائلاً: إِذَا كَانَ رَجُلٌ مِنْ نَسْلِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ فيه عَيْبٌ فَلاَ يَتَقَدَّمْ لِيُقَرِّبَ خُبْزَ إِلهه. لأَنَّ كُلَّ رَجُل فيه عَيْبٌ لاَ يَتَقَدَّمْ. لاَ رَجُلٌ أَعْمَى وَلاَ أَعْرَجُ، وَلاَ أَفْطَسُ وَلاَ زَوَائديٌّ، وَلاَ رَجُلٌ فيه كَسْرُ رِجْل أَوْ كَسْرُ يَد، وَلاَ أَحْدَبُ وَلاَ أَكْشَمُ، وَلاَ مَنْ فِي عَيْنِه بَيَاضٌ، وَلاَ أَجْرَبُ وَلاَ أَكْلَفُ، وَلاَ مَرْضُوضُ الْخُصَى» (لاويين ٢١: ١٧-١٩).

وجُملة القول، إنّ الذين فيهم إعاقات جسدية أو مشاكل عائلية، (نغول) لم يستوفوا الشروط: لا تَسامُح مع من فيه عيب. المرأة الطامث والرجل ذو السَّيْل، والنساء اللواتي ولَدْن حديثًا، والناس الذين يعانون أمراضًا جلديّة أو تقرّحات طريّة، أو مَنْ مَسّ مَيْتًا، كل هؤلاء كانوا بحسب الطقوس نجسين.

في عصر اللباقة والعبارات المنتقاة بعناية، يبدو أمرًا غير وارد تقويم الفرد بحسب جنسه أو عرقه أو حتى صحته البدنيّة، لكنّ هذه بالذات كانت البيئة اليهودية. كل يوم كان الرجال اليهود يبدأون صلواتهم الصباحية بتقديم الشكر لله، «الذي لم يخلقني أُممِيًّا... أو عبدًا... أو امرأةً.»

إنّ سفر الأعمال الأصحاح ١٠ يُظهِرُ بوضوح نتائج موقف كهذا، «منطق سياسة الطهارة القاتل»، كما يصفها اللاهوتي الكرواتي ميروسلاف ڤولف. عندما وافق بطرس أخيرًا مُكرَهًا على دخول بيت قائد مئة روماني وثني، عرّف عن نفسه بالقول: «أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ كَيْفَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَى رَجُل يَهُودِيٍّ أَنْ يَلْتَصِقَ بِأَحَد أَجْنَبِيٍّ أَوْ يَأْتِيَ إِلَيْه» (أعمال ١٠: ٢٨). فقد نطق بهذا الاعتراف فقط بعد أن أسكته الله على السطح.

ثُمّ يتابع بطرس قائلاً: «وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَرَانِي اللهُ أَنْ لاَ أَقُولَ عَنْ إِنْسَانٍ مَا إِنَّهُ دَنِسٌ أَوْ نَجِسٌ» (أعمال ١٠: ٢٨). إن ثورةً من النعمة ابتدأت، وبطرس لا يزال يواجه صعوبة في إدراكها.

قبل وضعي كتابًا بعنوان (The Jesus I Never Knew)، أمضيتُ شهورًا في البحث عن خلفيّة حياة يسوع. تعلّمت أن أُقدِّر عالم اليهودية المنظّم في القرن الأول. أُقِرُّ بأنّ تصنيف الناس في طبقات أثار حساسيّتي الأميركية؛ فقد بدا ذلك نموذجًا شكليًّا لعدم النعمة، نظام طبقي ديني؛ لكنه على كل حال، قد أوجد مكانًا لجماعات مثل النساء والأجانب والعبيد والفقراء، في حين أنّ مجتمعات أخرى عاملتهم بما هو أسوأ بكثير.



جاء يسوع إلى عالمنا في وقت كانت فلسطين تعيش حالة انتعاش ديني. فالفريسيّون مثلاً وضعوا قواعد محدّدة لبقاء الإنسان طاهرًا: عدم دخول بيت أُممي، عدم الأكل مع الخطاة، الامتناع عن القيام بأي عمل يوم السبت، غسل الأيدي سبع مرات قبل الأكل. وعندما انتشرت الشائعات بأنّ يسوع قد يكون هو المسيّا الذي طال انتظاره، أُصيب اليهود الأتقياء بالخزي، أكثر مما تسبب ذلك بتجمّعهم من حوله. ألم يلمس أناسًا نجسين كالذين يعانون البَرَص مثلاً؟ ألم يسمح لامرأة سيّئة السُّمعة أن تغسل قدميه وتنشّفهما

بشعر رأسها؟ لقد أكلَ مع عشّارين وواحد منهم انضم إلى دائرة الاثني عشر الداخلية. وكان متسامحًا بشكل لافت بالنسبة إلى فرائض الطهارة الطقسية وحفظ السبت.

كذلك، فقد اجتاز يسوع باستمرار في مناطق للأمم كما تواصل مع أُمميين. امتدح قائد المئة الروماني الذي وجد فيه إيمانًا أكثر من أي يهودي، كما تطوّع للذهاب إلى بيت قائد المئة ليشفي خادمه. طهّر هجينًا سامريًّا من برصه، وكانت له محادثة طويلة مع امرأة سامريّة، الأمر الذي أثار الهلع في نفوس تلاميذه الذين كانوا يعلمون جيّدًا أنّ «الْيَهُودَ لاَ يُعَامِلُونَ السَّامِرِيِّينَ» (يوحنا ٤ : ٩). هذه المرأة التي نبذها اليهود بسبب عرقها، ورفضها جيرانها بسبب زيجاتها المتعدّدة، أصبحت أول «مرسَلة» يعيّنها يسوع، والشخص الأول الذي يعلن له هوّيته علنًا باعتباره المسيّا. وقد توّج يسوع حياته على الأرض بإعطاء تلاميذه «المأمورية العظمى»، وأوصاهم بأن يحملوا الإنجيل إلى الأمم النجسين، «فِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ وَإِلَى أَقْصَى الأَرْضِ» (أعمال ١ : ٨).

إنّ تقرّب يسوع من الأشخاص «النجسين»، أثار سخط مواطنيه، وفي نهاية الأمر ساهم في صلبه. في الأساس ألغى يسوع المبدأ العزيز في العهد القديم، أنّ الأشياء الغريبة غير مسموح بها، واستبدله بقاعدة جديدة للنعمة: «نحن جميعًا غرباء، لكن الله يحبنا كما نحن.»

يسجّل الإنجيل حادثة واحدة لجأ فيها يسوع إلى العنف: تطهير الهيكل. فقد صنع سوطًا من حبال، وقلب موائد الصيارفة، وطرد التجّار الذين أقاموا دكاكين هناك. كما سبق وقلت إنّ الفن المعماري في بناء الهيكل كان يدلّ على التراتبية اليهودية: فالأمم يقدرون أن يدخلوا فقط إلى الساحة الخارجية.

وقد امتعض يسوع لأنّ التجار قد حوّلوا رواق الأمم إلى بازار شرقي مليء بثُغاء الغنم، والتجار يساومون على الأسعار مما يجعل العبادة أمرًا متعذرًا. يسجّل إنجيل مرقس أنه بعد تطهير الهيكل، راح رؤساء الكهنة ومعلّمو الشريعة «يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه.» بمعنى أصح، إنّ يسوع حكم على نفسه بالموت بإصراره على حق الأمم في الاقتراب إلى الله.

درجةً بعد درجة فَكّك يسوع درجات سُلّم التسلسل الهرمي الذي مَيَّز الاقتراب إلى الله. فقد دعا الموبوئين والخطاة والأجانب والأمم – النّجسين! إلى وليمة الله. ألَمْ يتنبأ إشعياء عن وليمة عظيمة سيدعى إليها جميع الأمم؟ إنّ رؤيا إشعياء السّامية عُتّم عليها حتى إنّ بعض الجماعات حصروا الدعوة فقط باليهود الذين ليس فيهم عيب جسدي. وفي تباين مباشر، نرى يسوع في وليمة العرس يُظهِر المضيفَ، وقد أرسل رُسُلاً إلى الطرق والأزقّة ليدعو «المساكين والجُدع والعُرج والعُمي.»[٢]

إنّ قصّة يسوع الشهيرة، والجديرة بأن تُذكر تكرارًا، أيْ قصة الابن الضال، تنتهي، هي كذلك، بمشهد احتفال ووليمة، بَطَلُها شاب مستهتر لوّث سمعة العائلة. إنّ وجهة نظر يسوع هنا هي أنّ أولئك الذين يُنبذون من الجميع، هم مقبولون لدى الله في المطلق، وعندما يرجع أحدهم إلى الله، تقام له وليمة. نحن جميعًا ضالّون، لكنّ الله يحبُّنا.

٢ إنّ العهد القديم يتضمّن العديد من الإشارات التي تُبيّن أنّ في مخطط الله أن يوسّع «عائلته» إلى أبعد من الجنس اليهودي لتشمل الجميع من كلّ قبيلة وأمّة. وفي تهكّم لذيذ، نجد بطرس يتلقّى الرؤيا عن الحيوانات النّجسة في يافا، وهي المرفأ نفسه الذي منه حاول النبي يونان الهرب من أمر الله بأن يحمل الرسالة إلى أهل نينوى الوثنيّين.

ثمّة مثل شهير آخر هو السامري الصالح، وقد أزعج هذا المثل الجمهور اليهودي التقليدي، بإظهاره اثنين من محترفي الدّين يجوزان مقابل رجل مثخنٍ بالجراح وقع ضحية جماعة من قطّاع الطريق، وقد رفضا المجازفة وتعريض نفسيهما للتلوّث بذلك الجسد. وقد حرص يسوع على أن يجعل بطل هذه القصّة سامريًّا مُحتقرًا؛ وهو اختيار صاعق لذلك الجمهور، مثله لو وقف اليوم أحد الحاخامات، وامتدح فدائيًّا من منظّمة التحرير الفلسطينية.

كذلك، في علاقاته الاجتماعيّة، فقد أطاح يسوع تصنيف اليهود لطبقات المجتمع بين «النجس والطاهر». ففي لوقا ٨ مثلاً، يُسَجّل الكاتب ثلاث حوادث بتعاقب سريع، إن هي أُخذت معًا، تؤكّد ارتياب الفريسيّين بيسوع. أولاً، يُبحِرُ يسوع إلى كورة سكّانها أمميّون، وهناك يشفي مجنونًا عُريانًا ويرسله ليبشّر في وطنه. تاليًا، نرى يسوع وقد لمسته امرأة نازفة دم مدة اثنتي عشرة سنة، «مشكلة نسائية»، جعلتها غير مؤهلة للعبادة، كما سبّبت لها من دون شكّ، الكثير من الإحراج. (علّم الفريسيّون أنّ مرضًا كهذا سبَبه خطيّة ما في حياة صاحبه، أما يسوع فقد عارضهم بصورة مباشرة). انتقل يسوع من هناك إلى بيت أحد رؤساء المجمع الذي كانت ابنته قد ماتت للتوّ. كان يسوع لا يزال «غير طاهر» بسبب المجنون الأممي، وبسبب نازفة الدم التي لمسته، وها هو الآن يدخل الغرفة الداخليّة ويلمس الجثّة. حذّرت النواميس اللاوية من الاتصال المباشر: لمس رجل مريض مثلاً، أو أُممي، أو جُثّة، أو حيوانات معيّنة، وحتى العَفَن والفطريات قد تُعدي الإنسان. أما يسوع، فقد عكس الأمر: فبدل أن يتلوّث هو، جعل الشخص الآخر الملوَّث صحيحًا. فالمجنون العريان لم يلوّث يسوع، بل على العكس فقد شُفي. المرأة المسكينة النازفة لم يستحِ بها يسوع،

ولا هي نجّسته؛ وقد رجعت صحيحة. الفتاة التي ماتت وهي في الثانية عشْرة من عمرها، لم تلوّث يسوع، لكنها أُقيمت من الموت.

أُحِسُّ في اقتراب يسوع من هؤلاء تكميلاً لنواميس العهد القديم لا نقضًا لها. الله قدّس الخليقة بفصله المقدّس عن الدّنس، والطاهر عن النجس. ويسوع لم يُلغِ هذا المبدأ المقدّس بل بالحري غيَّر مصدره. نحن أنفُسُنا نستطيع أن نكون أدوات لقداسة الله، لأنّ الله الآن يسكن في داخلنا. نستطيع، كما فعل يسوع، أن نسير وسط عالم نجس بخطى ثابتة كي نكون مصدرًا للقداسة. فالمرضى والجدع ليسوا مصدر تلوّث لنا بل بالحري مخزون دفين لرحمة الله. ونحن بدورنا مدعوّون لبسط تلك الرحمة، وإيصال النعمة، لا أن نَحْذر جانب التلوّث. وكَيَسوع، نستطيع أن نساعد في جعل «النجس» طاهرًا.

أعوَزَ الكنيسة الأولى بعض الوقت لكي تتكيّف مع هذا التبدّل الدراماتيكي، وإلاّ لما كان بطرس في حاجة إلى تلك الرؤيا على السطح. كذلك، احتاجت الكنيسة إلى وخْزة خارقة قبل أن تحمل الإنجيل إلى الأمم. كان الروح القدس سعيدًا أنْ يُلزم فيلبّس الذهاب أولاً إلى السامرة، وأن يوجّهه في ما بعد إلى طريق البريّة حيث قابل هناك أجنبيًا، رجلاً حبشيًا، محكومًا عليه من قوانين العهد القديم (باعتباره خصيًّا). بعد وقت قصير عمّد فيلبّسُ هذا الخصيّ، أوّل مُرْسَل إلى أفريقيا.

بولس الرسول – وكان قبلاً من أقوى مقاومي التّغيير «فرّيسيّ ابن فرّيسيّ»، والذي كان يشكر الله كلّ يوم لأنه لم يكن أمميًا ولا عبدًا ولا امرأةً – بولس هذا، انتهى إلى أن يكتب هذه الكلمات الثوريّة: «لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ

فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» (غلاطية ٣: ٢٨). إنّ موت المسيح، كما قال، هدم حواجز الهيكل ناقضًا حائط السياج أيْ العداوة التي كانت تفصل طبقات الناس. النعمة أوجدت الطريق.

اليوم، حيث تُشعِل العصبية القبلية فتيل المذابح في أفريقيا، وحيث تُعيد الدّول رسم الحدود على أساس الإثنيّة (أي العرقيّة)، وحيث الأقليّات والجماعات المنشقّة تضغط مطالبة بحقوقها، لا أجدُ رسالةً في الإنجيل أقوى من هذه: إنها الرسالة التي جعلت يسوع يموت. الحائط الذي كان يفصلنا بعضنا عن بعض وعن الله قد أُزيل. نحن جميعًا خطاة لكن الله يحبُّنا.

عشرون قرنًا تقريبًا انقضت منذ أن أنار الله فكر الرسول بطرس على السطح. تغيَّرت ظروف كثيرة في ذلك الوقت (لم يعد أحد يهتم لعدم تهويد الكنيسة). إلاّ أنّ النقلة التي أحدثها يسوع لها نتائج مهمّة على كل مسيحيّ. فثورة النعمة التي قام بها يسوع تؤثّر فيّ بالعمق، على الأقل من ناحيتين: أولاً إنها تؤثر في أحقّيّة اقترابي إلى الله. ففي الكنيسة نفسها التي قَسَمَ فيها بِلْ ليسلي مقرّ العبادة إلى الأقسام التي تألّف منها هيكل أورشليم، قام بعض أعضاء الكنيسة بتمثيل مشهد هزليّ. تقدَّم عدد من المستدعين إلى المنصّة لتسليم رسالة إلى الكاهن، النساء طبعًا اعتمدن على تمثيل أزواجهن لهنّ. البعض جَلَبَ ذبائح للكاهن لتقديمها إلى الله. البعض الآخر وضع طلبات محدّدة مثل: «هل تسمح أن تطلب من الله حلاًّ لمشكلتي؟ كل مرّة كان على «الكاهن» أن يرتقي المنصّة، ويردّد طقسًا مُعيّنًا ثم يقرّب الطلب إلى الله، الموجود في داخل قدس الأقداس.

فجأة، وفي وسط هذا الاحتفال الديني، دخلت امرأة وركضت في الممر، غير آبهةٍ بالحاجز الموضوع للواتي من جنسها، وفي يدها الكتاب المقدس مفتوحًا على الرسالة إلى العبرانيين. صرخت بالجميع قائلةً:

«أيّها الناس! إنّ كل واحد منّا له الحق بأن يتكلّم إلى الله مباشرة! أصغوا إلى هذا»:

«فَإِذْ لَنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ عَظِيمٌ قَد اجْتَازَ السَّمَاوَاتِ، يَسُوعُ ابْنُ اللهِ، فَلْنَتَمَسَّكْ بِالإِقْرَارِ. لأَنْ لَيْسَ لَنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ غَيْرُ قَادرٍ أَنْ يَرْثِيَ لِضَعَفَاتِنَا، بَلْ مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا، بِلاَ خَطِيَّةٍ. فَلْنَتَقَدَّمْ بِثِقَةٍ إِلَى عَرْشِ النِّعْمَةِ» (عبرانيين ٤ : ١٤-١٦).

أضافت: «وهنا أيضًا»،

«فَإِذْ لَنَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ ثِقَةٌ بِالدُّخُولِ إِلَى الأَقْدَاسِ بِدَمِ يَسُوعَ، طَرِيقًا كَرَّسَهُ لَنَا حَدِيثًا حَيًّا، بِالْحِجَابِ، أَيْ جَسَدِهِ، وَكَاهِنٌ عَظِيمٌ عَلَى بَيْتِ اللهِ، لِنَتَقَدَّمْ بِقَلْبٍ صَادِقٍ فِي يَقِينِ الإِيمَانِ...» (عبرانيين ١٠ : ١٩-٢٢).

ثمّ قالت قبل أنْ تركض عبر المنبر: «إنّ أيًّا منا يقدر أن يدخل إلى قدس الأقداس! إنّ أيًّا منا يقدر أن يأتي إلى الله مباشرةً!»

تكلّم الراعي في عظته عن التبدّل الملحوظ في «الله يتقرّب منا». فقط تحتاجون إلى قراءة سفر اللاويين ومن ثمّ تنتقلون إلى سفر الأعمال كي تدركوا التغيير المزلزل. فبينما كان العابدون في العهد القديم يطهّرون أنفسهم قبل الدخول إلى الهيكل وتقديم ذبائحهم إلى الله بواسطة الكاهن، كانت جماعة الله في سفر الأعمال (وكانوا في معظمهم يهودًا أتقياء) تجتمع في بيوت خاصة، وكانوا يخاطبون الله بكلمة 'أبًا' الخالية من التكلّف. كانت هذه الكلمة تعبيرًا عائليًّا حميمًا مثل كلمة «بابا أو يا أبي: Daddy»، ولم يفكّر أحد قبل المسيح في إطلاق هذه الكلمة على يهوه، ربّ الكون

الكلّي القدرة. بعد يسوع أصبحت هذه الكلمة هي الشائعة لدى جميع المؤمنين حين يخاطبون الله في الصلاة.

في ما سبق، قدّمتُ مثلاً عن زائرٍ إلى البيت الأبيض. وقلتُ إذ ذاك، إنه ليس ممكنًا لأيّ زائر أن يدخل إلى المكتبْ البيضاوي ليقابل الرئيس بدون موعد مسبق. ثمّة استثناءات. فخلال إدارة الرئيس جون ف. كينيدي، كان المصوّرون أحيانًا يفوزون بمشهد آسر. من بين تلك المشاهد، صورة لأعضاء مكتب الرئيس باللباس الرمادي يتوزّعون حول الطاولة ويتداولون مسائل عالمية حسّاسة مثل أزمة الصواريخ الكوبية. في هذه الأثناء، يحبو ولد لا يتجاوز السنتين من العمر فوق طاولة الرئيس الضخمة، إنه جون – جون ابن الرئيس، غير مبالٍ بنظام البيت الأبيض الداخلي (البروتوكول) ولا بقضايا الدولة الخطيرة الشأن. ببساطة، كان جون – جون يزور «بابا» (Daddy)، وَلِدَهشة والده، كان يتجوّل في المكتب البيضاوي من دون أيِّ استئذان.

هذه بالذات، هي السهولة المذهلة التي قصدها يسوع من كلمة 'أبًا'. صحيح أنّ الله هو ربُّ الكون القدير، ولكنه في ابنه، صار البلوغ إليه ممكنًا كأيِّ أب أرضيٍّ شغوف بابنه. في رومية ٨ يقدّم لنا بولس صورة أوضح عن هذه المودّة؛ يقول، إنّ روح الله يسكن في داخلنا، نحنُ لا نعلم ماذا ينبغي أن نصلي، «وَلكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لاَ يُنْطَقُ بِهَا» (رومية ٨: ٢٦).

لسنا في حاجة إلى الاقتراب إلى الله بواسطة سلّم الهرميّة، تقلقُنا الهواجس لجهة مسائل التطهير. ولو كان ملكوت الله يضع لافتة عليها: «غير مسموح دخول الغرباء» لما دخل منّا أحد. جاء يسوع ليُظهر أنّ إلهًا كاملاً وقدّوسًا يرحّب بطلب مساعدة جاء من أرملة لا تملك سوى فلسين، ومن قائد مئة

روماني، ومن عشّار بائس، ومن لص على الصليب. فقط نحتاج إلى أن نصرخ 'أبّا'، وإن فشلنا فلنئنَّ. إلى هذا الحدّ أصبح الله قريبًا منّا.

الأمر الثاني لتأثير ثورة يسوع فيّ يتمحور حول كيفيّة نظرتنا إلى الناس «المختلفين» عنا. فقدوة يسوع تدينني اليوم لأنني أُحِسُّ بتوجّه غامض في الاتجاه المعاكس. وفيما المجتمع آخذ بالتفكّك، والفجور يزداد، أسمع أصواتًا من بعض المؤمنين، تطالب بأن نُظهِر رحمةً أقل وسلوكاً أخلاقيًّا أكبر، إنها أصوات تذكّرنا بأسلوب العهد القديم.

ثَمّة عبارة استَعمَلها كلٌّ من بطرس وبولس، وقد أصبحتْ واحدة من أكثر صور العهد الجديد تحبّبًا إليّ. علينا أن نمارس نعمة الله أو «نقدّمها». تعيد الصّورة إلى الذّهن مِرذاذًا قديم العهد كان النساء يستعملنه قبل تطوّر تقنيّة المرذاذ. اضغط على طابة مطّاطية، وسوف يخرج رذاذ من العطر كما من قطّارة. قطرات قليلة تكفي لكل الجسد؛ بضع مضخّات تستطيع أن تبدّل جوّ الغرفة. هكذا تعمل النعمة على ما أعتقد. إنها لا تغيّر العالم بأسره أو المجتمع كلّه، لكنها تُغني الجوّ.

قَلقي الآن أن تكون صورة المسيحيّين الفعّالة قد تغيّرت من مرذاذ للرائحة الطيّبة إلى آلة رش حديثة: النوع المستعمل لإبادة الحشرات. ثمّة صرصور! ضُخّ، رُشّ، ضُخّ، رُشّ. ثمّة بقعة شرٍّ! ضُخّ، رش، ضُخّ، رُشّ. أعرف بعض المؤمنين أخذوا على عاتقهم مهمّة «المبيد الأخلاقي» لمجتمع مسكون بالشرّ حولهم.

لا شكّ أنني أشاطرهم القلق على مجتمعنا. إلاّ أنني مأخوذ بقوة الرحمة غير التقليدية التي أظهرها يسوع، حيث أتى للمرضى لا للأصحّاء،

وللخطاة لا للأبرار. لم يشجّع يسوع الشرّ قط، لكنه كان مستعدًّا ليسامحه. وبطريقة ما أصبح مشهورًا بأنه محبٌّ للخطاة، وهي شهرة أصبح أتباعه اليوم في خطر من فقدانها. وكما تقول دوروثي داي: «إني، في الواقع، أحبُّ الربَّ كما أحبُّ إنسانًا بأقلِّ مقدارٍ من المحبَّه.»

أُقرُّ بأنّ هذه المواضيع صعبة، ولهذا السبب تحتاج إلى فصلٍ خاصٍ بها.

«ألم يقلِ الكتاب المقدس ينبغي أن نحب كلّ إنسان؟»

«آه، الكتاب المقدس! مؤكّد أنه يقول أشياء كثيرة وعظيمة، لكنْ هيهات أن يفكر أحد بعمل شيء من ذلك.»

هاربيت بيتشر ستُو - مِنْ كوخ العم توم



الفصل الثالث عشر

أَعيُنٌ شَفَتها النعمة



كلّما كنت أحسُّ بالضَّجر، كنت أُجري اتصالاً بصديقي مِلْ وايت. فلم أعرف إنسانًا مثله مملوءًا حيويةً وحماسة. لم يترك بلدًا إلاّ زاره، وقد آنسني بحكاياته: حكى عن الغطس في البحر الكاريبي بين سمك البراكودا (سمكٌ شرس ذو أسنان حادّة)، ثمّ ذكر كيف اضطرّ أن يطأ فوق كومة هائلة وقديمة من روث الحمام كي يصوِّر شروق الشمس من فوق مئذنة مغربيّة، كما حكى أيضًا عن عبوره المحيط الأطلسي على متن السفينة «الملكة إليزابيث الثانية» كضيف على أحد أشهر منتجي الأفلام التلفزيونية، ومن ثَمّ حدثني عن مقابلاته مع الناجين من أتباع طائفة جيم جونز، بعد مذبحة غويّانا.

كَرَمُ مِلْ كان نقطة ضعفه، وقد جعل منه هدفًا سهلاً للباعة المتجوّلين. فإذا جلسنا في مقهىً في الهواء الطلق، ومرّ بائع زهور، يشتري مِلْ منه باقة زهر، وذلك فقط من أجل أن يرى عيني زوجتي تتألّقان سرورًا. وإن اقترب منّا أحد المصوّرين كي يأخذ لنا صورة بهدف الحصول على

إكرامية (بقشيش)، يوافق مِلْ في الحال، ثم يقول، على الرغم من اعتراضنا: «إنها تذكارية، لا يجوز أن تضع ضريبة على الصورة التذكارية.» كانت نُكاته وخفة ظرفه تجعل كلاً من النادل ورئيسه وأمين الصندوق في منتهى السعادة.

عندما كنا نعيش في مدينة شيكاغو، كان مِلْ يزورنا كلّما قصد ميشيغان، حيث كان يعمل مستشارًا للأفلام المسيحيّة. كنا نخرج لتناول الطعام، بعدها كنا نزور صالة للفن، نتجوّل في الشوارع، نشاهد فيلمًا سينمائيًّا ثم نسير بجانب البحيرة حتى منتصف الليل. بعدها، يستيقظ مِلْ، في الرابعة صباحًا، يرتدي ثيابه ثم يجلس أمام آلة الطباعة، ويروح يطبع بصورة عصبيّة لمدة أربع ساعات. إلى أن يُنْجِز وثيقة من ثلاثين صفحة، كان عليه أن يُسَلِّمها بعد ظهر ذلك اليوم إلى موكّله في ميشيغان. وعندما كنا نضع مِلْ في سيارة الأجرة لتأخذه إلى المطار كنا زوجتي وأنا نشعر بالإنهاك لكن بالسعادة كذلك. كان مِلْ، أكثر من أيّ شخص آخر عرفناه، يجعلنا نشعر بالحيوية الكاملة.

بما أنّ عددًا كبيرًا من المِثْليّين كان يسكن في الحيّ الذي نعيش فيه ولا سيّما في شارع دايڤرسي، رحت أُمازح مِلْ قائلًا: «هل تعرف الفرق بين الشاذّ والنازي؟» قلتُ مرةً، فيما كنتُ أسير في الشارع نفسه: «ستّون درجة في أسلوب سيرهما.» ثمّ أنزلت كفّي بعد أن أدّيتُ التحية النازية، إلى وضعيّة متراخية مقلّدًا بذلك المنحرفين.

عندها أضافت زوجتي: «ثمّة شيءٌ دائمًا، يُميّز الشاذّين جنسيًّا هنا، إنني أُدرك ذلك بوضوح.»

كان قد مضى على صداقتنا أنا ومِلْ خمس سنوات، عندما وصلتني منه مكالمة هاتفيّة يطلب مني إنْ أمكن أن أقابله في فندق ماريوت قرب مطار أُوهير. وصلتُ في الوقت المعيّن، ثمّ جلستُ وحدي في المطعم لساعة ونصف الساعة أقرأ الجريدة، ثمّ قائمة الطعام، وما كُتِبَ على أقفيَة مكعّبات السكَّر، وكل شيء استطاعت عيناي أن تصله. لا يا مِلْ. ولحظة هَمَمْتُ بمغادرة الفندق مستاءً من هذا التصرّف، فإذا بمِلْ يندفع إلى الداخل. كان شديد الاعتذار وبدا مرتجفًا. فقد ذهب إلى الفرع الخطأ من سلسلة فنادق ماريوت ولدى عودته علِق في شدّة الزحام في مدينة شيكاغو. كان لا يزال لديه ساعة فقط قبل أن تُقلع طائرته. أكان بمقدوري أن أجلس معه لبعض الوقت أيضًا، كي أخفِّف عنه؟ «بالطبع.»

بدا مِلْ منزعجًا ومشتّت الفكر وعلى شفير البكاء، ربما بسبب حوادث الصباح. أغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا مراتٍ عدة وبدأ حديثًا كان له فيّ وقع لن أنساه ما حييت. قال: «يا فيليب، لا بد أنك قَدَّرْتَ أنني شاذٌ!»

لم يكن هذا ليخطر في بالي قط. فمِلْ له زوجة محبوبة ومخلصة وولدان. وقد عَلَّم في مدرسة فولِر للاّهوت، وخدم كراعٍ لكنيسة إنجيلية، وأنتج أفلامًا، وكتبَ أفضل الكتب المسيحيّة مبيعًا. مِلْ مِثْليّ؟

في ذلك الوقت، وبالرغم من البيئة التي كنت أقطنها، لم أعرف مثليًّا واحدًا. لم أكن أعرف شيئًا عن تلك المجموعات الصغيرة. كنت أتهكّمهم، وأخبر أصدقائي في الحي عن الاستعراضات التي كانوا يقومون بها في الشارع مقابل منزلي، لكن لم تكن لديَّ أيّة معرفة شخصيّة بأحدهم ولا أيّ أصدقاء. هزّني كلامه في العمق.

ها أنا أسمع الآن أنّ واحدًا من أفضل أصدقائي، في شخصيته جانب

خفيٌّ لا أعرف عنه شيئًا. استويتُ في مقعدي، وأخذت نفسًا عميقًا وطلبت من مِلْ أن يخبرني قصّته.

لستُ أخون ثقة مِلْ برواية هذه القصة، لأنه سبق ونشر ذلك في كتابه، المُعنوَن (Stranger at the Gate: To be Gay and Christian in America). يذكر في الكتاب صداقته لي، كما يُخبر كذلك، عن بعض المؤمنين المحافظين الذين عمل معهم في السابق بصفة من يكتب لشخص آخر ويعطيه حقوق التأليف، ومنهم: فرانسِس شايفر، پات روبرتسون، أوليڤر نورث، بيلي غراهام، و.أ.كريسويل، جيم وتامي فاي باكر، جيري فالوِل وغيرهم، لا أحدَ من هؤلاء الناس عرف حياة مِلْ السرّية حين كان يعمل معهم، ومعلوم أنّ بعضًا منهم الآن يشعر نحوه بالاستياء.

لا بُدّ لي أن أوضح أنه ليست لي رغبة في الخوض في المواضيع اللاهوتية والأخلاقية ذات الصلة بالشذوذ الجنسي، مهما كانت مهمّة. وإذْ أكتب عن مِلْ، فلسبب واحد فقط، ذلك أنّ صداقتي له راحت بقوّة، تتحدى تصوّري حول كيفيّة تأثير النعمة في موقفي من الناس «المختلفين» حتى حين يكون ذلك الاختلاف خطيرًا وربما لا حلّ له.

تعلّمت من مِلْ أنّ الشذوذ الجنسيّ ليس نمط حياة طارئًا كما كنت باستخفاف أظنّ. وكما دوّن مِلْ في كتابه، فقد شعر منذ الصغر برغبة جامحة نحو الشذوذ الجنسي، وحاول جاهدًا أن يكبت تلك الرغبة، وحين بلغ سِنّ الرشد فتّش بجهد عن «علاج». صام وصلّى ودُهِن بالزيت ليشفى. خضع لطقوس إخراج الأرواح الشريرة، لدى البروتستانت والكاثوليك. سجّل اسمه في مركز لمعالجة السلوك من طريق منبّه مؤلم كان يصعق جسده بالتيار الكهربائي في كلّ مرة كان يشعر أنه يتعرّض للإثارة الجنسية أمام

صور الرجال. كان العلاج الكيميائي يتركه مخدَّرًا لبعض الوقت، وغير متماسك فكريًّا. أراد مِلْ أكثر من أيّ شيء آخر في حياته، ألا يكون مِثْليًّا.

أتذكّر مكالمة هاتفيّة أيقظتني في ساعة متأخرة من إحدى الليالي. ودون مقدمات وبصوت متهدّج قال مِلْ: «إنني أقف الآن على شرفة في الطابق الخامس مُطلّة على المحيط الهادي. لديك عشر دقائق كي تقول لي لماذا عليّ ألا أقفز.» لم تكن تلك مزحة ثقيلة لجذب الانتباه؛ فمِلْ كاد مرة أن ينجح في محاولة انتحار دمويّة، ليس منذ وقت طويل. توسّلت إليه، مستعملاً كل الحجج: الشخصيّة، والوجوديّة، واللاهوتيّة، التي استطاع فكري المشوَّش أن يقدّمها. شكرًا لله، لم يقفز مِلْ.

أذكر أيضًا منظرًا مثيرًا للبكاء حصل بعد سنوات قليلة حين جلب لي مِلْ تذكارًا من حبيبه المثليّ. فقد سلّمني سترةً صوفيّةً زرقاء، وطلب مني أن أرميها في الموقد. كان خاطئًا، وقد تاب الآن، كما قال، وقد خلّف تلك الحياة وراءه وعاد إلى زوجته وعائلته. ابتهجنا وصلّينا معًا.

أتذكّر مشهدًا آخر مبكيًا يوم أتلف مِلْ بطاقة عضوية في نادي كاليفورنيا للاستحمام. فقد ظهر وبأ غامض بين جماعة المثليّين في كاليفورنيا، وراح مئات من الرجال المثليّين يبتعدون عن نادي الاستحمام ذاك. وقد قال لي مِلْ: «إنني لا أفعل هذا بسبب خوفي من الوبأ، بل لأنني أعلم أنه الشيء الصحيح الذي ينبغي أن أفعله.» ثمّ أخذ مقصًّا وقصّ بطاقة العضوية إلى نصفين ورماها بعيدًا.

كان مِلْ يجمع في التأرجح بين الشذوذ والإخلاص. فأحيانًا كان يتصرّف كمراهق ذي نزعة جنسيّة جامحة، وأحيانًا أخرى كعاقل. قال لي مرّة: «تعلّمت أن أُميّز بين الحزن الفاضل والحزن الناتج عن الذنب.

فكلاهما حقيقي، وكلاهما موجع، ولكنّ الأخير هو الأسوأ جدًّا. فالحزن الفاضل كالذي يشعر به الناس المتبتّلون، يعرف ما ينقصه ولكنه لا يعرف ماذا يفقد. أما الحزن بسبب الذنب فلا يتوقف عن المعرفة.» فبالنسبة إلى مِلْ، فإنّ الحزن بسبب الذنب كان يعني الإدراك المستمر أنه إذا اختار أن يفضح أمره فسوف يخسر زواجه ومهنته وخدمته وربما أيضًا إيمانه.

بالرغم من الشعور بالذنب، فقد انتهى مِلْ أخيرًا إلى خُلاصة مفادها أنّ خياراته قد انحصرت باثنين: الخَبَل العقلي أو السلامة. فأن يحاول كبت رغباته الشاذّة جنسيًّا، ويعيش إمّا حياةً زوجية صالحة، أو تبتُّلاً، فهذا في اعتقاده سوف يقوده من دون شكّ إلى الجنون. (في تلك الأثناء كان يزور طبيبًا نفسانيًّا خمسة أيام في الأسبوع، ويدفع مئة دولار مقابل كل جلسة). وقد قرّر أنّ السلامة تعني إيجاد الشريك الممتع، ومعانقة شخصيّته المثليَّة.

إنّ مغامرة مِلْ الطويلة شوّشتني وأزعجتني. وكنا، زوجتي وأنا نقضي الليالي الطوال مع مِلْ نناقش مستقبله. قرأنا معًا مقاطع من الكتاب المقدس ذات صلة بالموضوع، وحاولنا الوقوف على ما قد تعنيه. وقد استمرّ يسأل لماذا يُسلِّط المسيحيّون الضوء على أيّ مرجع له علاقة باتحاد المثليّين في حين لا يلتفتون إلى أيّ سلوك آخر مذكور في المقاطع نفسها.

نزولاً عند طلب مِلْ حضرتُ أول مسيرة للشاذّين في واشنطن سنة ١٩٨٧. لم أحضر كمشارك في المسيرة، ولا حتى كصحافي، بل كصديق لمِلْ. أرادني أن أبقى قريبًا منه حين قرر ترتيب بعض الأمور التي تثقل كاهله.

تجمّع حوالى ٣٠٠،٠٠٠ مشترك من المثليّين في المسيرة، على أنّ

مجموعة صغيرة منهم قصدت أن تحدث هزّة في الجمهور، فكانت هذه المجموعة ترتدي ملابس لن يريد أحد مشاهدتها على شاشة التلفاز. ذلك اليوم من تشرين الأول كان باردًا، والغيوم الرمادية كانت ترسل بعض الأمطار المتفرّقة فوق صفوف منتظمة من المتظاهرين الذين يخترقون شوارع العاصمة.

وبينما كنت أقف على جانب من الطريق، أمام البيت الأبيض مباشرةً، راقبتُ مواجهةً غاضبة. شكّل رجال شرطة الخيّالة درعًا واقيًا حول جماعة صغيرة قامت بتظاهرة مضادة، وبفضل لافتاتهم البرتقالية التي سهّلت التعرّف عليهم، استطاعوا أن يجذبوا معظم مُصوّري رجال الصحافة. وعلى الرغم من ضآلة عدد هذه المجموعة التي قامت بالتظاهرة المضادة (نسبة واحد إلى خمسة عشر ألفًا)، فإنّ هذه المجموعة الصغيرة من المؤمنين المحتجّين كانت تصرخ بشعارات ملتهبة ضد المتظاهرين المثليّين.

كان قائد المجموعة الصغيرة يصرخ عبر مكبّر الصوت: «أيها اللوطيّون، عودوا أدراجكم»، وكان رفاقه يردّدون اللاّزمة وراءه: «أيها اللوطيّون، عودوا أدراجكم...» وعندما كانوا يملّون تردادها، كانوا ينتقلون إلى عبارة أخرى مثل: «يا للعار لهذا الفجور.» وبين اللازمة والأخرى راح القائد يقدّم عظات قصيرة عن النار والكبريت، وكيف أن الله يخزن النار في قعر جهنّم للسّدوميين (نسبة إلى أهل سدوم) ولكل المنحرفين.

«الإيدز، الإيدز آتٍ إليكم»، كانت هذه آخر سُخرية في محفظة المحتجّين، والتي أطلقوها بكل ما أُوتوا من صراخ. كنّا قد رأينا لتوّنا موكبًا حزينًا لمئات من الناس المصابين بمرض الإيدز (نقص المناعة المكتسبة): العديد منهم كانوا في كرسيٍّ متحرك، ذوي أجساد هزيلة كأنهم جاؤوا

لتوّهم من مخيّم الاعتقال النازي. لم أستطع أن أتصوّر كيف يتمنّى أي إنسان ذلك المصير لأي كائن بشري آخر.

من جهتهم، كان الشاذّون يَرُدُّون على المؤمنين ردودًا مختلفة. فالبعض الفظّ منهم كان يرسل القُبَل في الهواء نحوهم ويصرخ: «متعصّبون! متعصّبون! عيب عليكم.» مجموعة أخرى من السِّحاقيات كن يصرخن بصوت واحد في وجه المحتجّين قائلات: «نريد زوجاتكم!» الأمر الذي أثار ضحك رجال الصحافة.

كان بين المتظاهرين ما لا يقل عن ثلاثة آلاف من مختلف الجماعات الدينيّة: «حركة الوقار» الكاثوليكية، الجماعة الأسقفيّة المعروفة «بالنزاهة»، بعض الجماعات المتفرِّقة من المورمون والسبتيين. سار أكثر من ألف متظاهر تحت راية كنيسة متروپوليتان، وهي جماعة دينيّة تعتنق لاهوتًا إنجيليًّا في مجمله، ما عدا موقفها من الشذوذ الجنسي. هذه الجماعة الأخيرة كان لها ردّ مؤلم على المؤمنين المحتجّين والمحاصِرين: اقترَبوا منهم وواجَهوهم بالأغنية التالية: «يسوع يحبّنا، نحن نعْلم، لأنّ الكتاب المقدّس يخبرنا بهذا.»

إنّ التهكّم المتبادل في ذلك المشهد من المواجهة صدمني. فمن الجهة الواحدة كان المؤمنون يدافعون عن التعليم الصحيح (والمجلس الوطني للكنائس رفض عضوية كنيسة متروپوليتان). ومن الجهة الأخرى، كان «الخطاة»، والعديد منهم يقبلون ممارسة الشذوذ الجنسي. على أنّ الجماعة الأكثر تشدّدًا كانت تنفث الكراهية، بينما الجماعة الأخرى كانت تتغنّى بمحبّة يسوع.

خلال عطلة نهاية الأسبوع، عرّفني مِلْ بالعديد من قادة الجماعات الدينيّة. لا أستطيع أن أتذكّر هذا العدد الكبير من الاجتماعات التي حضرتها في عطلة نهاية أسبوع واحد. ولدهشتي، فقد استُخدمت في هذه الاجتماعات الترانيم ونُظُم العبادة الإنجيليّة المعتادة ولم أسمع ما يثير الرّيب في اللاهوت الذي قُدّم من المنبر. أحد القادة شرح لي قائلاً: «إنّ معظم المسيحيّين المثليّين محافظون لاهوتيًّا. إننا ننال قسطًا كبيرًا من كراهية الكنيسة ورفضها لنا، حتى إنه لا يوجد سبب لنهتمّ بأن نكون كنيسة لو لم نؤمن حقًّا بأنّ الإنجيل صادق.» وقد سمعت العديد من القصص الشخصيّة التي تؤيّد ادّعاءه.

كل مثليٍّ قابلتُه كان بإمكانه أن يُخبر قصصًا عن الرفض والكراهية والاضطهاد. العديد منهم نُعتوا بأسماء شتّى، وضُربوا مرّات لا تُحصى. وحوالى نصف الناس الذين قابلتهم أنكَرَتْهم عائلاتُهم. وبعض مرضى الإيدز حاولوا الاتصال بذويهم الذين تخلّوا عنهم كي يخبروهم عن المرض ولكنهم لم يتلقّوا أيّ جواب. دُعي أحدهم إلى البيت لتناول عشاء عيد الشكر في ويسكونسن وذلك بعد عشر سنوات من الانفصال. وقد أجلسَتْه والدته في مكان منعزل عن العائلة، وإلى طاولة منفصلة عليها صحون وأدوات طعام پلاستيكيّة.

بعض المسيحيّين يقولون: «أجل، علينا أن نعامل المثليّين بشفقة، لكنْ علينا في الوقت نفسه، أن نقدِّم لهم رسالة عن الدينونة.» بعد كل هذه المقابلات، بدأت أفهم أنّ كل شخص مثليٍّ قد سمع من الكنيسة رسالة الدّينونة، المرّة تلو المرّة، ولكنْ لا شيءَ سوى الدينونة. وكلّما زادت مقابلاتي مع أناس مثليّين منحرفين لاهوتيًّا، كلّما وجدتهم يفسِّرون المقاطع الكتابيّة ذات الصلة بالشذوذ الجنسيّ، بطريقة مختلفة. وقد أخبرني البعض

منهم أنهم عَرَضوا أن يجلسوا مع أصحاب الاختصاص المحافظين في الكنيسة، ويناقشوا هذا الاختلاف، ولكنّ أحدًا لم يوافق على دعوتهم.

تركتُ واشنطن ورأسي يترنّح. وقد حضرتُ اجتماعات عبادة تميّزت بترانيم حارّة وصلوات وشهادات، وكلها كانت تدور حول ما تُعلِّمه الكنيسة المسيحيّة عن الخطيّة. كذلك، كنت أشعر بأنّ صديقي ملْ كان يقترب أكثر فأكثر من اتخاذ قرار، أنا أحسبه خطأً أخلاقيًّا: أنْ يطلّق زوجته ويخسر خدمته ليبدأ حياة جديدة مروّعة ومليئة بالتجربة.

خطر في بالي أنّ حياتي الخاصة كانت لتكون أكثر بساطة لو أنني لم أتعرّف قطّ بمِلْ وايت. لكنه كان صديقي. كيف يجب عليّ أن أُعامله؟ ماذا تريدني النعمة أن أفعل؟ ماذا كان يسوع ليفعل؟

بعد أن خرج مِلْ من الخزانة (أي افتُضِحَ أمره) وأصبحت قصّته علنيّة، عامله زملاؤه في العمل ومُستَخدِموه ببرودة شديدة. مشاهيرُ من المسيحيّين الذين استضافوه وسافروا معه وحصّلوا مئات ألوف الدولارات بواسطة عمله معهم، فجأةً أداروا له ظهورهم. ففي أحد المطارات سار مِلْ في اتجاه رجل دولة مسيحيّ قياديّ يعرفه جيّدًا ومدّ يده ليصافحه. قطّب الرجل حاجبيه وأدار ظهره، ولم يتفوّه حتى بكلمة. وعندما صَدَر كتاب مِلْ، بعض المسيحيين الذين كان قد عمل لحسابهم، عقدوا مؤتمرًا صحافيًّا ليكذّبوا ذلك، وينفوا أيّ شراكة حصلت معه.

في وقت من الأوقات، ارتفعت حِدّة الطلب على مِلْ من أجل الحديث الإذاعي، وفي البرامج التلفزيونية مثل برنامج (Sixty Minutes). فالإعلام العلماني أحبّ هذه الزاوية التي يعمل فيها مِثليٌّ مُتَخَفٍّ، لصالح قادة دينيين

محافظين، وفي بحثهم عن الإشاعات، حاولوا التحقّق من صحّة قصصه عن مشاهير المبشِّرين. وحين كان مِلْ يَظهر في هذه المقابلات، كان يسمع كلامًا كثيرًا من عدة مسيحيّين. وقد أخبرني مِلْ قائلاً: «في الواقع، إنّ كل مقابله أجريتُها، كان ثمّة من يتّصل ليقول إنني رَجِسٌ، وينبغي أن أعامَل بحسب شريعة اللاويّين، أيْ ينبغي أن أُرجم حتى الموت.»

ولمجرّد أنني ذُكِرتُ في كتاب مِلْ، فقد سمعتُ كذلك، كلامًا من بعض المسيحيّين. أحدهم أرفق نسخة من رسالة كان قد كتبها لمِلْ وقد حَوَت ما يلي:

> إنني أصلّي بصدق، كي يأتي يوم فيه تتوب بحق، وتتحرّر من الخطيّة التي تستعبدك، وتتنكّر للتعليم الخاطئ لما يُسمّى «الكنيسة المثليّة». وإن لم تفعلْ، فسوف تنال، والحمد لله، ما تستحقّ، أيْ قضاء الأبدية في جهنّم، والتي هي مُعدَّة لجميع الذين استَعبدوا أنفسهم للخطيّة ورفضوا التوبة.

حين أجبتُ عن تلك الرسالة، سألت كاتبها إذا كان حقًا يعني التعبير «الحمد لله»، وقد ردّ لي رسالة جوابية مطوّلة مليئة بالمراجع الكتابيّة مؤكِّدًا أنه بالفعل عنى ذلك التعبير.

بدأتُ بعدها أضع هدفًا لي أنْ أُقابل مثليّين آخرين في جيرتنا، بمن فيهم أولئك الذين جاؤوا من خلفية مسيحيّة. قال لي أحدهم: «أتمنّى الذهاب إلى الكنيسة، لكنْ كلّما حاولت ينشرُ أحدهم شائعةً عنّي، وفجأة يبتعد الجميع.» وقد أضاف ملاحظة مُرْجِفة إذ قال: «أنا كرجل مثليّ، أجد أنّ حصولي على ممارسة الجنس في الطريق أسهل من حصولي على معانقة في الكنيسة.»

قابلتُ مسيحيّين آخرين يميلون إلى معاملة الشاذِّين بأسلوب المحبّة. باربرا جونسون مثلاً، كاتبة ذائعة الصيت، علمت أنّ ابنها مثليّ، وأنّ الكنيسة لم تعرف كيف تعالج تلك الحقيقة. أنشأت جمعية تُدعى «خدمة المِقشط» (Spatula Ministries) (كما في القول: «عليك أن تزيلني من السقف بمقشط») لخدمة العائلات التي في مثل ظرفها الصّعب. ولقناعتها بأنّ الكتاب المقدس يمنع الشذوذ، فقد عارضت ممارسة الشذوذ الجنسي وجعلت ذلك في منتهى الوضوح. إنها بكل بساطة، تحاول أن توجِد ملجأً للعائلات التي لا تجد ملجأً كهذا في الكنيسة. رسائل باربرا مليئة بالأخبار والقصص عن عائلات تفسّخت، ثم بعد مرحلة من الألم أُعيد جمعها معًا. كانت باربرا تقول: «إنّهم أبناؤنا، إنّهن بناتنا، لا نستطيع أن نصدّ الباب في وجههم هكذا بكل بساطة.»

كذلك، فقد تكلّمتُ مع طوني كامپولو وهو مسيحيّ طليق اللسان، يعارض ممارسة الشذوذ الجنسي، وفي الوقت نفسه يُقرّ بأنّ التوجّه المثليّ أمر متأصّل ومن المستحيل تغييره. إنه يقيم مثالاً للتبتّل الجنسي. يعود قسم من ذلك إلى خدمة زوجته بين جماعة المثليّين، فقد قذفه بعض المسيحيين بأقذع الكلام، وتسبّب ذلك في شطب العديد من خطبه. ففي أحد الاجتماعات وزّع المحتجّون مراسلة مفترضة بين طوني وبين قادة مثليّين في «كويرنايشن»، وقد تبيّن أنّ الرسالة مزيّفة، وهي جزء من حَمْلة لتلطيخ سمعته.

ولشدّة دهشتي، فقد تعلّمت الكثير عن كيفيّة التعامل مع الناس «الآخرين»، وذلك من ادوارد دوبْسون، وهو خرّيج جامعة بوب جونز، وكان سابقًا اليد اليمنى لجيري فالويل، ومؤسّس مجلة (Fundamentalist Journal). وقد ترك دوبسون منظّمة فالويل ليتسلّم مهام راعوية في مدينة

غراند رابيدز في ولاية ميشيغان، وهناك أصبح معنيًّا بمشاكل الإيدز في مدينته. وقد طلب مقابلة بعض قادة المثليّين في المدينة وطوّع لهذه الخدمة أعضاءً من كنيسته.

ومع أنّ قناعة دوبسون حول عدم أخلاقية ممارسة الشذوذ الجنسي لم تتبدّل، إلاّ أنه شعر بأنه محصور من أجل الوصول إلى جماعة المثليّين في المحبّة المسيحيّة. كان الناشطون المثليّون حذرين، كي لا أقول أكثر من ذلك. كانوا يعرفون شهرة دوبسون كأصولي، وفي نظرهم، كما في نظر الكثير من المثليّين، كانت «الأصولية» تعيد إلى أذهانهم صورة تشبه أولئك الناس الذين شاهدتُ تظاهرتهم المضادة في واشنطن العاصمة.

مع مرور الوقت كسب إدْ دوبسون ثقة جماعة المثليّين. وقد راح يشجّع رعيّته لتقدّم هدايا عيد الميلاد لمرضى فيروس نقص المناعة (HIV)، ولتقديم أمور أخرى عمليّة لمساعدة المرضى والمشرفين على الموت. لم يكن العديد من أعضاء الكنيسة قد قابلوا شاذًّا من قبل. قلّة منهم رفضت التعاون. ولكنْ، شيئًا فشيئًا، بدأ الفريقان يريان أحدهما الآخر من منظار جديد. وكما قال أحد المثليّين مرةً لدوبسون: «نحن نفهم أين نقف، كما نعلم أنك لا تتفق معنا. لكنْ مع ذلك لا تزال تُظهِر محبّة يسوع، ونحن منجذبون إلى ذلك.»

إنّ كلمة مؤمن الآن تحمل لدى العديد من مرضى الإيدز في منطقة غراند رابيدز، مدلولاً مختلفًا جدًّا عما كانت تحمل منذ سنوات قليلة. وقد برهنت تجربة دوبسون أنّ المؤمنين يقدرون أن يحتفظوا بنظرتهم الصارمة إلى السلوك الأخلاقي، مع إظهار المحبة المستمرّة. قال لي إدْ دوبسون مرة: «إذا متُّ، ووقف أحدهم عند قبري ولم يقل شيئًا سوى إنّ إدْ دوبسون أحبّ الشاذِّين جنسيًّا، فسوف أشعر بالفخر.»

كذلك، أجريتُ مقابلة رسميّة مع الدكتور سي إِڤِرِت كُوْپ الذي كان حينها وزير الصحة في الولايات المتحدة. كان رصيد كُوْپ كمؤمن إنجيلي، لا غبار عليه. كما يعود الفضل إليه وبمعاونة فرنسيس شايفر، في الإسهام في دفع المجتمع المسيحي المحافظ إلى الانخراط في النقاش القائم حول مسائل الإجهاض والموت الرحيم.

في مهمّته «كطبيب الأمّة»، زار كُوْپ مرضى الإيدز. شكلُ أجسادهم النحيل، الذي يشبه الهيكل العظمي، والذي تغطّيه القروح الأرجوانية، جعله يشعر نحوهم بالعطف العميق كطبيب وكمؤمن. وقد تعهّد أن يهتمّ بالضّعفاء والمحرومين في الأمّة.

ولسبعة أسابيع لم يخاطب كُوْپ سوى الجماعات الدينيّة التي ضمّت كلاًّ من كنيسة جيري فالويل، وهيئة المذيعين الدينيّين الوطنيّين، والجماعات اليهودية المحافظة، والكاثوليك. وقد شدّد كُوْپ في تلك الخطب على الحاجة إلى التعفّف والزواج الأحادي. لكنّه أضاف قائلاً: «أنا رئيس الجهاز الطبّي في الولايات المتحدة، لكنني أيضًا للشاذّين جنسيًّا كما للأسوياء، للصغار كما للكبار، لذوي الأخلاق الحميدة ولذوي الأخلاق السيّئة كذلك.» وقد ذكّر الإخوة المؤمنين بالقول: «أنتم تكرهون الخطيّة لا شك، لكن عليكم أن تحبّوا الخاطي.»

وقد عبّر كُوْپ مرارًا عن مَقتِه الشخصي للعلاقات الجنسيّة غير الشرعيّة – كان باستمرار، يستعمل كلمة «سدوميّة» كلما أراد أن يشير إلى السلوك الجنسيّ الشاذّ – ولكن بوصفه رئيسًا للجهاز الطبّي كان يضغط لصالح الشاذّين جنسيًّا ويهتمّ بهم. لم يصدّق كُوْپ ذلك عندما خاطب إثني عشر ألفًا من الناس المثليّين في بوسطن، وراحوا يهتفون: كُوْپ! كُوْپ!

كُوْپ! كُوْپ! كُوْپ! «إنهم يقدّمون دعمًا لا يصدّق، على الرغم مما أقوله عن ممارساتهم. أظن أنّ السبب هو لأنني الشخص الذي تجرّأ وقال: أنا رئيس الجهاز الطبيّ لجميع الناس، وسوف أقابلهم حيثما يكونون. زدْ على ذلك أنني طلبت الرأفة بهم، وحثثتُ متطوعين ليذهبوْا ويهتمّوا بهم.» لم يساوم كُوْپ قط على معتقداته، وها هو الآن بالذات، يُصِرُّ على استعمال الكلمة المشحونة، «السدوميّة» – ولكن ليس ثمّة من مؤمن إنجيليّ مثله، يحظى باستقبال حارّ بين الشاذّين جنسيًّا.

أخيرًا، تعلّمت من والدَيْ مِلْ وايت حكمة مهمّة في نظرتي إلى الناس «المختلفين». قام طاقم شبكة محطات تلفزيونيّة بإجراء مقابلة مع مِلْ وزوجته وأصدقائه ووالديه. والجدير بالملاحظة أنّ زوجة مِلْ استمرّت في دعمها له، وفي التكلّم عنه بالحسنى حتى بعد الطلاق، حتى إنها كتبت مقدمة كتابه. أما والدا مِلْ، وهما مؤمنان محافظان ودعامتان محترمتان في الكنيسة (والد مِلْ كان رئيس بلدية المدينة)، فقد واجها الوضع بصعوبة. وحين حمل مِلْ الخبر إليهما تنازعتهما مراحل متعدّدة من الصدمة والإنكار.

عندما سأل مراسل تلفزيونيّ والدَي مِلْ في صورة مباشرة: «تعلمون ماذا يقول المؤمنون الآخرون عن ابنكما. يقولون إنه رجسٌ. ماذا تظنّون في ذلك؟»

«حسنًا»، أجابت الأمُّ بصوت ناعم ومرتجف، «قد يكون رجسًا، لكنّه لا يزال فخرنا وسرورنا.»

رحتُ أفكّر في ذلك الجواب لأنني وجدته تعريفًا للنعمة يُقطّع نياط القلب. وصلتُ إلى قناعة أنّ أُمّ مِلْ أظهرت كيف ينظر الله إلى كلّ واحد منّا.

نحن جميعًا بطريقة ما، رجسون أمام الله – «إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ الله» (رومية ٣: ٢٣) – بَيْد أنه وبطريقة ما، وبدون أيِّ مبرِّر، الله يُحبّنا. والنعمةُ تُعلن أننا لا نزال فخر الله وسروره.

يكتب پول تورنيي عن صديق كان في طريقه إلى الحصول على الطلاق:

> لا أقدر أن أوافق على هذا العمل الذي يقوم به، لأنّ الطلاق هو دائمًا عدم طاعة الله. أتنكّر لإيماني إن كنت أخفي ذلك عليه. أنا أعلم أنه ثمّة دائمًا حلّ لنزاع الزوجين غير الطلاق، إن كنا حقًّا مستعدّين أن نبحث عنه تحت إرشاد الله. لكنني أعرف أنّ هذا العصيان ليس أسوأ من إطلاق الشّتم والكذب والسلوك بالكبرياء، وهي الذنوب التي نرتكبها كلّ يوم. إنّ ظروف حياتنا مختلفة، لكن حقيقة قلوبنا هي نفسها. فلو كنت في مكانه، هل كنت سأتصرّف بشكل مختلف عنه؟ ليس لديّ أيّة فكرة. على الأقل أعرف أنني أحتاج إلى أصدقاء يحبونني كما أنا دون قيد أو شرط، ومع كل ضعفاتي، ويثقون بي من دون إدانتي. إذا حصل على طلاقه فسوف يواجه دون شكّ، صعوبات أعظم من تلك التي يواجهها اليوم. سوف يحتاج إلى المزيد من مودّتي وهذه هي الضّمانة التي ينبغي أن أقدِّمها له.

تلقّيتُ مكالمة هاتفيةً من مِلْ وايت أثناء واحدة من حملاته الناشطة. كان في حالة صيام في مخيّم في كولورادو سپرينغز، في ولاية كولورادو، وهي منطقة للمحافظين. كان مِلْ داخل المخيّم، يستعرض الرسائل البريديّة المتوجّهة بالتقريع الشرس ضد المثليّين، والتي أرسلتها المنظّمات المسيحيّة

في كولورادو سپرينغز. وكان مِلْ يطلب من القادة المسيحيّين هناك أن يكفّوا عن التعابير النارية المثيرة للمشاعر، لأنه في أجزاء عديدة من البلاد كانت الجرائم المدفوعة بالعداء ضد المثليّين متفشّية.

واجه مِلْ أسبوعًا قاسيًا. أحد مُعَلِّقي الإذاعة المحلّيّة كان قد وجّه ضدّه التهديد المبطّن، وأثناء الليل راح بعض السائقين المتهوّرين يطوفون حول خيمته، وهم يطلقون أبواق سياراتهم كي يمنعوه من النوم. أخبرني مِلْ عبر الهاتف قائلاً: «إنّ مراسلاً صحفيًّا يحاول أن يجمعنا معًا لأول مرّة. وقد دعا متشدّدين من (Act Up) (لمناهضة المثليّة)، وبعض الخادمات بين المثليّين الإناث من كنيسة (MCC)، ومتنفِّذين من مؤسسات مثل (Focus on the Family) و (Navigators). لا أعلم ماذا سيحدث. أنا جائع ومنهك وخائف. أريدك أن تكون هنا.»

وهكذا ذهبت. ومِلْ هو الشخص الوحيد الذي بحسب معرفتي، يقدر أن يدعو إلى اجتماع كهذا. جماعات من اليمين السياسي ومن اليسار السياسي جلسوا في القاعة عينها، وساد الجو توتّر واضح. أتذكّر أمورًا كثيرة من تلك الأمسية، لكنّ أمرًا واحدًا طغى على الكلّ. فعندما طلب مني مِلْ أن أتكلّم عن بعض المواضيع، قدّمني بصفتي صديقه، وأخبر القليل عن تاريخنا معًا. وقد أنهى بالقول: «لا أعلم كيف يشعر فيليب حيال كل جانب من مواضيع الشذوذ الجنسيّ، وأقول الصدق، أخاف أن أسأله. ولكنني أعلم كيف يشعر نحوي، إنه يحبّني.»

إنّ صداقتي لمِلْ علّمتني الكثير عن النعمة. فقد تبدو الكلمة في ظاهرها تعبيرًا مقتضبًا عما نسمّيه تسامح ضبابيّ متحرّر: أليس بمقدورنا جميعًا أن نتعايش معًا؟ بيْدَ أنّ النعمة تختلف عن هذا. فإذا أرجعناها إلى جذورها

اللاهوتيّة، فإنها تحتوي على عنصر من التضحية الذاتيّة، لا بل على ثمن يُدفع.

شاهدت مِلْ يُظهر روحًا مهذّبة نحو مؤمنين هاجموه بكلام جارح. طلبت منه مرةً أن أرى رزمةً من بريد الكراهية الذي يصله من المؤمنين، وبالجهد استطعت أن أقف على محتوى الرسائل. كانت الصفحات تفوح منها نتانة الكراهية، وباسم الله أمطر الكُتّاب اللعنات واللغة البذيئة والتهديد. كنتُ في حاجة إلى الاحتجاج: «انتظروا! مِلْ هو صديقي. أنتم لا تعرفونه.» لكنْ، مِلْ بالنسبة إلى كُتّاب الرسائل كان مجرّد تسمية – منحرف، وليس شخصًا. وفي معرفتي لمِلْ، صرت أعي بصورة أفضل المخاطر التي تحدَّث عنها يسوع بشكل قاطع في الموعظة على الجبل: كيف نُسرع في اتهام الآخرين بالقتل، ونتجاهل غضبنا، أو نتّهم الآخرين بالزّنا، ونتجاهل شهواتنا. النعمة تموت عندما نُحيي معادلة: نحن وهم.

قرأتُ كذلك، بعض الرسائل التي استلمها مِلْ ردًّا على كتابه (Stranger at the Gate). معظم تلك الرسائل ورد من أناس مثليّين، وكل رسالة كانت تحكي قصّة. وكَمِلْ، فإنّ العديد من أصحاب تلك الرسائل قد حاول الانتحار. والعديد مثله أيضًا، اختبر الرفض من قِبَل الكنيسة. ثمانون ألف نسخة من الكتاب قد بيعت، واحد وأربعون ألف ردٍّ قد وصل من القرّاء. هل تكفي هذه النسبة لتقول شيئًا عن الجوع إلى النعمة بين مجموعات الشاذّين جنسيًّا؟

راقبتُ مِلْ يحاول أن يبدأ سيرة جديدة. فقد خسر جميع زبائنه السابقين، وقد تدنّى دخله بنسبة خمسة وسبعين في المئة، اضطر أن ينتقل من بيت فخم إلى شقّة سكنيّة. وكخادم لجماعة (MCC)، فإنه

يقضي الآن معظم وقته يتكلّم إلى كنائس صغيرة من الرجال والنساء المثليّين، وهي جماعات صغيرة لا تُشبع كبرياء المتكلّم. إنّ فكرة «الكنيسة المثليّة» برمّتها تبدو أمرًا غريبًا بالنسبة إليّ. فقد قابلت متبتّلين لا يمارسون الشذوذ الجنسيّ، وكانت لديهم رغبة شديدة في أن ترحّب بهم كنيسة أخرى، لكنْ عبثًا كانوا يحاولون. أشعر بالحزن لكون الكنائس التي أزورها لا تقيم اعتبارًا للمواهب الروحيّة لدى هؤلاء المسيحيّين، وحزين كذلك، لأنّ جماعة الـ(MCC) تبدو لي مُنصبَّة على المواضيع الجنسية ليس إلاّ.

مِلْ وأنا لدينا فوارق عميقة. لا أستطيع أن أتجاوز العديد من قراراته من دون لومه. وقد تكهّن منذ بضع سنوات بأننا «يومًا ما يُواجه أحدُنا الآخر في خطّين متقابلين. فماذا سيحلّ عندها بصداقتنا؟»

أذكر مواجهةً صعبة حصلت بيننا في مقهى (Red Lion) مباشرة بعد عودتي من روسيا. لَشَدَّ ما ذُهلتُ بسبب أخبار سقوط الشيوعيّة، والانفتاح الجديد على المسيح في ما يقرب من ثلث الكرة الأرضيّة، والكلام الذي تكاد أذني لا تصدّقه، والخارج مباشرةً من فم غورباتشوف وك.ج.ب. بدت وكأنها لحظة نادرة من النعمة في قرنٍ لم يعرف سوى القليل منها.

على أنّ مِلْ كان لديه جدول أعمال مختلف. وقد سألني قائلاً: «هل تستطيع أن تدعم رسامتي؟» في ذلك الوقت كانت فكرة الشذوذ الجنسيّ، كي لا أقول الجنس، بعيدة عن فكري كلّ البعد. كنت أفكّر في سقوط الماركسيّة، ونهاية الحرب الباردة وانتهاء الغولاغ (أي معسكرات الاعتقال).

«كلا!» قلتُ لِملْ بعد برهة من التفكير. «بناءً على تاريخك، وعلى ما قرأت في الأسفار المقدّسة، لا أعتقد أنك مؤهَّل. فلو كنت لأقترع على

رسامتك، فسأقترع بلا.» احتاجت صداقتنا إلى شهور كي تستردّ عافيتها بعد مجادلة واحدة. تصرّفتُ بأمانة وعفوية، لكنّ مِلْ رأى في الأمر رفضًا مباشرًا وشخصيًّا. أحاول أن أضع نفسي في مكانه كي أفهم كيف يمكن أنْ يبقى صديقًا لشخص يكتب لمجلة «المسيحيّة اليوم»، ويمثّل المؤسّسات الإنجيليّة التي سبّبتً له ألمًا كهذا. كم هو سهل بالنسبة إليه أن يجمع من حوله مساندين من ذوي العقليات المتجانسة.

بصراحة، أعتقد بأنّ صداقتنا مِلْ وأنا تتطلّب نعمة أكبر من جهته أكثر منها من جهتي.

أستطيع أن أتخيّل ما هو نوع الرسائل التي سوف أستلمها كردّة فعل على هذه القصّة؟ فالشذوذ الجنسيّ هو موضوع ذو بَريقٍ يجذب الردود الانفعالية من كلا الطرفين. فالمحافظون سوف يلومونني لمراعاتي الخطاة، والمتحرّرون بدورهم، سوف يهاجمونني لعدم دعمي موقفهم. أكرّر القول، إنني لست أناقش وجهة نظري حول سلوك الشاذّين جنسيًّا، بل موقفي منهم. وقد استخدمت علاقتي بمِلْ وايت مثلاً لذلك – محاولاً بإلحاح، تجنّب بعض المواضيع – لأنّ ذلك بالنسبة إليّ هو بمثابة امتحان كبير ودائم حول كيفية دعوة النعمة لي كي أعامل الناس «المختلفين».

إنّ فوارق عميقة كهذه، في أيّ مضمار كان، تكوّن نوعًا من الاختبار الصعب للنعمة. ينبغي على البعض أن يتمسّكوا بشدة بكيفيّة معاملتهم الأصوليين الذين جرحوهم في الماضي. البعض لا يزالون يناقشون مسألة غطرسة الليبراليّين وضيق فكرهم. والبِيضُ ينبغي أن يُسَوّوا مسألة الفرق بينهم وبين الأميركيين السّود والعكس. وسود الأحياء الداخلية في المدن يجب أن يعالجوا أيضًا العلاقات المعقّدة مع اليهود والكوريّين.

وموضوع كالشذوذ الجنسيّ له حالة خاصة، لأنّ الفرق يتمحور حول موضوع أخلاقيّ وليس حول تقاطع حضاريّ. وعلى مرّ معظم التاريخ، كانت الكنيسة تنظر بتطرّف شديد إلى السلوك الجنسيّ الشاذّ باعتباره خطيّة خطيرة. عندها يصبح السؤال هكذا: «كيف نعامل الخطاة؟»

تمرُّ في خاطري الآن التغيّرات التي طرأت خلال هذه الفترة من عمري داخل الكنيسة الإنجيليّة حول موضوع الطلاق الذي كان يسوع واضحًا بشأنه وحاسمًا. بَيْد أنَّ الإنسان المطلَّق اليوم، لا يتجنّبه أحد وقد لا يُفصَل من الكنيسة، ولا يُبصق عليه، ولا يصرخون بوجهه. حتى الذين يعتبرون الطلاق خطيّة، باتوا يقبلون هؤلاء الخطاة ويعاملونهم بدماثة وحتى بمحبّة. على أنّ ثمّة خطايا أخرى، والتي للكتاب المقدس موقف واضح منها – الطمع مثلاً – يبدو أنها لا تصطدم بأي حاجز بتاتًا. لقد تَعلَّمنا أن نقبل الإنسان من دون الموافقة على سلوكه.

إنّ دراستي لحياة يسوع ولّدت فيّ قناعةً أنه مهما كانت الحواجز التي يجب أن نتخطّاها في معاملة الناس «المختلفين»، لا تقارن بما تخطّاه إلهٌ قدّوس – ساكن في الموضع المقدس، والذي حضوره جعل الجبل ينفث نارًا ودخانًا، ويُميت أيّ شخصٍ غير طاهر يقترب منه – حين نزل ليكون معنا على كوكب الأرض.

زانية، جابي ضرائب مستغلّ، امرأة مسكونة بالأرواح، جنديٌّ رومانيٌّ، سامريٌّ أبرص وسامريةٌ متعدّدة الزيجات – أتعجّب أنّ يسوع اشتهر بكونه «صديقًا لخطاة» مثل هؤلاء. وكما كتب هلموت ثيليك:

> حصل يسوع على القوّة ليحبّ الساقطات وقُطّاع الطرق والسّفاحين. ...كان قادرًا أن يفعل هذا فقط لأنه كان يرى ما وراء

تلك القذارة والقشور الفاسدة، وأنّ عينه استطاعت أن ترى الأصالة الإلهية المخبّأة في كل طريق – في كل إنسان!... لأنه قبل كل شيء يعطينا عيونًا جديدة....

حين أَحبّ يسوع إنسانًا مثّقلاً بالذنب وساعده، رأى فيه ولدًا خاطئًا من أولاد الله. رأى فيه إنسانًا أحبَّه الآب وحزن لأنه رآه في السبيل الخاطئ. رآه كما صَمَّمَهُ الله في الأساس وأراده أن يكون، ولذلك رأى تحت تلك القشرة من السخام والقذارة الإنسان الحقيقي. لم «يُعرّف» يسوع الإنسان انطلاقًا من خطيّته بل رأى بالحريّ، في تلك الخطيّة شيئًا غريبًا، شيئًا لا ينتمي إليه، شيئًا كبّله وساد عليه، وهذا بالذات ما سوف يحرّره منه ويعود به إلى نفسه الحقيقيّة. كان يسوع قادرًا أنْ يحبّ الناس لأنه أحبّهم وهم وراء ذلك الغطاء من الوحل.

قد نكون رجسين، لكننا لا نزال مصدر فخر الله وسروره. جميعنا في الكنيسة، نحتاج إلى «أعين شفتها النعمة» كي نستطيع أن نرى في الآخرين النعمة عينها التي أجزلها الله لنا بغزارة. قال دوستويفسكي: «أن تُحبَّ إنسانًا يعني أن تراه كما قصد الله له أن يكون.»

إنّ الروائي الكاثوليكي يعتقد أنك بالخطيّة تدمّرُ حرّيتك؛ أما القارئ العصريّ فيؤمن، كما أعتقد، أنك تستعيد حرّيتك بتلك الطريقة. ليس ثمّة إمكانيّة كبيرة لتفاهم ما بين الإثنين.

فلانّري أوكونور



الفصل الرابع عشر

ثغرات



يخبرنا المؤرّخ والناقد الفنيّ روبرت هيوز عن مجرم حُكم عليه بالسجن المؤبّد في جزيرة على ساحل استراليا، وسط تدابير أمنيَّة قصوى. ذات يوم، ومن دون سبب، شَرَعَ يضرب زميلاً له في السجن حتى أفقده وعيه ثمّ قَتَله. نقلته السلطات إلى المدينة كي يمثل من جديد أمام المحكمة، حيث راح يُقدِّم تقريرًا مفصّلاً وخاليًا من العاطفة. لم يبدِ ندمًا، كما نفى وجود أي ضغينة سابقة نحو الضحيّة. «لماذا إذًا؟» سأله القاضي متحيّرًا. «ما كان دافعك؟»

أجاب السّجين إنه سئمَ الحياة على الجزيرة، ذلك المكان الموحش السيّء السُّمعة، ولم يجد سببًا يجعله يعيش أكثر. «أجل، أجل، أنا أفهم كلّ ذلك»، قال القاضي. «أستطيع أن أفهم لماذا قد تُغرق نفسك في مياه المحيط. لكن الجريمة؟ لماذا الجريمة؟» «حسنًا»، قال السجين، «إنني أُقدِّر أنّ الأمر بهذا الشكل: أنا كاثوليكي. إذا أقدمتُ على الانتحار فسوف أذهب توًّا إلى الجحيم. أما إذا ارتكبت جريمة فسيكون بإمكاني العودة إلى

هنا إلى مدينة سيدني والاعتراف للكاهن قبل إعدامي. بهذه الطريقة، الله سوف يسامحني.»

إنّ منطق السجين الأسترالي كان مرآة لمنطق الأمير هاملت، الذي لم يُقدم على قتل الملك أثناء الصلاة في الكنيسة لئلا تُمحى أعماله الشرّيرة ويذهب توًّا إلى السماء.

إنّ كلّ من يكتب عن النعمة يجب أن يواجه ثغراتها الواضحة. ففي شعر و.هـ. أُودِن «في الوقت الحاضر» (For the Time Being)، يدرك الملك هيرودس بفطنة النتائج المنطقيّة للنعمة: «كل محتال سوف يقنعك بالقول: أنا أحبّ ارتكاب الجرائم. والله يحبّ أن يغفرها. حقًّا إنّ العالم منظَّمٌ بشكلٍ رائع.»

حتّى هذه النقطة، أُقِرُّ بأنني عرضتُ جانبًا واحدًا من النعمة. فقد صوّرت الله أبًا متيّمًا، ومشتاقًا إلى أن يغفر، والنعمة كقوّة قادرة أن تحطِّم القيود التي تربطنا، وشغوفة بما يكفي لتتغلّب على الفوارق العميقة بيننا. إنّ تصوير النعمة بهذه التعابير الجارفة يزعج الكثيرين، وأنا أُسلّم بأنني قد انزلقتُ إلى حافة الخطر. فعلت هكذا لأنني أعتقد بأنّ العهد الجديد يفعل هكذا أيضًا. لاحظ هذا التذكير الواضح من الواعظ العظيم القديم، مارتن لويد – جونز:

> ثمّة إحساس واضح بأنّ الرسالة القائلة إنّ «التبرير هو فقط بالإيمان» قد تكون رسالة خطرة، ومثلها الرسالة القائلة إنّ الخلاص هو بالنعمة فقط...

أقول هذا لجميع الوعّاظ: إذا كان وعظكم عن الخلاص لم يُسَأ

فهمه بتلك الطريقة فمن الأفضل لكم أن تعيدوا فحص عظاتكم ثانيةً، وأن تتأكدوا أنكم فعلاً تعظون عن الخلاص الذي يقدّمه العهد الجديد إلى الشرير، إلى الخاطي، إلى الذين هم في عداوة مع الله. ثمّة عنصر خطر في تقديم التعليم الصحيح عن الخلاص.

تفوح من النعمة رائحة العار. حين سأل أحدهم اللاهوتيّ كارل بارث ماذا قد يقول لأدولف هتلر، أجاب: «يسوع المسيح مات من أجل خطاياك.» خطايا هتلر؟ وخطايا يهوذا؟ هل النعمة بلا حدود؟

عملاقان من العهد القديم، موسى وداود، ارتكبا جريمة قتل، وبقيَ الله يحبّهما. وكما ذكرتُ سابقًا، رجلٌ آخر قاد حمْلَةَ تعذيب، لكنه انتهى بوضع مقياس للعمل الإرسالي لم يُجاره أحد. إنه بولس الذي لم يتعب قطّ من وصف معجزة الغفران تلك: «أَنَا الَّذِي كُنْتُ قَبْلاً مُجَدِّفًا وَمُضْطَهِدًا وَمُفْتَرِيًا. وَلكِنَّنِي رُحِمْتُ، لأَنِّي فَعَلْتُ بِجَهْل فِي عَدَمِ إِيمَان. وَتَفَاضَلَتْ نِعْمَةُ رَبِّنَا جِدًّا مَعَ الإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. صَادِقَةٌ هِيَ الْكَلِمَةُ وَمُسْتَحِقَّةٌ كُلَّ قُبُول: أَنَّ الْمَسِيحَ يَسُوعَ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ لِيُخَلِّصَ الْخُطَاةَ الَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا» (١تيموثاوس ١: ١٣-١٥).

رون نِكِلْ، الذي يرأس (Prison Fellowship International)، يقدّم للمساجين حول العالم حديثًا نموذجيًا. يقول: «لا نعلم بالتحديد من سيذهب إلى السماء، وقد صرّح يسوع أنّ كثيرين من الناس سوف يُفاجأون: «لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ، يَا رَبُّ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (متى ٧: ٢١)، لكننا نعلم بالتأكيد، أنّ بعض اللّصوص والقتلة سوف يكونون هناك. فيسوع وعد اللّص على الصليب بالسماء، والرسول بولس كان شريكًا في الجريمة.» كنتُ أُراقب التعابير على وجوه المساجين في أماكن

مثل تشيلي والپيرو وروسيا، بينما أتذكّر كلمات رون. ففضيحة النعمة بدت لهم أمرًا لا يصدّق.

حين صوَّرَ بِلْ مُوْيَرْز فيلمًا تلفزيونيًّا خاصًّا حول الترنيمة «ما أعجب النعمة» (Amazing Grace)، واكَبَتْ عدسة الكاميرا جوني كاش إلى داخل سجن محاط بأقصى التدابير الأمنيّة. «ماذا تعني لكم هذه الترنيمة؟» سأل كاش المساجين بعد الترنيمة. أحد الرجال، وكان يُمضي عقوبته لمحاولة القتل، أجاب: «أنا كنتُ شمّاسًا ورجلاً متديّنًا، ولكنني لم أعرف قط ما هي النعمة إلى أن انتهيت في مكانٍ كهذا.»

إنّ القوى الكامنة وراء «سوء استعمال النعمة» حطّت رحالها في بيتي عنوةً، وذلك أثناء محادثة بيني وبين صديق، لِنُسَمِّه دانيال. ذات ليلةٍ جلست في مقهى ورحتُ أُصغي، بينما راح دانيال يُفضي إليّ بالقول إنه قرّر أن يترك زوجته بعد زواج دام خمس عشرة سنةً. التقى فتاة أصغر سنًّا وأجمل، فتاة «تُشعِرني بأنني أكثر حيويّةً، الأمر الذي لم أعرفه منذ سنوات.» لم يكن ثمّة تنافر يُذكر بينه وبين زوجته. لكنه أراد مجرّد التغيير مثل رجل متلهِّف لسيارة جديدة.

وكمسيحيّ، كان دانيال يعلم جيّدًا النتائج الأخلاقية والشخصيّة المترتّبة على ما هو مزمع أن يفعله. إنّ قراره بالانفصال سوف يُنزِل ضررًا فادحًا بزوجته وأولاده الثلاثة. مع ذلك، قال إنّ القوة التي تشدُّهُ نحو تلك المرأة الشابة تُشبه مغنطيسًا قويًّا تتعذّر مقاومته.

أصغيتُ إلى قصة دانيال بحزن وأسى، ولم أقل إلاّ القليل فيما كنت أحاول أن أستوعب تلك الأخبار. بعدئذٍ، وأثناء تقديم الحلوى، رمى

بالقنبلة: «الواقع يا فيليب إنّ لديّ سببًا خفيًّا. السّبب في أنني أردت أن أراك الليلة هو كي أسألك سؤالاً طالما أزعجني: أنت تدرس الكتاب المقدس، فهل تظن أنّ الله يستطيع أن يغفر أمرًا بهذه الفظاعة كالذي أنا فاعل؟»

بدا لي سؤال دانيال كحيّة متحرّكة على الطاولة، وقد رشفت ثلاثة فناجين قهوة قبل أنْ أتجاسر وأجيبه. في تلك الفترة الفاصلة بين سؤاله وجوابي، فكّرت طويلاً وبصعوبة بآثار النعمة. كيف أستطيع ثنيَ صديقي عن ارتكابه خطأً رهيبًا، إذا كان يعرف أنّ الغفران هو في متناول اليد؟ أو، كما في قصّة روبرت هيوز المروّعة تلك من أستراليا، ماذا يمنع المجرم من ارتكاب جريمته إنْ كان يعلم مسبقًا أنه سيُغفر له؟

ثمّة «قطبة مخفيّة» واحدة للنعمة ينبغي عليّ الآن ذكرها. ففي كلمات سي. إس. لويس: «يقول القديس أوغسطينوس: 'الله يُعطي الأيادي الفارغة'. رجلٌ يداه مليئتان بالرُزم لا يقدر أن يستلم هديّة.» وبكلام آخر، النعمة ينبغي أن تُستَلم. يشرح لويس أنّ ما سمّيته «سوء استعمال النعمة» ينشأ عن التعقيد بين التغاضي والمغفرة: «أنْ تتغاضى عن شر ما يعني ببساطة أن تتجاهله، أنْ تعامله كما لو كان جيدًا. أمّا الغفران، فيحتاج أن يكون مقبولاً ومُقدَّما لكي يكون كاملاً: والإنسان الذي لا يعترف بالذنب لا يقدر أن يقبل أيّة مغفرة.»

هاك ما قلته لصديقي دانيال بكلمات قليلة: «هل يستطيع الله أن يسامحك؟ بالطبع. أنت تعرف الكتاب المقدس. الله يستخدم قتلةً وزناةً. فيا للعجب، إذ إنّ اثنين من الأشرار هما بطرس وبولس، كانا رائدين في كنيسة العهد الجديد. الغفران هو مشكلتنا وليس مشكلة الله. وما نُقْدِم على فعله من خطايا يُبعدنا عن الله – ونحن نتغيّر أثناء فعل العصيان – وليس ثمّة

ضمانة بأننا سنرجع على الإطلاق. أنت تسألني عن المغفرة الآن، لكنْ، هل من الممكن أن تريدها في ما بعد، خاصة إن كانت تتضمّن التوبة؟»

بعد شهور من محادثتنا تلك، اتّخذ دانيال خياره وترك عائلته. تمنّيت أن أرى دليلاً على التوبة. إنه يحاول الآن أن يبرّر قراره بالقول إنه هرب من زواج غير سعيد. وقد وَسَمَ معظم أصدقائه السابقين بالقول: «إنهم رجعيّون ضيّقو الفكر وديّانون»، ثم راح يفتّش بالمقابل عن أناس يمتدحون حريّته المستردّة. أمّا بالنسبة إلي، فلا يبدو دانيال قد تحرّر فعلاً. إنّ ثمن «الحرية» عنى إدارة ظهره لأولئك الذين اهتمّوا به كثيرًا. أخبرني كذلك بأنّ الله ليس جزءًا من حياته حاليًّا. «ربّما فيما بعد»، كما يقول.

جازف الله كثيرًا بإعلانه الغفران مسبقًا، وفضيحة النعمة تتضمّن نقل تلك المجازفة إلينا.

قال باسكال :«حقًا إنه لشرٌّ أنْ تكون مليئًا من الأخطاء، لكنّ الأشرّ بعدُ، هو أن تكون مليئًا من تلك الأخطاء، ولا تريد الإقرار بها.»

ينقسم الناس إلى فئتين: ليس إلى مذنب أو بار كما يظنّ معظمهم، لكنهم ينقسمون في الواقع إلى نوعين من الناس المذنبين: ثمّة مذنبون يعترفون بأخطائهم، ومذنبون لا يعترفون بها، فئتان تلتقيان في مشهد مدوّن في يوحنا ٨.

تأخذ هذه الحادثة مجراها في أروقة الهيكل، حيث كان يسوع يُعَلّم. جماعة من الفريسيّين ومعلّمي الشريعة يقاطعون «خدمة العبادة» تلك حيث كانوا يجرّون امرأة أُمسكت بِزِنا. وحسب العادة عُرِّيَتْ حتى الخصر

كعلامة على خزيها. مرتعبة وعاجزة ومحتقرة من الجميع، وقد بدت مرتعدة أمام يسوع وذراعاها تغطّيان صدرها العاري.

لا شكَّ أنَّ الزنا في حاجة إلى اثنين، لكن المرأة تقف وحيدةً أمام يسوع. (ربما أُمسكت في السرير مع فرّيسيّ؟) يُظهِر يوحنا بوضوح أنّ همّ المشتكين الأساسي لم يكن معاقبتها بقدر ما كان نصبُ فخ ليسوع، وكم كان فخًّا ذكيًّا! إنّ ناموس موسى يحدّد قصاص خطيّة الزنا الموت رجمًا، إلاّ أنّ القانون الروماني يمنع اليهود من تنفيذ حكم الاعدام. من سيطيع يسوع، موسى أم روما؟ أم أنه، وهو المشهور بشفقته، سوف يجد طريقة ما ليخلِّص هذه الزانية من الفخّ. إن كان هكذا، فيعني ذلك أنه سوف يتحدّى ناموس موسى أمام جمهور مجتمع في أروقة الهيكل بالذات. كل الأعين شاخصة نحو يسوع.

في تلك اللحظة الحرجة فعل يسوع شيئًا منقطع النظير: انحنى إلى الأرض وبدأ يكتب بأصبعه. هذا في الواقع، هو المشهد الوحيد في الأناجيل الذي يُظهر يسوع وهو يكتب. فالكلمات الوحيدة التي كتبها، اختار لها لوحة من الرمل، عالمًا أن آثار الأقدام والريح والمطر سوف تمحو الكتابة سريعًا.

لا يخبرنا يوحنا ماذا كتب يسوع على الرمال. سيسيل ب. دي ميل، في فيلمه عن حياة يسوع، يصوّره يكتب أسماء الخطايا المتنوعة: الزنا، والقتل، والكبرياء، والطمع، والشهوة. وفي كل مرة يكتب يسوع كلمة، ينسحب عدد آخر من الفريسيّين. إنّ افتراض دي ميل، مثله مثل كل الآخرين، هو مجرّد تخيّل. كل ما نعرفه أنّ يسوع في هذه اللحظة المشحونة بالخطر يتوقّف، ويبقى صامتًا، ويكتب بأصبعه كلمات على الأرض. الشاعر

الإرلندي سيموس هيني يُعلّق بالقول، إنّ يسوع «يمرّر الوقت بكل ما لتلك العبارة من معنى» إذ يشدّ انتباه كل واحد، كما يخلق شَرخًا في المعنى بين ما سيحدث وما يتمنّى الحاضرون أن يحدث.

إنّ جمهور المشاهدين هذا، لا شكّ يَرى مجموعتين من الممثلين في هذه الدراما: المرأة المُذنبة، وقد أُمسكت بذات الفعل، والمشتَكون «الصالحون»، الذين قبل كل شيء هم متديّنون محترفون. وعندما تكلّم يسوع في نهاية الأمر، دمّر واحدة من هاتين المجموعتين. «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ!» (يوحنا ٨: ٧)، قال يسوع هذا، ثمّ انحنى ثانيةً ليكتب، معطيًا وقتًا أكثر، وواحدًا بعد الآخر، ابتدأ المشتكون بالانسحاب.

بعدها، وقف يسوع وخاطب المرأة التي تُركت الآن وحدها أمامه: «يَا امْرَأَةُ، أَيْنَ هُمْ أُولئِكَ الْمُشْتَكُونَ عَلَيْكِ؟ أَمَا دَانَكِ أَحَدٌ؟ فَقَالَتْ: لاَ أَحَدَ، يَا سَيِّدُ!» (يوحنا ٨: ١٠-١١).

هذه المرأة التي كانت تُجَرُّ مرتعدةً، إلى حتفها الوشيك، يمنَحُها يسوع الحلّ من خطيّتها إذ يقول لها: «وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضًا» (يوحنا ٨: ١١).

وهكذا، وبضربة ذكيّة، يُبدّل يسوع الفئتين المزعومتين بأنهما فئة بارّة وفئة مذنبة، بفئتين مختلفتين: فئة خطاة يُقرّون، وفئة خطاة لا يقرّون. فالمرأة التي أُمسكت في زنا، أقرّت بذنبها صاغرةً. أما الآخرون، وبخاصة الفريسيون، فكانوا أناسًا أكثر تعقيدًا، إذ أنكروا ذنبهم أو أخفوه. فهم أيضًا، يحتاجون إلى أيدٍ فارغة لتَلَقّي النعمة. يُعَبّر الدكتور پول تورنيه عن هذا الأمر بلغة الطبّ النفسي فيقول: «يمحو الله

الذنب الذي يكون في حالة الوعي، أما الذنب المكبوت فيخرجه إلى حالة الوعي.»

إنّ المشهد في يوحنا ٨ يهزّني لأنني بالطبيعة أتآلف مع هيئة الإتّهام أكثر من المتّهم. إنني أنكر أكثر بكثير مما أعترف به. فبإخفائي خطاياي تحت عباءةٍ من الوجاهة والاحترام المقنّع، أجعل من غير الممكن، إن لم أقل من المستحيل، أن يمسكني أحد بعمل شنيع ظاهر للعيان. أمّا إذا فهمتُ هذه القصة بصورة صحيحة، فتكون هذه المرأة الخاطئة هي الأقرب إلى ملكوت الله. أستطيع حتمًا أن أتقدّم في ملكوت الله، فقط إذا أمسيتُ مثل تلك المرأة: مرتجفًا متواضعًا، لا عُذرَ لي، وراحتا يديّ مفتوحتان لتلقّي نعمة الله.

هذا الموقف من الإنفتاح والإستعداد للتلقّي هو ما أُسمّيه «القطبة المخفيّة» للنعمة. ينبغي لي أن أكون مقبولاً، والتعبير المسيحي لذاك العمل هو التوبة التي هي المدخل إلى النعمة. قال سي. إس. لويس أنّ التوبة ليست أمرًا يطلبه الله منا بطريقة إعتباطية بل «إنه ببساطة وصفٌ لما تكون عليه صورة الرجوع.» وفي ما يخصّ مَثَل الابن الضال، فإنّ التوبة هي رحلة العودة إلى البيت، والتي توصِل إلى الاحتفال السعيد. إنها تفتح الطريق إلى المستقبل وإلى شركةٍ مستردّة.

إنّ العديد من مقاطع الكتاب المقدس القاسية حول الخطيّة يَظهرُ في نور جديد لحظةَ أَفهمُ رغبة الله في دفعي في اتجاه التوبة التي هي المدخل إلى النعمة. أخبَرَ يسوع نيقوديموس قائلاً: «لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ» (يوحنا ٣: ١٧). بكلام آخر، إنه يوقِظُ فيَّ الذنب من أجل منفعتي الشخصيّة. الله لا يطلب أن يسحقني بل أن

يُحرّرني، والتحرير يتطلّب روحًا دفاعاتها منهارة، مثل تلك المرأة التي أُمسِكت بذات الفعل، وليس روح غرور فريسيّة.

ما لم يأتِ العيبُ إلى النور لا يمكن شفاؤه. المدمنون على المسْكِر يدركون أنه إن لم يعترف الشخص بمشكلته: «أنا مدمن على الكحول»، فلا أمل في شفائه. أمّا بالنسبة إلى المَهَرة في إخفاء هذا الأمر، فإنّ اعترافًا مثل هذا قد يتطلّب تدخّلاً موجعًا من العائلة والأصدقاء، الذين «يكتبون على الأرض» الحقيقة المخزية إلى أن يقبلها المدمن.[١] وبكلمات تورنيه نقول:

> ...إنّ المؤمنين الأشدّ يأسًا في أنفسهم، هم أولئك الذين يعبّرون بأقصى قوة عن ثقتهم بالنعمة. ثمّة قديس هو بولس... وقديس هو فرنسيس الأسيزي، الذين أكّدا أنهما أشقى جميع الناس؛ وثمّة واحد، هو كالڤن الذي أكّد أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يفعل الصلاح، وأن يعرف الله بقوته الذاتيّة...

وكما يقول الأب دانيالو: «إنهم القدّيسون، من يملكون الإحساس بالخطيّة؛ فالشعور بالخطيّة هو مقياس إدراك النفس لله.»

١ يستخدم المدمنون على المسْكِر التعبير «سكّير جاف» لوصف المدمن الذي يتوقف عن الشرب، ولكنه يستمر بالإنكار، رافضًا الإقرار بأن لديه مشكلة. جاف ولكنه تعيس، ويجعل كلَّ مَنْ حوله تعساء أيضًا. ويستمر في خداع الآخرين ويوتّر الذين يعتمد عليهم. ولأنه لم يعد يعاقر الخمرة، لا يعود لديه فترات سعادة، حتى إنّ أعضاء العائلة قد يحاولون جعل مدمن كهذا يعاود الشرب من أجل الفَرَج؛ إنهم يريدون أن يروا «سكّيرهم السعيد» وقد رجع إلى مرحه. يشبّه المؤلّف كيث ميلر شخصًا كهذا بالمرائي في الكنيسة، إنه يُغيِّر الخارج دون الداخل. فالتغيير الحقيقي في السكّير، كما في المؤمن ينبغي أن يبدأ بقبول الحاجة إلى النعمة. الإنكار يحجز النعمة.

يقول كاتب رسالة يهوذا إنه من الممكن أنْ تُحوَّل نعمة إلهنا إلى الدعارة. ولا حتى التشديد على التوبة يمحو هذا الخطر كلّيًا. فكلا الرجلين: صديقي دانيال، والمحكوم الأسترالي قد يوافقان نظريًا على الحاجة إلى التوبة، وكلاهما كانا يخطّطان لاستغلال ثغرة للنعمة بحصولهما على ما يريدان الآن، والتوبة عنه فيما بعد. في البداية تتكوّن فكرة ملتوية في خلفيّة الفكر. إنه شيءٌ أريدُه. أَجَل! أعلم أنه خطأ. ولكن، لماذا لا أمضي قدمًا غير آبه بشيء؟ أستطيع دائمًا أن أنال المغفرة في ما بعد. تستحوذ هذه الفكرة على كل كيانه، وفي نهاية الأمر تصبح النعمة عنده «إجازة إلى الدعارة».

ردّ المؤمنون على هذا الخطر بطرق مختلفة. فمارتن لوثر المذهول بنعمة الله، سخر أحيانًا من إمكانيّة سوء الاستعمال. يكتب إلى صديقه مِلانكثون قائلاً: «إن كنتَ واعظًا للنعمة، فلا تعظ بنعمة خيالية بل بنعمة حقيقيّة؛ وإذا كانت النعمة حقيقيّة، احمل خطيّة حقيقية لا خطيّة خيالية. كن خاطئًا وافعل الخطّية بقوة... فيكفي أننا نعرف، بواسطة غنى مجد الله، الحَمَلَ الذي يحمل خطيّة العالم؛ من هنا فإنّ الخطيّة لن تفصلنا، حتى ولو قتلنا أو زنَيْنا آلاف آلاف المرّات في اليوم الواحد.»

آخرون، وقد تنبّهوا إلى إمكانية أن يزني المسيحيون أو يقتلوا آلاف المرّات في اليوم، اتّصلوا بلوثر لينتقدوه بشدّة على هذا الغلوّ. فالكتاب المقدس، على كل حال، يقدّم النعمة كقوّة شفاء مضادة للخطيّة. كيف يمكن للإثنين أن يتواجدا في الشخص عينه، في الوقت عينه؟ ألا ينبغي لنا أن «ننمو في النعمة» (٢بطرس ٣: ١٨)، كما يوحي بطرس؟ ألا ينبغي لشبهنا بالله كعائلة أن يزداد؟ «إنّ المسيح يقبلنا كما نحن»، كما يكتب والتر تروبيش، «ولكن حين يقبلنا، لا نستطيع في ما بعد أن نبقى كما نحن.»

ديتريخ بونهوفر، لاهوتيّ القرن العشرين، صاغ عبارة «النعمة الرخيصة» كوسيلة لتلخيص سوء استعمال النعمة. وحيث إنه كان يعيش في ألمانيا النازيّة، فقد راعَهُ أن يرى الطريقة الجبانة التي كان المسيحيون يردّون فيها على تهديد هتلر. كان القساوسة اللوثريون يعظون عن النعمة من على المنابر يوم الأحد، ثم يظلّون صامتين باقي أيام الأسبوع، فيما النازيون ينفّذون سياستهم بشأن العنصريّة والموت الرحيم، وأخيرًا الإبادة الجماعية. كتاب بونهوفر (The Cost of Discipleship)، يلقي الضوء على العديد من مقاطع الكتاب المقدس، التي تطالب المؤمنين ببلوغ القداسة. فكلّ دعوة إلى التجديد، بحسب تشديده، تتضمّن دعوة إلى التلمذة وإلى التشبّه بالمسيح.

يَلِجُ بولس في رسالة رومية، إلى قلب هذه المواضيع بالذات. ليس ثمّة مقطع كتابي آخر يعطي هذه النظرة المركّزة عن النعمة في كل أسرارها، ولأجل الحصول على رسم واضح عن فضيحة النعمة، علينا أن نعود إلى رسالة رومية ٦ – ٧.

الفصول الأولى من رسالة رومية قَرَعَت جَرس الحزن على حالة الإنسانية التعيسة، مع الخاتمة الحاسمة بأنّ: «الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ» (رومية ٣: ٢٣). وكمقطع مُنَمّقٍ، يُمَهِّد لحركة سيمفونيّة جديدة، كذلك يخبر الأصحاحان التاليان عن النعمة التي «تمحو» كلّ قصاص: «وَأَمَّا النَّامُوسُ فَدَخَلَ لِكَيْ تَكْثُرَ الْخَطِيَّةُ. وَلكِنْ حَيْثُ كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِدًّا» (رومية ٥: ٢٠). مؤكّد أنه لاهوت عظيم، لكنّ إعلانًا طاغيًا كهذا يوصِل إلى المشكلة العملية ذاتها، التي كنت أدور حولها: لماذا تكون صالحًا إذا كنتَ تعرف مسبقًا أنّه سوف يُغْفَر لك؟ ولماذا أُجاهد كي أكون تمامًا كما يُريدني الله، في حين أنه يقبلني تمامًا كما أنا؟

يَعْلَمُ بولس أنه قد فتح مَسْرب الفيضان لاهوتيًّا. في رسالة رومية أصحاح ٦، يقول بطريقة فظّة: «فَمَاذَا نَقُولُ؟ أَنَبْقَى فِي الْخَطِيَّة لِكَيْ تَكْثُرَ النِّعْمَةُ؟» (رومية ٦: ١). ثمّ يقول: «فَمَاذَا إِذًا؟ أَنُخْطِئُ لأَنَّنَا لَسْنَا تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ؟» ولكلا السؤالين يعطي بولس جوابًا واحدًا متشدِّدًا: «حَاشَا!» (رومية ٦: ١٥)، أو بحسب ترجمات أخرى: «لا سمح الله!»

إنّ ما يستحوذ على الرسول في هذه الفصول المكثّفة والانفعالية هو بكل بساطة، فضيحة النعمة. فالسؤال المطروح: «لماذا الصّلاح»، هو في صلب مناقشة بولس. فإن كنت تعلم مُسبقًا أنه سوف يغفرُ لك، فلماذا لا تنضمّ إلى عَبَدَة باخوس الوثنيين؟ كُلْ واشرب وامْرَح لأنّه غدًا سوف يُغفر لك. لا يقدر بولس أن يتجاهل هذه الثغرة الجليّة.

إنّ توضيح بولس الأوّل (رومية ٦: ١-١٤) يتكلّم عن هذه النقطة مباشرة. فهو يضع السؤال بهذا الشكل: إذا كانت النعمة تزداد كلّما ازدادت الخطيّة، فلماذا لا نخطئ إذًا بقدر ما هو ممكن، لكي نعطي الله فرصة أكبر في توسيع النعمة؟ على الرغم من أنّ منطقًا كهذا قد يبدو ملتويًا، فقد اتّبع المسيحيون مرّات عدة، هذا المنطق الغريب. وقد صُعق أحد أساقفة القرن الثالث لدى رؤيته شهداء مكرّسين في الإيمان المسيحي يقضون لياليهم الأخيرة في السجن بالسّكر والزنى والعربدة، قبل تنفيذ حكم الإعدام فيهم. أمّا حجّتهم فكانت هذه: بما أنّ موتَ الشهداء سوف يجعلهم كاملين، فماذا يُضير إنْ هم أمضوا ساعاتهم الأخيرة في الخطيّة؟ وكذلك في انكلترا أثناء فترة حكم كرومويل، فقد وُجدت طائفة متطرّفة تُعرف باسم (Ranters) طوّرت تعليمًا عن «قداسة الخطيّة». أحد قادة هذه الطائفة ظلّ

يلعن طيلة ساعة كاملة فوق منبر إحدى كنائس لندن؛ آخرون سكروا وراحوا يجدّفون علنًا.

ليس لدى بولس الوقت لتعقيدات أخلاقية كهذه. ولكي يكذّبهم، بدأ بمقارنة أساسيّة تقابل بوضوح بين الموت والحياة. وسأل بولس: «نَحْنُ الَّذِينَ مُتْنَا عَنِ الْخَطِيَّةِ، كَيْفَ نَعِيشُ بَعْدُ فِيهَا؟» (رومية ٦: ٢). لا يجوز لأي مؤمن أُقيم إلى جدّة الحياة، أن يتوق إلى القبر. فالخطيّة لها رائحة نَتَن الموت. فلماذا يسعى أحد في طلبها؟

إنّ صُوَر بولس الذهنيّة الحيّة عن الموت ضدّ الحياة، لا تجيب تمامًا عن السؤال المطروح، لأن الشرّ ليس له دائمًا رائحة نتن الموت، على الأقل بالنسبة إلى البشر الساقطين. إنّ سوء استعمال النعمة هو تجربة حقيقيّة. قَلِّب صفحات الإعلان في مجلّة ما، وسوف ترى إغراءَات الشهوة والطمع والحسد والكبرياء، والتي تدعو إلى الخطية بكل صراحة. ومثل خنازير في مزرعة، نَسْتَلِذُّ أن نتمرّغ في الوحل.

علاوةً على ذلك، وبالرغم من أنّ المؤمنين قد يكونون «ماتوا عن الخطيّة»، ولو نظريًّا، فالخطيّة تظل تُطِلُّ برأسها كي تحيا من جديد. صديق لي قاد حلقة درس الكتاب حول هذا المقطع من رومية، قَصَدَتْه تلميذة بعد انتهاء الحلقة وعلى وجهها أمارات الحيرة والإرباك. قالت: «أعلم أنّ الكتاب يقول إننا متنا عن الخطيّة، لكنْ تبدو الخطيّة في حياتي عائشة بشكل جيّد.» بولس، وهو شخص واقعيّ، يعرف هذه الحقيقة، وإلاّ لما كان نصحنا في المقطع نفسه بالقول: «احْسِبُوا أَنْفُسَكُمْ أَمْوَاتًا عَنِ الْخَطِيَّةِ... إِذًا لاَ تَمْلِكَنَّ الْخَطِيَّةُ فِي جَسَدِكُمُ الْمَائِتِ» (رومية ٦: ١١ و١٢).

أستاذ علم الأحياء في جامعة هارڤرد إدوارد أُو. ويلسون قدّم اختبارًا غريبًا عن النمل قد يكمّل توضيح بولس. فبعد أن لاحظ أنّ النمل احتاج إلى بضعة أيام ليعرف أنّ نملة متقوقعة على ذاتها في وكر النمل اعتُبرت في عداد الأموات، خَلَصَ إلى أنّ النملُ يُقرِّر حالة الوفاة بدليل الرائحة وليس فقط من طريق البصر. فإذْ بدأ جسم النملة يتحلّل، حَمَله عدد من النمال دون تردّد إلى خارج الوكر وألقياه فوق كومة من القمامة. بعد تجارب عدّة، قرّر ويلسون أنّ مفتاح اللغز الكيميائي هو في حامض الزيتيك (Oleic Acid). فإذا اشتَمَّ النمل حامض الزيتيك، يحملون الجثة خارجًا؛ أية رائحة أخرى يتجاهلونها. كانت غريزة النمل قويّة لدرجة أنه إذا طلى ويلسون قطع ورق صغيرة بحامض الزيتيك تأتي النمال الأخرى جادةً وتحمل الأوراق إلى مدفن النمل.

وفي أُحبولة أخيرة، دَهَنَ ويلسون حامض الزيتيك على أجساد النمال الحية. وبكل تأكيد، حملتها النمال الأخرى في الوَكر وسارت بها إلى المدفن، على الرغم من رفض النمال المحمولة واستمرارها بتحريك قوائمها وقرون استشعارها. وهكذا، في مثواها، راحت النمال السّاخطة و«الحيّة الميتة» تنظّف نفسها جيدًا قبل العودة إلى الوكر. وإذا لم تُزِلْ كل أثرٍ لحامض الزيتيك فإنّ رفاقها في الوكر سوف يقبضون عليها ثانيةً ويعيدونها إلى المدفن. يجب أن يُصادَق على أنها حيّة، والحكم يكون فقط بالشَّمّ، قبل أن تعود وتصبح مقبولة في الوكر.

عندما أقرأ أول إيضاح لبولس في رومية ٦، أُفكِّر في تلك الصورة، نمالٌ «ميّتة» تتصرف بكل حيويّة. قد تكون الخطيّة ميّتة، لكنها قد تتحرك راجعة إلى الحياة.

فورًا يكرّر بولس المعضلة بطريقة مختلفة وذكيّة: «أَنُخْطِئُ لأَنَّنَا لَسْنَا تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ؟» (رومية ٦: ١٥). هل تُقَدِّم النعمة ترخيصًا، أو نوعًا من جواز المرور في طرق الحياة الأخلاقية المتشعّبة؟ وقد سبق وقدّمت وصفًا لقاتل أُسترالي ولزانٍ أميركيّ وصلا إلى هذه الخاتمة. قال مارك توين: «أفترض أنه يوجد داعٍ لحفظ القوانين يوم تكون شابًا... ولكن ستبقى لديك القدرة الكافية لكيٍ تخرقها جميعًا عندما تشيخ»، وقد حاول بشجاعة أن يتبع نصيحته الشخصيّة. ولِمَ لا، ما دمت تعرف مسبقًا أنه سوف يُغفر لك! ومرة ثانيةً يُطْلِقُ بولس عبارته: «حاشا!» كيف تُجاوب الإنسان الذي هدفه الرئيس في الحياة الوقوف فقط عند الأطراف الخارجية للنعمة؟ هل يكون شخص كهذا قد اختبر النعمة حقًّا؟

مقارنة بولس الثانية (رومية ٦: ١٥-٢٣)، عبودية الإنسان، تضيف بُعدًا جديدًا إلى المناقشة. يبدأ بالقول: «أَنَّكُمْ كُنْتُمْ عَبِيدًا لِلْخَطِيَّةِ» (رومية ٦: ١٧)، فيقدّم مقارنةً ملائمة. الخطيّة هي سيِّد متسلِّط يسيطر علينا، أردنا ذلك أم لم نرِدْ. ومن المفارقات، أنّ الحرية الجامحة غالبًا ما تتحوّل إلى عبودية: إن كنت تُصرّ على ترك العنان لحريتك في حدة الطبع كلما غضبتَ، سوف تجد نفسك سريعًا، عبدًا للغضب الشديد. إنّ الأشياء التي يعملها المراهقون في أيامنا هذه لكي يعبّروا فيها عن حريّتهم مثل التبغ والكحول والمخدرات والإباحية، تصبح سيدهم الدائم.

تبدو الخطية لدى الكثيرين نوعًا من العبودية، أو بتعبير أكثر عصريةً، تُصبح إدمانًا. ضع قانونًا صارمًا ضد استسلامك للإدمان، وبعد برهة سوف تنعم بحريتك. لكنْ، كم من هؤلاء، اختبروا العودة البائسة إلى العبودية؟

هاك وصفًا دقيقًا لهذا التناقض كتَبه الروائي فرانسوا مورياك:

تستيقظ الآلام واحدة تلو الأخرى، تجول في ما حولها وتشتمّ رائحة هدف شهوتها؛ تهاجم من خلف نفسَ المسكين المتردّدة، فتتركه صريعًا. مراتٍ كثيرة دُفع إلى الحفرة بعنف، وخُنِق بالوحول، يتشبّث بجوانب الحفرة وينهض إلى النور ثانيةً، ثُمّ ينهار ويعود ثانيةً إلى الظلمة، قبل أن يستسلم لناموس الحياة الروحيّة – الناموس الذي لا يفهمه في العالم إلا القلائل، والذي يقاومه بشدّة، علمًا أنه بدونه لا يقدر أن يحصل على نعمة المثابرة. أمّا المطلوب، فهو نبذُ الأنا، وهذا ما يعبّر عنه باسكال تعبيرًا رائعًا في هذه العبارة: «نَبْذٌ كامل ومُلِذّ. خضوعٌ مطلق ليسوع المسيح ولمرشدي الروحي.»

قد يضحك الناس منك ويستهزئون بك، باعتبارك غير جدير بلقب رجل حرّ، ولأنك تخضع لسيّد... ولكنّ هذه العبودية، هي في الحقيقة، تحرير معجزيٌّ، لأنك حتّى حين كُنتَ حرًّا، كنتَ تصرف كلَّ الوقت في صُنع السلاسل الحديدية، وتكبيل يديك بها، ومُضَيِّقًا على نفسك أكثر فأكثر. ولسنين طويلة، حين كنتَ تظن أنك حرٌّ، كنت تخضعُ كثورٍ تحت نيرٍ من أسقامك الموروثة التي لا عدّ لها. ومن لحظة ولادتك، كلُّ جرائمك عاشت، لم تمت منها واحدة، كما لم تضعف في تضييق السّجن عليك يومًا بعد يوم، ولا قَصَّرَتْ في توليد جرائم أخرى. أمّا الرجل الذي أخضعت نفسك له فلا يريدك أن تكون حرًّا! لتكون عبدًا!: إنه يكسرُ حلْقة عبوديتك، ويروح يُضرم، ويعيد إشعال نار النعمة فيك، ويطفئ شهواتك التي لا تزال غير منطفئة تمامًا.

كذلك، وفي إيضاح ثالث، (رومية ٧: ١–٦)، يشبّه بولس الحياة الروحيّة بالزواج. هذا التشبيه أساسًا، ليس بجديد، لأن الكتاب المقدس غالبًا ما يقدّم الله كمُحِبّ يلاحق عروسَه المتقلّبة. إنّ قوة العواطف التي نُحسُّها نحو الشخص الذي نختار أن نُمضي الحياة معه، تعكس الشوق الذي يُحسُّه الله نحونا، يريد لنا الله بالتالي، مبادلته بالشوق نفسه.

أكثر من الموت بكثير، وأكثر من العبودية بما لا يقاس، فإن تشبيه الزواج هذا، يقدّم جوابًا عن السؤال الذي بدأ به بولس: لماذا الصلاح؟ الحقيقة، إنّه السؤال الخطأ. ينبغي أن يكون: لماذا أُحِبّ؟

ذات صيفٍ كان عليّ أن أتعلّم مبادئ اللغة الألمانية من أجل شهادة تخرّج. يا له من صيف بائس! ففي الأماسي البهجة حين كان أصحابي يُبحرون في بحيرة ميشيغان، أو يركبون الدراجات الهوائية، أو يرشفون الكاپوتشينو في المقاهي، كنتُ محجوزًا مع المعلّم الخاص، أَعرِب الأفعال الألمانية. خمس أمسيات في الأسبوع، وثلاث ساعات في الأمسية، كنت أصرفها في حفظ المفردات عن ظهرِ قلب، والتي لن استعلمها في ما بعدُ. تحمّلتُ عذابًا كهذا لغرضٍ واحدٍ فقط: أنْ أنجح في الامتحان، وأنال شهادتي.

ماذا لو أنّ كاتب المدرسة، المسؤول عن التسجيل، كان وعدني: «يا فيليب، نُريد لكَ أن تدرس بجهد، وتتعلّم الألمانية وتجري الإمتحان، ولكننا نعدك مسبقًا، أنك سوف تنال العلامة الناجحة. شهادتك قد أصبحت جاهزة وموقّعة.» أتظنون أنني كنت لأصرف كل أمسية من ذلك الصيف اللذيذ داخل شقّة حارّة خانقة؟ ولا بأيّة حال. باختصار، تلك كانت المعضلة اللاهوتية التي واجهها بولس في رسالة رومية.

لماذا أتعلّم الألمانية؟ ثّمة أسباب وجيهة، هذا مؤكّد – فاللغات توسّع الفكر وتزيد نسبة التواصل، لكنْ هذه الأسباب لم تكن في الماضي قطّ الدافع لي لكي أدرس الألمانية. درستُ لأسباب أنانية، لكي أحرز شهادة، وليس أمر آخر سوى التهديد بالعواقب، والمُسلَّط فوق رأسي، حملني على إعادة تنظيم أولويات ذلك الصّيف. أما اليوم، فلا أتذكّر إلا القليل من اللغة الألمانية التي حشوت رأسي بها. «الطريقة القديمة للقوانين المكتوبة» (هذا وصف بولس لناموس العهد القديم) والتي تعطي، في أفضل حالاتها، نتائج قصيرة المدى.

ما الذي ألهمني لتعلّم الألمانية؟ أستطيع أن أفكّر في حافز قويّ واحد. لو كانت زوجتي، وهي المرأة التي وقعت في حبّها، تتكلّم الألمانية لكنتُ تعلّمت الألمانية في وقت قياسيّ. لماذا؟ كانت ستتملّكني رغبة جامحة في أن أتواصل مع زوجةٍ جميلة. ولكنت أظلّ ساهرًا طوال الليل أُصرِّف الأفعال وأَصُفُّها بطريقة صحيحة في خواتيم رسائلي الغراميّة، مثمّنًا المجموعات الجديدة في قاموس مفرداتي من أجل التعبير عن نفسي للشخص الذي أحبّ. كنت سأتعلّم الألمانية من دون عناء، ومُجازاتي في ذلك العلاقة بمن أحبّ.

تلك الحقيقة تساعدني في فهم جواب بولس الفظ: «لا سمح الله!» في ردّه على السؤال: «أَنبْقَى فِي الْخَطِيَّةِ لِكَيْ تَكْثُرَ النِّعْمَةُ؟» (رومية ٦: ١).

أَيُعقَلُ أنّ عريسًا في ليلة عُرسِه، يجري مع عروسه الحديث التالي؟ «حبيبتي، أُحبُّكِ كثيرًا، وأشتاق إلى أن أقضي حياتي كلها معك. ولكنني في حاجة إلى تسوية بعض التفاصيل معك. الآن، وقد أصبحنا مُتزوِّجين، إلى أيّ مدىً أستطيع أن أقيم علاقة مع النساء الأخريات؟ هل أستطيع

مضاجعتهنّ؟ وتقبيلهنّ؟ أنتَ لا تمانعين إن حصلت بعض هذه الأمور بين وقت وآخر، أليس كذلك؟ أنا أعلم أن هذا قد يؤذيكِ أحيانًا، ولكن فكّري فقط في الفُرص الكثيرة التي ستتاح لكِ كي تغفري لي بعد أن أخونكِ!» إنّ الردَّ الوحيد المعقول على «دون جوان» مثل هذا هو صفعة قوية على وجهه، وكلمة «حاشا!» مِنَ الواضح أنه لا يفقه شيئًا في الحب.

كذلك، إنْ كنا سنقترب إلى الله، ولسان حالنا يقول: «علامَ أستطيع أن أحصل؟» فهذا يعني أننا لا ندرك بعدُ ماذا يدور في فكر الله من نحونا. إنّ ما يريده الله لنا هو أبعد بكثير من العلاقة التي قد تنشأ بين العبد والسيّد الذي يفرض طاعتي له بالسّوط. الله ليس صاحب عمل أو مديرًا أو ساحرًا نأمره فيطيع.

من المؤكّد أن الله يريد شيئًا حميمًا أكثر من أيّة علاقة حميمة على الأرض، حتى الارتباط الحميم بالزواج مدى الحياة. فما يريده الله ليس الأداء الجيد، بل يريد قلبي. أقوم «بأعمال جيدة» لزوجتي ليس من أجل تحصيل رصيد مادي، بل لأعبّر عن حبّي لها. كذلك، يريدني الله أن أعبده «بجدّة الروح» (رومية ٧: ٦): ليس بالإكراه بل بالرغبة. يقول كليفورد وليامز: «التلمذة تعني ببساطة: الحياة التي تنبثق من النِّعمة.»

لو جئتُ ألخِّصُ بكلمة واحدة، الدافع الأساسي في العهد الجديد «لصلاحي»، لاخترتُ كلمة «العرفان بالجميل». يبدأ بولس معظم رسائله بخلاصة عن الغنى الذي لنا في المسيح. فإذا فهمنا ماذا فعل المسيح لأجلنا، من المؤكّد، وعرفانًا بالجميل، أننا سوف نجاهد كي نحيا حياةً «تستحق» هذا الحُبّ الكبير. سوف نجاهد من أجل القداسة، ليس لكي نجعل الله يُحبّنا، بل لأنه يُحبّنا أصلاً. وكما قال بولس لتيطس، إنّ

نعمة الله هي التي تعلّمنا «أَنْ نُنْكِرَ الْفُجُورَ وَالشَّهَوَاتِ الْعَالَمِيَّةَ، وَنَعِيشَ بِالتَّعَقُّلِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى» (تيطس ٢: ١٢).

تخبرنا الكاتبة الكاثوليكية نانسي ميرز في سيرتها الذاتية (Ordinary Time)، عن تمرّدها ضدّ صور طفولتها عن «بابا الله»، الذي يسرُّ فقط إذا اتّبعت قائمةً طويلة من الأوامر والممنوعات، ومما قالت:

> في الواقع، إنّ هذه الأمور، حين اتّخذت شكلها الأساسي كوصايا، افترضت أنّ الطبيعة البشرية يجب أنْ تُدفَع إلى الصلاح دفعًا؛ فإذا تُرِكَتْ هذه الطبيعة على هواها، فضَّلَت الأصنام والدَّنس، وقراءة جريدة النيويورك تايمز صباح الأحد بدل الذهاب إلى الكنيسة، وعدم احترام الذين في السلطة، وارتكاب القتل والزنا والسرقة والكذب، وانتهاك كلّ ما يخصّ الشخص الذي يسكن في الشقّة المقابلة... كنتُ دائمًا على وشك اقتراف الخطأ، وبالتالي أطلب الغفران من الشخص الذي دفعني لاقتراف الخطأ، وذلك بحرماني تصرُّفًا، كان يتوقّع أن أمارسه. فقد تقول، والحالة هذه: أيُّ إله هو هذا.

كَسَرَتْ ميرز العديد من هذه القواعد، وكانت باستمرار، تشعر بالذنب، وأخيرًا، وبكلماتها قالت: «تعلّمْتُ أن أتقدّم بثبات في رعاية الله الذي يسأل عن التصرّف الذي قد يجعل التعدّي غير ممكن: المحبّة.»

إنّ أفضل سبب لكي تكون صالحًا، هو أن تريد أن تكون صالحًا. إنّ التغيير الداخلي يتطلّب علاقة. إنه يتطلب المحبّة. وقد سأل أوغسطينوس: «من يقدر أن يكون صالحًا إن لم يكن مصنوعًا هكذا، بالمحبة؟» يوم أطلق أوغسطينوس عبارته الشهيرة: «إنْ كنتَ تحبُّ الله، فافعل ما تشاء» كان جادًّا تمامًا. فالإنسان

الذي يحبّ الله حقًّا، يتوق إلى إرضاء الله، ولهذا نرى يسوع وبولس كليهما، اختصرا الناموس كلّه بالوصيّة البسيطة: «تحبُّ الربّ إلهك.»

فإن كنا حقًّا، قد استوعبنا محبّة الله العجيبة لنا، فإنّ السؤال الملتوي الذي يستلهم رومية ٦ و٧ – ماذا أستطيع عمله دون التعرّض للعواقب؟ – لن يخطر في بالنا. ولسوف نقضي أيامنا نسبر غور نعمة الله، لا أن نستغلّها.

ولكنْ، هل يطلب العنبَ من

كانت الخمرة لديه؟

جورج هِربرت

الفصل الخامس عشر

اجتناب النعمة

كانت لي العديد من المواجهات المباشرة مع الناموسيّة. فقد خرجت من حضارة محافظة تستغرب السباحة المختلطة، ولبس السروال القصير، والتحلّي بالجواهر، ومساحيق التجميل، والرقص، والبولينغ، وقراءة جريدة الأحد. أما الكحول، فكانت خطيّة ذات شأن مختلف، رائحتها الكريهة النتنة تشيع حولها رائحة جهنّم.

في ما بعدُ، التحقتُ بكليّة الكتاب المقدس، وكان الزمن زمن الفستان القصير، فشرّع العمداءُ قانونًا يجعل الفستان يصل حتى أسفل الركبة. إذا ارتدت طالبة ما فستانًا، طوله يثير الشك، كانت عميد النساء تطلب منها أن تركع لترى إن كان فستانها يلامس الأرض. البنطال القصير كان ممنوعًا للنساء، ما خلا أثناء النشاطات الترفيهيّة، حين كان مسموحًا ارتداؤه تحت الفستان للاحتشام. كلّية مسيحيّة منافسة ذهبت إلى أبعد من ذلك، حيث منعت الفساتين المنقّطة، لأن المنقّط حسب زعمهم، قد يلفت الانتباه إلى جزء «معيّن» من الجسد. أمّا الطلاّب الذكور في مدرستنا، فقد كانت لهم

قوانينهم الخاصة بهم، بما في ذلك منع الشعر من تغطية الأذنين ومنع إرخاء اللّحى. أمّا المواعدة فكانت منظّمة بكل حزم: فبالرغم من خطوبتي قبل سنة مِنْ تخرّجي، لم أستطع أن أقابل خطيبتي إلاّ أثناء فترة العشاء، ولم أستطع تقبيلها أو حتى الإمساك بيدها.

كذلك، حاوَلَتْ الكلّيّة الإشراف على علاقة الطالب بالله. فباكرًا كل صباح، كان يُقرع الجرس داعيًا إيّانا إلى النهوض والصلاة الفردية. وإذا قُبض على أحدنا وهو لا يزال يغطّ في النوم كان عليه أنْ يقرأ كتابًا روحيًا ككتاب (The Christian's Secret of a Happy life) ثمّ يكتب ملخّصًا عنه (أتساءل أحيانًا إن كانت إدارة الكلية قد فكّرت مليًّا في التأثير الطويل الأمد لإلزامنا قراءة هذا النوع من الكتب كقصاص).

بعض الطلاب تركوا المدرسة، والبعض الآخر التزم بالقوانين مسرورًا، آخرون تعلّموا التزييف فعاشوا حياةً مزدوجة. أمّا أنا فبقيتُ بسبب البصيرة التي صارت لي مِنْ قراءة عمل إرفينغ غوفمان الكلاسيكيّ: (Asylums). هذا الكاتب الاجتماعي الكبير، فَحَصَ سلسلة ممّا أسماه «مؤسسات جماعيّة»، بما فيها الأديرة، المدارس الداخليّة الخاصّة، ملاذ المجانين، السجون، والأكاديميّات العسكرية. كل مؤسسة منها، لها لائحة طويلة من القوانين الاعتباطيّة التي تُفقد عنصر الفرديّة، والتي يستخدمونها كوسيلة لتحطيم ميزة الفرادة من جهة، وتعزيز المطابقة والشموليّة. من جهة أخرى. كل واحدة من تينك الوسيلتين كانت نظامًا من عدم النعمة جيد الإيقاع.

كتاب غوفمان ساعدني كي أرى كلّية الكتاب المقدس، وهي كلّية محافظة على العموم، كبيئة منظّمة، أو قُلْ مجموعة أقليّة حضارية. كنتُ أكره تلك البيئة، أمّا الآن، فقد بدأت أتحقّق من أنّ كلّ واحدٍ يترعرع في

مجموعة أقليّة حضارية ما. البعض (يهود هاسيديّون، أو مسلمون أصوليّون) أكثر التزامًا حتى من الأصوليّين في جنوب الولايات المتّحدة؛ البعض الآخر (عصابات وسط المدينة، جماعات الميليشيا اليمينية) أخطر بكثير؛ البعض (أقليّة حضارة ألعاب الڤيديو/ MTV) يبدو لطيفًا حسب الظاهر ولكنه يبرهن أنه غادر. إنّ مقاومتي للأصوليّة انخفضت عندما لاحظت البدائل.

بدأتُ أرى كلّية الكتاب المقدس نوعًا من الأكاديميّة الروحيّة الغربيّة: فالمطلوب أسرّة مرتّبة، شعْرٌ قصير، سلوك منضبط أكثر من المدارس الأخرى. فإنْ لم أُحبّ ذلك، بإمكاني الذهاب إلى أي مكان آخر.

أكثر ما كان يزعجني لدى استعادة الماضي والتأمل فيه، هو محاولة كلّية الكتاب المقدس ربط كل قوانينها بناموس الله. ففي كتاب القوانين ذي الصّفحات الست والسّتين، وكنا نتمازح حوله كونه على عدد أسفار الكتاب المقدس، صفحةٌ منه لكل سفر، وفي اجتماعات العبادة، كان العمداء والأساتذة يحاولون بكل جهد، تعليل كل قانون على أساس المبادئ الكتابية. كنتُ أستشيط غيظًا بسبب محاولاتهم الملتوية استذناب ذوي الشعر الطويل من الرجال، ليقيني أنّ يسوع ومعظم شخصيات الكتاب المقدس التي درسنا عنها، كانت شعور رؤوسهم ربما أطول من شعور رؤوسنا نحن، وكذلك لحاهم الطويلة.

إنّ القانون الخاص بطول الشعر، ربّما كان القصد منه مجابهة الداعمين للشعر الطويل، أكثر من أيّ شيءٍ آخر له علاقة بالنص الكتابي، لكنْ لا أحد يتجاسر على قبول هذه الحقيقة.

لم أجد في الكتاب المقدس كلمة واحدة عن موسيقى «الروك»، أو عن طول الفستان، أو عن تدخين التبغ، أمّا منع شرب الكحول فيضعنا في

جانب يوحنا المعمدان وليس في جانب يسوع. إلاّ أنّ السلطات المسؤولة في تلك المدرسة قد قامت بكل جهد ممكن لإظهار هذه القوانين كجزءٍ من الإنجيل. إنّ المجموعة الحضارية الصغيرة، في رسالتها تلك، قد خلطت الأمور بعضها ببعض.

لا بُدَّ لي أنْ أوضح أنني من وجوه عدّة، أدين بالامتنان لقساوة الأصوليّة، التي قد تكون حفظتني بعيدًا عن المتاعب. إنّ التقيّد الحرفي الصارم بالقوانين يجرّنا إلى حدود الانحراف عن المعتاد: قد نقصد زقاقًا للعب «البولينغ»، لكننا لن نفكر مطلقًا بلمس الكحول هناك - البعبع - أو المخدّرات. وعلى الرغم من أنني لا أجد في الكتاب المقدس شيئًا ضدّ السجائر، إلاّ أنني مسرور لكون الأصوليّة قد نفّرتني منها حتى قبل أن يعتلي وزير الصحة في الولايات المتحدة منبره ليحذّر من مضارها.

باختصار، يتملّكني بعض الاستياء من هذه القوانين الخاصة، أمّا استيائي الشديد، فهو بسبب الأسلوب الذي كانت تُعرَض به تلك القوانين. كان لديّ الشعور الضاغط الثابت، أنه باتّباعي نظامًا مسلكيًا علنيًا، أكون في الطريق الصحيح لإرضاء الله - بل لأجعل الله يحبّني. وقد احتَجْتُ لسنوات كي أستقي الإنجيل من تلك المجموعة الحضارية الصغيرة، والذي وجدتُه فيها لأول مرّة. ومما يدعو للحزن، أنّ العديد من أصدقائي توقفوا عن جهودهم. ولم يَصِلوا قطّ إلى يسوع لأنّ توافه الكنيسة قطعت عليهم الطريق.

إنني أتردّد في الكتابة عن مخاطر التقيّد الحرفيّ بالقوانين، في وقتٍ يبدو المجتمع والكنيسة سائرين في الاتجاه المعاكس. لا أعرف في الوقت نفسه شيئًا أكثر منه تهديدًا للنعمة. فالتقيّد الحرفي بالقوانين قد «يَصْلُحُ»

في مؤسسة مثل كلّيّة الكتاب المقدّس أو فَيْلَق «مشاة البحرية». في عالم يفتقر الى النعمة، يكون للخجل المبرمج قوة هامة. لكنْ ثَمّةَ مِنْ ثَمنٍ، ثمن لا يُقَدّر: عدم وجود النعمة لا ينجح في نطاق العلاقة بالله. توصّلتُ إلى أنْ أرى التقيّد الحرفيّ بالناموس في ممارسة الطهارة الكاذبة، كخطة مدروسة لاجتناب النعمة. تستطيع أن تحفظ الناموس عن ظهر قلب دون أن تدرك ما في قلبه.

لي صديق حاول أنْ يساعد رجلاً في متوسّط العمر كي يتغلّب على حساسيته المفرطة تجاه الكنيسة، ويَرجع سبب حالته تلك إلى تربية قاسية بإفراط في المدارس الكاثوليكية. وقد سأله صديقي قائلاً: «هل أنت حقًّا ستترك بعض الراهبات العجائز، المتسربلات بالأسود والأبيض يحُلْن دون دخولك إلى ملكوت الله؟» بكلِّ أسى أقول إنّ الجواب لدى الكثيرين هو، نعم!

بينما أدرسُ حياةَ يسوع، تُدهشني باستمرار هذه الحقيقة: إنّ أكثر فئة أَغضبت يسوع كانت تلك التي شابهها ظاهريًّا دون غيرها. ويتّفق الدّارسون على أنّ يسوع ماثَلَ كثيرًا شكْل الفريسي. فقد أطاع التوراة أو ما يُعرف بالناموس الموسوي، واقتبس عن فريسيّين قياديّين، وغالبًا ما أخذ جانبهم في المناقشات العامة. إلاّ أنّ يسوع خصّ الفريسيّين من بين الجميع بأعنف هجوم، فقد دعاهم: «حيّات أبناء الأفاعي، وحمقى، ومرائين، وقادة عميان، وقبورًا مبيّضة!»

ما الذي أهاج هذا السّخط؟ كان ثمّة الكثير من القواسم المشتركة بين الفريسيّين أولئك الذين قد تسمّيهم الصحافة اليوم الأصوليين الملتزمين حرفيّة الكتاب المقدس. فقد كرّسوا حياتهم لاتّباع الله، ودفعوا العشور

بدقّة، وأطاعوا أصغر قانون في التوراة، وأرسلوا البعثات ليربحوا دخلاءَ جددًا. وقد صمدوا في وجه البرغماتيّة والعلمانيّة في القرن الأوّل، وحافظوا على القيم والتقاليد. نادرًا ما تورّطوا في خطايا الجنس أو في جرائم العنف، وكانوا مواطنين نموذجيين.

إنّ اتّهام يسوع العنيف للفريسيّين يُظهر كم كان جادًّا في نظرته إلى تهديد التقيّد الحرفي السّام بالناموس. إنّ أخطاره مربكة وزلِقة وصعب تعريفها، وقد نَقَبْتُ العهد الجديد بحثًا عنها، ولا سيّما لوقا ١١ ومتّى ٢٣ حيث يُشَرِّح يسوع الفريسيّين أخلاقيًّا. أذكرهم هنا لأنني أعتقد أنّ هذه المخاطر تمثّل تهديدًا كبيرًا في هذا القرن، كما في القرن الأول. إنّ التقيّد الحرفي بالناموس يأخذ أشكالاً مختلفة اليوم، أكثر مما فعل في زمن طفولتي، ولكنني لم أتخلّص منه نهائيًّا.

على العموم، فقد دان يسوع تشديد الناموسيّين على «المظهر الخارجي»، «أَنْتُمُ الآنَ أَيُّهَا الْفَرِّيسِيُّونَ تُنَقُّونَ خَارِجَ الْكَأْسِ وَالْقَصْعَةِ، وَأَمَّا بَاطِنُكُمْ فَمَمْلُوءٌ اخْتِطَافًا وَخُبْثًا» (لوقا ١١: ٣٩). إنّ تعابير المحبّة لله قد تطوّرت مع الزمن لتصير وسيلة لنيل إعجاب الآخرين. ففي أيام يسوع، كان المتديّنون يلبسون على وجوههم مظاهر الضنى والجوع خلال فترة صوم قصيرة، وكانوا يُصَلّون علنًا صلوات متكلّفة، وقد حزموا أجسادهم بمقاطع من التوراة. وقد شجب يسوع في الموعظة على الجبل، الدوافع الكامنة خلف هذه الممارسات التي تبدو حسب الظاهر غير مؤذية:

فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلاَ تُصَوِّتْ قُدَّامَكَ بِالْبُوقِ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُرَاؤُونَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي الأَزِقَّةِ، لِكَيْ يُمَجَّدُوا مِنَ النَّاسِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ! وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً

فَلاَ تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ، لِكَيْ تَكُونَ صَدَقَتُكَ فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ هُوَ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً. وَمَتَى صَلَّيْتَ فَلاَ تَكُنْ كَالْمُرَائِينَ، فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَلُّوا قَائِمِينَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ، لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَد اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ! وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَلَّيْتَ فَادْخُلْ إِلَى مِخْدَعِكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ، وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً.

قد رأيتُ ما يحصلُ عندما يتجاهل المؤمنون وصايا يسوع. فعلى سبيل المثال قادت كنيسة طفولتي حملةً لجمع الأموال للعمل الإرسالي.[١] ومن فوق المنبر كان القس يسمّي اسم المتبرّع والمبلغ الذي قدّمه: «السيد جونز، خمسمئة دولار... انظروا إلى هذا، عائلة ساندرسُن ألفان من الدولارات! مجدًا للرب!» صفّقنا جميعًا وقلنا :«آمين!» وابتسمت عائلة ساندرسُن بتكلّف. كطفلٍ، كنت أتوق إلى ذلك النوع من الاعتراف العلني، ليس لتوسيع العمل الإرسالي، بل للاستحسان والإطراء. مرةً، نقلتُ كيسًا كبيرًا من الفلوس إلى الأمام، ولم أشعر مرةً بالتقوى أكثر من تلك اللحظة، حين أوقف القس «المحصول» وأطراني، ثُمّ صلّى فوق فلوسي. استوفيتُ أجري.

اليوم، لا تزال التجربة موجودة. عندما قدّمتُ تقدمةً ماديّةً هامّةً لجمعية لا تبغي الربح، جعلني المسؤولون عضوًا في أحد أهمِّ النوادي، وكتبوا

١ أجلْ، إنها ذات الكنيسة التي رفضت الأعضاء السّود. كنا نقوم بجمع ما يزيد عن مئة ألف دولار – مبلغ كبير في الخمسينيّات والستينيّات – لكي نبعث بمرسلين إلى شعوب من لون آخر، لكننا لا نسمح لواحد منهم أن يكون داخل أبوابنا.

اسمي بأحرف عريضة في رسالتهم الإخباريّة الدوريّة. وبعدما تسلّمتُ رسالة خاصة من الرئيس، أكّدوا لي أنّ رسالة كهذه لا تُرسَل إلاّ للنخبة من المانحين فقط. أعترف بأنني استمتعت برسائل المجاملة تلك، وبالهدايا التي عبّرت عن الشكر والإمتنان. أشعرني ذلك بأنني كريم وتقي. إلى أن عدتُ وقرأت الموعظة على الجبل.

لِيو تولستوي، الذي حارب التقيّد الحرفيّ بالناموس، فَهِم أنّ ضعف ديانة ما إنّما هو بسبب ارتكازها على المظاهر. إنّ عنوان أحد كُتُبه يوضح ذلك جيدًا: (The Kingdom of God Is Within You) فبحسب تولستوي، فإنّ جميع الأنظمة الدينية تميل إلى ترويج القوانين المتعلّقة بالمظاهر أو ما يُسمّى بالفضائل الأخلاقيّة. بالمقابل، فقد رفض يسوع أن يحدّد مجموعة من القوانين التي كان على أتباعه تنفيذها ليكسبوا شعورًا بالرضى. لن يصل أحد إلى أروع من هذه الوصيّة الشاملة المؤثّرة التي تقول: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ...» (متى ٢٢: ٣٧)، «فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ» (متى ٥: ٤٨).

رَسَمَ تولستوي مفارقةً بين طريقة يسوع وبين سائر الديانات الأخرى:

إنّ اختبار مدى الالتزام الديني الذي يخصّ المظهر، يقرره مدى تطابق أو عدم تطابق سلوكنا مع أحكامه (حفظ السبت، الختان، تقديم العشور). إنّ تطابقًا مثل هذا هو أمر ممكن بالطبع.

أمّا اختبار الالتزام بتعليم المسيح، فيُبيِّن مقدار وعينا لفشلنا في إدراك الكمال. ودرجة اقترابنا إلى هذا الكمال لا تُرى؛ كل ما نستطيع رؤيته هو مدى انحرافنا.

إنّ الإنسان الذي يعترف بناموس المظاهر الخارجيّة يُشبه رجلاً واقفًا في ضوءِ مصباح معلّقٍ على عامود. فكلّ ما حوله منير، ولكنْ ليس بمقدوره أن يبتعد أكثر لئلاّ يغرق في الظلمة. أما الرجل الذي يؤمن بتعليم المسيح فيشبه رجلاً يحمل مصباحًا في يده: فالنور أمامه دائمًا، يُنير كل ما يصل إليه، ويشجّعه على السير قدمًا.

بكلام آخر نقول، إنّ الدليل على النضج الروحي ليس هو السؤال إلى أي حد أنت «طاهر» بل ما هو مدى وعيك لعدم طهارتك. هذا الوعي بالذات، يفتح الباب أمام النعمة.

«**وَيْلٌ** لَكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا النَّامُوسِيُّونَ! لأَنَّكُمْ تُحَمِّلُونَ النَّاسَ أَحْمَالاً عَسِرَةَ الْحَمْلِ» (لوقا ١١: ٤٦). مع مرور الزمن تتقسّى روح حفظ الناموس، وتتحوّل إلى التطرّف بحسب معرفتي، ليس ثمّة تقيّد حرفيّ بالقانون لم يسْعَ إلى توسيع نفوذ تعصُّبه.

فالكتبة والفريسيّون مثلاً، الذين يحفظون ناموس موسى، أَلْحَقوا زيادات كثيرة بأحكامه البالغة ٦١٣ قانونًا. فالحاخام إلعازر العظيم، حدّد عدد المرّاتِ التي يحق فيها للعامل العادي أو سائق الحمار أو سائق الجَمَل أو البحّار أن يمارس الجنس مع زوجته. والفريسيّون دون سواهم، حقّ لهم أن يضيفوا عددًا كبيرًا من التحسينات على السلوك يوم السبت. يقدر الرجل أن يعتلي ظهر حماره دون أن يكسر السبت، لكنه إذا حَمَلَ قضيبًا ليَحثَّ مطيّته على الإسراع يصير مذنبًا لكونه وضع حملاً عليه. لا تقدر المرأة أن تنظر في المرآة يوم السبت لئلاّ ترى شعرة بيضاء وتتعرّض لتجربة اقتلاعها. تستطيع أن تبتلع الخَلَّ، لكن لا تتغرغرْ به.

كان باستطاعة الفريسيّين أن يُحسِّنوا ما قاله موسى. أصبحت الوصيّة الثالثة: «لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلاً» (خروج ٢٠: ٧)، لا تنطق باسم الرب البتّة. وهكذا، إلى يومنا هذا، يكتب اليهود المتديّنون «أ–هـ» بدل «الله» ولا ينطقون بالاسم الأعظم البتّة. ولكي يكون المفسّرون في الموقع الآمِن، فقد فسّروا الآية القائلة «لاَ تَطْبُخْ جَدْيًا بِلَبَنِ أُمِّهِ» (خروج ٢٣: ١٩) بمعنى المزج بين اللّحم والألبان، ولهذا السبب فإنّ الشقق السكنيّة والمستشفيات ودور العجزة المتوافقة مع الشريعة اليهودية، لا تزال مجهّزة بمطبخين: واحد للّحم وآخر للألبان ومشتقاتها. كذلك، فإنَّ الوصية السادسة «لا تَزْنِ» (خروج ٢٠: ١٤) قد حملت الفريسيّين على سنّ قوانين تمنع الرجال من التكلّم مع النساء أو حتى النظر إليهن، ما دُمْنَ لسنَ زوجاتهم. «الفريسيّون النازفون»، الذين كانوا يسيرون وهم منكسي الرؤوس ويصطدمون بالحيطان، حملوا كَدْماتهم باعتبارها إشارات القداسة.

(إنّ تجاهل يسوع لهذه النوافِل المضافة إلى ناموس موسى، سبَّبت له متاعب مستمرّة. فقد شفى أناسًا يوم السبت، وترك تلاميذه يقطفون السنابل حين جاعوا. وتحدّث مع نساءٍ في وضح النهار. وأكل مع «النّجسين» وأعلن أنْ لا شيء ممّا يأكله الناسُ ينجّس الإنسان. وأفظعُ من هذا كلِّه أنه خاطب الله بالقول «أبًا»).

يُظهِر تاريخُ الكنيسة أنّ المسيحيّين تخطّوا أحيانًا الفريسيّين في تطرّفهم. فبحلول القرن الرابع، كان الرُّهبان يعيشون على وجبة طعام قوامها الخبزُ والملحُ والماء. وأحدهم اخترع زنزانةً صغيرة لدرجة أنه كان عليه أن يطوي جسده ليتمكّن من ولوجها. آخر أمضى عشر سنوات في قفص دائري. كما عاش الرهبان النباتيون في الغابات، وقد بحثوا بكلّ جدٍّ وكدٍّ عن النباتات البريّة والجذور؛ آخرون غطّوا عوراتهم بمآزر من الشوك. سمعان العمودي

يُعتَبر نموذجًا للتطرّف: عاش على رأس عمود مدة سبع وثلاثين سنةً، وكان يسجد على وجهه في اليوم ١٢٤٤ مرة.

المسيحيّون في الولايات المتحدة التي تُعتبر قلعة الحرّية والبراغماتيّة، كان لهم، هم أيضًا اندفاعهم نحو التطرّف. فثمّة طوائف منعت الزواج والجنس، الأمر الذي ضَمِنَ انقراضها. وكذلك فإنّ رجل النهضات الشهير تشارلز فيني امتنع عن القهوة والشاي، وأصرَّ على وجوب أن تمنع المدرسة التي أسّسها، كلّية أوبِرلين، عن منبّهات مثل البهار والخردل والزيت والخلّ. ومنذ فترة قصيرة، وعظ صديق لي عظة تأبينيّة في مأتم شابٍ سبتيٍّ مات جوعًا بسبب قلقه على نوع الطعام المسموح أكله.

قد نضحك، أو ربّما نبكي على عوارض التطرّف، بَيْدَ أنه على المؤمنين أن يعترفوا بأنّ هذه الميول هي جزء قاسٍ من إرثنا. على نطاق عالمي تغيّر المشهد، فبالنسبة إلى «الغرب المسيحيّ»، أصبحت السِّمة اليوم هي الفلتان الأخلاقي لا التطرّف الناموسيّ. في الوقت ذاته، ثمّة بعض الدول الإسلاميّة تنشر شرطة الأخلاق لتضرب بالهراوات، النساء اللواتي يتجرّأن على قيادة السيارة أو يسرن في الأماكن العامة حاسرات. كذلك الفنادق في إسرائيل تركّب مصاعد خاصة تتوقف تلقائيًّا يوم السبت أمام كل طابق حتى لا يضطر اليهود المتزمّتون أن يعملوا جرّاء كبسهم الزرّ.

والسّبحة تكرّ، فلدى بعض الجماعات المسيحيّة ترى التطرّف في تصاعد مستمرّ. فحيث يتجذّر التقيّد الحرفي بالناموس، تبرز أشواك التطرّف الواخزة.

الناموسيّة خطر خفيّ، لأنْ لا أحد يعتقد في نفسه أنه ناموسيٌّ. قوانيني تبدو ضروريّة فيما قوانين الناس الآخرين تظهر صارمة فوق الحدّ.

«وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ! لأَنَّكُمْ تُعَشِّرُونَ النَّعْنَعَ وَالشِّبِثَّ وَالْكَمُّونَ، وَتَرَكْتُمْ أَثْقَلَ النَّامُوسِ: الْحَقَّ وَالرَّحْمَةَ وَالإِيمَانَ. كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَعْمَلُوا هذه وَلاَ تَتْرُكُوا تِلْكَ. أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمْيَانُ! الَّذِينَ يُصَفُّونَ عَنِ الْبَعُوضَةِ وَيَبْلَعُونَ الْجَمَلَ» (متى ٢٣: ٢٣ و٢٤).

لم يستذنبْ يسوع الفريسيّين بسبب تطرّفهم في حدّ ذاته. أنا أشكّ في أنه كان حقًّا يهتمّ لما هم عليه، أو كم مرة كانوا يغسلون أيديهم. لكنّ اهتمامه في الواقع كان بسبب فرضهم التطرّف على الآخرين، وأنهم ركّزوا على التوافه متجاهلين الأمور الأخرى المهمّة. فالمعلّمون الذين يعشّرون توابل مطبخهم هم إياهم الذين ليس لديهم شيء يقولونه أمام الظلم والجور في فلسطين. وعندما شفى يسوع إنسانًا يوم السبت، بدا اهتمام ناقديه بالپروتوكول أكثر بكثير من اهتمامهم بالإنسان المريض.

أما حضيض الناموسيّة فبدا جليًّا في صَلْبِ يسوع: فقد اجتهد الفريسيّون أن يتجنّبوا دخول قصر بيلاطس قبل عيد الفصح، كما رتّبوا الصّلب في وقت لا يتقاطع مع قوانين السبت. وهكذا، فإنّ أعظم جريمة في التاريخ نُفِّذت باهتمام كبير بالتفاصيل الناموسيّة.

رأيتُ الكثير من الصّور الإيضاحية الحديثة حول مَيْل التقيّد الحرفي بالناموس نحو التفاهة. فالكنيسة التي نَشَأْتُ فيها كان لديها الكثير لتقوله عن تسريحة الشعر والحِليّ وموسيقى الرّوك، ولكنها لم تقل كلمة واحدة ضد التمييز العنصري والظلم وأوضاع السّود في الجنوب. كذلك في كليّة الكتاب المقدس، لم أسمع كلمة عن المُحْرَقة في ألمانيا، والتي هي ربّما من أبشع الخطايا في التاريخ كلِّه. كنا منشغلين كثيرًا في قياس طول الفساتين، ولم يَتَسَنَّ لنا الوقت للاهتمام بمواضيع سياسية معاصرة مثل الحرب النوويّة

والتمييز العنصري والمجاعة العالمية. التقيت طلابًا من جنوب أفريقيا، جاؤوا من كنائس، حيث المؤمنون الشباب لا يمضغون العلكة أو يُصَلّون وأيديهم في جيوبهم، وحيث سروال الجينز الأزرق يجعل صاحبه موضع شكٍّ روحيًّا. لكنّ هذه الكنائس نفسها دافعت بشدّة عن قوانين التمييز العنصري ضدّ السّود.

بعدما عايَنَ ما وجده تحت قيادة هتلر، أرسل مفوّض أميركي تقريرًا إلى اجتماع الاتحاد المعمداني العالمي في برلين سنة ١٩٣٤، قال فيه:

> إنّه لأمرٌ مريحٌ جدًّا أن تكون في بلدٍ حيث لا يباع أدب الإباحيّة الجنسيّة؛ وحيث صناعة السينما الفاسدة وأفلام العصابات ممنوع عرضها. فألمانيا الجديدة قد أحرقت كميّاتٍ كثيرة من الكتب والمجلات الفاسدة في محرقات ضمّت أيضًا المكتبات اليهودية والشيوعية.

المندوب نفسه، صاحب التقرير أعلاه، دافع عن هتلر كزعيم لم يُدخِّن التبغ ولم يشرب الكحول، والذي أراد النساء أن يلبسْن الثياب المحتشمة، وعارضَ الإباحيّة.

إنه من السَّهل أن نشير بأصبع الاتهام إلى مسيحيّي ألمانيا في الثلاثينيّات، وإلى الأصوليّين في جنوب الولايات المتحدة في السّتينيّات، أو إلى كلفينيّي جنوب أفريقيا في السبعينيّات. لكن، ما أحْذرُ منه هو أن يُدَانَ مسيحيّو أيامنا هذه بالصرامة نفسها في يوم من الأيام. أيّة سخافات قد تستحوذ على اهتمامنا، وأيّة أمور مهمة من الناموس، مثل العدالة والرحمة والأمانة...، قد نُغْفل؟ هل يهتمّ الله لخزامة الأنف أكثر، أم للفساد المُدُني؟ للموسيقى الصاخبة أم للمجاعة العالميّة؟ لأنماط العبادة أم لحضارة العُنف؟

المؤلِّف طوني كامبولو، الذي ينظّم حلقة دراسيّة دوريّة من التعليم المسيحيّ في الكليّات المسيحيّة، كان لوقت ما يستعمل التحريض التالي حول نقطة محدّدة: «إنّ الأمم المتحدة تقدِّم تقريرًا أنّ أكثر من عشرة آلاف شخص في اليوم يموتون جوعًا، ومعظمكم لا يأبه لذلك! على كلِّ حال، ما هو مأسَاويٌّ أكثر، هو أنّ معظمكم يهتمُّ لكلمةٍ سيّئة قد أقولها، أكثر من اهتمامكم بمسألة عشرة آلاف إنسان سوف يموتون اليوم.» وقد جاءت الرّدود لتبرهن صحّة وجهة نظره تلك: ففي كلّ مرّة تقريبًا، كان طوني يتلَقّى من قسّيس الكلّية أو رئيسها رسالةً يحتجُّ فيها على لغته الفاسدة. أما المجاعة العالمية، فلم يأتِ أحد على ذكرها.

إنّ الكثير من السّلوك الذي كان في أيام نشأتي يُعتبر خاطئًا، أصبح اليوم سلوكاً عاديًّا في كثير من الكنائس الإنجيليّة. فعلى الرغم من أنّ المظاهر تغيّرت، إلاّ أن روح التقيّد الحرفي بالناموس لم تتغيّر. والإمكانيّة الأكبر الآن بالنسبة إليّ هي مواجهة حَرْفيّة الفكر. فبعض المؤلّفين من أصحابي الذين يتجرّأون على مُساءلة العقيدة المقبولة عن الإجهاض أو الشذوذ الجنسي مثلاً، يواجهون اليوم، الحكم نفسه الذي واجهه المسيحي الذي يشرب باعتدال من قِبَلِ الجماعات الأصوليّة.

ذكرتُ قبْلاً الأذى الذي ناله طوني كامپولو بسبب ادّعائه أننا نُظهر مزيدًا من التعاطف مع الشاذِّين جنسيًّا. صديقة أخرى هي كارِن ماينز، فقدت وظيفتها كمذيعة بعد جملة انتقادات لكتاباتها. يودجين پيترسِن في كتابه (Tampering with God's Word)، حيث يعيد كتابة العهد الجديد بأسلوب تفسيري، وتحت عنوان (The Message)، يجعل من نفسه هدفًا لأحد حرّاس الدِّين. ورتشارد فوستر تجرّأ على استعمال كلمات مثل «تأمُّل» (medilation) في كتاباته حول الانضباط الروحي، مما جعله موضع ريبة

بأنه ينتمي إلى المذهب التحرّري (New Age). أَخْبَرَني تشاك كولسون أنّ أقبح بريد وصله على الإطلاق جاء من مسيحيّين ردًّا على قبوله جائزة تمپلتون للتطوّر الديني، والتي تذهب أحيانًا إلى غير المسيحيّين. وقد قال في اتّهام خطير: «إنّ إخوتنا وأخواتنا كانوا أقلّ كرمًا من الإعلام العلماني في أيام ووترغيت.» وقد تصاعدت حدّة الردود أكثر عندما وقّع بيان تعاونٍ متبادل مع الكاثوليك.

«**تَحَرَّزُوا** لأنْفُسِكُمْ مِنْ خَمِيرِ الْفَرِّيسِيِّينَ الَّذِي هُوَ الرِّيَاءُ...» (لوقا ١٢: ١). «وَلكِنْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ لاَ تَعْمَلُوا، لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ وَلاَ يَفْعَلُونَ» (متى ٢٣: ٣).

إنّ الكلمة «رياء» تعني ببساطة، «وضع قناع». ويظهر أنّ يسوع نفسه استعار الكلمة من الممثّلين الإغريق، أو المهرّجين الذين يُسَلّون الجماهير على مسرح مكشوف بالقرب من بيته. إنها تصف شخصًا يضع وجهًا كي يترك انطباعًا جيّدًا.

درس صديقي تيري ماك الناموسيّة بين الرهبان البوذيّين في سري لانكا كدراسة مدعومة من منحة فولبرايت. وقد اتفق جميع الرهبان على اتّباع قواعد بوذا البالغ عددها ٢١٢، والتي أصبح العديد منها اليوم عتيقًا وغير ممكن التطبيق. وقد تعجّب تيري كيف يستطيع الرهبان أن يتدبّروا حاجتهم للعيش في العالم المتمدّن، وهم يلتصقون بنظام ناموسيّ قديم وصارم. مثل على ذلك: حدّد بوذا أنّ الراهب لا يحمل نقودًا، على أنّ تيري لاحظ رهبانًا بانتظام يدفعون أجرة الحافلات المدنيّة. وقد سألهم: «هل تتبعون القواعد الـ٢١٢؟» «أجل!» «وهل تحملون مالاً؟» «أجل!» «وهل تعرفون القانون الذي يحرّم حمل المال؟» «نعم!» «هل تتبعون كلّ القواعد؟» «أجل!»

كذلك، فقد منعت القوانين الأكل بعد الظهر، لأنّ الرهبان كانوا يعيشون من أموال المحسنين، ولم يشأ بوذا لأتباعه أن يُتعبوا ربّات المنازل. بعض الرهبان العصريين أجروا التفافًا على ذلك القانون، فكانوا يوقفون الساعة عند الظُّهر من كل يوم؛ ثمّ بعد طعام العشاء كانوا يعيدون الساعة إلى الوقت الصحيح.

قَدَّمتُ أمثلةً من البوذيّة، لكنْ في خبرتي إنّ الرياء هو أحد أهمّ الأسباب المشتركة التي تجعل الناس يرفضون المسيحيّة. المسيحيّون يمجّدون «القيم العائليّة» لكنّ بعض الدراسات تُظهر أنهم يستأجرون أشرطة الڤيديو الفاسقة ويطلّقون زوجاتهم ويؤذون أولادهم بالطريقة نفسها التي يتبعها أي إنسان آخر.

إنّ طبيعة التطبيق الحرفي للشريعة تشجّع الرياء لأنها تقدّم تشكيلةً من السلوك الذي يُغطّي ما يحصل في الداخل. ففي كلّية اللاهوت أو في مخيّم مسيحيّ أو حتى في الكنيسة يتعلّم كل واحد كيف يظهرُ بمظهر «روحيّ». فالتشديد على الخارج يُسَهِّل على الإنسان التّلفيق، والتكيّف حتى حين يكبت أو يخبّئ المشاكل الداخليّة. بعد تركي كليّة الكتاب المقدس بسنوات، علمت أنّ بعضًا من زملائي الطلاب عانى اضطرابًا داخليًّا عميقًا – اكتئاب، شذوذ جنسي، إدمان. الأمر الذي لم يكن موجودًا يوم كانوا هناك. فقد رَكّزوا بالمقابل، على الانقياد للسلوك الذي حولهم.

واحدة من أهمّ الفقرات رصانةً في العهد الجديد، والتي مثيلاتها قلّة في إظهار العقاب المباشر، تطالعنا في أعمال ٥: إنها قصّة حنانيا وسفّيرة. فهذا الثنائيّ كان قد قام بعمل جيّد، إذْ باع قطعة أرض وقدّم الكثير من ثمنها إلى الكنيسة. لكنهما فعلا خطأً واحدًا: ففي محاولةً للظهور بمظهر روحيٍّ

أفضل تظاهرا وكأنهما وهبا المبلغ بأكمله. بكلمات أخرى، أعطيا فكرةً خاطئة روحيًّا عن نفسيهما. أمّا الردّ القاسي على حنانيا وسفيرة فيبيّن مدى جديّة الله في نظرته إلى الرياء.

أعرف فقط بديلين عن الرياء هما: الكمال أو الإخلاص. وبما أنني لم أجد أحدًا يحبّ الرب إلهنا من كلِّ القلب ومن كل الفكر ومن كل النفس، ويحبُّ قريبه كنفسه، لذا لا أرى الكمال كبديل واقعيٍّ. خيارنا الوحيد إذًا، هو الإخلاص الذي يقود إلى التوبة. وكما يُبيّن الكتاب المقدس، فإنّ نعمة الله تستطيع أن تُغطي أيّة خطيّة، بما فيها القتل، والخيانة الزوجية والغدر. والنعمة تحديدًا ينبغي أن تُقبل لكنّ الرّياء يخفي حاجتنا لقبولها. وعندما تسقط الأقنعة يَسقط النقاب عن الرياء، فيبدو كحيلة مدروسة لتجنّب النعمة.

«وَكُلَّ أَعْمَالِهِمْ يَعْمَلُونَهَا لِكَيْ تَنْظُرَهُمُ النَّاسُ: فَيُعَرِّضُونَ عَصَائِبَهُمْ وَيُعَظِّمُونَ أَهْدَابَ ثِيَابِهِمْ، وَيُحِبُّونَ الْمُتَّكَأَ الأَوَّلَ فِي الْوَلاَئِمِ، وَالْمَجَالِسَ الأُولَى فِي الْمَجَامِعِ، وَالتَّحِيَّاتِ فِي الأَسْوَاقِ، وَأَنْ يَدْعُوَهُمُ النَّاسُ: سَيِّدِي سَيِّدِي! » (متى ٢٣ : ٥-٧).

إنّ انتقاد يسوع دار حول ما يفعله التمسّك الحرفي بالناموس، بالذين يحفظون الناموس؛ إنه يُربّي مشاعر الكبرياء والمنافسة. فبدل أنْ يُساهم الفريسيّون في خلقِ مجتمع بارٍ يسطع كَنُور للأمم، ضيّقوا بصيرتهم وشَرَعوا يتنافسون في ما بينهم. وإِذْ عَلِقوا في محاولة التأثير بعضهم في بعض، ببهلوانية روحيّة، فقدوا بالتالي، الاتصال بالعدو الحقيقي، كما بباقي العالم. وقد صلّت تيريزا آڤيلا قائلة: «احفظنا يا رب من التقوى الحمقاء، ومن القدّيسين ذوي الوجوه الممتعضة.»

وكَمُتعافٍ من الناموسيّة، عليّ أن أذكّر نفسي بأنه على الرغم من تشدّد الفريسيّين، فإنهم لم يستاؤوا من متطلّبات الناموس. على العكس، فإنهم استمرّوا باختراع قوانين جديدة. وقد رأوا أنّ التشدّد وسيلة لتحقيق المكانة. أدان يسوع تلك الكبرياء، كما أدان تلك الروحانية المعقّدة التي تصنّف بعض الخطايا باعتبارها مقبولةً (الكراهية والمادة والشهوة والطلاق...)، والبعض الآخر غير مقبول (القتل والزنا وكسر السبت).

نحن المسيحيّين، لنا مجموعتنا الخاصة من الخطايا «المقبولة» و«غير المقبولة». فما دمنا نتحاشى الخطايا الشائنة، فإننا نشعر بأن وضعنا الروحي جيّد. والمشكلة هي أنّ فهمنا للخطايا الشائنة هو في تبدُّل مستمر. ففي العصور الوسطى مثلاً، كان تحصيل الفائدة على المال يُعتبر أمرًا شائنًا لدرجة أنّ اليهود كانوا مُلزَمين القيام بهذا العمل القذر. بينما في يومنا الحاضر نجد أنّ المسيحيّين يتمتّعون باستعمال بطاقات الائتمان، ورهن المنازل للحصول على القروض والاستثمارات المالية المتبادلة من دون أيّ شعور بالذّنب. أمّا قائمة الخطايا السّبع المميتة، والتي تشمل الشّرَه والحسد والخمول الروحي أو «الكآبة»، فهي أمور قلّما تتضمّنها عظة في أيامنا هذه.

إبّان الحقب الڤكتوريّة، كانت خطايا الجنس في رأس القائمة، أو ربّما في أسفلها، إذْ يتوقّف ذلك على نظرتك إليها. لدرجة أنّ الكلمة «فسق» صارت تشير فقط إلى الخطايا الجنسيّة. عندما كبرتُ، كان الطلاق وشرب الكحول يتصدّران اللائحة. اليوم، وفي الكنائس الإنجيليّة، أصبح الإجهاض والشذوذ الجنسي يتقدّمان ربّما على الجميع.

أمّا يسوع فكان له أسلوب مختلف تمامًا في شأن الخطيّة. فعوضًا عن ترتيب الخطايا باعتبارها مهمّة وأقلّ أهميّة، رفع أبصار سامعيه إلى إلهٍ كامل،

نحن جميعًا خطاة أمامه. نحن جميعًا نحتاج إلى نعمة الله. وقد وضع إشعياء ذلك بلغة بسيطة؛ قال: «وَكَثَوْبِ عِدَّةٍ كُلُّ أَعْمَالِ بِرِّنَا» (إشعيا ٦٤: ٦).

عندما يتعلّق الأمر بالنعمة، تجد الخطاة المتمادين يحاولون الاستفادة من النعمة مُتهكّمين. فالكاتب غراهام غرين اعتاد القول إنّ إيمانه الديني كان يزداد عندما ينحدر إلى الفجور، إذْ عندها يذهب إلى الكنيسة ويعترف بحزن. لا يبقى لديه عذر ولا أساس يدافع به عن سلوكه.

إنّ قصّة يسوع عن الابن الضال تشرح النقطة عينها. فالابن الضال لم يعد له ساق يقف عليها، ولا أساس يُمكن الافتخار به روحيًا. وقد رسب أمام جميع المعايير الروحية، والآن لم يعد لديه شيء يستند إليه سوى النعمة. على أنّ محبة الله وغفرانه امتدّا بالمقدار نفسه إلى الابن الأكبر «الفاضل» بالتأكيد، ولكنّ ذلك الابن، وقد انشَغَل كثيرًا بعمليّة المقارنة بينه وبين شقيقه المستهتر، عَمِيَ عن رؤية حقيقته هو. يقول هنري نوْوِن: «إنّ ضلال قدّيس مُستاء يصعب بلوغه، لأنّ ذلك مرتبط بقوة بالرغبة في أن يكون الإنسان صالحًا وفاضلاً.» ويعترف نُوْوِن قائلاً:

> أعرف من حياتي الشخصيّة، كم حاولت جاهدًا أن أكون صالحًا ومقبولاً ومحبوبًا ومثلاً يحتذى، للآخرين. لكنْ كان ثمّة دائمًا مجهود واع لاجتناب مصادر أخطار الخطيّة، والخوف الدائم من الاستسلام للتجربة. وعلى الرغم من كل ذلك، كان ثمّة جوّ من الجدّية والقيود الأخلاقيّة والتطرّف الزائد، مما جعل من الصعوبة أن أشعر بالراحة في بيت الآب. صرتُ أقلّ حُرِّية، وأقلّ عفويّة وأقل مَرَحًا...
>
> وكلّما عكفتُ على تأمّل روحيّة الابن الأكبر فِيَّ، كنتُ أعي مقدار

تجذّر هذا الضياع، وكم هو صعب قرار الرجوع من هناك إلى البيت. فالرجوع إلى البيت بعد مغامرة شهوانية يبدو أسهل جدًّا من الرجوع عن الغضب المتأصّل في أعمق جوانب كياني.

إنّ الألعاب الروحية التي نلعبها، يبدأ العديد منها بأحسن الدوافع، لكنْ، قد تنحرف عن الغاية وتقودنا بعيدًا عن الله، لأنها تبعدنا عن النعمة. فالتوبة، وليس السلوك الحَسَن أو حتى القداسة، هي الطريق إلى النعمة. وعكس الخطيّة هي النعمة وليس الفضيلة.

إذا كان نقد يسوع لِحَرفيّة الناموس غير مدمِّر بما يكفي، فإنّ الرسول بولس قد أضاف إلى ذلك شكوى أخرى أساسيّة. فحرفيّة الناموس فشلت كثيرًا في عمل شيءٍ أساسي كان ينبغي لها أنْ تعمله: تشجيع الطاعة. الغريبُ أنّ نظامًا من القوانين الصارمة يضعُ في رأس الإنسان أفكارًا جديدة لكسر القانون. يوضح بولس بالقول: «فَإِنَّنِي لَمْ أَعْرِفِ الشَّهْوَةَ لَوْ لَمْ يَقُلِ النَّامُوسُ: لاَ تَشْتَهِ. وَلكِنَّ الْخَطِيَّةَ وَهِيَ مُتَّخِذَةٌ فُرْصَةً بِالْوَصِيَّةِ أَنْشَأَتْ فِيَّ كُلَّ شَهْوَةٍ.» (رومية ٧: ٧ و٨). في إشارةٍ إلى هذا المبدأ، تُظهِر بعض الاستطلاعات أنّ الناس الذين نشأوا في طوائفَ تحظر المشروبات الكحولية، هم عُرضةٌ لأن يصبحوا مدمنين على الخمر أكثر بثلاث مرات من غيرهم.

أتذكّر قراءتي لتقرير أوغسطينوس حول سرقة الإجاص. كان هو وأصدقاؤه عندهم وفرة من الإجاص ذي النوعية الممتازة، لكنهم وجدوا أنفسهم مضطرّين إلى تسلّق شجرة جارهم فقط لمجرّد خرق تحذيره من سرقة الإجاص. وبما أنني أمضيتُ فترة أربع سنوات في جامعة يسيِّرها كتاب قوانين قوامه ستٌّ وستون صفحة، لذلك من السهل عليّ أن أفهم نموذجًا غريبًا كهذا. تعلّمتُ أنْ أتمرّد، بسماعي كل تلك النصائح الصارمة ضدّ

التمرّد. وبسبب قلّة نضجي، كنت أشعر بتجربة مستمرّة كي أقاوم مطالب المسؤولين فقط لأنها مطالب مُلزِمة. لم أشعر مرّة بالرغبة في إرخاء لحيتي حتى قرأت كتاب القانون الذي يمنع اللّحى.

كَتَبَ اللاهوتي الكاثوليكي هانس كُنغ مرة يقول: «كلما زادت حياكة الشبكة دقّةً، ازداد عدد الثقوب.» وبما أنه أقسَمَ يمين الولاء لقوانين الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة البالغة ٢٤١٤ قانونًا، فقد أدرك ذات يوم أنّ طاقته كانت تتراوح بين أن يطيع تلك القوانين أو يتحايل عليها، بدل أن يُتَمِّم عمل الإنجيل.

أمّا بالنسبة إلى الذين لا يتمرّدون، بل بالحريّ يجاهدون بإخلاص كي يحفظوا القوانين، فإنّ التقيّد الحرفيّ بالناموس يضع لهم فخًّا آخر. إنّ مشاعر الفشل قد تترك ندوبًا مزمنة من الخجل. كراهبٍ شاب، كان مارتن لوثر يقضي مدّة ستّ ساعات يُصَفّي ذهنه معترفًا بالخطايا التي قد يكون فعلها في اليوم السابق! وقد كتب لوثر هذا:

> على الرغم من أنني عشت حياة بلا لوم كراهب، إلاّ أنني شعرت بأنني خاطئٌ ضميرُه غير مرتاح أمام الله. كما أنني لم أقدر أن أُصَدِّق أنني قد أرضيتُهُ بأعمالي. وبدل أن أحبّ ذاك الإله البار الذي يعاقب الخطاة، فقد كرهته. كنتُ راهبًا صالحًا، واتّبعت النظام بكل دقّة، حتى إنه لو كان لأيِّ راهب أن يذهب إلى السماء عن طريق نظام الرهبنة لكنت أنا ذلك الراهب. كلّ زملائي في الرهبنة يؤكّدون هذا... بَيْدَ أنّ ضميري لم يُعطني الضمانة، بل كنتُ دائمًا أرتاب وأقول: «لم تفعل ذلك بحقّ. لم تندم كفاية. استثنَيت ذلك الشيء من اعترافك...»

إنّ فَشل العلاقة يعمل في كلا الاتجاهين. كلّما قرأتُ تاريخ بني إسرائيل والعهد القائم بينهم وبين الله، أرى إشارات قليلة متناثرة عن ابتهاج الله وسروره. إنّ الأسفار التاريخيّة – وخاصة الأنبياء – ما خلا بعض الاستثناءات المضيئة، تُصوِّر إلهًا يبدو غاضبًا ممتعضًا وثائرًا. الناموس لم يشجّع الطاعة بل بالحري عظّم العصيان. الناموس دلّ على المَرَض؛ أمّا النعمة فقدّمت العلاج.

لا يسوع ولا بولس ذكرا شكوى واحدة ضدّ التمسّك الحرفيّ بالناموس، الأمر الذي يرهقني كثيرًا وبصورة شخصيّة. وقد أَشرت إلى أصدقاءٍ لي رفضوا الإيمان المسيحي، والسبب الأكبر في ذلك يعود إلى تمسّك الكنيسة بالشكليّات التافهة. فسخ أخي علاقته مع الفتاة الأولى التي أحبّها بصدق لأنها لم تكن «روحيّة» ما يكفي بحسب مقاييسه الناموسيّة. طيلة ثلاثين سنة حاول الهروب من الفضائل الأخلاقية الصارمة، ولحدّ الآن نجح في الهروب من الله أيضًا.

إنّ التمسّك الحرفيّ بالناموس يخلق مجموعة أَقليّات حضارية، ونحن في الولايات المتّحدة كأمّة من المهاجرين، نعرف بالتأكيد أنّ المجموعات الحضارية الصغيرة معرّضة للرفض. كم مِنْ والدين مهاجرين شاهدوا أولادهم يتخلّون عن لغة العائلة وتراثها وتقاليدها ليتبنّوا عادات المراهقين في أميركا المعاصرة؟ كذلك، كم من عائلة مسيحيّة صارمة كانت تلاحظ أولادها يهجرون الإيمان، ويلقون جانبًا القوانين والمعتقدات بسهولة، كمن يلقي عنه سترةً ضيّقة جدًّا؟ إنّ التمسّك الحرفيّ بالناموس يجعل الارتداد سهلاً.

صموئيل تُوك، وهو مُصلح إنكليزي من القرن التاسع عشر أوجد وسيلة مبتكرة جذريّة في معالجة المرضى عقليًّا. في وقت من الأوقات، كان عُمّال المصحّ يربطون المجانين بسلاسل إلى الجدران، وينهالون عليهم ضربًا لاعتقادهم بأنّ العقاب سوف يهزم قوى الشر في داخلهم. عَلَّم توك المصابين عقليًّا كيف يسلكون أثناء حفلات الشاي وفي الكنائس. فقد ألبسهم ثيابًا مثل باقي الناس لكي لا يعرف أحد أنهم مرضى عقليًّا. كانوا من الخارج يبدون بشكل حَسَن. لم يفعل شيئًا يخفّف معاناتهم، وبصرف النظر عن كيفية سلوكهم إذ ذاك، فقد ظلّوا مرضى عقليًّا.

ذات يوم تبيّن لي أنني كنت كواحد من مرضى توك: فعلى الرغم من أنّ كنيسة طفولتي قد علّمتني الطريقة المناسبة للسلوك، وكلّية الكتاب المقدس قد أعطتني معرفة متقدّمة أكثر، إلاّ أن أيًّا منهما لم يشفِ المرض العميق في الداخل. فبالرغم من امتلاكي زمام السلوك الخارجيّ، إلاّ أنّ المرض والألم في الداخل قد بقيا. طرحت جانبًا، ولفترة من الزمن، معتقدات طفولتي، إلى أن أعلن الله نفسه لي بشكل عجيب كإله المحبّة لا البغضاء، وإله الحريّة لا القوانين، وإله النعمة لا الدينونة.

إلى هذا اليوم، بعض رفاقي الذين تمرّدوا معي، لا يزالون بعيدين عن الله بسبب عدم ثقتهم العميقة بالكنيسة. فوسط مغريات الحضارة التي انخرطوا فيها، أخطأوا الهدف الأساسي ألا وهو معرفة الله. يقول روبرت فرّار كابون: «صَرَفت الكنيسة وقتًا كثيرًا غارسةً في أذهاننا الخوف من فعل الخطأ، وقد جعلتنا مثل طلاب البيانو الفاشلين: نعزفُ ترانيمنا دون أن نسمعها لأنّ اهتمامنا الرئيسي ليس أن نصنع الموسيقى بل أن نتجنّب التصرّف الأخرق الذي قد يسبّب لنا المتاعب.» لقد سمعتُ الآن عن محتوى النعمة، وإنني أحزن لأصدقائي الذين لم يسمعوا.

الآن، وقد مضت بضعة عقود من الزمن، أَلتفتُ إلى الوراء، إلى نشأتي المدقّقة ناموسيًّا بشيءٍ من الحيرة. بصراحة، أنا لا أعتقد بأنّ الله يهتمّ إنْ كنتُ أُعفي شاربي أم لا، أو يهتمّ إن كنت أستعمل السّحّابة كي أُغلق فتحة سروالي أم أستعمل الأزرار مثل شعب الآمش (طائفة پروتستانتية متشدّدة من أصل ألماني). عندما كنت في كليّة الكتاب المقدس، لاحظت أناسًا يتبعون القوانين ويفشلون مع الله، وأناسًا يكسرون القوانين ويفشلون مع الله كذلك. ما يُضنيني هو تلك الفئة من الناس التي لا تزال تعتقد بأنها فشلت في الوصول إلى الله لأنها كسرت القوانين. إنهم لم يسمعوا قطّ لحن إنجيل النعمة.

كتبتُ عن التمسّك الحرفي بالناموس لسببين: الأول، بسبب الكدمات التي أصابتني منه شخصيًّا، والثاني، لأنني أعتقد أنه يُشَكّل تجربة قويّة للكنيسة. فالناموسيّة الحَرْفيّة تقف كوسيلة إغراءٍ على جانبي طريق الإيمان كي تغرينا بسلوك طريق أسهل. إنها تثير الرّغبة، واعدةً ببعض منافع الإيمان، لكنها تعجز عن تقديم الأهمّ. وكما كتب بولس لناموسيّي أيامه قائلاً: «لأنْ لَيْسَ مَلَكُوتُ اللهِ أَكْلاً وَشُرْبًا، بَلْ هُوَ بِرٌّ وَسَلاَمٌ وَفَرَحٌ فِي الرُّوحِ الْقُدُسِ» (رومية ١٤: ١٧).

جاي كيسْلِر، رئيس جامعة تايلور، أخبرني عن مواجهته الشخصيّة مع التمسّك الحرفي بالناموس. بعد تصميمه بوقت قصير كمراهق، أن يتبع المسيح، شعَر بأنّ العديد من القوانين الجديدة تطغى عليه. سار جاي مشوّشًا في حديقة منزله الخلفيّة في إنديانا وإذْ به يرى كلبه الوفيّ «لادي» ينهش مَرِحًا قطعةً من العظام وهو ممدّد على العشب الرطب المتلألئ. ما صَدَم جايْ هو أن يكون «لادي» ربّما، أفضل مسيحي عرفه على الإطلاق. «فلادي» لم يُدخّن ولم يَشرب المسكر، ولم يذهب إلى السينما، ولم يرقص

أو يَحملْ لافتات الاحتجاج... كان مُسالمًا ومطيعًا وهادئًا. فجأةً رأى جايْ كم ابتعد عن حياة الحريّة والحنان اللذين دعاه المسيح إليهما.

يبدو التقيّد الحرفي بالناموس صعبًا للوهلة الأولى، لكنْ في الواقع، تبدو الحريّة في المسيح طريقًا أصعب. أنْ لا تقتل يبدو أمرًا هيّنًا نِسْبيًّا، بينما يبدو صعبًا أن تحبّ؛ سهلٌ أن تتجنّب مضجع الجارة، ولكنْ صعبٌ أن تحفظ الزواج حيًّا؛ سهلٌ أن تدفع الضرائب ولكنْ أصعب أن تساعد الفقراء. إنْ كنت أعيشُ في الحريّة ينبغي لي أن أبقى منفتحًا على الروح القدس للإرشاد. إنني مدركٌ لما أَهملتُ أكثر من إدراكي لما حقّقتُ. لا يمكنني أن أختبئ خلفَ قناعٍ من السلوك مثل المرائين، كما لا أستطيع أن أختبئ خلف المقارنة السهلة مع الآخرين.

كتب اللاهوتيّ المصلح ج. غريشام ماخِّنْ يقول: «إنّ نظرةً خفيضة إلى الناموس تقود دينيًّا إلى التمسّك الحرفي بالناموس؛ أمّا النظرة الرفيعة إلى الناموس، فتجعل الإنسان يسعى في إثر النعمة.» إنّ التأثير الأساسي لحرفيّة الناموس هو أنه يُنزل مستوى النظرة إلى الله. نحن غالبًا ما نميل إلى التفكير في أنّ الطوائف أو المؤسسات المسيحية المتشدّدة هي أكثر "روحانيّةً"». الحقيقة أنّ الفرق بين بوب جونز وكليّة ويتون، أو بين المينونايتس والمعمدانيين الجنوبيين هو صغير جدًا جدًا بالمقارنة مع الإله القدوس.

قرأتُ مرةً أنّ سطح الأرض هو نسبيًّا، أكثر نعومةً من طابة البليار. إنّ قِمَمَ جبل إِفَرِسْت، وأحواض المحيط الهادي تدهشنا كثيرًا نحن الذين نعيش على هذا الكوكب. لكنّ هذه الفوارق تختفي إذا نظرنا إلى الأرض من مَجَرّة أندروميدا أو من كوكب المرّيخ. هكذا، أنا أرى اليوم الفوارق السلوكيّة الصغيرة بين جماعة مسيحيّة وأخرى. إنّ قمّة القوانين الشاهقة ولو

كانت بعلو جبل إِڤَريست ليست أكبر من حفنة تراب كوَّمها خِلْدٌ، مقارنةً مع إله كامل وقدّوس. لا تقدر أن تحوز قبول الله لك بالتَسَلّق؛ عليك أن تقبله كهِبة.

أعْلن يسوع بما لا يقبل الجدل أنّ ناموس الله هو كامل ومطلق لدرجة أنْ لا أحد يستطيع أن يُدرك البرّ. بَيْدَ أنّ نعمة الله عظيمة إلى حدّ أننا لا نحتاج إلى تحقيق ذلك. فبجهاد الناموسيّين كي يبرهنوا كم يستحقّون محبّة الله، أخطأوا هدف الإنجيل برمّته، وهو هذه المحبّة هي عطية من الله إلى أُناس لا يستحقّونها. إن حلّ مسألة الخطيّة ليس بفرض نظام صارم من السلوك. الحلّ هو أن نعرف الله.

الجزء الرابع

ألحان النعمة لعالم أصمّ

الفصل السادس عشر

هارولد الضخم: قصّة

مات والدي بمرض شلل الأطفال بعد شهرٍ من عيد ميلادي الأول وهكذا ترعرعت يتيمًا. ومن باب العطف أخذني رجلٌ من كنيستنا، أنا وأخي لنكون في كَنَفِه. أطلقنا عليه اسم هارولد الضخم (Big Harold). كان يقعد صابرًا علينا في السّاحات العامة، بينما كنا ندور في لعبة المقاعد الدوّارة. عندما أصبحنا أكبر، علّمنا كيف نلعب الشّطرنج، وكان يساعدنا في صنع ألعاب نتلهّى بها. وفي براءة الطفولة، لم يكن لدينا أدنى فكرة عن أنّ كثيرين في الكنيسة كانوا يعتقدونه غريب الأطوار.

في النهاية، ترك هارولد الضخم كنيستنا. كانت متحرّرة كثيرًا كما قال. بعض النسوة هناك كنّ يضعن أحمر الشفاه ومساحيق التجميل. كذلك، فقد وجد بعض المقاطع الكتابية التي قادته إلى الامتعاض من الآلات الموسيقية في الكنيسة، ففتّش عن كنيسة تتّفق مع تطلّعاته. حضرتُ زِفاف هارولد الضخم: إنّ القانون الذي يناهض الموسيقى واضح، لكن فقط في ما يتعلّق بأمكنة العبادة، والشرائط الصفراء الطويلة حدّدت الممرَّ الوسطيّ في قاعة

الكنيسة حتى الباب الخارجي حيث كانت الموسيقى في الباحة الخارجيّة تزعق بمعزوفة العرس لِمِندلسُن.

أمْران كانا يستحوذان على فكر هارولد الضخم: الأخلاق والسياسة. فكان يعتقد أنّ الولايات المتحدة سوف تقع قريبًا تحت الدينونة الإلهية بسبب التساهل. كان يَقْتَبِسُ من القادة الشيوعيّين الذي تكلّموا عن الغرب المتفسّخ من الداخل مثل ثمرة فاسدة. وقد اعتقد أنّ السلطة الشيوعيّة، والمصرف الفدرالي الاحتياطي، قريبًا سوف يسيطرون على أمّتنا.

كان هارولد الضخم يكره السّود. تكلّم باستمرار عن مدى حماقتهم وكسلهم، كما أخبر قصصًا عن السّود الذين يعملون في جواره، والذين لا ينفعون شيئًا. في ذلك الوقت، بدأ الكونغرس المصادقة على قانون الحقوق المدنيّة وبدأت مدينة أتلانتا تسمح بالاختلاط بين البيض والسّود. قبلاً، كان للبيض فنادقهم الخاصة ومطاعمهم وأسواقهم التي تموّنهم، وكذلك السّود؛ لم يختلطا قطّ. أمّا الآن، فقد راحت الحكومة تفرض التغيير، وقد رأى هارولد الضخم هذه المتغيّرات علامةً إضافية على المؤامرة الشيوعيّة. وحين أمرت السلطات المختصّة بالاختلاط في حافلات الطلاب في أتلانتا، كانت تلك القشّة التي قَصَمَتْ ظهر البعير. أصبح لهارولد الضخم في ذلك الوقت ولدان، ولم يستطع أن يتحمّل فكرة إرسالهما في حافلة مليئة بالأولاد السّود إلى مدرسة يديرها أُناس علمانيون.

عندما بدأ هارولد الضخم يفكّر بالهجرة ظننته يمزح. أرسل يطلب منشورات إعلاميّة عن أماكن مثل روديسيا وجنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلاندا وجزر الفوكلاند - أيْ أماكن حيث ما زالت السيطرة للبيض. انكبّ على دراسة أطلس العالم كي يتعرّف إلى أجناس البشر في تلك المجتمعات.

لم يكن يريد مجتمعًا سكانه من البيض وحسب، بل يريد نوعيّة أخلاقهم كذلك. وقد استثنى أستراليا بالرغم من وجود الأكثريّة من البيض، ذلك لأنّ مجتمعها بدا أكثر تساهلاً من الولايات المتحدة. وأستراليا وشواطئها تستقبل السابحات نصف عراة، والناس كلهم هناك يشربون الجعة.

ذات يوم، أعلن هارولد الضخم أنه سوف ينتقل إلى جنوب أفريقيا. لم يكن يدور في خلد أحد إذ ذاك أنّ الأقليّة البيضاء الحاكمة سوف يفقدون قبضتهم على السلطة، ولا سيّما أنّهم يملكون السلاح. كانت الأمم المتّحدة تصوّت المرّة تلو المرة على مشروع إدانة التمييز العنصري، إلاّ أنّ جنوب أفريقيا وقفت متصلّبة، متحدّية في ذلك العالم بأسره. وقد أحبّ هارولد الضخم هذا الموقف. كذلك أُعجب بأنّ للدِّين دورًا مهمًّا في حكومة جنوب أفريقيا. إنّ الحزب السياسي الحاكم استند بقوة إلى الكنيسة المصلحة، التي بدورها قدّمت أساسًا لاهوتيًّا يدعم التمييز العنصري. لم يكن ثمّة وخز ضمير عند الحكومة بشأن آداب السلوك المفروضة فرضًا. الإجهاض كان ممنوعًا، وكذلك الزواج بين الأعراق المختلفة. مفتّشو الجمارك راقبوا المجلاّت مثل «پلاي بوي»، ومنعوا الأفلام والكتب المشكوك فيها. كان هارولد الضخم يضحك وهو يخبرنا عن مصادرة قصة الأطفال «بلاك بيوتي» التي تحكي عن حصان، وذلك بسبب عنوانها؛ لم يُزعج أحد من المفتّشين نفسه في قراءتها.

كان وداعًا ممزوجًا بالدموع في مطار أتلانتا، يوم ودّعنا هارولد الضخم وزوجته سارة وولديه الشابّين، وهم يلوّحون للبلد الوحيد الذي عرفوه. هاجروا، لا وظيفة تنتظرهم، ولا أصدقاء، ولا حتى مكان في جنوب أفريقيا يعيشون فيه. لا تهتمّوا! قالوا لنا هذا بثقة، فالناس البيض ينزلون المحلة على الرّحب والسّعة.

أثبت هارولد الضخم أنه مراسِل صادق، ودائمًا بأسلوبه الخاص المميّز. وقد أصبح واعظًا في كنيسة صغيرة، وكان يستعمل قفا الورقة التي يدوِّن فيها ملاحظات عظته ليكتب رسائل إلى عائلته وأصدقائه في أميركا. تلك المواعظ كانت تحوي ١٢ إلى ١٤ نقطة رئيسيّة، وكل واحدة مدعومة بمرجع أصلي من الكتاب المقدس. أحيانًا كان من الصعوبة أن تعرف القفا من الوجه في تلك الرسائل فالوجهان كلاهما كانا يبدوان كعظة. كان هارولد الضخم يتبرّم بالشيوعيّة والديانات الكاذبة وفجور الشباب في أيامنا والكنائس والناس الذين لا يتّفقون معه في كل صغيرة وكبيرة.

بدا أنه يتقدّم بثبات في جنوب أفريقيا. كتب لي مرة يقول إنّ على أميركا أن تتعلّم الكثير. الشباب في كنيسته لم يمضغوا العلكة أو يمرّروا ملاحظات أو يهمسوا بعضهم لبعض أثناء العظة. وفي المدارس (وكلّهم كانوا بيضًا)، كان جميع الطلاب يقفون حين يخاطبون أساتذتهم، وبكل احترام. اشترك هارولد الضخم بمجلة «تايم ماغازين» وبالجهد كان يصدّق ما يحدث في أميركا. حافظَت جنوب أفريقيا على الأقليّات في مواقعهم، ولم يُسمع قطّ صوت أيّة جماعة تطالب بالمساواة بين المرأة والرجل، أو المطالبة بحقوق المثليّين. ومما قاله لنا، إنّ الحكومة هي وكيل الله، وينبغي أن تقف إلى جانب الحقّ ضد قوّات الظلام. حتى حين كان يكتب عن عائلته، كان أسلوبه يتّسم بالإدانة. فلم يكن قطّ راضيًا عن أولاده، وخاصةً ابنه وليام الذي كان غالبًا ما يأخذ القرار الخاطئ، وبالتالي يزجّ بنفسه في المتاعب.

إنّ أيّ شخص آخر قد يقرأ إحدى رسائل هارولد الضخم، سوف ينعته ربّما بالجنون. إلاّ أنّ الذكريات العزيزة من طفولتي جعلتني ألاّ آخذ الرسائل

على محمل الجدّ، فوراء هذا الخارج الجَلِف، كنت أعلم أنّ ثمّة رجلاً نذَرَ نفسه لمساعدة أرملة وولديها الصغيرين.

كنت في سنِّ المراهقة عندما غادرنا هارولد الضخم. ذهبت إلى الجامعة وتخرّجت، ثم استلمت وظيفة كمحرّر في إحدى المجلاّت، وفي النهاية أصبحت محرِّرًا بدوام كامل. في كل تلك الفترة، كان هارولد الضخم يرسل إليّ سيلاً من الرسائل. مات والده ثم والدته، لكنه لم يفكّر جديًّا ولو لمرة واحدة في العودة إلى الولايات المتحدة، ولو في زيارة. وفي نطاق معرفتي، لم يقمْ أحد من أفراد عائلة هارولد الضخم ولا من أصدقائه بزيارته في جنوب أفريقيا.

بدأت رسائلُه تأخذ طابعًا داكنًا في التسعينيّات، حين بدا ولأول مرّة، أنّ البيض والسّود سوف يتشاركون في السُّلطة في جنوب أفريقيا. وقد أرسل إليّ هارولد الضخم بعض النسخ من الرسائل التي كان قد أرسلها إلى الصُّحُف هناك. كانت حكومة جنوب أفريقيا تخدعه تمامًا مثلما فعلت الولايات المتحدة. قال إنه يستطيع أنْ يبرهن أنّ نلسون مانديلا ودِسموند توتو كانا يحملان البطاقة الشيوعيّة. وقد نعتَ الأميركيين بالخونة بسبب دعمهم للعقوبات الاقتصادية. كما أشار إلى التحريض الشيوعي باعتباره السبب الرئيسي وراء الانحطاط الأخلاقي. بدأت نوادي عرض التعرّي تُفتتح في المدن، وصرتَ ترى وسط مدينة جوهانسبورغ أزواجًا من مختلفي الأعراق ممسكين بأيدي بعضهم. بَدَأتْ وتيرة رسائله تزداد هستيريّة.

بالرغم من بعضِ الهواجس، قرّرتُ أن أزور هارولد الضخم سنة ١٩٩٣. فعلى مدى خمسٍ وعشرين سنةً لم أستلم منه سوى رسائل الإدانة والامتعاض. كل ردوده على كتبي لم تعرف سوى الدّحض إلى أن كان ذات

مرّة أنْ أرسلتُ إليه كتابًا بعنوان (Disasppointment with God)، كاد يُجَنُّ بسبب هذا الكتاب، فطلب منّي ألاّ أرسل إليه المزيد من الكتب. حرّر إليّ رسالة من ثلاث صفحات يُدين الكتاب – ليس الكتاب بالذات، بل عنوانه. ومع أنه لم يفتح الكتاب، إلاّ أنه كان له الكثير ليقوله على العنوان الذي رأى فيه عثرةً.

وبما أنني كنت أسافر إلى جنوب أفريقيا بداعي العمل، ألفيتُ نفسي عاجزًا عن رفض رحلة طولها خمس مئة ميل ذهابًا وإيابًا لزيارة هارولد الضخم. وربما تكون شخصيّته قد أصبحت مختلفة عنها يوم كنت أعرفه. ربما كان يحتاج إلى أن يتعرّف إلى العالم الأوسع. كتبت له مسبقًا، أي قبل بضعة شهور، كي أسأله إن كنت أستطيع أن أُعرّج عليه، وعلى الفور حَمَلَتْ رسائله نغمة هادئة وناعمة.

الرحلة الوحيدة بالطائرة إلى مدينة هارولد الضخم أقلعت من جوهانسبرغ عند السادسة والنصف صباحًا، ولدى وصولنا أنا وزوجتي إلى المطار كنّا في شوق إلى فنجان من القهوة. كأنه لم ينقصنا بعد سوى الكافيين كي تزيد عصبيتنا الناتجة عن الرحلة. لم يكن لدينا أدنى فكرة عمّا نتوقع. فأولاد هارولد الضخم أصبحوا الآن راشدين، ولا بد أنهم يتكلّمون باللّكنة الجنوب أفريقية. هل سأتعرّف حتى على الوالدين، هارولد وسارة؟ حاولت أن أزيل من فكري ملمح هارولد الضخم الذي أحمله منذ طفولتي.

وهكذا بدأ واحد من أكثر أيام حياتي غرابةً. فعندما حطّت الطائرة ونزلنا منها، عرفتُ سارة على الفور. شعرُها أصبح رماديًا وكتفاها انحنتا بتقدم السنّ، وأما ذلك الوجه النّحيف فلا يخصّ أحدًا سواها. عانقتني ثمّ

قدّمتنا إلى ابنها وليام وخطيبته بَقرلي. (أمّا الابنة فكانت تعيش في منطقة بعيدة ولم تستطع أن تنضمّ إلينا).

كان وليام في أواخر العشرينيّات، لطيفًا، ظريفًا ومعجبًا بأميركا كثيرًا. وقد قصد أن يُعلمنا بأنه التقى خطيبته في عيادة لمعالجة مدمني المخدرات. واضح أنّ بعض الحقائق لم تعرف طريقها قط إلى رسائل هارولد الضخم.

كان وليام قد استعار حافلة ڤولكسڤاغن عتيقة، لِظَنّه أننا قد نحمل معنا أمتعة كثيرة. كانت المقاعد الوسطى في الحافلة قد أُزيلت، فجلست سارة وبقرلي ووليام في المقعد الأمامي، بينما أنا وزوجتي جلسنا في المقعد الخلفي المنفرد والذي يقع فوق المحرك مباشرةً. كان الجو حارًّا، يزيد عن تسعين درجة فاهرنهايت (٣٣° مئوية)، وقد راح بعض دخان السيارة يتسرّب إلينا من أرض السيارة الصَّدئة. ولكي تسوء الحالة أكثر، ومثل كثير من المُستَرَدِّين من عادة إدمان المخدرات، راح وليام وسارة يدخّنان دون توقّف، مما جعل سحابة من الدخان الكثيف تغطّي مؤخر الحافلة، وتمتزج مع دخان محرّك السيارة الذي يعمل بواسطة المازوت.

أَخَذَنا وليام في طريق متعرّجة عبر المدينة، وكان يقود بطريقة متهوّرة. وقد راح يتلّفتُ متحركًا من مقعده في شتّى الاتجاهات كي يدلّنا إلى المناظر الهامة – «هل سمعتَ بالطبيب كريستيان برنارد؟ كان يعيش في ذلك البيت.» – وإذْ فعل ذلك، انحرفت الحافلة إلى الجانب الآخر من الشارع بحركة قوية وانزلقت الحقائب في أرض الحافلة، وبذلنا جهدًا كي نتجنّب تقيؤ أباريق القهوة وفطور الطائرة.

سؤال واحد لم أسأله بعد: أين كان هارولد الضخم؟ افترضتُ أنه سوف

يكون في انتظارنا في البيت. لكنْ، حين وصلنا، لم يظهر أحد أمام الباب. «أين هارولد؟» سألتُ وليام بينما كنا نُنزل الحقائب، وقد حرصت على أن أفي بالتزامي في عدم ذكر الكلمة «ضخم».

«أوه، كنا سنخبرك ولكن لم تتسَنَّ لنا فرصة. الوالد في السجن.» قال هذا وراح يفتّش في جيبه عن لفافة تبغ.

«في السجن؟» أجفلتُ في الكامل.

«صحيح. كان يأمل أن يكون في هذا الوقت قد خرج. لكنّ إطلاق سراحه تأخّر.» وقفتُ محدِّقًا إليه إلى أن قدّم المزيد من التوضيح. «إنّ الأمر وما فيه، أنّ الوالد يفقد أحيانًا السيطرة على طباعه. يكتب رسائل غاضبة...»

«أعرف ذلك، فقد استلمت بعضًا من تلك الرسائل»، قلتُ ذلك مقاطعًا.

«نعم، حسنًا. أرسل واحدة تزيد عن المعقول، سبّبت له المتاعب. سوف نخبرك المزيد فيما بعد. هيا ندخل إلى البيت.»

مكثتُ لحظة قبل أن أدخل، محاولاً استيعاب هذه الأنباء، بينما وليام دخل إلى البيت. تناولتُ حقائبنا بسرعة ودخلت الكوخ الصغير الموحش. كانت الستائر المعدنيّة في الداخل تمنع عنا النور الآتي من الخارج. أمّا الأثاث فكان مريحًا ومرتبًا، وتصميمه كان أميركيًّا أكثر من البيوت الأخرى التي زرتها في جنوب أفريقيا. وَضَعَت سارة إبريق الشاي على النار، ثمّ رحنا نجري أحاديث مهذّبة لبعض الوقت متجنّبين الموضوع الذي كان كل واحد يعرف أنه يثور في رأسينا.

واجهتُ حالاً ما أذهلني. كان وليام يُربّي عصافير استوائية جميلة: ببّغاء

صغير، وببغاء أسترالي، وببغاوات أميركية كبيرة، وببغاء من النوع الذي يقلّد الناس. وبما أنّ مدير الشّقق حيث يسكن وليام لا يسمح بالحيوانات المدلّلة، فقد وضع طيوره في بيت أبيه، حيث كانت تطير بحرّيّة دون قفص. وبما أنّ هذه الطيور بدأت تُربّى من حين خروجها من بيوضها لذلك كانت أليفة جدًّا، ولم أجد ما يخيف أنْ تحطَّ على كتفي وأنا أجلس على الأريكة. ببغاء صغير يشبه ألوان قوس قزح أجفلني حين اندفع نحو لساني وأوشك أن يُسقِط فنجان الشاي من يدي.

ضحك وليام وقال لي: «أوه جيري! لا تقلق، فقد درّبته أن يأكل الشوكولاته. أنا أمضغ له ألواح الشوكولاته قليلاً، ثمّ أُخرج لساني وهو يلتقط عنه الحلوى.» أبقيت فمي مغلقًا، وفضّلت عدم النظر إلى زوجتي لكي لا أرى تعابير وجهها في تلك اللحظة.

هناك، في تلك الغرفة المعتمة، حيث كنت أجلس، وعلى وشك أن أُصابَ بالغثيان بسبب الإكثار من شرب القهوة، ودخان التبغ، ودخان عادم الحافلة، ومحاولة الطائر الاقتراب من لساني، هناك، سمعت الحقيقة عن الجانب المظلم في حياة هارولد الضخم. أجلْ، إنّ هارولد قدّم عظة نار وكبريت يوم الأحد، كما كتب المقالات الرنّانة عن السّموم والدينونة إلى أصدقائه في أميركا. أجل، وسخط على تدنّي الأخلاق. ولكن، في الوقت ذاته، ومن داخل هذا البيت الصغير العفن الذي أَجلس فيه الآن، كان يدير حلقة إباحية. فقد استورد عددًا من المطبوعات واستقطع منها صورًا وأرسلها إلى نساء شهيرات في جنوب أفريقيا مع ملاحظات تقول: «هذا ما أريد أن أفعله بكِ.» واحدة من تلك النساء، مذيعة أخبار في التلفاز، ذُعرت إلى حدّ أنها اتصلت بالشرطة. وقد تمكّنت الشرطة بواسطة تتبّع أثر الآلة الكاتبة من حصر البحث حتى وصلت إلى هارولد.

استطاعت سارة في صعوبة بالغة أن تخبر بتفاصيل ذلك اليوم حين أحاط فريق العمليّات الخاصة التابعة للشرطة بالبيت، ودخلوا عنوةً، وراحوا ينقبون كل دِرج وخزانة. وقد حجزوا آلة زوجها الناسخة والكاتبة. ثُمَّ وجدوا مخبأه السرّيّ للصور الخلاعيّة. من ثَمَّ جرّوه إلى السجن مغلول اليدين، تغطّي وجهه قبعة. طوال ذلك الوقت، كانت سيارات قسم الأخبار المتلفزة مركونة خارجًا، وكانت طوافة تحوم فوق المكان. تصدّرت هذه القصة عناوين نشرة الأخبار: «توقيف واعظٍ بتهمة أخلاقيّة.»

قالت سارة إنها لم تستطع الخروج من البيت لمدة أربعة أيام لأنها تخجل من مواجهة نظرات الجيران. وأخيرًا حملت نفسها على الذهاب إلى الكنيسة، حيث تلقى مزيدًا من الهوان هناك. كان هارولد المحور الأخلاقيّ للكنيسة الصغيرة، وقد شعر الآخرون الآن بالإرباك وحتى بالخداع. كيف يمكن أن يحدث له شيء كهذا...

إذ ذاك، في اليوم نفسه، وبعد أن سمعتُ كل جزءٍ صغير من القصة، أردت أن أرى هارولد بالذات. وضّبنا غداءً لنزهةٍ، في مستوعبات من البلاستك وأخذناها إلى السّجن حيث استقبلنا هارولد في ساحة التمارين. كان أول لقاء لنا وجهًا لوجه بعد خمسةٍ وعشرين عامًا وقد تعانقنا. أصبح الآن في الستينيّات، نحيلاً، أصلع تقريبًا، عيناه غائرتان وبشرة وجهه تميل إلى البياض. لم أصدّق أنني ذات مرة فكّرت فيه بوصفه «هارولد الضخم».

بدا كشبح مقارنة مع باقي السجناء الذين كان معظمهم يقضي الوقت في الرياضة وبناء الأجسام واكتساب السُمرة. كان منظره ينمّ عن الحزن الطاغي. فقد شُهِّر به، وعُرِّي أمام العالم كلّه. لم يعد له مكان يختبئ فيه.

في الساعات القليلة التي قضيناها معًا، رأيت ومضات من «الهارولد» الذي اعتدت أن أعرفه. أخبرته عن متغيّرات في الجيرة القديمة، وعن التقدّم الذي حصل في استعدادات أتلانتا لاستضافة الأولمپياد ١٩٩٦. أشرق وجهه عندما ذكرت الأصدقاء وأفراد العائلة. أشار إلى العصافير المختلفة التي تتنقّل على الأرض، عصافير جنوب أفريقية المميّزة التي لم أرَ مثلها من قبل. تحدّثنا عن أمور كثيرة دون أن نتطرّق مباشرة إلى الأحداث التي سبّبت له السجن. اعترف بأنه خائف. قال: «سمعتُ بما يفعلون هنا للشخص الذي يقوم بانتهاك جنسيّ، لهذا أعفيتُ هذه اللحية وبدأت أضع قبّعة. إنه نوع من التمويه.»

بعدما انتهى وقت الزيارات، طُلِبَ إليَّ مع باقي الزّوار الخروج عبر ممرات مسيّجة. عانقت هارولد ثانيةً، ثم خرجت موقنًا أنني لن أراه ثانيةً.

عندما غادَرَت طائرتُنا جنوب أفريقيا بعد أيام قليلة، كنّا أنا وزوجتي لا نزال تحت تأثير الصّدمة. فهي، التي لم تعرف هارولد إلاّ من خلال الرسائل، توقَّعَتْ أن تقابل نبيًّا يرتدي جلد الإبل، معمدانًا آخر يحثّ العالم على التوبة! أنا كذلك، توقّعت شيئًا من ذلك المزيج، وكذلك توقّعت أن أرى «جنتلمان» طفولتي. ولا في مليون سنة قدّر أحد منا أنه سيزور سجينًا يُمضي مدّة عقوبته.

بعد زيارتنا، كانت رسائل هارولد القليلة الأولى تتّسم بنغمة متواضعة. لكنْ، بعد إخلاء سبيله بدأ يتقسّى ثانيةً. أعاد عضويته إلى الكنيسة بطريقة فظّة (كانوا قد سحبوا منه عضويته)، اشترى آلة طباعة جديدة، وبدأ يصدر بيانات رسمية عن حالة العالم. كنت آمل أنّ تجربة كتلك التي اختبرها سوف تغيّره للأفضل، وستجعله أكثر عطفًا على الآخرين وأقل غرورًا، وأفضل

أخلاقيًّا. على أنّ سنواتٍ عدة قد مرّت من دون أن أجد في رسائله أقلّ إشارة إلى الاتّضاع.

وأشدّ ما كان محزنًا، أنني لم أجد أيّة بارقة عن النعمة. كان هارولد الضخم تلميذًا جيدًا في الأخلاق. فبالنسبة إليه، كان العالم مقسّمًا إلى قسمين: الطاهر والنجس، وظلّ يضيّق الدائرة أضيق فأضيق إلى أن أصبح في النهاية لا يجد من يثق به إلاّ ذاته. ومن ثمَّ لم يعد يثق بنفسه. وربما لأول مرة في حياته وجد نفسه في وضعٍ حيث لم يعد له من مكان ليلجأ إليه سوى النعمة. إلاّ أنني وبقدر ما استطعتُ أن أرى، فإنه لم يذهب إلى هناك مطلقًا. فالأخلاق، حتى الأخلاق العائبة بدت ملاذًا أكثر أمانًا.

الأفضل يفتقرون إلى قناعات

راسخة، أمّا الأسوأ فممتلؤون

باندفاع عميق.

و.ب. ييتس

الفصل السابع عشر

مزيجٌ من العطر



تكوّن لديّ تعريف فظٌّ عن ثقافة الحروب المعاصرة، يوم زرتُ البيت الأبيض إبّانَ ولاية بيلْ كلينتون الأولى. جاءت دعوتي بطريقة غير مباشرة. فتعاطيَّ السياسة قليل، وغالبًا ما أتحاشى هذا الموضوع في كتاباتي. ولكنْ، في أواخر سنة ١٩٩٣ بدأتُ أهتّم بالهلع لا بل بالهستيريا التي تجتاح المجتمع، والتي تُسمَع في الأوساط الإنجيلية. كتبت مقالاً صحفيًّا مؤدّاه: «إنّ تحدّينا الحقيقي ليس في أن «نُمَسحِن» الولايات المتحدة (إنها معركة خاسرة دائمًا)، بلِ بالأحرى أن نجاهد لنكون كنيسة المسيح في عالم يزداد عدائيّة.»

عَنْوَنَ محرّرو مجلّة (Christianity Today) ذلك المقال بطريقة تثير الفضول وهي: لماذا كلينتون ليس هو «ضدّ المسيح». استلمت بضع رسائل معظمها من أناس يُصرّون على أن بيلْ كلينتون هو «ضدّ المسيح». وبشكل ما، وجد هذا المقال طريقه إلى طاولة الرئيس، وبعد بضعة شهور، دعا الرئيس كلينتون اثني عشر إنجيليًّا إلى فطور خاص وكان اسمي في اللائحة.

بعض الحضور كانوا يمثّلون كنائس أو جمعيات كنسيّة؛ البعض رُحِّب بهم باعتبارهم من المجتمع الأكاديميّ المسيحيّ؛ أما الفضلُ في دعوتي، فيرجع في الجزء الأهم منه إلى ذلك العنوان الآسر في المجلّة. (((حسنًا يا بيلْ، عليك أن تبدأ من مكانٍ ما))، قال آل غور (نائب الرئيس) عندما شاهد العنوان، ((لماذا كلينتون ليسَ هو ضدّ المسيح)).)

((الرئيس ليس لديه جدول أعمال))، هذا ما أكّدوه لنا. ((إنه ببساطة، يريد أن يستمع إلى همومكم. سوف يكون لكل واحد منكم خمس دقائق ليقول للرئيس أيّ شيءٍ يريد.)) لم نكن في حاجة إلى دهاء سياسيّ كبير لكي ندرك أنّ الرئيس اجتمع بنا رسميًّا لسبب أساسيّ وهو تدنّي موقعه في الأوساط المسيحيّة الإنجيليّة. وقد تحدّث الرئيس عن بعض تلك المخاوف في بدء تعليقه، واعترف قائلاً: ((أشعر أحيانًا بأنني مثل يتيم روحي.)) وبما أنه قضى كل حياته كمعمدانيّ جنوبيّ، وجد من الصعوبة أن يحدِّد جماعة مسيحيّة في واشنطن العاصمة – ((أكثر مدينة دنيوية عشت فيها)) كما قال. عندما ذَهَبَت العائلة الأولى إلى الكنيسة جذبت سيلاً من الإعلاميين الذين ليس لهم تقريبًا أية صلة باختبار العبادة. كما أنّ عددًا قليلاً من مساعدي الرئيس كلينتون (طبعًا هو يعيّن جميع مساعديه) كانوا يشاطرونه اهتمامه بالإيمان.

زد على ذلك، أنّ المجتمع المسيحي المحافظ قد فكّ ارتباطه بالرئيس. عندما كان الرئيس يسير في شوارع واشنطن رأى لافتات مثل هذه: ((إنّ التصويت لبيلْ كلينتون هو خطيّة ضدّ الله.)) راندال تيري، مؤسِّس جمعية (Operation rescue) وصَفَ علنًا كلينتون وزوجته باعتبارهما ((آخاب وإيزابل.)) كما أنّ طائفة كلينتون، المعمدانيّون الجنوبيّون، واجهوا ضغوطًا لكي يُوجِّهوا لومًا لكنيسته الأم في آركانسا لأنها لم تفصل الرئيس من سِجلّ عضويتها.

باختصار، إنّ الرئيس لم يختبر الكثير من النعمة مع المسيحيّين. وقد أخبرنا الرئيس قائلاً: «أمضيت في حقل السياسة وقتًا طويلاً يكفي لأتوقّع النقد والعدائيّة، لكنني لم أكن مهيّأً للكراهية التي تأتيني من المسيحيّين. لماذا يكره المسيحيّون إلى هذا الحدّ؟»

لا شكّ أنّ كل واحد كان في غرفة طعام كلينتون ذلك الصباح، عَرَف لماذا حرّك الرئيس عدائيّة المسيحيّين تجاهه. فسياساته حول الإجهاض وحقوق الشاذِّين جنسيًّا بصورة خاصة، إلى جانب تقارير عن نقائصه الأخلاقيّة، جعل من الصعب لدى الكثير من المسيحيّين أن يسلّموا بصدقِ إيمانِه. أحد القادة المسيحيّين أخبرني بشكل مباشر: «بيلْ كلينتون لا يقدر أن يكون مخلِصًا في إيمانه، طالما يتمسّك بالأمور التي يفعلها.»

كَتَبْتُ مقالة عن مناسبة الفطور تلك، وبعد بضعة شهور جاءتني دعوة أخرى من البيت الأبيض، وقد عُرِض عليّ هذه المرّة إجراء مقابلة حصريّة لإحدى المجلات مع الرئيس. حَصَلَت المقابلة في شباط ١٩٩٤، وقد أُجري معظمها في سيارة الرئاسة الليموزين. بعد أن ألقى كلينتون محاضرة في مدرسة وسط المدينة، رافقناه، داڤيد نيف، محرّر مجلة (Christianity Today)، وأنا في رحلة طويلة رجوعًا إلى البيت الأبيض، حيث كنا سنتابع الحديث في المكتب البيضاوي. والليموزين على رحابتها، لم تسعْ ساقي كلينتون الطويلتين المعقوفتين بينما كنا نجلس مقابله. كان بين الحين والآخر يرشف قليلاً من الماء من كوب ورقيٍّ لكي يلطّف حنجرته الدائمة الإجهاد، ومن ثمّ راح يُجيب عن أسئلتنا.

دار الكثير من نقاشنا حول موضوع الإجهاض. كنا أنا وديڤيد نيف قد خطّطنا استراتيجيًّا، كيف نثير الأسئلة القويّة، ولكنْ، يبدو من سياق الحديث

أنها جاءت بصورةٍ طبيعيّة. ذاك الصباح حضرنا جميعنا مأدبة الفطور في يوم الصلاة الوطني، وسمعنا الأم تيريزا تهاجم الرئيس علنًا وبشجاعة بسبب بلوى الإجهاض في هذه البلاد. كان كلينتون قد قابلها على حدة بعد الفطور، وبدا توّاقًا لإكمال المحادثة معنا.

مقالتي تحت عنوان: «لُغز إيمان بيلْ كلينتون» (The Riddle of Bill Clinton's Faith) نَقَلَت وجهة نظره، وكذلك تحرّت السؤال الذي طرحه صديقي. هل يمكن لبيلْ كلينتون أن يكون صادقًا في إيمانه، وهو متمسّك بوجهة نظره تلك؟ قمت بأبحاث كثيرة، بما في ذلك محادثاتي مع أصدقائه وأتراب طفولته، وقد بدا الدليل واضحًا: إنّ إيمان كلينتون لم يكن يسلك طريق المنفعة السياسيّة، بل هو جزء لا يتجزّأ من كينونته. باستثناء أيام الجامعة، فقد داوم على اجتماعات الكنيسة بأمانة، وكان كل حياته داعمًا لخدمة بيلي غراهام، كما كان تلميذًا متحمّسًا لدرس الكتاب المقدس. وعندما سألته عن أحدث ما قرأ من الكتب الروحيّة، ذكر عناوين لريتشارد مُوو (رئيس جامعة ڤوللر للاّهوت) وطوني كامپولو.

الحقيقة أني وجدت من المستحيل تقريبًا فهم عائلة كلينتون بمعزل عن إيمانهم الديني. هيلاري كلينتون الميثوديستية العريقة، تؤمن بأننا وُجِدنا على هذه الأرض لنعمل الصالح بواسطة خدمتنا للآخرين. بيلْ كلينتون، المعمدانيّ الجنوبيّ، ترعرع ضمن تقاليد التجديد، وكان يتقدّم للاعتراف بخطاياه. من المؤكّد أنه كان خلال الأسبوع يرتكب حماقات – أليس الجميع يفعلون ذلك؟ – ولكن يوم الأحد كان يذهب إلى الكنيسة ويعترف بخطاياه، ثمّ يبدأ من جديد.

بعد مقابلتنا، كتبت ما كنت أعتقد أنه تقرير متوازن عن الرئيس كلينتون

وعن إيمانه، وقد أعطيت فسحة لا بأس بها لموضوع الإجهاض الذي فيه قارنتُ نظرته الغامضة بالنظرة الأخلاقيّة الكاملة التي لدى الأم تيريزا. لم أكن مستعدًّا أبدًا لهذه العاصفة الشرسة من ردود الفعل. أَعجَبُ إن كان رجل البريد الخاص بي سوف يتعافى من الإرهاق الذي سبَّبَتْهُ له كثرة الأكياس البريدية التي كانت تحمل الرسائل الغاضبة إلى صندوق بريدي.

سأل أحدهم: «تقول إنّ كلينتون له معرفة بالكتاب المقدس؟ حسنًا، والشيطان له هذه المعرفة أيضًا!» كثيرٌ من الكُتّاب أصرُّوا على أنّ الإنجيليّين ينبغي ألاّ يقابلوا الرئيس مطلقًا. ستة مراسلين قارنوه بأدولف هتلر الذي استخدم القُسس بطريقة ساخرة من أجل أغراضه الشخصيّة. آخرون شبّهونا بالكنيسة التي أرعبها ستالين. البعض استحضروا مشاهد المواجهة مثل: يوحنا المعمدان وهيرودس، إيليا وآخاب، ناثان وداود. لماذا لم أتصرّف تصرّفًا أقرب إلى النبي، وذلك برفع أصبعي في وجه الرئيس؟

أحدهم كتب لي يقول: «إذا رأى فيليب يانسي ولدًا على وشك أن يدهسه قطار، أظنّ أنه سوف يقِف بعيدًا في مكان مريح، وبكل تودّد سوف يسأل الولد أن يبتعد، بدل أن يبذل مجهودًا ويصيح ويدفع الولد بعيدًا عن مواضع الخطر.»

أقلّ من عشرة بالمئة من الرسائل تحدّثت عن شيء إيجابيّ، لكنّ النغمة العنيفة للهجوم الشخصي جعلتني أحطاط للأمر. أحد القرّاء كتب يقول: «إنّ الانتقال من الأرض المنبسطة في الوسط الغربي، إلى أعالي جبال كولورادو كالنسّاك، قد أثّر سلبًا في جهاز إمداد عقل السيد يانسي بالأوكسيجين وأعمى بصيرته عن التمييز.» آخر قال: «آمل أن يكون فيليب يانسي قد استمتع بطعام فطوره المبارك من البيض الساخن في البيت الأبيض، لأنه

بينما كان منشغلاً يمسح صفار بيض الإهانة عن وجهه الأشعر، كانت إدارة كلينتون ماضيةً قدمًا ببرنامجها المتطرّف ضد الإيمان والأخلاق.»

طيلة خمسةٍ وعشرين سنة من العمل الصّحفي، نلتُ حصّتي من التقويمات المختلفة. مع ذلك، وكلّما قرأت رِزمة من الرسائل العنيفة بحقي، تولّد عندي حسٌّ قويٌّ عن سبب عدم إقران العالم بصورة تلقائية كلمة «النعمة» بالمسيحيّين الإنجيليّين.

إنّ كتابات الرسول بولس تتبع نمطًا مألوفًا. فالقسم الأول من كل رسالة، يستكشف موضوعات لاهوتيّة رفيعة مثل «غنى نعمة الله». عند هذه النقطة، يتريّث بولس عن قصد، لكي يجيب عن اعتراضات ذات صلة بالموضوع. عندها فقط، يتابع لكي يقدّم تطبيقًا عمليًّا، موضحًا كيف أنّ هذا الغنى ينتقل إلى فوضى الحياة اليومية. كيف يجب على الإنسان «المتمتّع بالنعمة» أن يتصرّف كزوج أو زوجة، كعضو في الكنيسة أو كمواطن؟

وحيث اتّبعتُ النموذج نفسه، قدّمتُ النعمة كقوة عجيبة، تستطيع أن تحطّم سلاسل عدم النعمة التي تقيّد الشعوب والقبائل والعائلات. إنها تنقل أفضل الأخبار الممكنة، ذلك أنّ إله الكون يُحبُّنا – إنها أخبار بهذه الروعة حتى إنها تُحمَّل رائحة الفضيحة. لكنّ عملي لم ينتهِ. فقد حان الوقت لكي أنتقل إلى سؤال عمليّ: إذا كانت النعمة مدهشة إلى هذا الحدّ، فلماذا لا يُظهر المسيحيّون المزيد منها؟ كيف يكون هذا، أنّ المسيحيّين المدعوّين إلى نشر عبير النعمة، تراهم في المقابل يُفرزون الروائح السامّة من عدم النعمة؟ جوابٌ واحد عن هذا السؤال أول ما يَخطُر في البال. فقد سمحت الكنيسة لنفسها بأن تنجرف في المسائل السياسيّة التي تلعبها بحكم السلطة

التي هي سلطة عدم النعمة. ليس ثمّة ميدان أخطر من ميدان الشؤون العامة، قد يجعل الكنيسة في خطر فقدان دعوتها.

إنّ تجربتي في الكتابة عن بيلْ كلينتون هيّأت في ذهني هذه الفكرة. لأنّه، ربما لأول مرّة أخذْتُ نفحة عطر فاحت من بعض المسيحيّين، ولم تكن رائحة سارّة. بدأتُ أُبدي انتباهًا أكثر حول كيفيّة نظرة العالم إلى المسيحيّين. فمثلاً ظَهَرَت في جريدة (New York Times) افتتاحية شديدة الإتقان تُحذِّر من أنّ نشاط المحافظين الدينيّين «يشكّل تهديدًا للديمقراطية أعظم مما شكّلته الشيوعية.» هل يصدّقون ذلك بشكل جدّي؟

بما أنّ رسوم الكاريكاتور تعكس الكثير من انحراف الحضارة بشكل عام، لذلك، بدأت ألاحظ كيف يصوّرون المسيحيّين. فمثلاً، مجلة (New Yorker) صوّرت نادلاً في مطعم مُكلِف يشرح قائمة الأطعمة لأحد الزبائن الدائمين: «الأشياء التي إلى جانبها نجوم يُنصح بها لليمين الدينيّ.» رسم كاريكاتوري آخر أظهر كنيسة أميركية تقليدية رُفِعت على جدارها الأمامي لافتة تقول: «الكنيسة الأولى ضدّ كلينتون.»

إنني أدعم بالكامل، حقّ، وطبعًا مسؤولية المسيحيّين في التزام السياسة: ففي الحملات الأخلاقية مثل إلغاء العبودية والرِّق، والحقوق المدنيّة، ومعارضة الإجهاض كان المسيحيّون روّادًا. وأعتقد أن وسائل الإعلام تُضخّم بشكل كلّيّ «تهديد» ما يُسمّى باليمين الدينيّ. المسيحيون الذين أعرفهم، والذين يتعاطون السياسة، يحملون شبهًا قليلاً بصورهم الكاريكاتورية. لكنني أقلق حقًّا أن تغدو شعارات مثل «المسيحيّ الإنجيليّ» و«اليمين الدينيّ» عرضةً للتبدّل. فالرسوم الكاريكاتوريّة تُظهِر أنّ المسيحيين يُنظَر

إليهم بازدياد وكأنّهم علماء في الأخلاق، متصلّبون، يريدون أن يتحكّموا بحياة الآخرين.

أنا أعلم لماذا يتصرّف بعض المسيحيّين بطريقة فظّة: إنه الخوف. فنحن نشعر بأننا مهاجمون من كل الجهات، في المدارس وفي المحاكم وأحيانًا في الهيئات التشريعيّة. في الوقت ذاته، نرى حولنا نوعيّة التبدّل الأخلاقي الذي يُظهر فساد المجتمع. ففي مصنّفات مثل الجريمة والطلاق وانتحار الشباب والإجهاض وتعاطي المخدرات والمؤسسات الخيرية للأولاد والولادات غير الشرعية، تبدو الولايات المتحدة متصدّرة جميع الدول الصناعية في هذا المجال. فالمحافظون في المجتمع يشعرون بأنهم أصبحوا أقليّة محاطة بالعداوة يومًا بعد يوم، وأنّ قِيَمهم تُهاجَم باستمرار.

كيف يستطيع المسيحيّون أن يتمسّكوا بالقيم الأخلاقيّة في مجتمع دنيويٍّ، وفي الوقت ذاته يُظهرون روح النعمة والمحبّة؟ وكما عبّر صاحب المزمور بالقول: «إِذَا انْقَلَبَتِ الأَعْمِدَةُ، فَالصِّدِّيقُ مَاذَا يَفْعَلُ؟» (المزمور ١١: ٣). إنّ وراء تلك الخشونة التي أظهرها الناس نحوي في رسائلهم، ثمّة من المؤكّد، اهتمام عميق وتام، بعالم ليس منه سوى مساحة صغيرة لله. إلاّ أنني أعرف أيضًا، وكما أوضح يسوع للفريسيّين، أنّ الاهتمام بالقيم الأخلاقيّة وحدها ليس كافيًا. فالأخلاق بمعزلٍ عن النعمة لا تفيد إلاّ القليل.

آندي روني، المُعَلِّق في البرنامج التلفزيوني الأخباري (Sixty Minutes) قال مرّة: «قرّرتُ أن أكون ضدّ الإجهاض. أعتقد بأنه جريمة. لكنني في الوقت ذاته أواجه مُعضِلة، إذ أُفضّل كثيرًا أن أقف إلى جانب الناس الذين ينادون بحريّة الاختيار، لا إلى جانب الذين ينادون بالحياة. أُفَضّل

أن أتناول العشاء مع أُناس من المجموعة الأولى.» لا يهمّ كثيرًا، مع من يتناول آندي روونى طعام العشاء، لكنْ ما يهمّ كثيرًا هو أنْ يضيِّع آندي روونى فرصة المقابلة مع نعمة الله الموجودة في المسيحيّين وفي غيرتهم الكاملة على الحياة.

عندما كنتُ أسأل الذي يجلس إلى جانبي في الطائرة: «ما الذي يخطُرُ في بالِكَ عندما أذكر هذه الكلمات: مسيحيّ إنجيليّ؟» كان يجيب عادةً بتعبير سياسيّ. إلاّ أنّ إنجيل يسوع ليس في الأساس منبرًا سياسيًّا. في كل محادثات الكتل الانتخابيّة والنزاعات الحضاريّة، تبدو رسالة النعمة، وهي أخصّ ما يمكن للمسيحيين أن يقدّموه، وكأنها وُضِعَت جانبًا. إنّه لَمِن الصعب، إنْ لم يكن من المستحيل، توصيل رسالة النعمة من دهاليز السلطة.

تميل الكنيسة يومًا بعد يوم، إلى أنْ تصبح مُسَيّسة، وبما أنّ المجتمع آخذ بالتفكّك، فإنني أسمع دعوات بأننا نُشدّد على الأخلاق أكثر من الرحمة. نَصِمُ الشاذِّين جنسيًّا بالعار، نُعيب الأمهات غير المتزوّجات، نضطهد المهاجرين، نضايق المشرّدين ونعاقب الذي يخرق القانون – أفهَمُ من بعض المسيحيّين أننا إذا استطعنا تمرير المزيد من القوانين الصارمة في واشنطن يمكننا أن نقلب أمّتنا رأسًا على عقب. ويُصرّ أحد القادة الروحيّين البارزين على القول: «إنّ الطريق الوحيد للحصول على نهضة روحيّة أصيلة هو في إصلاح القوانين والتشريعات.» هل من الممكن أنه فهم الأمور بالمقلوب؟

انتقلت الطوائف الرئيسية في الخمسينيّات والستينيّات من إعلان الإنجيل، لتسير في اتجاه متزايد نحو المفكّرة السياسيّة، وهكذا بدأت المقاعد الخشبيّة في الكنيسة تفرغ إلى حدّ النصف. وقد راح العديد

من أعضاء الكنيسة المُخلِصين والسّاخطين يبحثون عن كنائس إنجيليّة، يسمعون فيها رسائل تلبّي حاجاتهم الروحيّة. سيكون الأمر مدعاة للسخرية، إذا كرّرت الكنائس الإنجيليّة الخطأ نفسه وتسبّبت بابتعاد الأعضاء بسبب التشديد الزائد على السياسة من قِبَل الخط المحافظ.

يستحق الأمر كتابةَ كتابٍ آخر أخاطب فيه اليسار العلماني المتعصّب، حيث الحقارة والتصلّب يتقدّمان أيضًا باطِّراد. على أنني في هذا الكتاب، ركّزت على اهتمام واحد: ماذا عن النعمة؟ هل اهتمام المسيحيّين بالأخلاق يُغرِق رسالتنا عن محبَّةِ الله للخطاة؟ إنّ المسيحيّين الإنجيليّين هم ميراثي وعائلتي. فأنا أعمل بينهم، وأعبُدُ معهم، وأكتب الكتب لهم. وإذا بدت عائلتي في خطر أن تعطي فكرة خاطئة عن إنجيل المسيح، فلا بدّ لي من أن أتكلّم. إنه في الحقيقة شكل من أشكال النقد الذاتيّ.

صحيح أنّ الإعلام يحوِّرُ اليمين الدينيّ، ويسيءُ فهم المسيحيّين بشكل عام. لكننا نحن المسيحيّين نتقاسم الملامة. في زيارته إلى مدينتي، دعا راندال تيري المسيحيّين لكي يكونوا «غيارى غير متسامحين» عندما يتعلّق الأمر «بقاتلي الأطفال والسّدوميين والذين يستعملون العازل الذكري والتعدّدية التافهة.» وقد وصف تيري المرأة العضو في مجلس النواب الأميركي بأنها «حيّة وساحرة وامرأة شرّيرة.» وقد قال إنّ «على المسيحيّين أن يتوقفوا عن أن يكونوا قططًا صغيرة مرعوبة، محصورين في زواريب صغيرة حقيرة يلعبون ألعابًا روحيّة سخيفة.» نحتاج بالأحرى أن نُنَظِّف «البالوعة الأخلاقية التي غرقت فيها هذه الأمّة»، ونعملها من جديد أمّة مسيحيّة. أكثر من ذلك، نحتاج إلى اجتياح مسيحيّ إلى أمم أخرى.

على الرغم من أنّ راندال تيري قد لا يُمثِّل الاتجاه العام للإنجيليّين، إلاّ أنّ تعليقاته تصدّرت الصفحة الأولى من صُحُفنا المحلّية، مشيعةً صورًا من عدم النعمة. وهذه أيضًا تعليقات تيري: «أُريد أَن تجتاحكم موجة من الكراهية. أجل الكراهية أمر جيّد... علينا واجب كتابيّ، نحن مدعوّون من الله لكي نحتلّ هذه البلاد.»

رالف ريْد، الذي كان عضوًا في الاتحاد المسيحيّ سابقًا، هو عادة متكلّم حَذِر. لكنّ هذه الكلمات منه، ربّما أُعيد طبعها أكثر من أي متكلّم آخر: «إنه من الأفضل أن تتحرك بهدوء وسرّية تحت ستارة الليل... أريد أن أكون غير مرئيٍّ. إنني أخوض حرب العصابات. إنني أُموّه وجهي بالطلاء وأسافر في الليل. فأنت لا تعلم أنّ الأمر قد انتهى إلى أن تصبح في كيس من أكياس الجثث. أنت لا تعلم إلا عشيّة الانتخابات.»

أتصوّر أنّ معظم الناس، وأنا منهم، لا يستطيعون، بسهولة، تقبّل مثل هذه البيانات. معتادون على التحريك الشعبيّ وعلى الصحافة التي تنقل إلينا المقتطفات الصوتية الغنيّة. أستطيع بسهولة، أن أقابل كلماتهم بالتعليقات غير المعتدلة الآتية من الجهة المقابلة. أتعجّب كذلك، كيف يمكن لتعليقات كهذه أنْ يكون وقعها على امرأة شابة خضعت فعلاً لعملية إجهاض، وهي الآن نادمة على ذلك. وأعرف وقع تعليقات كهذه على الشاذّ جنسيًّا الذي يصارع من أجل هويّته، لأنني أجريتُ مقابلات مع العديد منهم في العاصمة واشنطن.

أعود بالذاكرة إلى تعليق تلك المومس، ذلك التعليق الذي حثّني أصلاً على كتابة هذا الكتاب. «الكنيسة! لماذا أذهب إلى هناك؟ فها أنا قد بدأت أشعر بالخزي لما فعلته، وهناك سوف يجعلونني أشعر بالأسوأ!» وأنا

بدوري أرجعُ بالذاكرة إلى حياة يسوع الذي جَذَبَ كما بمغنطيس، أكثر الناس رائحةً كريهة، المنبوذين أخلاقيًّا. فقد أتى لأجل الخطاة وليس لأجل الأبرار. وحين قُبِضَ عليه، لم يكن خطاة فلسطين المشاهير من نادى بصَلبِه، بل أصحاب المبادئ الأخلاقية.

جاري، وهو أحد الرسميّين في الحزب الجمهوري أخبرني عن القلق الذي يسود أوساط الزملاء الجمهوريّين من أنّ «المرشّحين السّريّين (وهو تعبير رالف ريد) في اليمين الدينّي يتآمرون لاستلام الحزب. أحد مساعديه حذّر من أنّ هؤلاء المرشّحين السّريّين يُمكِن التعرّف بهم من استعمالهم الدائم للكلمة «النعمة». وعلى الرغم من أنه لا يملك أدنى فكرة عما تعنيه النعمة، إلاّ أنه لاحَظَ أنّ المرشّحين السّريّين جاؤوا من منظمات وكنائس حيث تبرز تلك الكلمة في عناوينهم أو في أدبهم.

أيمكن للنعمة «أروع ما بقي من كلام» الكلمة اللاهوتيّة الوحيدة غير المدنّسة، الباقية في لغتنا، أيمكن لها أن تذهب في طريق أخرى ليست لها؟ هل بدأت تعني العكس في الميدان السياسيّ؟

في مقطع من كلامه وجّه نيتشه هذا التحذير الذي ينطبق على المسيحيّين العصريّين: «كن حذرًا لئلا وأنت تحارب التنّين، تصبح أنت التنّين.»

وليام ويْلِليمون، قسيس جامعة ديوك، والميثوديستي العريق، يحذّر الإنجيليّين من استحواذ السياسة الدائم عليهم. ومما قاله: «إنّ بات روبرتسون قد أصبح جيسّي جاكسون، وراندال تيري التسعينيّات هو بيلْ كوفِّن الستينيّات. والأميركي العاديّ لا يعرف جوابًا للتّوق الإنسانيّ أو الانحراف الأخلاقيّ سوى سنّ القوانين الجديدة.» يتكلّم ويلليمون بناءً

على خبرته: فقد بَنَتْ طائفته مبنًى مؤلفًا من أربع طبقات، كلها مكاتب في كابيتول هِيلْ، لكي تشرف عن قرب وبصورة مباشرة على أعمال مجلس الشيوخ. أجل، فقد كانوا بمثابة «لوبي» سياسيّ مؤثّر بقوة، إلاّ أنهم في هذا الخضمّ أهملوا مهمتهم الأساسيّة ككنيسة، والأعضاء بالألوف، بدأوا يتركون الكنائس الميثوديستيّة. اليوم، وإذْ يدعو ويلليمون طائفته للعودة إلى الوعظ الكتابيّ، يتطلّع إلى الإنجيليّين فيرى أنّ عظاتهم تتكلّم عن السياسة وليس عن الله.

أنا أرى أنّ هذا التداخل الحاصل بين السياسة والدِّين هو من أهم العوائق في وجه النعمة. وقد لاحظ سي. إِسْ. لويس أنّ كلّ جرائم التاريخ المسيحيّ تقريبًا حصلت جرّاءَ تداخل الدين مع السياسة. فالسياسة التي لا تقوم إلاّ بقوانين عدم النعمة، تغرينا بأن نقايض النعمة بالنفوذ، وهي تجربة غالبًا ما عجزت الكنيسة عن مقاومتها.

الذين يعيشون منّا في بيئة روحية تشدّد على الفصل بين الكنيسة والدولة، قد لا يدركون تمامًا نُدرة هذا الإجراء تاريخيًّا أو سبب حدوثه. إنّ عبارة توماس جيفيرسون: «الجدار الفاصل بين الكنيسة والدولة»، ظهرت أولاً في رسالة إلى المعمدانيين في ولاية كونيكتيكت، والذين رحّبوا بهذا الانفصال. فالمعمدانيون والپيوريتانز والكويكرز وجماعات أخرى منبثقة عنهم تكبّدوا مشقّات تلك الرحلة الطويلة إلى أميركا، على أمل أن يجدوا بيئة تفصل حقًّا الكنيسة عن الدولة، لأنهم جميعًا، كانوا ضحايا الاضطهاد الديني الذي كانت ترعاه الدولة. وعندما أصبحت الكنيسة تتدخّل بشؤون الدولة جنحت إلى ممارسة النفوذ بدل أن تمنح النعمة.

وكما أشار مارك غالي، من مجلّة (Christian History)، أنّ المسيحيّين

تذمّروا في نهاية القرن العشرين من عدم وحدة الكنيسة، ومن الافتقار إلى القادة السياسيّين الأتقياء، ومن قلّة التأثير في السلوكيّة العامة. لا شيء من هذه الشكاوى ينطبق على العصور الوسطى، تلك الحقبة من التاريخ، يوم كانت الكنيسة موحّدة، وكان المسيحيّون هم الذين يختارون القادة السياسيّين، والإيمان كان يعيش في كل سلوكيّات الشعب. لكنْ، مَنْ منّا يستعرض نتائج الماضي برغبة وحنين؟ فالصليبيون أخربوا البلدان وصولاً إلى الشرق. والكهنة يسيرون جنبًا إلى جنب مع الجنود، يُغيّرون وجه القارات كلها بحدّ السيف. ومحقّقوا محاكم التفتيش كانوا يصطادون اليهود بكلمة، ويطاردون السّحرة، حتى إنهم كانوا يُخضعون المسيحيّين الأمناء لامتحانات إيمان قاسية. الحق يُقال، فقد أصبحت الكنيسة إذ ذاك، «شرطة أخلاق» المجتمع. السُّلطة حلّت مكان النعمة.

حين تُتاح للكنيسة الفرصة لوضع القوانين لكل المجتمع، فإنها غالبًا ما تجنحُ نحو التطرّف الذي حذّر منه يسوع. هاك مَثَلٌ واحد على ذلك: مدينة جنيف تحت سلطة جون كالڤن. هناك قد يستدعي الرسميّون أيًّا كان لمساءلته عن أمور تخصّ الإيمان. وحضور الكنيسة كان إلزاميًّا. وقد تدخّلت القوانين بالصغيرة والكبيرة مِن مثل: كم صحنًا يجب أن يُقدَّم في كل وجبة طعام أو الألوان المناسبة للثياب...

يُسجّل وليام مانشستر بعض وسائل الترفيه التي منعها كالڤن:

الموائد، الرقص، الغناء، الصور، التماثيل، الذخائر المقدّسة، أجراس الكنائس، الأورغن، الشموع على المذبح؛ الأغاني الإباحيّة أو غير الدينيّة، تقديم المسرحيات أو حتى حضورها؛ استعمال أحمر الشّفاه، الحليّ، الخلاخل واللباس غير المحتشم، التكلّم عن

الفضائل الذاتية بقلة تهذيب، الإسراف في وسائل الترفيه، الحَلف، القمار، لعب الورق، الصيد، السّكر، عدم تسمية الأولاد بأسماء من العهد القديم، قراءة الكتب غير الأخلاقية أو غير الدينية.

والدٌ سمّى ابنه المعمَّد كلود، وهو اسم غير موجود في العهد القديم، أمضى أربعة أيام في السجن، وكذلك امرأة لأن تسريحة شعرها وصلت إلى علوٍّ غير «أخلاقي». أمّا مجلس أمناء المدينة فقد حَكَمَ بقطع رأس ولد لأنه ضرب والديه. وقد أغرقوا كلّ امرأة عازبة وُجدت حبلى. وفي حادثين منفصلين أُعدمت كَنَّة كالڤن، وابن زوجته حين وُجِدا في السرير مع عشيقيهما.

بعد استعراض لقطات مثل هذه في تاريخ الكنيسة، يصل پول جونسن إلى خلاصة تقول: «إنّ محاولات خلق مجتمعات مسيحيّة كاملة في هذا العالم سواء قادها بابوات أم ثوريّون، تحوّلت إلى إرهاب دمويّ.» هذه الحقيقة ينبغي أن تجعلنا نتريّث قليلاً بينما نسمع دعوات من أجل تحطيم الحواجز القائمة بين الدولة والكنيسة، وإعادة الأخلاق إلى مجتمعنا. ومن كلمات لِسْلي نيوبغِنْ نسمع هذا: «إنّ مشروع إنزال السماء إلى الأرض يؤدّي دائمًا إلى إصعاد جهنم مِن تحت الأرض.»

نحن في الولايات المتحدة الحديثة تحاصرنا النزعات الدنيويّة، ونعيش في حالة فساد أخلاقيّ، لذلك لا نرى بسهولة من أين أتينا. أُصابُ بالهلع عندما أسمع أحد القادة المسيحيّين المحافظين يصلّي من أجل موت خصومه ويقول: «تعبنا من تحويل الخدّ الآخر...! هذا كل ما عملناه.» كما أُصاب بالذعر عندما أقرأ عن منظّمة في كاليفورنيا تعمل في سبيل

انتخاب مسؤولين في الحكومة كي تصبح هذه الحكومة «دائرة الشرطة داخل ملكوت الله على الأرض»، ومستعدة لكي «تُنزل انتقام الله على الذين يتركون نواميس عدالة الله.»

منذ وقت مبكّر وأميركا تتأرجح على شفير الثيوقراطية (حكومة دينيّة) المتشدّدة بحسب المبادئ الكالڤينيّة. فمن جُملة قوانين ولاية كونكتكت مثلاً نجد القوانين التالية: «ليس مسموحًا لأحد أنْ يعدو يوم الرب، أو يتمشّى في حديقته أو أيّ مكان آخر ما عدا سيره الوقور من وإلى اجتماع العبادة. لا يُسمح لأحد بالسّفر أو بطبخ المواد الغذائية أو بترتيب الأسِرّة أو بتكنيس المنازل أو بقص الشّعر أو بحلق الذقن يوم الرب. إنْ قبّل زوجٌ زوجَتَه أو زوجَةٌ زوجها في يوم الرب يُعاقب الطرف المذنب بحسب ما ترتئيه محاكم الصُّلح.» كما أنّ القوات الأنكليكانية التي احتلّت مريلاند نفّذت قانونًا يطلب من المواطنين التخلّي عن كثلكتهم قبل دخولهم الاجتماع. إلى ذلك، فإنّ أجزاءً من نيو إنغلاند حصرت أهليّة الاقتراع بالناس الأتقياء الذين لهم شهادة شخصيّة حسنة عن اختبار الخلاص.

في النهاية، على كل حال، اتّفقت المستوطنات على عدم وجود كنيسة وطنية جامعة، وإنّ حرّية الديانة أصبحت أمرًا واقعًا على مدى الأمّة. إنها خطوة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، ورهانٌ، يبدو أنه حقّق غايته. وكما يقول المؤرّخ غاري وِلْز، إنها أول أمّة تفصل الدين عن الدولة، ولعلّها قد أنتجت أكثر دولة متديّنة على الأرض.

جاء يسوع لكي يؤسّس نوعًا جديدًا من المملكة، تبدأ في أورشليم، ثم تنطلق إلى اليهودية فالسامرة، ومن ثمّ إلى أقصى الأرض. وقد حذّر في أحد أمثاله من أنّ الفَعَلة الذين يركّزون جُلّ اهتمامهم على اقتلاع الزوان (صورة

يعطيها يسوع لبني الشرير) قد يقتلعون الحنطة مع الزِوان. وقد نصحهم يسوع بأن يتركوا الدينونة للديّان العادل.

كان لدى الرسول بولس الكثير ليقوله عن فسوق أعضاء الكنيسة، والقليل عن فسوق الوثنيين في روما. قليلاً ما تذمّر من الانتهاكات في روما - العبودية والوثنية والألعاب الوحشيّة، والضغوط السياسية والجشع - مع العلم أنّ انتهاكات كهذه كانت بالتأكيد تُعثر مسيحيّي ذلك الزمان تمامًا مثلما يُعثِر المجتمع الفاسد مسحيّيي هذه الأيام.

عندما قصدت البيت الأبيض في زيارة للرئيس كلينتون، كنت أعلم جيدًا أنّ سمعته بين المسيحيّين المحافظين يتوقّف على أمرين: الإجهاض وحقوق المثليّين. أنا أوافق تمامًا على أنّ هاتين المسألتين الأخلاقيتين هما من المواضيع المهمة التي ينبغي على المسيحيّين مناقشتهما. ولكن عندما دقّقت في العهد الجديد لم أجد إلاّ القليل مما قد يخصّهما. فكلا الأمرين: الإجهاض والشذوذ الجنسي كانا قائمَيْن إذ ذاك، بأسلوب مختلف وأكثر إساءة. فالمواطنون الرومان لم يعتمدوا مبدئيًّا على الإجهاض في موضوع تحديد النسل. فالنساء كن يحملن، وعند الولادة كنّ يتركن أطفالهن على جانب الطريق للوحوش المفترسة وللعقبان، كذلك، فإنّ الرومان واليونانيّين مارسوا شكلاً من أشكال الجنس المثليّ: فالرجال المتقدّمون في السنّ مثلاً، كانوا يقتنون الفتيان كعبيد لممارسة اللواط معهم.

هكذا، ففي أيام يسوع وبولس، فرض هذان الموضوعان الأخلاقيّان نفسيهما بطريقة تُعدّ اليوم جريمة بشعة في كل الدول المتحضّرة. ليس ثمّة دولة على الإطلاق تسمح لأي إنسان أن يقتل طفلاً مولودًا حديثًا ومكتمل النمو. كما لا يوجد دولة على وجه الأرض تسمح قوانينها بممارسة الجنس

مع الأولاد. لا شكّ أنّ يسوع وبولس سمعا بهذه الممارسات الممقوتة. إلاّ أنّ يسوع لم يقل شيئًا عن تينك المسألتين، أما بولس فقد أشار باقتضاب إلى مسألة الجنس المثليّ. وكلاهما لم يركّزا على المملكة الوثنيّة القائمة حولهما، بل ركّزا على الملكوت الإلهيّ البديل.

لهذا السبب تأخذني الدهشة بسبب هذه الطاقة الهائلة التي تُبذل هذه الأيام، من أجل استرجاع الأخلاقيّات في الولايات المتحدة. فهل نحن جادّون في التركيز على مملكة هذا العالم أكثر من المملكة التي ليست من هذا العالم؟ إنّ الصورة العامة للكنيسة الإنجيليّة اليوم تُعَرَّفُ عمليًّا بالتشديد على أمرين لم يأت يسوع على ذكرهما البتّة. كيف سيكون شعورنا إذا ألقى مؤرّخو المستقبل نظرة إلى الوراء، إلى الكنيسة الإنجيليّة في التسعينيّات، وخرجوا بالتقرير التالي: «إنهم حاربوا بشجاعة على جبهتي الإجهاض والشذوذ الجنسي»، وفي الوقت عينه يذكر تقريرهم أننا فعلنا القليل من أجل تتميم «المأمورية العظمى»، كما فعلنا قليلاً من أجل انتشار عبير النعمة في العالم؟

ليست الكنيسة... سيّد الدولة

أو خادمها إنها بالأحرى ضمير

الدولة. ينبغي أن تكون دليل

الدولة وناقدها، لا أداتها.

مارتن لوثر كنج الابن



الفصل الثامن عشر

حكمة الحيّة



يوم كبرت في الخمسينيّات، كان مدير المدرسة يبدأ كل يوم بالصلاة التي كانت تُتْلَى علينا عبر جهاز مكبّر للصوت. ففي المدرسة كنّا نتعهّد بالولاء لأمّة «تحت سلطة الله»، أمّا في مدارس الأحد، فكنّا نتعهّد بالولاء للعلم الأمريكي ولعَلَم الكنيسة. لم يخطر في بالي قط أنّ أمريكا قد تضع المؤمنين في يوم من الأيام أمام تحدٍّ جديد: كيف «يترفّقون» بمجتمع يزداد عداوة لهم.

منذ وقت غير بعيد، بدا التاريخ الأمريكي (في الجانب الرسمي منه على الأقل) وكأنّه يؤدي رقصة ڤالس بين شريكين راقصين، هما الكنيسة والدولة. فالدّيانة تغلغلت عميقًا حتى وُصِفَت الولايات المتحدة بأنها أمّةٌ بروح الكنيسة. إنَّ تعهُّد ماي فلاوِر، حدّد هدف المهاجرين الآتين من أوروبا باعتبارهم «ملتزمين من أجل مجد الله وتقدّم الإيمان المسيحيّ وتعظيم الملك والأمّة.» إنّ المؤسّسين اعتبروا الإيمان الدينيّ ضروريًّا لنجاح الديمقراطية؛ قال جون آدامز: «إنّ دستورنا

وُضِعَ فقط لشعبٍ خلوق ومتديِّن. إنه لا يصلح البتّة لأيّة دولة أخرى في العالم.»

فتاريخنا في معظمه، تبنّى الأحكام المسيحيّة، حتى المحكمة العليا أيضًا. وفي سنة ١٩٣١ أعلنت المحكمة ما يلي: «نحن شعب مسيحيّ، وبالنسبة إلينا كأفراد، ثمّة حقّ متساوٍ في الحريّة الدينيّة، ونقدِّر بكلِّ وقار واجب الطاعة لإرادة الله.» وفي سنة ١٩٥٤ قال قاضي القضاة إيرل وارن السيِّئ السمعة بالنسبة إلى العديد من المحافظين: «أعتقد أنْ لا أحد يقرأ تاريخ أمّتنا دون أن يدرك أنّ الكتاب المقدس وروح المخلِّص كانا منذ البدء دليلنا العبقريّ.» وقد أضاف أنّ شُرعات المستعمرات الثلاث عشرة الأساسية كانت كلها تشير إلى الهدف نفسه: أرض مسيحيّة، تحكمها مجموعة مبادئ مسيحيّة.

إننا نعيش وسط من يذكّرنا يوميًّا بإرثنا المسيحيّ. والمؤسسات الحكوميّة بحدّ ذاتها مثل الخدمة الاجتماعيّة ووزارة العدل...، تعطي انطباعًا دينيًّا. والأمريكيون يتجاوبون بسرعة إزاء الكوارث، ويحمون حقوق المعوّقين جسديًّا، ويهبّون لمساعدة درّاج انحرفت دراجته عن الطريق، ويقدّمون معونات بمليارات الدولارات - هذه وغيرها الكثير من أعمال البِرّ والإحسان، تعكس حضارة وطنيّة انبثقت من جذور مسيحيّة. فقط مَنْ يسافرون وراء البحار، يقدّرون هذه الحقيقة بأنْ ليس جميع الحضارات تحتوي على علامات النعمة تلك.

(خلف الستار، يحكي التاريخ طبعًا، قصة مختلفة. فالشعب الأمريكي الأصلي تعرّض تقريبًا إلى الإبادة الكاملة في هذه البلاد «المسيحيّة». وقد حُرِمَت النساء من أبسط الحقوق. و«المسيحيون الصُلاّح» في الجنوب

يضربون عبيدهم دون أدنى وخزة من ضمائرهم. وبما أنني ترعرعت في الجنوب، فإنّي على يقين من أنّ الأفارقة الأميركيين كجماعة، لا يتطلّعون بحنين إلى الأيام «المجيدة» مِنْ تاريخنا القديم. «لكُنتُ حينئذٍ سأرجع لأكون عبدًا»، كما ذكّرنا جون بِركِنز. إنّ رسالة النعمة بالنسبة إلى هؤلاء قد ضاعت).

قلّة من الناس في الولايات المتحدة اليوم، تخلط بين الدِّين والدولة، وهذا التبدّل حصل بسرعة خاطفة لدرجة أنّ كل من وُلِدَ في الثلاثين سنة الأخيرة قد يتمكّن من أن يتصوّر، عن أيّة رؤية أنا أتكلّم. يبدو أمرًا لا يُصدّق أن تكون الكلمات: «تحت سلطة الله» قد أُضيفت إلى وثيقة «تعهد الولاء» (Pledge of Allegiance) فقط في سنة ١٩٥٤، وصارت العبارة «بالله نثق» شعارنا الوطني في سنة ١٩٥٦. ومنذ ذلك الحين منعت المحكمة العليا الصلاة في المدارس، وبعض الأساتذة قد ذهب إلى حدّ محاولة منع طلاّبهم من الكتابة حول أيّة مواضيع دينيّة. أمّا الأفلام والبرامج التلفزيونية فنادرًا ما تذكر المسيحيّين، وإن ذكرتهم فللحطِّ من قدرهم، والمحاكم تُعرّي بشكلٍ روتينيّ، الأماكن العامة من الرموز الدينيّة.

إنّ نسبة عالية من حدّة الغضب لدى اليمين الدينيّ سببها السرعة في التبدّل الأخلاقي. هارولد و. ج. براون، وهو أحد الناشطين الإنجيليّين الأوائل ضد الإجهاض، يقول إنه مع آخرين غيره اختبروا تلك الصرخة وكأنّها توقظهم مذعورين في نصف الليل. فالمسيحيون كانوا ينظرون إلى المحكمة العليا باعتبارها مجموعة الحكماء الأكثر موثوقية والذين كانوا يستمدّون أحكامهم من التوافق حول الأمور الأخلاقيّة في البلاد. فجأةً أُسقِطَت القنبلة الذريّة، وهو القرار الذي قسم البلاد كالزلزال.

ثمّة قرارات قضائيّة أخرى مثل «الحقّ بالموت» وإعادة تعريف الزواج وحماية الإباحية وغيرها، مما جعلت المسيحيّين المحافظين في حالة من الهستيريا. وقد أصبح المسيحيّون اليوم ينظرون إلى الدولة باعتبارها عدوة الكنيسة لا صديقتها. ها هو جايمز دوبسون يصرِّح بالقول: «إنّ هذا الغيظ المتأجّج في أمريكا الشمالية يُنذربحرب أهلية من أجل القِيَم. جبهتان ذات نظرتين عالميّتَين مختلفتَين جدًّا ومتضاربتَين، وهاتان الجبهتان محشورتان في صراع مرير ينفذ إلى كلّ مستويات المجتمع.»

الحرب الأخلاقيّة آتية. ومما يثير السخرية، أنّ الكنيسة في الولايات المتحدة تقترب أكثر فأكثر إلى وضع مماثل لكنيسة العهد الجديد: أقليّة محاطة بالعداوة والخصومة، تعيش وسط مجتمع وثني تعدّدي. فالمسيحيّون في بلدان مثل سري لانكا والتّيبت والسودان واجهوا عداوة مكشوفة من حكوماتهم طيلة سنوات كثيرة. أمّا في الولايات المتحدة، البلد ذات التاريخ الحافل المتعاطف مع الإيمان، فلا نرغب في ذلك.

كيف يستطيع المسيحيّون أن يقدّموا النعمة في مجتمع يبتعد أكثر فأكثر عن الله؟ في سبيل ذلك، يقدِّم الكتاب المقدس نماذج مختلفة عدّة للإجابة. إنّ إيليا اختبأ في المغاور، وأحدث زلزلة في مملكة آخاب الوثنيّة؛ كانِ معاصِره عوبديا مشتركًا في هذا المشروع، حيث كان يدير قصر آخاب، ومن جهة أخرى يخبّئ ويعيل أنبياء الله الحقيقيين. أستير ودانيال كانا موظفَين في ممالك وثنيّة، ويونان نادى بالدينونة على الآخرين. يسوع خضع لحكم الوالي الروماني؛ بولس رفع دعواه إلى قيصر.

وتعقيدًا للأمور، لا يعطي الكتاب المقدس نصائح مباشرة عن الديمقراطية إلى المواطنين. وبولس وبطرس حثّا قرّاءهما على الخضوع للسلاطين،

وعلى إكرام المَلِك، ولكن في النظام الديمقراطيّ نحن المواطنين «هُمُ المَلِك». فمن الصعب جدًّا أن نتجاهل الدولة حين نكون نحن الدولة بحسب الدستور. وإذا كان المسيحيّون يشكّلون الأكثريّة، فلماذا لا نعلن أنفسنا «أكثريّة أخلاقيّة» ونفصّل الحضارة على شكلنا؟

عندما كان الإجماع المسيحيّ في الولايات المتحدة لا يزال متأرجحًا، كانت هذه المواضيع أقل إلحاحًا. بَيْدَ أنّ اليوم، نحن الذين نحبّ إيماننا وكذلك أمّتنا، ينبغي لنا أن نقرّر أفضل الطرق للتعبير عن ذلك الاهتمام. إنني في هذا المجال، أقدِّم ثلاث خلاصات تمهيديّة، ينبغي أن تُطبَّق، بصرف النَظَر عمّا يخبّئه المستقبل.

أولاً، وأظنّ أنّ الأمر أصبح واضحًا الآن، أعتقد أنّ تقديم نعمة الله هو أوّل مساهمة أساسيّة للمسيحيّ. وكما قال غوردون ماكدونالد أنّ العالم يقدر أن يعمل كلّ شيء تعمله الكنيسة ما عدا شيء واحد: إنه لا يقدر أن يُظهر النعمة. في رأيي، إنّ المسيحيين لا يقدِّمون للعالم النعمةَ كما يجب، إذ كثيرًا ما يتعثّرون في ميدان الإيمان والسياسة.

لم يَدَع يسوع أيّة جماعة تتدخّل في محبّته للأفراد. فالعرقيّة اليهوديّة والسياسات الديّنية منعته من التكلم مع إمرأة سامرية منبوذة، ذات خلفيّة أخلاقيّة مُخزية، إلا أنّ يسوع اختارها مرسَلةً لأجله. كان من بين تلاميذه عشّار، والعشّارون يُعتبَرون في نظر اليهود خَوَنَة، كما كان أحد الغيارى وهم جماعة يهوديّة من القرن الأوّل الميلادي حاربت الرومان. وكذلك مَدَح الثائر يوحنا المعمدان. تقابل مع نيقوديموس الفريسي المدقّق، وكذلك مع قائد المئة الروماني. وقد تعشّى في بيت فريسيّ آخر اسمه سمعان، وكذلك في بيت رجل «نجس» هو سمعان

الأبرص. كان الإنسان بالنسبة إلى يسوع، أكثر أهميّة من أيّة جماعة أو لقب.

أعرِفُ كم هو سَهْلٌ أن تنجرف في سياسة الاستقطاب، وتتمترس على الجهة المقابلة، وتصرخ منذرًا باقتراب «العدو». ولكنّ يسوع أوصى أنْ: «أحبّوا أعداءكم» (متى ٥: ٤٤). هذا يعني بالنسبة إلى مارتن لوثر كنغ الابن، رجال الشرطة البيض الذين أطلقوا كلابهم باتجاهه.

مَنْ هو عدوّي؟ هل هو المُجهِض؟ أم المنتج الهوليوديّ الذي يُفسد حضارتنا؟ أم السياسيّ الذي يهدّد مبادئنا الأخلاقيّة؟ أم زعيم تجارة المخدرات الذي يتحكّم بقلب مدينتي؟ فإن كان نشاطي، مهما كانت دوافعه سليمة، يتخلّى عن المحبّة، أكون قد أسأت فهم إنجيل يسوع. وأكون ملتصقًا بالناموس وليس بإنجيل النعمة.

إنّ المواضيع التي تواجه المجتمع هي مواضيع بالغة الأهميّة، ويبدو أنّ الحرب الحضاريّة أصبحت حتميّة. أما المسيحيّون، فينبغي أن يستعملوا أسلحة مختلفة في حروبهم، إنها «أسلحة الرحمة» كما تقول دوروثي داي في عبارتها الرائعة. وقد أعلن يسوع أننا ينبغي أن نحمل علامة واحدة مميّزة: ليس الإصلاح السياسيّ ولا التفوّق الأخلاقيّ بل المحبّة. وقد أضاف بولس أنه بدون المحبّة، لا شيء نعمله يكون ذا نفع سواءٌ الإيمان المعجزيّ أو التألّق اللاهوتي أو التضحية الذاتيّة الملتهبة أو غيرها (١كورنثوس ١٣).

إنّ الديمقراطية اليوم، تحتاج بشدّة، إلى روح جديدة من اللياقة، وبمقدور المسيحيّين أن يحدّدوا تلك الطريق، وذلك بإظهارهم «ثمار» روح الله القدوس: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ (غلاطية ٥: ٢٢ و٢٣).

إنّ أسلحة الرحمة فعّالة. سبق أن أخبرت عن زيارتي إلى البيت الأبيض، والتي كانت حصيلتها مجموعة من الرسائل الغاضبة. إثنان من القادة المسيحيّين الذي حضروا ذلك الاجتماع شعروا بالحاجة إلى الاعتذار من الرئيس بسب عدم النعمة التي أظهرها زملاء مسيحيّون. وقد قال أحدهم: «إنّ المسيحيّين قد لوّثوا مصداقيّة الإنجيل بسبب قباحة الهجمات الشخصيّة ضدّ الرئيس وعائلته.» وبينما كنّا لا نزال هناك، سمعنا تقريرًا مباشرًا من هيلاري كلينتون، التي كانت هدفًا للعديد من هذه الهجمات.

سُوزان بايكر من الحزب الجمهوري، وزوجة وزير الخارجية السابق جايمز بايكر، دعت السيدة كلينتون إلى اجتماع درس الكتاب المقدس يحضره أعضاء من كلا الحزبين الرئيسيّين. وقد أقرّت السيدة الأولى بأنها ساورتها شكوك حول زيارة قامت بها مع جماعة من النساء اللواتي وصَفْنَ أنفسهن بأنّهنّ «محافظات وغير متعصّبات، من الحزب الجمهوري ومن الحزب الديمقراطي، ولكنْ كلّهن ينتمين إلى يسوع.» ذهبت متيقّظة وعلى أتمّ الاستعداد للدفاع عن مواقفها، وامتصاص الصدمات الكلاميّة.

افتتحت الاجتماع إحدى السيدات بالقول: «سيدة كلينتون، جميعنا في هذه الغرفة اتفقنا على أن نصلي من أجلك بكل صدق وأمانة. ونريد أن نعتذر عن الطريقة التي عاملكم بها الناس بمن فيهم بعض المؤمنين. فقد سفّهناكم وشهّرنا بكم وعاملناكم بطريقة غير مسيحيّة. فهل تسامحيننا؟»

قالت هيلاري كلينتون إنها أتَتْ في ذلك الصباح مستعدّة لأي شيء ما عدا الاعتذار. في لُحيظة تلاشت كلُّ شكوكها. منْ ثمّ كرّست محاضرة كاملة في مناسبة لاحقة، متحدّثةً عن «البركات» الروحية التي نالتها من تلك الجماعة. وقد سألت الحضور إن كُنَّ يستطعن أن يبدأنَ عَقْدَ اجتماعات

مماثلة للشبيبة الذين في عمر ابنتها. تشِلْسي (ابنة هيلاري) لم تقابل العديد من المسيحيّين «المملوئين نعمة».

من دواعي حزني، أنّ البريد الذي يَرِدُني من الجماعات الدينيّة المحافظة يعزف على الوتر ذاته كما في الرسائل التي ترِدني من الناس ومن المؤسسات غير المحافظة. فكلتا المجموعتين تناشدان عدم الانجرار إلى الهستيريا، وتحذِّران من المؤامرات الرهيبة، فيما تشتركان في مهاجمة خصومهما بكلام موذٍ يهدف إلى تشويه سمعتهم. والنتيجة أنّ المجموعتين كلتيهما لا تُظهِران روح النعمة.

رالف ريد تخلّى علنًا عن هذه الأساليب، الأمر الذي يستحقّ الثناء عليه. إنه الآن يتأسّف أشد الأسف على تلك اللغة التي كان يستعملها والتي تفتقر إلى «النعمة المُخلِّصة والتي ينبغي دائمًا أن تتميّز بها كلماتنا وأفعالنا.» ومن بين ما جاء في كتاب ريد (Active Faith)، قوله: «إذا نجحنا، فمردّ ذلك إلى أننا قد اتّبعنا مِثال (مارتن لوثر) كِنغ بأن نحبَّ باستمرار أولئك الذين يكرهوننا، وأن نحارب بأسلحة روحيّة وبالمحبّة المسيحيّة. وإنْ فشِلنا، فلن يكون ذلك بسبب المال أو الأسلوب، بل لأنّ الفشل هو في القلب والنفس... فكل كلمة نقولها وكل تصرّف نقوم به ينبغي أن يعكس نعمة الله.»

إنّ رالف ريد مُحقٌّ في نظرته إلى مارتن لوثر كِنغ، الذي لديه الكثير ليُعلِّمنا عن سياسة المواجهة. فقد أصرّ كِنغ بالقول: «هاجم الفكرة الخطأ لا الشخص الذي يتمسّك بتلك الفكرة.» وقد ناضل كِنغ لكي يضع كلمات يسوع «أحبّوا أعداءكم» (متى ٥: ٤٤) موضع التنفيذ العمليّ، حتى حين كان قابعًا في السجن، ومحاطًا بأولئك الأعداء، الذي عيّروه. نستطيع

أن نُقنع خصومنا فقط على أساس الحقّ وحده، كما قال كِنغ، بدل اللجوء إلى نصف الحقّ أو إلى المبالغة أو الكذب. كل متطوّع في منظّمة كِنغ تعهّد بأن يتبع ثمانية مبادئ، بما فيها هذه: الْهج كل يوم بتعاليم يسوع وبحياته، سِرْ وتكلّم بمحبة، ولاحظ نفسك سواء مع الصديق أو العدو في أبسط قواعد التهذيب.

كنتُ حاضرًا في إحدى المواجهات التي جرت بحسب النموذج اللّبق الذي وضعه د. كِنغ. ففي ذلك الصباح، يوم أجريتُ تلك المقابلة مع الرئيس كلينتون، كما سبق وذكرت، كنّا كلانا قد حضرنا فطور يوم الصلاة الوطنيّ، حيث سمعنا الأم تيريزا تتكلّم. كان حدثًا مميّزًا. فعائلة كلينتون وعائلة غور جلسوا، كل عائلة إلى طاولة بارزة بينما جلست الأم تيريزا في الوسط. كانت تجلس في كرسيٍّ ذي عجلات، نحيفةً في الثالثة والثمانين من عمرها، حائزة جائزة نوبل للسلام، مهيبة السّيماء، طلبت المساعدة في النهوض من كرسيّها. وقد وُضعت لها منصّة خاصة تسمح لها بأن ترى من خلف المنبر. كانت منحنية الظهر وطولها أربعة أقدام وست بوصات، وهكذا وبالجهد استطاعت أن تصل إلى الميكروفون. بدأت تتكلّم بوضوح وتمهّل، وبنبرة قويّة، فكان صوتها دون شكٍ يملأ القاعة.

قالت الأم تيريزا إنّ أميركا قد أصبحت أُمّة أنانية، وفي خطر من أن تفقد المعنى الكامل للمحبّة: «العطاء حتى الوجع.» والبرهان الأكبر على ذلك هو الإجهاض الذي بدأنا نرى تأثيره في العنف المتصاعد. «فإنْ كنا نقبل أن تقتل أمٌّ طفلها بالذات، فكيف نقدر بعدها أن نطلب من الناس الآخرين ألاّ يقتلوا بعضهم بعضًا؟... فكلّ أمّة تقبل بالإجهاض، لا تُعلّم شعوبها أن يحبّوا، بل أن يستعملوا شتّى أنواع العنف لكي ينالوا ما يبتغون.»

قالت الأم تيريزا، نحن نعيش حالةً من التناقض حيث نهتمّ بظاهرة العنف كما نهتمّ بالأطفال الجياع في أماكن مثل الهند وأفريقيا، بينما لا نعير اهتمامًا بالملايين الذي يُقتلون بإرادة أمّهاتهم. وقد تقدّمت باقتراح حلٍ إلى النساء اللواتي يحملنَ ولا يُردنَ أطفالهن: «أعطيني ذلك الطفل. أنا أريده وسوف أهتمّ به. أنا مستعدة أن أقبل بمحض إرادتي ذلك الطفل الذي تريدين أن تجهضيه، وأن أعطي ذلك الطفل إلى زوجين سيحبّانه وسيحبّهما.» وها هي قد وضعت ثلاثة آلاف طفل في ضمن عائلات تبنّتهم في كالكوتا.

ملأت الأم تيريزا حديثها بالقصص المؤثّرة عن أناس خدمتهم، ولا أظنّ أنّ أحدًا من الحاضرين الذين كانوا يسمعون، خرج من الاجتماع إلاّ وقد بدا عليه التأثّر الشديد. بعد طعام الفطور، قابَلَت الأم تيريزا الرئيس كلينتون، وأستطيع أن أقول إنني رأيته في وقت ما من ذلك اليوم وقد بدا التأثّر عليه هو أيضًا. فالرئيس كلينتون نفسه أعاد علينا رواية بعض من قصص الأم تيريزا أثناء مقابلتنا.

استطاعت الأم تيريزا بشجاعة وثبات، ولكن بمحبّة وأدب، أن تنزل بذلك النزاع القائم حول الإجهاض إلى أبسط مفاهيمه الأخلاقيّة: إمّا الموت أو الحياة، وإما المحبة أو الرفض. قد ينبري من بين الحضور أحد المشكّكين ليقول لها: «يا أم تيريزا، أنت لا تعين مقدار التعقيدات التي يتضمّنها عرضُك. فثمّة في الولايات المتحدة وحدها ما يزيد عن مليون عمليّة إجهاض سنويًا. ولا شكّ أنك سوف تهتمّين بكل هؤلاء الأطفال!» إنها على كل حال، الأم تيريزا. فقد عاشت بحقّ على مستوى دعوتها من الله، فإذا أراد الله أن يرسل لها مليون طفل، فسوف تجد طريقة للاعتناء بهم. فهي تفهم جيدًا أنّ المحبة المضحّية هي أحد أقوى الأسلحة في ترسانة النعمة المسيحيّة.

الأنبياء يأتون في كل الأشكال والأحجام، وإنني أتصوّر النبي إيليا مثلاً، وقد استعمل كلمات أشدّ وقعًا من كلمات الأم تيريزا في شجبه الفجور الأخلاقي. بَيْد أنني لا أكفُّ عن التفكير بأنّ منْ بين الكثير الذي سمعه الرئيس كلينتون عن الإجهاض أثناء حكمه في مكتبه البيضاوي، كانت كلمات الأم تيريزا هي الأشدّ وقعًا في نفسه.

قد تبدو خلاصتي الثانية في تناقضٍ مع الأولى: فالالتزام بنمط معيّن من النعمة لا يعني أنّ المؤمن سوف يعيش في حالة انسجام تامّ مع الدولة. وكما كتب كينيث كاوندا رئيس زامبيا السابق: «إنّ ما تحتاجه أيّة دولة من الدول أكثر من أي شيءٍ آخر ليس رئيسًا مسيحيًّا في سدّة الرئاسة بل نبيّ مسيحيّ له أذن صاغية.»

إنّ المسيحية التي أُعدِم مؤسّسها على يد الدولة، عاشت منذ البدء في توتّر مستمر مع الدولة. وقد حَذَّر يسوع تلاميذه من أنّ العالم سوف يبغضهم كما أبغضَهُ، وفي مثل حالة يسوع، فإنّ أصحاب النفوذ هم الذين تآمروا عليه. وفيما كانت الكنيسة تنتشر في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية، حَمَلَ أتباعها شعار «يسوع هو الرب»، الأمر الذي اعتبرته السلطات الرومانية تحدّيًا سافرًا لها إذْ كانت تطلب من جميع مواطنيها أن يُقسموا بأنّ «قيصر (أي الدولة) هو الرب.» غَرَضٌ لا يتزحزح واجه قوة لا تقاوم.

وقد طوّر المسيحيّون الأوائل قوانينهم لكي ينظّموا واجباتهم تجاه الدولة. فمنعوا بعض المِهن: الممثّل الذي كان عليه أن يُمَثِّل دور الآلهة الوثنيين، والمعلّم الذي يُجبَر على تعليم الأساطير الوثنيّة في المدارس الرسميّة، والمجالد الذي يزهق النفس البشرية في الألعاب الرياضيّة، والجندي الذي يقتل، كما منعوا جماعتهم كذلك من مهنة الشرطيّ أو

القاضي. جَسْتن، الذي أصبح شهيدًا في ما بعد، حدّد أُطُر الطاعة لروما: «لله وحده نقدّم العبادة، ولكنْ في الأمور الأخرى، فإننا نخدمكم بكل سرور، معترفين بكم ملوكًا وحكّامًا على الناس، ومصلّين كي تكونوا بنفوذكم الملكيّ مملوئين نزاهة وعدلاً.»

ومع مرّ القرون، أظهر بعض الحكّام العدالة، أمّا البعض الآخر فلا. وعندما كان الصراع يدور، كان المسيحيّون الشجعان يقفون في وجه الدولة، رافعين دعواهم إلى سلطة أعلى. فقد أخبر توماس أَبِكيت الملك الإنكليزي قائلاً: «نحن لا نهاب التهديد، لأنّ البلاط الذي ننتمي إليه اعتاد أن يُصدر الأوامر إلى الأباطرة والملوك.»

والمرسلون الذين حملوا الإنجيل إلى حضارات أخرى، رأوا الحاجة إلى تحدّي بعض الممارسات، مما أدّى إلى مواجهة مباشرة مع الدولة. فقد حاربوا في الهند الطقوس الهندوسيّة، وزواج الأطفال وإحراق العروس وإبادة الأرامل. كما منعوا تقديم الضحايا البشريّة في أميركا الجنوبيّة. وفي أفريقيا، منعوا تعدّد الزوجات والرّق. وقد أدرك المسيحيّون أنّ إيمانهم لم يكن خاصًّا وتعبّديًّا وحسب، بل كان عليه التزامات نحو كل المجتمع.

لم يكن من باب الصُّدفة أنّ المسيحيّين كانوا روّاد الحركات المناهضة للرّق مثلاً، وذلك بسبب السّند اللاهوتي. فلاسفة مثل دايڤد هيوم اعتبروا السّود حثالة، كما نظر إليهم رجال الأعمال كمصدر رخيص لليد العاملة. بعض المسيحيّين الشجعان رأوا ما هو أبعد من الاستعباد، رأوا قيمتهم الأساسيّة كمخلوقات إنسانيّة خلقها الله، وساروا في طريق إعتاقهم وتحريرهم.

وعلى الرغم من كل أخطاء الكنيسة أحيانًا، فقد نشرت رسالة نعمة المسيح

في كل العالم. وحدها المسيحيّة قد وضعت حدًّا لنظام الرّق، والمسيحيّة هي أول من أوجد المستشفيات، ونظام الاستشفاء لمعالجة المرضى. كما أنها كانت الرائدة في الحركات العمّالية وحق المرأة في التصويت ومنع تعاطي الكحول وحَملات حقوق الإنسان والحقوق المدنيّة.

يقول روبرت بِلاّ إنه بالنسبة إلى أميركا «لم يكن ثمّة موضوع رئيسيّ في تاريخ الولايات المتحدة لم تتكلّم عنه الهيئات الدينيّة علنًا وبصوتٍ مدوٍّ.» ففي التاريخ المعاصر نجد أنّ الذين قادوا حركة الحقوق المدنيّة (مارتن لوثر كنغ، رالف أبرناثي، جسّي جاكسون أندرو يونغ) كانوا رجال دين ومواعظهم الناريّة تظهر ذلك. والرجال السّود في الكنيسة والبيض على حدّ سواء، قدّموا المباني والشبكات الإذاعيّة، والمتطوّعين والسند اللاهوتي لدعم الحركة.

وقد وسّع مارتن لوثر كِنغ الحملة في ما بعد لتشمل مواضيع الفقر ومعارضة الحرب في ڤيتنام. فقط في المدة الأخيرة، عندما شرع النشاط السياسيّ يتّجه نحو القضايا المحافظة، بدأ التورّط المسيحيّ في السياسة يثير الذعر. وكما يقترح ستيڤن كارتر في كتابه (The Culture of Disbelief) أنّ هذا الذعر قد يكشف أنّ هؤلاء الذين هم في السُّلطة لا يحبّون توجّهات الناشطين الجدد.

يقدّم ستيڤن كارتر مشورة حسنة عن النشاط السياسيّ: فلكي يكون المسيحيّون «رحماء»، عليهم أن يكونوا حكماء في اختيار المواضيع التي سيساندونها أو يعارضونها. نجد تاريخيًّا أنّ المسيحيّين قد حادوا أحيانًا عن حدود التوازن. صحيح أننا ألغينا نظام الرّق وثبّتنا الحقوق المدنيّة. لكنّ البروتستانت قد انجرفوا في حملات مسعورة ضدّ الكاثوليك وضدّ الهجرة

وضدّ الماسونيّة. إنّ الكثير من القلق الحاليّ الذي يساور المجتمع حول نشاط المسيحيّين مردّه إلى تلك الحملات السّيئة الذكر.

لكن ماذا نقول عن هذه الأيام؟ هل نختار معاركنا بحكمة؟ لا شكّ أنّ الإجهاض والقضايا الجنسيّة، ومفهوم الحياة والموت هي مواضيع جديرة بالاهتمام. إلاّ أنني عندما أقرأ الأدب الذي يكتبه الإنجيليّون في السياسة، أجد أنهم يكتبون عن الحقّ في حمل السلاح وإلغاء وزارة التربية والاتفاقات العالمية. منذ بضع سنوات سمعتُ رئيس الجمعية الوطنيّة الإنجيليّة يُضمِّن لائحة مَطالبه ذات النقاط العشر، «إلغاء الضريبة على أرباح رأس المال». إنّ مفكّرة الجماعات الدينيّة المحافظة تماثل في كل بند من بنودها مفكّرة السياسة المحافظة، ولا تؤسِّس أولوياتها على مصدر خارق. الإنجيليّون مثلهم مثل سائر الناس، لهم الحقّ في مناقشة جميع المواضيع، ولكنْ لحظة نقدّمها كجزءٍ من بعض ما يقدّمه المنبر المسيحيّ، فإننا نهجر سموّنا الأخلاقي.

عندما بزغ فجر حركة الحقوق المدنيّة في الستينيّات، وهي أكبر حملة أخلاقيّة شهدها زماننا، قَبَع الإنجيليّون عمومًا خارج اللعبة. العديد من الكنائس، مثل كنيستي، قاومت هذا التغيير بشراسة. ولكنّ التبدّل التدريجيّ بدأ يأخذ مكانه مع وعّاظ مشاهير مثل بيلي غراهام وأُورَلْ روبرتس. وليس قبل هذه الأيام بدأت طوائف إنجيليّة مثل خمسينيّي أميركا الشماليّة ومعمدانيّ الجنوب، تُقيم اتحادًا مع كنائس السّود.

ولإخجالنا، يعترف رالف ريد بأنّ شرارة اندفاع الإنجيليّين الحاليّ الصاخب نحو السياسة، لم تنطلق من مسألتي الإجهاض والظلم في جنوب أفريقيا، ولا من أية مسألة أخرى من المسائل الأخلاقيّة الضاغطة. فقط حين

بدأت إدارة الرئيس كارتر، بدأ النشاط الجديد بالطلب إلى مصلحة الضرائب العامة التحقيق مع المدارس الخاصة كي تبرهن أنها لم تؤسس تلك المدارس لحماية سياسة فرض التمييز العنصريّ. وبسبب تجييش المشاعر حول انكسار الحاجز بين الدِّين والدولة، نزل الإنجيليّون إلى الشوارع.

وفي هجمتهم نحو السياسة، غالبًا ما برهن المسيحيون أنهم «حكماء كالحمام وودعاء كالحيّات» أيْ تمامًا عكس ما قصد يسوع. فإنْ كنا ننتظر من المجتمع أن يأخذ مساهمتنا بعين الاعتبار، علينا أن نُظهر المزيد من الحكمة في خياراتنا.



إنّ خلاصتي الثالثة عن علاقات الكنيسة بالدولة كوّنتُها بالاستناد إلى مبدأ استعرته من ج. ك. تشِسْترتون: إنّ التقارب الحميم بين الكنيسة والدولة هو جيّد للدولة وسيّء للكنيسة.

سبق أن حذّرت من تحوّل الكنيسة إلى «شرطيّ أخلاقيّ» للعالم. الواقع أنّ الدولة تحتاج إلى الشرطة الأخلاقيّة، وقد ترحّب بهم، إذا استطاعت الكنيسة أن تفرض نفسَها. فالرئيس أيزنهاور توجّه إلى الأمّة سنة ١٩٥٤ بالقول: «إنّ حكومتنا لن يكون لها أيّ معنًى إن لم نؤسّسها على الإيمان الدينيّ العميق – ولا يهمّني ما هو هذا الدِّين.» وغالبًا ما ضحكت على ملاحظة أيزنهاور، إلى أن وجدت نفسي مرةً في عطلة نهاية الأسبوع، عالقًا في وضعٍ أراني الحقيقة الواضحة خلف تلك الملاحظة.

كنتُ أُشارك في منتدى عام في نيو أورلينز، وكنّا عشرة مسيحيّين وعشرة يهود وعشرة مسلمين، وقد تزامن هذا المنتدى مع كرنڤال أربعاء الرماد.

كنا في مركز كاثوليكيّ منعزل، بعيدًا عن ضوضاء وسط المدينة، إلاّ أنّ بعضًا منا أرادوا التجوال في إحدى الأمسيات في اتجاه الحيّ الفرنسيّ في المدينة طلبًا لمشاهدة فِرق الكرنڤال. كان المشهد مرعبًا.

آلاف الناس ازدحمت بهم الشوارع متراصّين لدرجة أننا جُرفنا معهم في موجة بشريّة، غير قادرين على الإفلات منها. نساء شابات أطلّت من فوق الشُّرفات صارخات: «صدور عارية تحت الطلب.» كن مستعدّات أن يقايضن بخلع قمصانهم الخارجية والظهور عاريات الصدور مقابل عقد مزركش من البلاستيك. أما إذا كان العقد أكثر دقةً وإتقانًا، فسيقايضن عليه بتعرية أنفسهن بالكامل. وسرعان ما رأيت رجالاً سُكارى يختطفون فتاةً مراهقة من الحشد ويصرخون بها قائلين: «أخرجي صدرك لكي نراه!» ولما رفضت ذلك، عرّوها حتى الوسط ثم حملوها على أكتافهم وراحوا يجسّونها بفظاظة في حين كانت تصرخ مستغيثة وشاجبةً. كان أولئك السُّكارى الماجنون في كرنڤال أربعاء الرماد، يُجسّدون في عربدتهم وحتى في عنفهم ذلك، ما يمكن أنْ يحصل إذا أُطلقت الغرائز والشهوات من عقالها دون وازع أو رادع.

في صبيحة اليوم التالي، حيث كنا قد عدنا إلى المركز، رحنا نراجع حسابات تلك الأمسية. بعض النساء المتحمّسات أنثويًا كنّ متأثّرات جدًّا. خرجنا بقناعة أنّ كل واحدة من دياناتنا لديها شيء تساهم به في بناء المجتمع برمّته. فمسلمين كنّا أم مسيحيّين أم يهودًا، كلنا ساعدنا ونساعد المجتمع كي يدرك لماذا لم يكن هذا التصرّف البهيمي غير مقبول، بل وشريرٌ أيضًا. فالدِّين يُعرّف الشرّ ويعطي الناس القوة الأخلاقية ليقاوموه. وباعتبارنا «ضمير الدولة»، فإننا نساعد في إعلام العالم عن العدالة والصلاح.

بهذا المعنى المدنيّ، كان أيزنهاور على حقّ: المجتمع في حاجة إلى الدِّين، ولا أهمية كبيرة لنوع ذلك الدِّين. فالأمّة الإسلاميّة ساهمت في إزالة معالم الفقر؛ وكنيسة المورمون جعلت من ولاية يوتا مكانًا آمنًا وحميمًا عائليًّا، وصلت فيه الجريمة إلى حدّها الأدنى. إنّ مؤسّسي الولايات المتحدة أيقنوا أنّ الديمقراطيّة التي تعتمد أقلّ على النظام المفروض سلطويًّا وأكثر على فضائل المواطنين الأحرار، تحتاج إلى أساسٍ دينيٍ.

منذ عدّة سنين، كتب الفيلسوف غلِنْ تَنْدر مقالة لمجلّة (The Atlantic Monthly) بعنوان: «هل بمقدورنا أن نكون صالحين بدون الله؟» وكانت موضع نقاش واسع إذ ذاك. كانت خلاصة نقاشه الشديد الاهتمام بالتفاصيل، كلمة واحدة هي، لا!

يقول تِنْدِر، «إنّ الكائن البشري ميّال بطبعه إلى الانجذاب الحتمي نحو مذهب المتعة (Hedonism) والأنانيّة، ما لم يحصل شيءٌ فائق مثل أغابي (Agape) المحبّة المضحِّية، أو وضعٌ سامٍ يحمله على الاهتمام بشخص آخر خارج دائرة ذاته.» ومن باب السخرية أن يصادف ظهور هذا المقال بعد شهر من سقوط الستار الحديديّ، ذاك الذي حطّم أيديولوجيّة أولئك الذين حاولوا أن يبنوا مجتمعًا صالحًا بدون الله.

يمكننا على كل حال، أن ننسى الجزءَ الأخير من مقولة تشسترتون: إن كانت العلاقة الحميمة بين الكنيسة والدولة صالحة للدولة، فهي حتمًا سيّئة للكنيسة. هنا بالذات يكمن الخطر الرئيسيّ على النعمة: فالدولة التي تُدار بقواعد اللاّنعمة، تأخذ تدريجيًّا في إغراق رسالة النعمة الكنسيّة السامية.

إنّ الدولة في نهمها للسُّلطة، قد تُقرِّر أنّ الكنيسة بإمكانها أن تُظهر

نفعًا أكبر في حال كانت تحت سيطرة الدولة. هذا الأمر حصل بشكل مؤثّر في ألمانيا النازيّة يوم انخدع المسيحيّون الإنجيليّون بذاك الانجذاب المشؤوم نحو وعد هتلر في إرجاع الأخلاق إلى الدولة وإلى المجتمع. ففي بادئ الأمر، راح العديد من القادة البروتستانت يشكرون الله على ظهور النازيّة، التي بدت وكأنها البديل الوحيد للشيوعيّة. وبحسب كارل بارث، فإنّ الكنيسة «رحّبت، وبشبه إجماع، بحكم هتلر بثقة صادقة، وبالطبع بأكبر الآمال.» وقد تأخّروا كثيرًا ليتعلّموا أنّ الكنيسة أُغريت مرة جديدة بنفوذ السلطة.

إنّ أفضل عمل تقوم به الكنيسة هو أن تكون قوة مُعارَضة، ومُعادَلة توازن في وجه قوة الدولة الكاسحة. وكلما كانت علاقة الدولة بالكنيسة علاقة حميمة، ضعُفت رسالتها. الإنجيل نفسه يتغيّر إذا انتقل ليكون رسالة اجتماعيّة مدنيّة. يذكّرُنا أَلسْداير ماكينتاير أنّ فلسفة أرسطو الأخلاقيّة السامية ليس فيها مكان لرجل صالح يُبْدي محّبة لرجل شرّير، بكلمات أخرى، ليس فيها مكان لإنجيل النعمة.

مجمل القول، إنّ الدولة تدأب دائمًا أن تُخَفِّف من النوعيّة المطلقة لوصايا يسوع، وتحوّلها إلى شكل من أشكال الأخلاق الخارجيّة – أيْ تحديدًا، عكس إنجيل النعمة. وقد ذهب جاك إلْلول في قوله إلى أبعد من ذلك، إذ صرّح بأنّ العهد الجديد لا يُعَلِّم شيئًا مثل علم «الأخلاق اليهودي – المسيحي». إنه يوصي بالتجديد ومن ثَمَّ هذا: «فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ» (متى ٥: ٤٨). اقرأوا الموعظة على الجبل، وحاولوا أن تتخيّلوا حكومة تَسُنّ هذه المجموعة من القوانين.

تستطيع حكومة الولاية أن تُغلق المخازن والمسارح أيام الآحاد، ولكنها لا تستطيع أن تفرض العبادة. كما تستطيع أن توقف وتعاقب قَتَلَة الأعراق الأخرى، ولكنها لا تستطيع أن تشفي كراهيتهم أو تعلّمهم المحبّة. تستطيع أن تشرّع قوانين تجعل الطلاق أكثر صعوبة، ولكنها لا تستطيع أن تُجبر الأزواج أن يحّبوا نساءهم، ولا النساء رجالهن. تستطيع أن تقدّم إعانة للفقير، ولكنها لا تقدر أن تُجبِر الغني على إظهار العاطفة والعدالة لهم. تستطيع أن تمنع الزنا ولكن ليس الشهوة، واللصوصيّة ولكن ليس الشهوة في امتلاك الأشياء، والغشّ ولكن ليس الكبرياء. كما تستطيع أن تشجّع الفضيلة ولكنْ ليس القداسة.

إنّ التخلّي عن الإيمان يجعل السلوك من غير ذي قيمة.

إميلي ديكينسون

بقع خضراء



أثناء ثورة بركان جبل القديسة هيلانة، أذابت الحرارة الهائلة التُّربة، مُخلِّفةً وراءها صخورًا عاريةً إلاّ من غطاءٍ كثيف من الرّماد. علماء الطبيعة والغابات تخيّلوا كم من السنين سوف تمضي قبل أن تعود الحياة من جديد إلى تلك الأرض المحروقة. ذات يوم، بينما كان أحد عمّال الحدائق العامّة يسير في طريقه إلى عمله تعثّر فجأةً ببقعةٍ خضراء من الزهور البريّة والخنشار والأعشاب المتجذّرة بعناد في ذلك الحزام من الأرض الصخريّة. استغرقته بضع ثوان قبل أن يلاحظ تلك الحقيقة الغريبة: فتلك البقعة الخضراء بدا شكلها شبيهًا بالإيّل. فقد نبتت الأعشاب والزهور من بين المواد العضوية التي تحلّلت حيث كان ذلك الحيوان مدفونًا تحت رماد البركان. انطلاقًا من ذلك الاكتشاف «الصدفة»، راح علماء الطبيعة ينقّبون عن البقع الخصبة المماثلة، التي ساعدتهم في احتساب عدد الحيوانات التي خسرتها الطبيعة وأنواعها.

بعد أن ينقرض مجتمع ما بفترة طويلة، تستمرّ بعض علامات حياته السابقة في تأكيد وجودها. فمن دون معرفة السبب، ترى الناس تشدّهم إلى الماضي عاداته الأخلاقية، «العادات الحميمة» كما ورد في عبارة روبرت بِلاّ. فهي مغروسة بعناية فائقة، ومثل أشكال الحيوانات التي زيّنت الجانب القاحل من جبل القديسة هيلانة، تبعثُ الحياة في مشهد آخر من مشاهد الحياة القاحلة.

تُقدِّم إنكلترا الڤكتورية (نسبة إلى زمن الملكة ڤكتوريا) مثالاً عن مكان نبتت فيه بقع خضراء، مكان نشرت فيه جماعة من المسيحيّين المكرّسين، نعمة المسيح في المجتمع كلِّه. كانت حقبة مُظلمة من التاريخ، تميّزت بالعبودية في المستعمرات، وتشغيل الأولاد في المعامل، والأحياء الفقيرة في المدن. جاء التغيير من تحت كما هي العادة، بدل أن يُفرَض من فوق.

تأسّست حوالى خمسمئة جمعية خيريّة بريطانيّة خلال القرن التاسع عشر، ثلاثة أرباعها على الأقل، كانت إنجيليّة التوجّه. فمذهب الكلافام، وهي جماعة صغيرة من المسيحيّين الأتقياء نذكر منهم تشارلز سيميون ووليام ويلبرفورس، أوصلت خمسة من أعضائها إلى البرلمان (مجلس النواب). ويلبرفورس كرّس كل سعيه لإلغاء الرّق، في حين أخذ آخرون من رفاقه على عاتقهم مسألة سجن المديونين، وقد نتج عن ذلك إطلاق سراح أربعة عشر ألف سجين. إلى ذلك، فقد قاد آخرون منهم حملات لصالح التربية والتعليم وإيجاد منازل للفقراء ومساعدة المعوّقين وفي الوقت عينه معارضة تشغيل الأولاد، ومحاربة الأعمال اللاأخلاقية والسّكر. وقد سَخِر المعارضون من «القديسين»، وهو لقب كانت جماعة الكلافام تحمله باعتزاز.

في هذه الحقبة ذاتها، اعتاد وليام بُوث أن يطوف النواحي الشرقيّة من لندن، بينما كانت زوجته تعطي هناك دروسًا في الكتاب المقدس. وقد لاحظ أثناء تجواله، وجود حانة بعد كل خمسة مبانٍ، حيث يتسكّع الرجال طوال اليوم مبذّرين أموالاً هي كل معيشة عيالهم. إلى هذا، فإنّ العديد من الحانات كانت تضع درجات قليلة إلى جانب المنضدة ليتسنّى للأولاد الصغار الصعود وطلب مشروب كحوليّ. وإذْ راع وليم بُوث هذا المشهد، افتتح «الإرساليّة المسيحيّة» سنة ١٨٦٥، وراح يساعد «المساكين والمشرّدين» الذين يرفضهم المجتمع، ومن هذه الرؤية بدأ ينمو ما عُرف في ما بعد بجيش الخلاص. (تَصَوَّرْ منظّمةً تتأسّس اليوم بهذا الاسم!) وحين أجفلت الطوائف التقليديّة من كثرة الأعضاء الذين جذبهم بُوث، لم يجد بُدًّا من تأسيس كنيسته الخاصة لتتناسب مع «صيد النعمة» هذا.

العديد من الناس لا يعرفون أنّ جيش الخلاص يعمل ككنيسة محليّة إلى جانب كونه جمعيّة خيريّة. بَيْد أنه لا يوجد جمعية خيريّة تتلقّى مساعدات ماديّة أكثر من جيش الخلاص، وهو يُعتبر في مقدِّمة العاملين بنشاط واندفاع: فهم يطعمون الجياع ويؤوون المشرّدين ويعالجون المدمنين على المخدرات والمسكِر وهم أول من يلبّي النداء إلى ميدان الكوارث. وقد استمرّت هذهِ الحركة في النمو حتى إنّ جنود النعمة التابعين لها يُعدّون بالمليون اليوم – واحد من أكبر جيوش العالم مكانة – ويخدمون في مئة بلد. إنّ خميرة وليم بُوث الصغيرة تخمّر اليوم مجتمعات بأسرها في هذا الكوكب. إن الإصلاحات التي قام بها وليم بُوث وجماعة الكلافام، أصبحت أخيرًا سياسة عامة. هذا، وإنّ سجايا العصر الڤكتوري من الاستقامة والعمل الدّؤوب والشفافية والإحسان، انتشرت

في كل المجتمع، محافظة على إنكلترا من العنف والتمزّق الذي يصيب شعوبًا أخرى.

إنّ أوروبا والولايات المتحدة لا تزالان تعتمدان على رأس المال الأخلاقيّ الذي للإيمان المسيحيّ والذي هو فيض النعمة. بَيْدَ أنَّ الاستطلاعات تشير إلى أنّ الأكثرية الساحقة من الشعب الأميركي قلقة على المستقبل. (إنّ استطلاعات (Gallup) تقول إنّ ٨٣ بالمئة من الأميركيين يعتقدون بأنّ الأمّة في انحدار مستمر). إنّ المؤرّخة باربرا تاكمان التي ربحت جائزتي (Pulitzer)، وهي بالتأكيد لا تمثّل مخاوف اليمين الدينيّ، تبدو قلقة من الإفلاس الأخلاقيّ. وقد أخبرت بِلْ مويِرز عن هذا القلق بشأن:

> خسارة الحسّ الأخلاقيّ، ومعرفة الفرق بين الصواب والخطأ والبقاء محكومين منه. إننا نراه باستمرار. نفتح أية جريدة صباحيّة فنقرأ عن أحد الرسميّين المتّهم بالإختلاس أو بالفساد. والناس من حولنا يطلقون النار على زملائهم، أو يقتلون الناس... وأسألُ نفسي، هل تنحدر الأمم دائمًا بسبب فقدان الحسّ الأخلاقيّ وليس لأسباب جسمانيّة أو الضغوط البربريّة؟ أظنّ أنّ الأمر كذلك.

لحظةَ تفقد الرؤية المسيحيّة قوّتها، ويتعرّى المجتمع من الايمان، ماذا يحصل عندئذٍ؟ لا نحتاج إلى التأمُّل الطويل لأنّ القرن الماضي قدّم دراسة نموذجيّة حيّة هي بمثابة جواب عن ذلك السؤال تحديدًا. لنتناول روسيا.

هاجمت الحكومة الشيوعيّة ميراث روسيا بغضب معادٍ للدِّين لم يسبق له مثيل في تاريخ الإنسانيّة. فقد أزالوا الكنائس والجوامع والمعابد، كما منعوا الإرشاد الديني للأولاد، وأغلقوا مدارس اللاهوت والأديرة وسجنوا وقتلوا العديد من الكهنة. كلنا، بالطبع يعلم ماذا حدث. بعد عشرات ملايين القتلى،

وبعد اختبار الفوضى الاجتماعيّة والأخلاقيّة، استفاق الشعب الروسيّ أخيرًا من سُباته. وكالعادة، تكلّم الفنّانون أولاً. قال الكسندر سولجنيتسين:

منذ حوالى نصف قرن، حين كنتُ لا أزال طفلاً، أذكر أنني سمعت عددًا من الناس الكبار يقدّمون التفسير التالي حول الكارثة العُظمى التي حلّت بروسيا: «إنّ الناس قد نسُوا الله؛ فهذا هو سبب كل ما يحصل.» منذ ذلك الحين أمضيت ما يقرب من خمسين سنةً أعمل على تاريخ ثورتنا؛ خلال تلك العملية قرأت مئات الكتب، وجمعت مئات من الشهادات الشخصيّة، وكانت محصّلة ذلك ثمانية مجلّدات من وضعي، حوت كل تلك التفاصيل. ولكنْ، لو طُلب مني اليوم وباختصار شديد، إعادة صياغة السبب الرئيس لتلك الثورة المدمِّرة التي ابتلعت ما يزيد عن ٦٠ مليون من شعبنا، فلن أتمكّن من وضعها في صياغة أوضح من ترداد القول: «إنّ الناس قد نسُوا الله؛ وهذا هو سبب كل ما يحصل.»

أطلقَ هذه الكلمات سنة ١٩٨٣، يوم كان الاتحاد السوفياتي لا يزال قوةً عظمى، وسولجنيتسين يُهاجَم بعنف وعلى أوسع نطاق. وبعد أقلّ من عقد من الزمن، كان قادة روسيا يقتبسون كلماته باستحسان، كما سمعت شخصيًّا يوم زرت روسيا سنة ١٩٩١.

رأيت في روسيا شعبًا جائعًا إلى النعمة. فالاقتصاد، وطبعًا المجتمع بأسره، كان في حالة السقوط الكامل، وكل واحد كان يجد من يلقي اللوم عليه. الإصلاحيّون ألقوا اللوم على الشيوعيّين، والشيوعيّون المتمسّكون بعنادهم لاموا الأميركيين، الأجانب لاموا المافيا ونظام العمل المهترئ. تراشق كثيف من التّهم والتّهم المضادة. وقد سَجّلْتُ في ملاحظاتي أنّ

المواطنين الروس العاديين تصرّفوا مثل الأطفال المعاقَبين: رؤوس منكّسة، امتناع عن الكلام، وعيون تجول في هذا الاتجاه وذاك. بمن يثقون؟ ومثلما يجد الطفل المعاقَب صعوبة في الثقة بالنظام والمحبّة، كذلك هؤلاء الناس كانوا يجدون صعوبة في أن يؤمنوا بإله كليّ القدرة في التحكّم بالكون، والذي يحبّهم محبّةً عجيبة. كذلك، يجدونه أمرًا صعبًا أن يؤمنوا بالنعمة. بَيْدَ أنه من دون النعمة، من يقدر أن يضع حدًّا لدورة اللانعمة في روسيا؟

تركتُ روسيا والأفكار تضطرب في رأسي إزاء هذه التغيّرات الملقاة على عاتقهم، والتي لا بدّ من حصولها، لكنني من جهة أخرى غادرتُ، وفي نفسي رجاء شديد. فحتّى أمام المشهد الأخلاقيّ العاري رأيت ملامح الحياة، بقعًا من الاخضرار تُخَفِّفُ من حدّة ذلك التصحّر، وتأخذ في نموّها شكل من قُتِلوا.

سمعتُ من مواطنين عاديين كثيرين، كيف أنهم اليوم يستمتعون بحريّتهم في العبادة. فمعظمهم كان قد تعلّم عن الإيمان من «بابوشكا» الجدة العجوز. فعندما أجهزت الدولة على الكنيسة تجاهلت هذه الجماعة: دعوا النساء المسنّات يكنسن الأرض ويبعنَ الشموع ويلتصقن بالتقاليد إلى أن يمتن جميعهن، هذا ما كانت تردّده الدولة الجديدة. لكنّ أيدي البابوشكا حضنت الأسِرّة الهزازة. فالعديد من شبيبة الكنيسة الروسيّة اليوم، غالبًا ما يخبرونك بأنهم عرفوا الله لأول مرّة في طفولتهم حين كانت الجدّة ترنّم لهم أو تقصّ عليهم القصص همسًا أثناء خلودهم للنوم.

لن أنسى ما حييتُ، ذلك الاجتماع الذي رأيت فيه صحافيّي موسكو يبكون – لم أرَ من قبل صحفيًّا يبكي، عندما راح رون نِكِّل من (Prison Fellowship International) يُخبر عن الكنائس السرّية والتي

بدأت الآن تنتعش في سجون روسيا. فلمدّة سبعين سنة ظلّت السجون مستودع الحقّ، والمكان الوحيد الآمن حيث تستطيع أن تنطق باسم الله. فقد كان السجن وليس الكنيسة المكان الذي وَجَدَ الله فيه، أُناسًا مثل سولجنيتسين.

أخبرني رون نِكّلْ كذلك، عن محادثته مع جنرال كان وزيرًا للداخليّة. كان الجنرال قد سمع عن الكتاب المقدس من المؤمنين المسنّين وقبِله، لكن ليس كشيء تؤمن به بل كقطعة أثرية في المتحف. لكن الأحداث الأخيرة جعلته يعيد النظر في الأمر. ففي نهاية عام ١٩٩١، عندما أمر بوريس يِلتسن بإقفال جميع مكاتب الحزب الشيوعي الإقليميّة والمحليّة، كانت وزارته تشرف على تفكيك تلك المكاتب. قال الجنرال: «لم يحتجّ مسؤولٌ واحد في الحزب، ولا شخصٌ متأثّر مباشرة بالإقفال.» وقد قابل ذلك بحمْلة السبعين سنةً لتدمير الكنيسة ومحو الإيمان بالله. «إنّ الإيمان المسيحيّ هو أبقى من أية إيديولوجية. كما أنّ الكنيسة اليوم تنتعش بطريق لا مثيل لها في كلّ ما شاهدتُ.»

سنة ١٩٨٣، جماعة جريئة من الشباب تطلق على نفسها اسم (Youth With a Mission)، رفعت رايةً صباح أحد القيامة في الساحة الحمراء كُتب عليها: «المسيح قام!» كانت مكتوبة بالروسيّة. بعض الروس الأكبر سنًّا سقطوا على ركبهم وبكوا. ثُلّةٌ من الجنود أحاطوا حالاً بالمرنّمين المثيري المتاعب، ومزّقوا رايتهم وساقوهم إلى السّجن. بعد مضيّ أقل من عقد على ذلك العصيان المدنيّ، وعلى امتداد الساحة الحمراء كلها، كان الناس يحيّون بعضهم بعضًا صبيحة أحد القيامة، وبالطريقة التقليدية ذاتها: «المسيح قام!»... «حقًا قام!»

في تلك الرحلة الطويلة بالطائرة من موسكو إلى شيكاغو كان لدي متّسع من الوقت كي أفكر مليًّا بما كنت قد شاهدت في روسيا. فحين كنت هناك أحسست وكأنني «أليس في أرض العجائب» (Alice in Wonderland). الحكومة التي كانت في وضع نقدي حَرِج، رصدت مع ذلك، بلايين الروبلات لإعادة بناء الكنائس التي دمّرها الحكم الشيوعيّ. صلّينا مع المجلس الأعلى ومع ك.ج.ب. شاهدنا كتبًا مقدسة معروضة للبيع في المباني الحكوميّة الروسيّة. سألنا محرّرو البراڤدا إن كان أحد منا يودّ كتابة عمود دينيّ في الصفحة الأولى من جريدتهم. المربّون دعونا إلى تقديم منهج دراسيّ مبنيّ على الوصايا العشر.

كان لديّ انطباع فريد بأنّ الله كان يتحرّك، ليس بالمعنى الروحيّ لتلك العبارة بل بالمعنى الحرفيّ الخاص بنقل غرض من موقع إلى موقع.

إنّ أوروبا الغربيّة اليوم تعير الله اهتمامًا قليلاً، والولايات المتحدة تضع الله على الهامش، وربما سيكون مستقبل ملكوت الله من نصيب أماكن مثل كوريا والصّين وأفريقيا وروسيا. فإنّ ملكوت الله ينمو ويترعرع حيث تتبع رعاياه رغبة الملك – هل هذا ينطبق على بلادنا اليوم؟

وكأميركي، فإنّ احتمال حصول «تحرك» كذاك الذي ورد أعلاه يجعلني حزينًا. في الوقت نفسه أُدرِك بوضوح، وأكثر من أي وقت مضى، أن ولائي الأعظم هو لملكوت الله وليس لبلادي. إنّ أتباع المسيح الأوائل راقبوا مدينتهم المحبوبة أورشلم تحترق حتى تصبح ركامًا، وأنا متأكّد أنهم نظروا إلى الوراء والدموع تترقرق في عيونهم، بينما كانوا يتحرّكون نحو روما وإسبانيا والحبشة. أوغسطينوس، الذي كتب كتاب (City of God)، محاولاً شرح جنسيّة المسيحيّ المزدوجة، عايش سقوط روما، وراقب

من فراش الموت الذي كان مضطجعًا عليه، ألسنة النيران التي كانت تلتهم مدينته هيبو (Hippo) في شمال أفريقيا.

منذ وقت قريب أجريت محادثة مع مُرسل مُسِنٍّ أمضى سيرة حياته الأولى في الصين. كان من بين الستة آلاف مرسل الذين طُردوا بعد أن استلم الشيوعيون الحكم. وكما في روسيا، فقد جاهد هؤلاء الشيوعيون بكل عزم لتدمير الكنيسة التي كانت حتى ذلك الحين مفخرة الحركة الإرسالية. وقد مَنَعَت الحكومة كنائس البيوت، واعتبرته أمرًا مخالفًا للقانون إنْ منح الوالدان أولادهما تربيةً دينيّة، كما سجنوا وعذّبوا القسس ومعلّمي الكتاب المقدس.

في تلك الأثناء قبع المرسلون المنفيّون على الخطوط الخلفية يفركون أيديهم. كيف ستتدبّر كنيسة الصين أمرها بدونهم؟ بدون مدارس اللاهوت وكليّات الكتاب المقدس، ومن دون كتبهم ومناهجهم التعليميّة، وحتى بدون أدنى إمكانية لطبع الكتب المقدسة، هل ستعيش الكنيسة؟ ولأربعين سنة ظلّ هؤلاء المرسلون يسمعون شائعات عما كان يجري في الصين، البعض منها مُشجِّع والبعض الآخر غير مُشجِّع، ولكن لم يتأكّد أحد إلى أن بدأت البلاد بالانفتاح في الثمانينيّات.

سألت هذا المرسل المتقدّم في السن والذي هو الآن خبير مشهور في شؤون الصين، عما حدث في فترة الأربعين سنة الواقعة بين حقبتين. «باعتدال أُقدّر أنه كان ثمّة ٧٥٠،٠٠٠ مسيحيّ حين تركت الصّين. والآن؟ تسمع أرقامًا مختلفة، ولكنني أعتقد أنّ ثمة عددًا شبه مؤكّد هو ٣٥ مليون مؤمن.» الظاهر أنّ الكنيسة والروح القدس تدبّرا أمرهما جيدًا. إنّ الكنيسة في الصين اليوم تشكّل ثاني أكبر جماعة إنجيليّة في العالم؛ وحدها الولايات المتحدة تتقدّم عليها.

أحد الخبراء في شؤون الصين يُقدّر أنّ الانتعاش في الصين اليوم يُعتبر عدديًا أكبر انتعاش في تاريخ الكنيسة. وبطريقة غريبة، عمل عداء الدولة لصالح الكنيسة بصورة مطلقة. فبما أنّ المسيحيّين الصّينيين أُخرجوا من الهيكليّة السياسيّة للدولة، فقد كرّسوا أنفسهم للعبادة والتبشير، وهي الرسالة الأساسيّة للكنيسة، ولم يهتّموا كثيرًا للسياسة. فقد ركّزوا على تغيير الحياة لا القوانين.

عدت من روسيا أقل اهتمامًا بما يحدث أو يمكن أن يحدث داخل الجدران الرخاميّة لمبنى مجلس الشيوخ الأميركي أو المحكمة الفدرالية العليا، ورحت أصبّ اهتمامي على ما يمكن أن يحدث داخل جدران الكنائس المنتشرة على امتداد البلاد. إنّ تجديد الروحيّة في بلادنا لن ينزل من أعلى إلى أسفل؛ فإذا ما حصل على الإطلاق، فسوف يبدأ من الجذور ثم يأخذ في النمو صعدًا.

لا بُدَّ أن أُقِرَّ بأنّ عودتي إلى الولايات المتحدة أعطتني اقتناعًا قليلاً بالأمل بأنّ روسيا والعالم قد يتعلّمون شيئًا عن النعمة من المسيحيّين هنا. راح راندال تيري يُعلن من الراديو أنّ الفيضانات التي اجتاحت الوسط الغربيّ من البلاد وتسبّبت للآلاف من المزارعين بفقدان أراضيهم وبيوتهم ومواشيهم، إنّما حصلت كدينونة من الله بسبب عدم مساندة أميركا له في حملته ضدّ الإجهاض. السنة التالية أي ١٩٩٢، أثبتت أنها واحدة من أسوأ سني الإنتخابات إذْ فَتَلَ اليمين الدينيّ عضلاته لأول مرة على الصعيد الوطنيّ. وقد بدا المسيحيّون أكثر اهتمامًا بالسُّلطة منهم بالنعمة.

بعد انتخابات ١٩٩٢ بوقت قصير، اشتركت بمناقشة موضوع عام مع لوسيندا رُوب، حفيدة الرئيس ليندون جونسون، وابنة النائب تشاك وليندا

رُوب. كانت عائلتها قد بدأت لتوّها حملة عنيفة ضد أوليڤر نورث، والتي رصد فيها مسيحيّو الجناح اليمينيّ كل حركة. وقد أخبرتني لوسيندا ما يلي: «ظننتُ أننا مسيحيّون. فقد نشأنا مع بيلي غراهام الذي كان يزورنا باستمرار، وكنا نشيطين في الكنيسة. فنحن نؤمن بصدق. لكنّ هؤلاء المتظاهرين عاملونا وكأننا شياطين الجحيم.»

أمّا الموضوع الذي اشتركنا فيه فكان تحت عنوان «صراع الحضارات»، حيث جرى النقاش أمام حشد كبير في محاولة لحثّ الديمقراطيين الليبراليين بمن فيهم أقليّة يهوديّة قويّة. اختاروني لأمثّل المسيحيّ الإنجيليّ. وإضافة إلى لوسيندا روب، ضمّت المناظرة رؤساء قناة ديزني التلفزيونيّة ووارنر بروذرز وغيرهم من الشخصيات المرموقة.

ولكي أحضّر كلامي قرأت الأناجيل للإرشاد، فقط لكي أتذكّر كم كان يسوع لا سياسيًّا. ومن اقتباس لكلمات پ.ت. فورسايث: «إنّ أكبر وأعمق توجّه للإنجيل ليس إلى العالم، ولا إلى مشاكله الاجتماعية، بل إلى الأبدية والتزاماتها الاجتماعية.» اليوم، كلما حان موعد الانتخابات، يتباحث المسيحيّون حول ما إذا كان هذا المرشح أو ذاك هو «رجل الله» الذي اختاره للبيت الأبيض. ولو رجعت بالخيال إلى الوراء إلى أيام يسوع، فسوف أجد صعوبة في تخيله مُجيلاً فكره لكي يرى ما إذا كان طيباريوس أو أوكتاڤيوس أو يوليوس قيصر «رجل الله» الذي اختاره للإمبراطورية.

عندما حان دوري في الكلام، قلتُ إنّ الرجل الذي أتبعه، وهو يهوديّ فلسطينيّ من القرن الأول، هو أيضًا اشترك في صراع حضاري. فقد ناهض مؤسسة دينيّة صارمة، إضافة إلى امبراطورية وثنية. فالقوّتان، وكانتا غالبًا في طرفي نقيض، تآمرتا معًا للتخلّص منه.

ماذا كان ردّه؟ ليس المقاومة بل بذل حياته لأجل أعدائه أولئك، وليشير إلى تلك العطيّة كبرهان على محبّته. ومن الكلمات التي قالها قبل موته كانت هذه: «يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ» (لوقا ٢٣: ٣٤).

بعد المناظرة اقترب مني أحد مشاهير التلفزيون، والذي يعرفه كل قارئ وقال لي: «لا بدّ أن أخبرك أمرًا، إنّ ما قلتَه أصابني في الصّميم. كنت على وشك أن أكرهك لأنني أكره كل مسيحيّ محافظ، وافترضتُ أنك واحد منهم. أنت لا تتصوّر البريد الهائل الذي يرِدني من هؤلاء المحافظين المتطرّفين. أنا لا أتبع يسوع – أنا يهودي. ولكن عندما أخبرتَ عن يسوع الذي سامح أعداءه، تأكّدت كم أنا بعيد عن تلك الروح. أنا أخاصم أعدائي ولا سيما المحافظين المتطرفين. أنا لا أسامحهم. لا بدّ لي أن أتعلّم الكثير من روح يسوع.»

كان تيّار النعمة الآتي من بعيد، قد بدأ يعمل ببطء وثقة في حياة تلك الشخصيّة المعروفة.

إنّ صور يسوع تصف الملكوت كنوع من القوة الخفيّة. خراف وسط ذئاب، وكنز مخفيّ في حقل، وأصغر حبّة بقول في البستان، والقمح الذي يطلع معه الزِوان، وخميرة صغيرة تخمّر العجين كله، وحبّة ملح في الطعام. وهذه جميعها هي بمثابة إلماحات إلى أنشطة تعمل في المجتمع، فتغيّره من الداخل إلى الخارج. أنت لا تحتاج إلى رفشٍ من الملح لتحفظ قطعة من اللحم. فنثار قليل يكفي.

لم يترك يسوع خَلْفه جيشًا منظّمًا من الأتباع، لأنه عرف أنّ حفنةً صغيرة من الملح سوف تشق طريقها بتؤدة نحو أعظم إمبراطوريات العالم. وخلافًا

لكلّ التوقّعات، فإنّ أعظم مقدّرات روما – مجموعة القوانيين والمكتبات ومجلس الشيوخ والفيالق الرومانيّة والطرقات وقنوات جرّ المياه والجسور والنُّصب التذكارية العامة – تحطّمت تدريجيًّا، بينما تلك الزمرة الصغيرة التي أعطاها يسوع هذه الصور انتصرت، وهي تفرض وجودها الآن وإلى انقضاء الدهر.

وصَفَ سُورِن كيرِكغارد نفسه بأنه عميل، وبالفعل، فالمسيحيّون يتصرّفون مثلُ العملاء، فهم يعيشون في هذا العالم بينما ولاؤهم العميق هو لآخر. نحن غرباء، لنا إقامة مؤقتة، أو نزلاء بحسب التعبير الكتابيّ. إنّ زياراتي لدول الأنظمة الدكتاتوريّة قد أعطت تلك العبارة أعلاه معنًى جديدًا.

ولسنوات عدّة ظلّ المخالفون لعقيدة الدولة في بلدان أوروبا الشرقيّة يجتمعون سرًّا ويستعملون كلمات مُرَمّزة، ويتجنّبون استعمال الهواتف العامة، وينشرون المقالات تحت أسماءٍ مستعارة يطبعونها سرًّا على أوراق. في أواسط السبعينيّات بدأ هؤلاء المعارضون يتأكّدون أنّ حياتهم المزدوجة هذه قد كلّفتهم غاليًا. ففي عملهم السريّ هذا، ونظرات الخوف والقلق في عيونهم التي تتلفّت يمينًا وشمالاً، استسلموا أخيرًا للخوف، وهو هدف أعدائهم الشيوعيين. بَيْد أنهم اتخذوا قرارًا واعيًا ليغيّروا تكتيكهم. وقد قرّر البولنديون والتشيكيّون هذا: «سوف نتصرّف وكأننا أحرار بأي ثمن.» بدأوا يقيمون اجتماعات علنيّة وفي مباني الكنيسة غالبًا على الرغم من وجود المخبرين في وسطهم. ذيّلوا المقالات بتواقيعهم، كما أضافوا أحيانًا عناوينهم وأرقام الهاتف، وقاموا بتوزيع الصحف علنًا، وفي زوايا الشوارع.

الواقع، إنّ هؤلاء المعارضين بدأوا يتصرّفون بالطريقة التي ينبغي على المجتمع أن يتبعها. مثلاً: إنْ كنت تتوخّى حرّية التعبير، تكلّم بحرّية. وإن كنتَ تحبُّ الحقّ، قُلِ الحقَّ. حارت السلطات كيف تردّ. استخدموا أحيانًا أسلوب القمع، فقضى معظم المعارضين زمنًا في السجن، وأحيانًا أخرى كانوا يراقبون محبَطين وهم في حالة الغضب الشديد. في غضون ذلك، جعل هذا التكتيك الجريء أسلوب التواصل بين المؤمنين في ما بينهم ومع الغرب أمرًا سهلاً، كما أوجَدَ «أرخبيل الحرّية» المُشرق، والمقابل «لأرخبيل سجن الغولاغ» المظلم.

الجدير بالملاحظة، أننا امتدّ بنا العمر لنرى انتصار المعارضة. ملكوتٌ بديل، هو عبارة عن مواطنين مهمَلين، من سجناء وشعراء وكهنة، أوصلوا كلماتهم «المخربشة»، والمكتوبة باليد على «سامزدات» (النشرات السرّية للأدب الممنوع في الاتحاد السوفياتي سابقًا)، أطاحت بما كان يعتبر قلعة منيعة. ففي كل أُمّة، كانت الكنيسة تعمل كقوّة مضادة، أحيانًا بصمت وأحيانًا أخرى بصوت عالٍ متشبّثة بالحقّ الذي كان يتفوّق على الدعاية الرسميّة، وغالبًا ما يعارضها. ففي پولندا كان الكاثوليك يسيرون أمام المباني الحكوميّة ويصيحون: «إننا نسامحكم!» وفي ألمانيا الشرقيّة أضاء المسيحيّون الشموع وصلّوا وساروا في الشوارع إلى أن كان ذات ليلةٍ، أنّ جدار برلين انهار مثل سدٍّ متصدّع بالٍ.

في وقت مبكر، بنى ستالين قرية في پولندا دعاها نُوا هُوتا (Nowa Huta) أو «المدينة الجديدة»، لكي يؤكّد وعد الشيوعيّة. فهو لم يستطع أن يغيّر البلاد كلها في الحال دفعةً واحدة، كما قال، لكنه استطاع أن يبني مدينة جديدة واحدة ذات مصنع متألّق للفولاذ، وشققًا رحبة، وحدائق عامة وافرة وشوارع عريضة، وكان هذا بمثابة نموذج مصغّر عما سيتبع. في ما بعد،

أصبحت نُوا هُوتا إحدى مراتع التوحّد، شاهدةً على فشل الشيوعيّة في جعل، ولو مدينة واحدة صغيرة تنصاع لمآربهم.

ماذا لو قام المسيحيّون بمحاولة مثل هذه في المجتمع المدنيّ ونجحوا؟ قال بونهوفر: «إنّ المسيحيّين في العالم هم مستوطنة تمثّل الوطن الحقيقيّ.» ولربما كان على المسيحيّين أنْ يعملوا باجتهاد في سبيل إنشاء مستوطنات للملكوت تشير إلى موطننا الحقيقي. غالبًا ما تُمسك الكنيسة مرآة تعكس صورة المجتمع الذي يحيط بها، بدل أن تكون نافذةً تكشف طريقًا آخر.

فإذا احتقر العالم خاطئًا رديء السمعة، على الكنيسة أن تُحبّه. إذا قطع العالم المساعدة عن الفقير والمتألّم، على الكنيسة أن تقدّم الطعام والدواء. إذا كان العالم ظالمًا، على الكنيسة أن تحامي عن المظلومين. إذا خجل العالم بالمنبوذ اجتماعيًّا، على الكنيسة أن تُعلن محبّة الله المصالِحة. إذا كان العالم يسعى وراء المنفعة والاكتفاء الذاتيّ، على الكنيسة أن تسعَى في سبيل التضحية والخدمة. إذا كان العالم يطلب تعويضًا أو جزاءً، على الكنيسة أن توزّع النعمة. إذا كان العالم يتمزّق إلى عصبيات وأحزاب، على الكنيسة أن تكون في وحدة تامّة. إذا كان العالم يدمّر أعداءه، فالكنيسة تحبّ أعداءَها.

هذه، على الأقلّ، هي رؤية الكنيسة في العهد الجديد: مستوطنة سماوية في عالم عدائيّ. قال دوايت ل. مودي :«واحد من بين مئة قد يقرأ الكتاب المقدس، أمّا التسعة والتسعون فيقرأون المؤمن.»

مثل المعارضة في الدول الشيوعية، هكذا يعيش المسيحيّون ضمن مجموعة مختلفة من القوانين. نحن شعبٌ «مميَّز»، كما قال بونهوفر، وقد عرّفنا بأننا استثنائيون، وغير عاديّين، وهذه نتيجة منطقيّة. لم يُصلب يسوع لأنه كان مواطنًا صالحًا، أو لأنه كان أفضل بقليل من أيِّ شخصٍ آخر. إنّ

السلطات في زمانه رأته بحق، وأتباعَه، بأنهم مناوئون، لأنهم كانوا يتلقّون الأوامر من سُلطة أعلى من سُلطة روما وأورشليم.

كيف يمكن أن تبدو كنيسةٌ مناوئة للولايات المتحدة اليوم؟ بعض المراقبين يعتبر الولايات المتحدة أكثر أمّة متديّنة في هذه الأرض. إن صحّ ذلك، فإنّ هذه الحقيقة تقودنا إلى سؤال مهّم كما نطق به دالاس ويلارد: ألا ينبغي لربع پاوند من الملح أن يكون له تأثير أقوى على پاوند من اللحم؟

لا شكّ أنّ الشعب المختلف عن غيره ينبغي له أن يُظهر مستوى أخلاقيًّا أعلى من العالم المحيط به. إلاّ أننا إذا أخذنا مثلاً واحدًا لتوضيح ذلك، نرى أنّ الاستفتاء الذي أجراه جورج بارنا يبيّن أنّ نسبة الطلاق بين المسيحيّين المولودين ثانيةً في أميركا المعاصرة، هي أعلى (٢٧ بالمئة) من نسبة الطلاق عند غير المؤمنين (٢٣ بالمئة)؛ أما الذين يصفون أنفسهم بأنهم أصوليّون فعندهم أكبر نسبة طلاق (٣٠ بالمئة). الحقيقة، إنّ أربع مِنْ أصل سِت ولايات مما يُعرف بحزام الكتاب المقدس تحتوي على أعلى معدّلات الطلاق. ما أبعد المسيحيّين العصريّين عن الفرادة أو التميّز، فهم أصبحوا مثل سائر الناس. وإنْ لم تعلُ أخلاقياتنا فوق مستوى من هم حولنا، فأملنا ضئيل جدًّا في أنْ نسلك كجماعة محافظة أخلاقيًّا.

على كلّ حال، وحتّى لو أظهر المسيحيّون أعلى مستوى من الأخلاق، فذلك وحده لن يفي الإنجيل حقَّه. فالفريسيون كانت أخلاقهم شبه منزّهة. على أي حال، فقد اختصر يسوع علامة المسيحيّ بكلمة واحدة: «بِهذَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ أَنَّكُمْ تَلاَمِيذِي: إِنْ كَانَ لَكُمْ حُبٌّ بَعْضًا لِبَعْضٍ» (يوحنا ١٣: ٣٥). إنّ أعظم سلوك ثوريّ تستطيع الكنيسة أن تتبنّاه هو أن تطيع تلك الوصية بصورة مستمرّة.

ربما يعود سبب اعتبار السياسة بمثابة فخّ للكنيسة إلى أنَّ السلطة قلّما تتعايش والمحبّة. فالناس في السُّلطة يؤلّفون لوائح عليها أسماء الأصدقاء والأعداء، ومنْ ثمَّ يكافئون أصدقاءهم ويعاقبون خصومهم. أمّا المسيحيّون، فتوصيهم الآية بأن يحبّوا حتّى أعداءَهم. تشاك كولسون الذي حذق فن سياسة السلطة في إدارة نكسون، يقول اليوم إنّ ثقته بالسياسة القادرة على حلّ المشاكل الإجتماعية، هي ثقة ضعيفة. إنّ أفضل الجهود التي نبذلها في سبيل تغيير المجتمع سوف تُخفِق ما لم تُعلِّم الكنيسة العالم كيف يُحِبُّ.

يسوق كولسون مثلاً مؤثّرًا عن مسيحيٍّ أطاع وصيّة المحبّة بدل قوانين السُّلطة. بعد أن استقال نيكسون بطريقة مُهينة، انسحب إلى مجمّعه السكني في سان كِلِمِنْتي لكي يعيشَ في عزلة تامّة. ولأنّ السياسيين حرصوا على عدم تشويه سمعتهم بالظهور معه، لذلكَ كان زوّاره قليلين جدًا في بادئ الأمر. واحد فقط شذّ عن هذه القاعدة، هو مارك هاتفيلد المسيحيّ الصريح، والذي غالبًا ما كان يعارض نيكسون في مجلس الشيوخ الأميركيّ. وقد سأله كولسون لماذا كان يجازف بتلك الزيارات إلى سان كَلَمَنْتي. أجاب هاتفيلد قائلاً: «لكي أجعل السيِّد نيكسون يعرف أنّ ثمّة من أَحَبَّه.»

أنا أعرف مقدار الأذى الذي نال بيلي غراهام بسبب مقابلته بِل وهيلاري كلينتون، وبسبب صلاته في مناسبة استلام كلينتون سُدّة الرئاسة. غراهام يؤمن، هو أيضًا، بأنّ الوصيّة «تحبّ» تتجاوز الفوارق السياسيّة. ولهذا السبب خدم مع كل الرؤساء من أيام هاري ترومن، بصرف النظر عن السياسة. وفي مقابلة خاصة مع القس غراهام، سألتُه عن الرئيس الذي أمضى معه أطول مدّة. ولشدَّ ما فاجأني قال إنه الرئيس ليندون جونسون، وهو كان بينه وبين غراهام فوارق سياسيّة كبيرة. بَيْدَ أنَّ جونسون كان يخاف من

الموت «وعلى ما يبدو كان دائمًا في حاجة إلى قسيس بجانبه.» فبالنسبة إلى غراهام كان الإنسان أهمّ من السياسة.

أثناء فترة حكم بريجنيف، في ذروة الحرب الباردة، زار بيلي غراهام روسيا وتقابل مع قادة من الحكومة ومن الكنيسة. المحافظون في بلده انتقدوه لمعاملته الروس بكثير من التهذيب والاحترام. قالوا إنه كان ينبغي عليه أن يأخذ دورًا أكثر نبويّةً، وذلك بشجبه لخرقهم حقوق الإنسان والحريّة الدينيّة. أحد منتقديه اتهمه بأنه أرجع الكنيسة خمسين سنة إلى الوراء. كان غراهام يصغي، وقد نكّس رأسه وأجاب، «أنا خجِلٌ جدًا. كنت أحاول جاهدًا أن أُرجع الكنيسة ألفي سنة إلى الوراء!»

إنّ السياسة ترسم خطوطًا حمراء بين الناس؛ بالمقابل نرى محبّة يسوع تتجاوز هذه الخطوط وتوزّع النعمة. طبعًا هذا لا يعني أنّ المسيحيّين ينبغي لهم ألاّ يتعاطوا السياسة. إنما يعني هذا بكل بساطة أننا حين نفعل ذلك يجب ألاّ ندع قوانين السُّلطة تأخذ مكان وصيّة المحبّة.

قال رون سايدر:

> كم هو مؤثِّر لو أنّ النساء المتطرّفات اللواتي ينادين بالمساواة بين الجنسين، يحسبن أنّ الرجال الإنجيليّين، يتمتّعون بسمعة طيّبة لأنهم يحافظون على عهد الزواج ويعاملون زوجاتهم بطريقة يسوع المضحّية على الصليب. وكم هو مؤثِّر أيضًا أن يحسب الشاذّون جنسيًّا أن الإنجيليّين يسعون بمحبّة لإيواء المصابين بمرض الأيدز والاهتمام بهم حتى الرمق الأخير. هذا، وإنّ حياةً مثاليّة توحي بالثقة، وخدمة مُضحِّية تساويان ملايين كلمات الحق القاسية.

صديقة لي كانت تعمل في مركز استشاري للحَبَل. كانت كاثوليكيّة ملتزمة، تقدّم المشورة للزبائن كيما يرفضوا الإجهاض ويتركوا لها أن تجد والدين يتبنّيان أطفالهم. وبسبب وجود هذا المركز على مقربة من إحدى الجامعات الرئيسيّة، فإنّ المتظاهرين لصالح الإجهاض كانوا غالبًا ما يسدّون منافذ المركز. ذات يوم مُثلِج من أيام ميشيغان الباردة، أرسلت صديقتي في طلب «دوناتس» (كعكٍ محلّى) وقهوة، وقد طلبت ما يكفي لكل المتظاهرين المناوئين لمركزها. عندما وصل الطعام، خرجت بنفسها لتقدّمه «لخصومها».

قالت لهم: «أنا أعرف أننا نختلف حول هذا الموضوع، لكنني لا أزال أحترمكم كبشر، كما أعلم أنّ الصقيع لا شكّ يلسعكم أنتم الواقفين هنا في الخارج طول النهار. فكّرت أنكم ربما تحتاجون إلى شيء من الغذاء.»

صُعِق أولئك المتظاهرون ولم يتفوّهوا بكلمة. تمتموا كلمات «شكرًا» وحدّقوا إلى القهوة، علمًا أنّ معظمهم رفضوا شربها (هل مزجتها بالسُّم؟).

قد يختار المسيحيّون الدخول في معترك السلطة، ولكن لحظة نفعل ذلك، لا نجرؤ على ترك المحبّة وراءنا. قال مارتن لوثر كِنغ: «إنّ السُّلطة من دون المحبّة هي متهوّرة ومؤذية، إنّ السُّلطة الحقّ هي المحبّة التي تنفّذ مطالب العدالة.»

اتّهم فريدريك نيتشه الكنيسة المسيحيّة بأنها «أخذت جانب كل شيء ضعيف وحقير وسقيم البناء.» وقد احتقر ديانة الشفقة التي عرقلت نظرية النشوء والارتقاء وقوانينها التي تفضّل القوة والمنافسة. وقد وضع نيتشه أصبعه على عار النعمة، وهو العار الذي لاحقه نيتشه رجوعًا حتى وصل إلى الإله المصلوب.

كان نيتشه على حقّ. ففي أمثال يسوع، لا يبدو أنّ الأغنياء والأصحّاء لبّوا الدعوة إلى وليمة العُرس، بينما أتى الفقراء والضعفاء راكضين. وعلى مرّ العصور، كانت الأمور التي أحبّها القديسون المسيحيّون على النّقيض تمامًا من النظرية الداروينيّة. فراهبات الأم تيريزا أعطوا كلّ الاهتمام للمشرّدين البؤساء الذين كانت أيامهم، إن لم تكن ساعاتهم، معدودةً على هذه الأرض. جان ڤانيه، مؤسِّسة (l'Arche Movement)، تعيش في بيت يستخدم سبعة عشر مساعدًا يعملون على مساعدة عشرة معوّقين عقليًّا من الرجال والنساء، الذين لن يستطيعوا أبدًا الكلام أو تنسيق حركات أيديهم. دوروثي داي من حركة العمّال الكاثوليك، اعترفت بالعمل المتعثِّر في مطبخها، فقالت: «يا له من أمرٍ مُبهجٍ أن تكون جريئًا في التبذير، وأن تتجاهل ثمن القهوة وتمضي قُدُمًا في تقديمها لذلك الصف الطويل من الفقراء الذين يأتون إلينا، ليحصلوا على أفضل القهوة والخبز.»

يعرف المؤمن أنّه لا يقوم بخدمة الضعفاء لأنهم يستحقونها، بل لأنّ الله بَسَطَ محّبته لنا عندما كنا نستحقّ ما هو عكس ذلك. المسيح نزل من السماء، وعندما كانت أحلام المركز والسُّلطة تراود فكر تلاميذه، كان يذكّرهم بأنّ الأعظم فيهم هو من يخدم. إنّ سُلّم السلطة يذهب صعودًا أمّا سُلّم النعمة فيذهب نزولاً.

كان لي كصحفي، امتياز رؤية العديد من الأمثلة الرائعة عن المسيحيّين الذين يوزّعون النعمة. وعلى عكس الناشطين السياسيّين، فإنّ هذه الجماعة لا تملأ أخبارُها الصحف. إنهم يخدمون بأمانة، مزيّنين حضارتنا بمادة الإنجيل الحافظة. تأخذني الرعدة عندما أتصوّر كيف يمكن أن تبدو الولايات المتحدة بدون «ملح الأرض» في وسطها.

قال روبرت بِلاّ: «لا تقلِّل أبدًا من قيمة قوة الأقليّة التي تتلهّف إلى رؤية عالم عادل ووديع.» هؤلاء هم الناس الذين أتمنّى أن يَرِدوا في الخاطر عندما أسأل الذين يجلسون إلى جانبي في الطائرة هذا السؤال: «كيف يبدو المسيحيّ الإنجيليّ في نظرك؟»

إنني أعرف حركة نُزُل المحرومين جيدًا لأن زوجتي تعمل في واحد منها كمرشدة. مرةً أجريتُ مقابلةً مع السيدة سيسلي سوندرز مؤسِّسة حركة نُزُل المحرومين الحديثة، وذلك في مستشفى سانت كريستوفر في لندن. وبصفتها عاملة اجتماعيّة وممرضة، كانت مرتاعة من الطريقة التي يعامل فيها الفريق الطبّي الناس الذين على وشك الموت. في المبدأ، يتجاهلونهم كدليل على تخلّفهم عن القيام بواجبهم. هذا الموقف سبّب عثرة لسوندز كمسيحيّة، لأن الاهتمام بالذين هم في حالة الموت أصبح عُرفًا، واحدًا من أعمال الرحمة السبعة لدى الكنيسة. وبما أنه لا أحد يصغي إلى ممرّضة، عادت إلى مدرسة الطبّ وأصبحت طبيبةً قبل أن تجد مكانًا حيث يمكن للناس أن يجيئوا ليموتوا باحترام وبدون ألم.

اليوم، أصبحت نُزُل المحرومين تتواجد في أربعين بلدًا بما فيها الولايات المتحدة التي تضمّ وحدها ألفي نَزل، نصفُ هذه النُزُل أسّسها مسيحيّون. إنّ السيدة سيسلي تؤمن منذ البداية، بأنّ المسيحيّين يقدّمون أفضل مزيج من العناية الجسديّة والعاطفيّة والروحيّة للمرضى المشرفين على الموت. إنها تدير نُزُل المحرومين كبديل متألِّق عن الدكتور كيڤوركيان وحركته المعروفة بـ«حقّ الموت».

إنني أفكّر بآلاف الحلقات التي تستخدم برنامج الاثنتي عشرة خطوة للتحرر من إدمان الكحول والتي تجتمع في قاعات الكنائس السفليّة، وفي

القاعات العامة، وفي غرف الجلوس على طول البلاد وعرضها، في أية ليلة من ليالي الأسبوع. إنّ المسيحيّين الذين أسّسوا هذه الخدمة الاجتماعيّة، واجهوا خيارًا من اثنين: إمّا أن يجعلوها منظّمة مسيحيّة حصرًا، أو يؤسّسوها على مبادئ مسيحيّة ومن ثمّ يطلقوها حرّةً. اختاروا الفكرة الأخيرة، وقد أصبح الآن ملايين من الناس في أميركا ينظرون إلى برنامجهم المؤسَّس على الاعتماد على «قوة أعلى» وعلى جمعية داعمة – كعلاج للإدمان على الكحول والمخدرات والجنس والطعام.

إنني أفكّر في مِلارد فوللر، المقاول المليونير من ألاباما الذي لا يزال يتكلّم برنّة أصحاب حقول القطن. غنيٌّ ولكنه تعيس، وزواجه يعاني من خطر التفكّك. توجّه إلى أميريكوس، جورجيا، حيث وقع تحت تأثير كلارنس جوردان وجمعيّة «كوينونيا». وسرعان ما وزّع فوللر ثروته الشخصيّة، وأسّس منظمة على فرضيّة بسيطة، وهي أنّ كل إنسان على هذا الكوكب يستحقّ مكانًا لائقًا يعيش فيه. اليوم، تُجنّد مؤسسة (Habitat for Humanity) آلاف المتطوّعين لبناء البيوت حول العالم. سمعتُ مرةً فوللر يشرح أعماله لإمرأة يهودية مشكِّكة؛ قال: «سيدتي، نحن لا نحاول التبشير. ليس عليكِ أن تصيري مسيحيّة لكي تعيشي في أحد بيوتنا، أو لتساعدينا على بناءٍ واحدٍ. أما الحقيقة فهي هكذا: إنّ سبب عمل ما أعمل، وهكذا أيضًا عمل هذا العدد الكبير من المتطوعين، هو لأننا نُطيع يسوع.»

إنني أُفكّر في تشاك كولسون، الذي سُجن لضلوعه في فضيحة وترغيت، كيف أنه خرج برغبة في التسلّق، ليس صعودًا بل نزولاً. وقد أسّس (Prison Fellowship)، والتي تعمل اليوم في حوالى ثمانين بلدًا. وقد حصلت عائلات أكثر من مليوني سجين أميركي على هدايا عيد الميلاد

بفضل مشروع كولسون المسمّى «شجرة الملاك» (Colson's Angel Tree). في بلدان أخرى، يجلب المؤمنون أعضاء الكنائس أوعية مليئة بالطعام المطبوخ وأرغفة خبز طازج إلى السجناء الذين لولا ذلك لكانوا يموتون من الجوع. والحكومة البرازيلية تسمح حتى لـ(Prison Fellowship) بالإشراف على السجن الذي يُديره النزلاء من المسيحيّين أنفسهم. هذا، وإنّ سجن هيومايتا يستخدم طاقمًا من موظّفين اثنين فقط، دون أن يواجه متاعب مثل الشغب وفرار المساجين، وليس فيه أكثر من أربعة بالمئة من حالات الإجرام المتكرّر مقارنة مع خمسٍ وسبعين بالمئة في سائر البرازيل.

مرّ في خاطري الآن بِلْ ماغّي، وهو طبيب اختصاصيّ في جراحة التجميل. أخَذَت هذا الطبيب الدهشة إذْ وجد أنّ عددًا كبيرًا من الأولاد يكبرون مع الشِّقِّ الحَلقي الذي يبقى دون معالجة. فهم لا يقدرون أنْ يتبسموا، كما أنّ شفاههم تنفتح لجهة واحدة آخذة شكلاً منحرفًا يثير السخرية والشفقة في آن. وضع ماغّي وزوجته برنامجًا، سمّياه (Operation Smile)، أيْ عملية الابتسامة: حمولة طائرة من الأطباء والجسم المساعد، يسافرون إلى أماكن مثل ڤيتنام والفليبين وكينيا وروسيا والشرق الأوسط لكي يصلحوا تشوّه الوجوه. لحدّ الآن، قاموا بست وثلاثين ألف عملية تجميل، تاركين وراءهم إرثًا مقداره ستة وثلاثون ألف ولدٍ يبتسمون.

إنني أفكّر في الإرسالية الطبيّة التي عَرَفْتُها في الهند، ولا سيما الذين يعملون مع مرضى البَرَص. ففي معيار عدم النعمة، ليس ثمّة فئة منبوذة من الناس على وجه الأرض أكثر من ضحايا البَرَص الذين يأتون من طبقة المنبوذين المحظور مسُّهم. لا يمكن أن تنزل إلى دركٍ أوطأ بعد. معظم التقدّم الذي حصل في هذا المجال، جاء من الإرساليات المسيحيّة، لأنهم

كانوا الوحيدين المستعدين لِلَمس ضحايا البَرَص والاهتمام بهم، وطبعًا معالجتهم. ويعود الفضل في ذلك، إلى عمل هؤلاء الخدّام الأمناء الذين بتضحياتهم الكبيرة تمّت السيطرة على هذا الوباء الرهيب بشكل كامل بواسطة العقاقير، وأصبح احتمال عدواه في حدّه الأدنى.

كما أفكّر في وكالة (Bread for the world) التي أسّسها مسيحيّون آمنوا بأنّ أفضل مساعدة قد يقدّمونها للجياع ليست ببدءِ منافَسَة مع (World Vision)، بل في محاولة التأثير على الكونغرِس لأجلِ فقراء العالَم. كما أفكّر في (Joseph's House)، وهو بيت لمرضى الإيدز في واشنطن العاصمة. كما أفكّر في بات روبرتسون (Operation Blessing) التي تنظّم برامج في الأحياء الفقيرة في خمس وثلاثين مدينة كبيرة، أو أفكّر في مؤسسة جيري فالويل، (Save a Baby Homes) حيث تستطيع النساء الحوامل أن يذهبن إلى بيت يحبّهنّ ويحنو عليهنّ، ويقدّم المساعدة لهنّ في حال قرّرن الاحتفاظ بالطفل بدل إجهاضه، هذه البرامج تُعار اهتمامًا أقل بكثير من نظرة مؤسسيها السياسية.

قال روسو إنّ الكنيسة خلقت مُعضِلة ولاءٍ يستحيل حَلُّها. إذ كيف يستطيع المسيحيّون أن يكونوا مواطنين صالحين في هذا العالم إذا كانوا يهتمون أساسًا بالعالم الآتي؟ إنّ الناس الذين ذكرتهم قبل قليل، وملايين مثلهم، يفنّدون مقولَتَه. وكما دوّن سي. إس. لويس، إنّ أولئك الذين وَعوا حقيقة العالم الآخر كانوا أكثر المسيحيّين فعاليّة في هذا العالم.

إنّ الإنسان يولد مُحطّمًا، ويعيش

مرمّمًا ونعمة الله هي الغِراءُ

اللاصق.

يوجين أونيل

الفصل العشرون

الجاذبية والنعمة



توهّجت حياة سيمون وايل مثل شمعة مضيئة قبل أن تموت وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها. مثقّفة فرنسية، اختارت أن تعمل في المزارع والمعامل لكي تساوي نفسها بالطبقة العاملة. وعندما غزَتْ جيوش هتلر فرنسا، هربت لكي تنضمّ إلى فرنسا الحرّة في لندن، وهناك توفّيَت، إذ تأزّمت حالة مرض السّل معها بسبب سوء التغذية، عندما رفضت أن تأكل أكثر من معدّل الحصص المقرّرة لمواطنيها الذين يعانون الاحتلال النازي. هذه اليهودية التي تبعت المسيح، لم تترك وراءها إرثًا سوى ملاحظات مبعثرة ودفتر مذكّرات، كانت عبارة عن سجل غنيّ بالملاحظات عن سياحتها إلى الله.

قرّرت وايل أنّ قوّتين عظيمتين تحكمان الكون: الجاذبيّة والنعمة. فالجاذبيّة تجعل جسمًا واحدًا يجذب أجسامًا أخرى ممّا يجعله يكبر بامتصاصه من الكون أكثر فأكثر في اتجاه ذاته. ثمّة شيء يشبه هذه القوة نفسها، يعمل في الكائنات البشرية. فنحن كذلك، نريد أن نتوسّع، أن

نمتلك، أن نسمو في الأهمّية. فالرغبة في أنْ «يصبحا آلهةً»، هي حتمًا، التي حملت آدم وحوّاء على التمرّد.

عاطفيًّا، كما قالت وايل، نحن كبشر نَسير وفق نواميس ثابتة كقانون نيوتن. «إنّ كلّ تحرُّكات النفس البشريّة تُسيّر وفق نواميس شبيهة بتلك التي في قانون الجاذبيّة. النعمة هي الاستثناء الوحيد.» فمعظمنا يظلّ أسير حقل مغناطيس محبّة الذات، وهكذا «نسُدُّ جميع المنافذ التي يمكن للنعمة أن تدخل منها.»

في ذات الوقت تقريبًا، بينما كانت وايل تكتب هذه الكلمات، هاربٌ آخر من النازيّة، هو كارل بارث، كتب هذا التعليق، وهو أنّ عطية يسوع من الغفران ومن النعمة، كانت بالنسبة إليه مدهشةً أكثر من معجزاته. فالمعجزات كسرت ناموس الكون الماديّ؛ أمّا الغفران فَكَسَرَ النواميس الأخلاقية. «فبداية الصلاح ندركها في وسط الشر... بساطة وشمولية النعمة، من يستطيع قياسها؟»

حقًّا، من يستطيع قياسها؟ لم أسِرْ إلى الآن إلاّ في محيط النعمة وحسب، كمن يسير حول كاتدرائية واسعة جدًا لا يستطيع المرء أن يحيطها بنظرة واحدة. وبما أننا كنا بدأنا الكلام بالأسئلة: ما هو هذا الأمر العجيب في النعمة، ولماذا لا يُظهِر المؤمنون المزيد منها؟ أُنهي الآن بسؤال أخير: ماذا يشبه المؤمن المملوء بالنعمة؟

رُبّما عليّ أن أعيد صياغة السؤال بهذا الشكل: كيف يبدو المؤمن المملوء بالنعمة؟ إنّ الحياة المسيحيّة في اعتقادي، لا ترتكز أساسًا على الأخلاق أو القوانين، بل بالحريّ تتضمّن رؤية جديدة. إنني أُفلت من «الجاذبيّة» الروحيّة عندما أبدأ أرى نفسي كخاطئ لا يستطيع أنْ يُرضي

الله بأية وسيلة من وسائل الإصلاح الذاتي أو التكبير الذاتي. عندها فقط أستطيع أن أتّجه نحو الله من أجل العون الخارجي – أيْ من أجل النعمة – ولدهشتي، أُدرك أنّ إلهًا قدوسًا، يحبّني أصلاً، وعلى الرغم من كل سيّئاتي. إنني أُفلت من قوة الجاذبية مرة أخرى عندما أدرك أنّ جيراني أيضًا، هم خطاة يحبّهم الله. إنّ المؤمن المملوء من النعمة، هو الذي ينظر إلى العالم «من وراء عدسات ملوّنة بالنعمة».

قسٌّ صديقٌ لي، كان يدرس النصّ المعيّن لذلك اليوم من إنجيل متّى الأصحاح السابع والذي يقول يسوع فيه بكل حزم: «كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذلِكَ الْيَوْمِ: يَا رَبُّ، يَا رَبُّ! أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا، وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ، وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ» (متّى ٧: ٢٢ و٢٣).

إنّ العبارة: «إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ!» استرعت انتباهي؛ فما هو واضح أنّ يسوع لم يقلْ «إنكم لم تعرفوني قطّ» أو «إنكم لم تعرفوا الآب.» فقد تنبّه صديقي إلى أنّ أحد أهم وظائفنا، بل ربما أهم وظيفة لنا، هي أن نجعل أنفسنا معروفين لدى الله. فالأعمال الصالحة ليست كافية: «أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا؟» (متّى ٧: ٢٢). إنّ أيّة علاقة مع الله ينبغي أن تُبنى على البوح أو الإعلان الكامل. فالأقنعة كلها ينبغي أن تسقط.

كتب توماس ميرتون قائلاً: «لن نجدَه ما لم نعلم أننا نحتاج إليه.» هذا الإدراك لا يتأتّى بسهولة لمن نشأ في خلفيّة كنسيّة قويّة. فكنيستي التي نشأت فيها نزعت نحو الكماليّة، التي قادتنا جميعًا إلى تجربة حنانيا وسفّيرة في سوء إظهار حقيقتنا الروحيّة. يوم الأحد، كان الناس يخرجون من سياراتهم ملمّعين متأنّقين، تعلو الابتسامات

وجوههم، علمًا أنّهم كانوا، كما اكتشفنا في ما بعد، يتشاجرون بشراسة طوال الأسبوع.

وكطفل، كنت أكتسي صباح الأحد أفضل حلّة من السلوك نحو الله، ونحو الأشخاص المسيحيّين الذين من حولي. لم يدُرْ في خلدي قط أنّ الكنيسة كانت المكان الذي يكون فيه المرء صادقًا. اليوم، وفي ما أنا أحاول أن أنظر إلى العالم من وراء عدسة النعمة، أدركُ أنّ العيب هو الشرط الأساسي للنعمة. فالنور لا يدخل إلاّ من خلال الثقوب.

إنّ كبريائي لا تزال تغريني بأن أتمظهر بأفضل وجه. قال سي. إس. لويس: «سهلٌ علينا أن نقرّ، لكن شبه مستحيل أن ندرك أننا أشبه بمرآة، بريقُها، هذا إن كنّا برّاقين، مستمدٌّ بالكامل من الشمس التي تسطع علينا. بالطبع يجب أن يكون فينا شيء قليل من الإشراق الفطري. ومؤكّد أننا لا نقدر أن نكون خليقة كاملة.» ثم يقول: «إنّ النعمة تُرحِّب ترحيبًا كاملاً ولطيفًا بحاجتنا، ألا وهي فرح الاتكال الكامل. إننا نصبح شحّاذين فرحانين.» نحن، هذه الخليقة، الشحّاذين الفرحانين، نعطي المجد لله في اعتمادنا عليه. فجراحنا وسيّئاتنا هي الفسحات الضّيقة التي يمكن للنعمة أن تدخل منها. إنه قَدَرَنا الإنساني على هذه الأرض أن نكون غير كاملين، وغير تامين وضعفاء وزائلين، وفقط في قبولنا لهذا القَدَرَ نستطيع أن نُفلت من قوة الجاذبية لنحصل على النعمة. عندها فقط، نستطيع أن نقترب إلى الله.

من المفارقات الغريبة، أنّ الله أقرب إلى الخطاة منه إلى القدّيسين (أعني بالقدّيسين أولئك الناس المشهورين بتقواهم – فالقديسون الحقيقيون لا يغيب عن نظرهم قطُّ بأنهم خطاة). وكما شرحها أحد المحاضرين في الروحانيات: «الله في السماء يمسك كل إنسان بواسطة خيط. وحين

تخطئ، فأنت تقطع الخيط. وهذا الإله يعود يربطه ثانيةً جاعلاً عقدةً في ذلك الخيط، وبهذا يكون قد قرّبك قليلاً إليه. ومرّة تلو المرة تقطع خطاياك الخيط، وبعد كل عقدة يستمر الله في إدنائك نحوه أكثر فأكثر.»

حين تَغيّرتْ نظرتي نحو نفسي، بدأت أرى الكنيسة في ضوء مختلفٍ أيضًا: رأيتها كجماعة من الناس متعطّشين للنعمة. وتمامًا كمدمنين على الكحول في طريقهم إلى الشفاء، نتقاسم الاعتراف المتبادل بالضعف. فالجاذبية تغرينا بأن نعتقد بأننا قادرون بمفردنا؛ لكنّ النعمة تصحّح هذ الخطأ.

أعود لأتذكّر مرةً أخرى تعليق تلك المومس في بداية هذا الكتاب: «الكنيسة! لماذا أذهب إلى هناك؟ فأنا أصلاً أشعر بالرعب من نفسي. وهناك سوف أكون في حال أردأ.» ينبغي أن تكون الكنيسة ملاذًا للناس الذين يشعرون بالرعب من نفوسهم، هذه، باللغة اللاهوتية، هي بطاقة الدخول لنا. الله يحتاج إلى أناس متواضعين لإنجاز عمله. وكل ما يجعلنا نشعر بالاستعلاء على الآخرين، وكل ما يغرينا بأن نُظهر شعورًا بالفوقيّة، فتلك هي الجاذبية وليس النعمة.

إنّ قرّاء الإنجيل يتعجّبون من قدرة يسوع على التحرّك بسهولة بين الخطاة والمنبوذين. وبما أنني قد أمضيت وقتًا في رفقة «الخطاة»، وكذلك في رفقة من يدّعون أنّهم «القديسون»، فإنّ لديّ إحساسًا باطنيًّا لماذا أمضى يسوع هذا الوقت الكثير مع المجموعة السالفة الذكر: أظن أنه فضّل صحبتهم. فلأنّ الخطاة كانوا صادقين مع نفوسهم وغير مُدّعين، لذلك استطاع يسوع أن يتعامل معهم. على نقيض ذلك، فإنّ القدّيسين متكلّفون، وقد حكموا عليه، وحاولوا أن يصطادوه بمكيدة أخلاقيّة.

وفي نهاية الأمر، فإنّ القدّيسين وليس الخطاة هم الذين ألقوا القبض على يسوع.

ولنتذكّر قصة عشاء يسوع في بيت سمعان الفرّيسي، حيث، امرأة لا تختلف كثيرًا عن مومس شيكاغو، سَكَبَتْ الطِّيب على يسوع، وبصورة استفزازية مسحت قدميه بشعرها. نفر سمعان بقوة. إنّ امرأة كهذه لا تستحقّ حتى أن تدخل بيته! إليك ردّ يسوع إزاء ذلك الجو المتوتّر:

«ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الْمَرْأَةِ وَقَالَ لِسِمْعَانَ: أَتَنْظُرُ هذه الْمَرْأَةَ؟ إِنِّي دَخَلْتُ بَيْتَكَ، وَمَاءً لأَجْلِ رِجْلَيَّ لَمْ تُعْطِ. وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ غَسَلَتْ رِجْلَيَّ بِالدُّمُوعِ وَمَسَحَتْهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا. قُبْلَةً لَمْ تُقَبِّلْنِي، وَأَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنْ تَقْبِيلِ رِجْلَيَّ. بِزَيْتٍ لَمْ تَدْهُنْ رَأْسِي، وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ دَهَنَتْ بِالطِّيبِ رِجْلَيَّ. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَقُولُ لَكَ: قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ، لأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيرًا. وَالَّذِي يُغْفَرُ لَهُ قَلِيلٌ يُحِبُّ قَلِيلاً» (لوقا ٧: ٤٤).

أسألُ نفسي لماذا تحمل الكنيسة أحيانًا روح سمعان الفريسي وليس روح تلك المرأة التي غُفرت خطاياها؟ ولماذا أنا غالبًا ما أفعل هذا؟

روايةٌ نُشرَت منذ قرن من الزمن بعنوان (The Damnation of Theron Ware)، أعطتني صورة دائمة عمّا يجب أن تكونه الكنيسة. قال طبيب مشكّك في حديثه إلى قسيس متشدّد، وإلى كاهن كاثوليكيّ: «إذا لم يكن في كلامي إحراج، فإنني من دون تحيّز أراكما من الخارج، لكنْ يبدو منطقيًّا لي أنّ الكنيسة ينبغي أن توجد لأولئك الذين يحتاجون إلى مساعدتها وليس للّذين بمهارتهم الذاتيّة هم صالحون لدرجة أنهم هم الذين يساعدون الكنيسة.» بعد هذا راح المشكّك يصف الكنيسة باعتبارها مكانًا تبقى فيه

النعمة حنفيّة مفتوحة. قال: «البعض يجيئون كل يوم، والبعض مرة كل سنة، آخرون قد لا يأتون مرة واحدة بين المعمودية ومراسم الدفن. لكنّ الجميع لهم حقوق هنا، اللصّ المحترف مثل القديس الذي لا غبار عليه. الشرط الوحيد هو ألاّ يأتوا تحت ادّعاءات كاذبة...»

تلك الصورة عن الكنيسة التي توزّع النعمة كأنه من «حنفيّة مفتوحة» لها تأثير خاص فيّ بسبب جماعة (Alcoholics Anonymous - AA) التي اجتمعت في القاعة السّفلية في كنيستي في شيكاغو. فهؤلاء لا يجدون الكثير من الكنائس التي تعيرهم مرافقها، وذلك لسبب بسيط: جماعاتهم تميل إلى زرع الفوضى. إنّ أعضاء (AA) يحاولون طرد شياطين الإدمان على المخدرات والكحول، وذلك باللجوء إلى شياطين أصغر وهي السجائر والقهوة، وقليلة هي الكنائس التي تحتمل البقع على الأرض والطاولات، والضرر الذي يلحق الجدران والخزائن جرّاء الدخان. فالكنيسة التي أَجْتَمِعُ فيها، قررت أن تفتح أبوابها لجماعة (AA) بصرف النظر عما يحصل.

أحيانًا كنت أحضر حلقة (AA) كتعبير عن تضامني مع صديق هو على طريق الشفاء من إدمان الكحول. أول مرة رافقته فيها صُعِقتُ بما وجدتُ لأنّ الجماعة كانت تشبه كنيسة العهد الجديد بطرق عدة. مذيع تلفزيونيّ معروف، وعدد من الأغنياء البارزين اندمجوا بحرّية مع العاطلين عن العمل والفتيان الذين كانوا يضعون الضماد لكي يخفوا علامات وخز الإبر في أذرعهم. كان «وقت المشاركة» مثل كتاب التمارين بين مجموعة، وقد تميّز بالإصغاء الحميم وبالتجاوب الحارّ وبعناق كثير. التعارف كان يتمّ على الشكل التالي: «مرحبًا، أنا توم، وأنا مدمن على الكحول والمخدرات.» في الحال كان كل واحد يصرخ في انسجام مثل فرقة موسيقية يونانيّة: «مرحبًا، توم!» كل واحد من الحاضرين قدّم تقريرًا شخصيًّا عن تقدّمه في معركته مع الإدمان.

مع الوقت، رأيت أنّ (AA) تسير وفق مبدأين: صدق تام وتبعيّة تامة. إنهما بالذات المبدآن الواردان في الصلاة الربانيّة التي هي خلاصة وصفة الحياة التي يقدّمها يسوع «كل يوم بيومه»، والواقع، إنّ العديد من جماعات (AA) يتلون الصلاة الربانيّة معًا في كل لقاء.

لا تسمح (AA) مطلقًا، لأي واحد أن يقول: «مرحبًا، أنا توم. وقد كنت في ما مضى كحوليًّا، أما الآن فقد شُفيت.» حتى لو كان قد مضى على توم أكثر من ثلاثين سنة دون أن يذوق المسكر، فهو لا يزال محتّمًا عليه أن يعرّف عن نفسه ككحوليّ – فبإنكاره ضَعفه سوف يجعل من نفسه فريسةً لهذا الضعف. كذلك، فإنّ توم لا يستطيع البتّة أن يقول: «أنا كحوليّ، هذا صحيح، لكنني لستُ برداءَة بيتّي التي تجلس هناك. إنها تدمن الكوكايين.» إنّ الأرض في (AA) هي مستوية. وكما عبّر عنها لويس ماير:

> إنه الموضع الوحيد الذي أعرف، حيث المكانةُ لا تعني شيئًا. فلا أحد يُحَمِّق أحدًا. وكلّ واحد تواجد هنا، لأنه أدخل حياته في فوضى عارمة، ويحاول بالتالي، أن يعيد ربط أجزاء شخصيّته المبعثرة بعضها ببعض من جديد... حضرتُ آلاف الاجتماعات الكنسيّة، واجتماعات في فروع محليّة واجتماعات الأخوة الرجال... إلاّ أنني لم أجد قطّ نوع المحبّة التي وجدتها في (AA). ففي غضون ساعة واحدة، ينزل الشامخ والجبّار، ويرتفع الوضيع. إنه المستوى الحقيقي الذي يقصده الناس عندما يستعملون كلمة الأخوّة.

في سبيل «العلاج»، يطلب برنامج (AA) من أعضائه اتّكالاً كليًّا على قوة عليا، وعلى رفاق مجاهدين. معظم الناس في الجماعات التي قابلتها يستبدلون «الله» بـ«قوة عُليا». إنهم يطلبون من الله

المغفرة والقوة بشكل علنيّ، كما يطلبون الدعم من الأصدقاء الذين حولهم. إنهم يأتون إلى (AA) لأنهم يؤمنون بأنّ النعمة تجري هناك «كما من حنفيّة».

أحيانًا، عندما كنت أصعد وأنزل على الدرجات الموصلة بين الكنيسة والقاعة السفليّة، كنت أفكّر في ذلك التناقض الحاصل في القاعتين بين يومي الأحد صباحًا والثلاثاء مساءً. فعدد قليل من الذين يجتمعون مساء الثلاثاء كانوا يرجعون صباح الأحد. ومع أنهم كانوا يقدّرون سخاءَ الكنيسة في فتح قاعتها السفليّة لهم، إلا أنّ أعضاء الـ (AA) الذين كنت أتكلّم معهم قالوا إنهم لا يشعرون بالراحة في الكنيسة. في الأعلى كانوا يبدون متماسكين حسب الظاهر، بينما هم في الحقيقة في تماسك هشّ. أما في الأسفل، فكانوا يشعرون أكثر ارتياحًا في دوّامة الدخان الأزرق، مترهّلين في الكراسي المعدنيّة، وفي سراويل الجينز وقمصان الـ تي شيرت، يطلقون الشتائم أحيانًا إذا شعروا بميل إلى ذلك. إلى هناك انتماؤهم، وليس إلى مكان عبادة ذي الزجاج الملوّن والمقاعد الخشبيّة المستقيمة الظَّهر.

لو كانوا يدركون، فقط لو كانت الكنيسة تدرك أنه في بعض أهم الدروس الروحيّة، كان ثمّة أعضاء من جماعة القاعة السفلية، هم معلّمونا. فقد ابتدأوا بكل صدق، وانتهوا بكل تبعيّة. عطاشًا جاؤوا كل أسبوع، مثل «الشحاذين الفرحين» لأن الـ (AA) كانت المكان الوحيد الذي يقدّم النعمة «كما من حنفيّة».

مرات قليلة في كنيستي كنت بعد إلقاء عظتي أساعد في فريضة كسر الخبز. كتبت نانسي مايرز عن الأفخارستيا (كسر الخبز) تقول: «أنا أشارك في هذه الفريضة ليس لأنني كاثوليكية صالحة ومقدّسة وتقيّة وصقيلة، بل

لأنني كاثوليكية سيّئة تملأني الشكوك والقلق والغضب: يعلوني الإصفرار بسبب النقص الحاد للسكّر في الروح.» بعد إلقاء العظة ساعدتُ في إشباع النفوس الجائعة.

الذين رغبوا في الاشتراك في عشاء الرب تقدّموا إلى الأمام، ووقفوا صامتين في نصف دائرة، وانتظرونا لنأتي لهم بالعناصر: «جسد المسيح المكسور لأجلكم» (١كورنثوس ١١: ٢٤)، أقول هذا بينما أُقدّم للشخص الواقف أمامي رغيفًا من الخبز ليكسر منه قطعةً. «دم المسيح المسفوك لأجلكم»، يقول القس الواقف ورائي هذا الكلام، وهو يقدّم كأسًا مشتركة.

ولأنّ زوجتي خدمت في الكنيسة، ولأنني علّمتُ هناك صفًّا لسنوات عديدةَ، لذلك عرفت العديد من القصص عن بعض الناس الذين يقفون أمامي. عرفتُ أنّ مايبل، المرأة ذات الشعر الشبيه بالقش والجسم المنحني التي قَدِمتْ إلى مركز المتقاعدين، كانت مومسًا. وقد عملت زوجتي معها طيلة سبع سنوات قبل أن تعترف مايبل بالسر القاتم الدفين فيها. منذ خمسين سنة باعت طفلتها الوحيدة. وكانت عائلتها قد رفضتها قبل ذلك الوقت بزمن طويل، وكان الحمْلُ سببًا في قطع مصدر دخلها، وقد علمت أنها سوف تكون أمًّا سيّئة، وهكذا باعت الطفلة إلى زوجين في ميشيغان. وقد قالت إنها لن تستطيع أن تسامح نفسها. ها هي الآن تقف في صف الشركة، بقع من أحمر التجميل لصقت على خدّيها، يداها ممدودتان في انتظار أن تستلم عطيّة النعمة. «جسد المسيح مكسور لأجلك يا مايبل...»

إلى جانب مايبل، كان هناك غاس وميلدرِد نجما العرس الوحيد الذي حصل في الكنيسة بين مُسِنّيها. فقد فضّلا أن يخسرا كل شهر ١٥٠ دولارًا

من خدمات الضمان الاجتماعي بسبب زواجهما بدل أن يعيشا مُساكنين أحدهما الآخر. وقد أصرّ غاس على ذلك. قال إنّ ميلدرِد كانت نور حياته، ولم يكن ليهتمّ إن عاش في الفقر، طالما يعيش وهي إلى جانبه. «دم المسيح مسفوك لأجلكما يا غاس ويا ميلدرِد...»

الشخص التالي كان أدُولفوس، رجل أسود ناقد للظلم الاقتصادي والاجتماعي، والذي تصاعدت مخاوفه بشأن الجنس البشريّ حتى بلغت الذروة في حرب ڤيتنام. أدولفوس هذا، نَفَّرَ الناس من الكنيسة. ذات مرة، بينما كنت أعلّم في صف من صفوف مدرسة الأحد عن سفر يشوع، رفع أدولفوس يده وصرَّح قائلاً: «أتمنّى الآن لو كنت أحمل بندقية حربية من نوع M١٦. كنت سأصطادكم واحدًا واحدًا أنتم «الإوَز الأبيض» في هذه الغرفة.» أحد شيوخ الكنيسة، وكان طبيبًا، انتحى به جانبًا بعد الصف وتحدّث إليه، وقد أصرّ هذا الطبيب على أدولفوس أن يأخذ أقراص دوائه قبل خدمة الأحد صباحًا. كانت الكنيسة تتساهل مع أدولفوس لأننا كنا نعلم أنه لم يفعل ذلك نتيجة غضب وحسب، بل بسبب الجوع كذلك. فإذا فاتته الحافلة، ولم يصعده أحد في سيارته، كان عليه أحيانًا أن يسير مسافة خمسة أميال (٨ كلم) وصولاً إلى الكنيسة. «جسد المسيح مكسور لأجلك يا أدولفوس...»

ابتسمتُ لكريستينا وراينِر، وهما زوجان ألمانيّان أنيقان، موظفان في جامعة شيكاغو. كلاهما كانا حائزين شهادة الدكتوراه، وكلاهما أتيا من جماعة تقيّة محافظة في جنوب ألمانيا. وقد أخبرانا عن الحركة الموارقية ذات النشاط العالمي، والتي لا تزال تؤثّر في كنيستهم الأم في ألمانيا، إلا أنهما بدأا الآن يجاهدان لأجل رسالة أخرى عزيزة جدًّا. فابنهما قد غادر للتوّ في رحلة إرسالية إلى الهند. وقد خطّط ليعيش سنة كاملة في أكثر الأحياء

فقرًا في كالكوتا. وقد شرّف كريستينا ورايِنر دائمًا، مثل هذه التضحية الشخصيّة. لكنْ الآن، وحيث أنّ ابنهما هو العنصر الجديد المباشر، فالأمر يبدو مختلفًا. إنهما يخافان على صحته وسلامته. وقد وضعت كريستينا رأسها بين يديها وراحت الدموع تنزلق من بين أصابعها. «دم المسيح مسفوك لأجلكِ يا كريستينا ولأجلك يا رايِنر...»

ثُمَّ جاء دور سارة التي كان الوشاح يُغطّي رأسها الخالي من الشعر بسبب استئصال الأطبّاء ورمًا خبيثًا من دماغها. ومايكل الذي كان يتتأتأ كثيرًا في الكلام، والذي كان ينكمش على ذاته كلما خاطبه أحدهم. وماريّا الإيطالية السمينة والشرسة، والتي تزوّجت الآن للمرّة الرابعة. «هذه المرّة ستكون مختلفة، أنا أكيدة» قالت ذلك باللكنة الإيطالية وبإنكليزية مكسّرة.

«جسد المسيح... دمُ المسيح...» ماذا نستطيع أن نقدّم لأناس مثل هؤلاء غير النعمة، كما من حنفيّة مفتوحة؟ ماذا يوجد لدى الكنيسة لتقدّمه أفضل من «وسائط النعمة»؟ النعمة هنا، بين هذه العائلات المحطّمة والأفراد المعوَّقين؟ نعم، هنا. ربما لا تختلف الكنيسة فوق الأرض كثيرًا عن جماعة الـ (AA) في الأسفل.

مِن الغرابة بمكان، أنّ عدسة النعمة تُظهر أولئك الذين هم خارج الكنيسة بالنور نفسه تمامًا. فهم أيضًا خطاة يُحبّهم الله مثلي تمامًا، ومثل كل واحد داخل الكنيسة. هم أولاد ضالّون، بعضهم انجرف بعيدًا جدًّا عن البيت، ومع هذا، يقف الآب مستعدًّا للترحيب بعودتهم بفرح واحتفاء. ومثل قديسين في الصحراء، يحاول الفنانون العصريون والمفكّرون، عبثًا، أن يجدوا مصادر بديلة للنعمة. كتب برْتران راسّل قائلاً: «ما يحتاجه العالم اليوم، وأخجل أن أقول ذلك، هو المحبة المسيحيّة.» قبل أن تموت بفترة قصيرة، تحدّثت

الروائيّة والعالمة الإنسانيّة مارغانيتا لاسكي إلى قناة تلفزيونيّة قائلةً: «ما أحسدكم عليه كثيرًا أنتم المسيحيّين هو غفرانكم. ليس لي من يسامحني.» ودوغلاس كوپلاند الذي صاغ التعبير، (Generation X)، أوجز في كتابه (Life After God)، ما يلي: «إنّ سِرّي هو أنني أحتاج إلى الله، إنني مريض ولا أستطيع أن أشفي نفسي بعد الآن. أحتاج إلى الله لكي يساعدني أن أُعطي، لأنني على ما يبدو لم أعد قادرًا على العطاء، وأن يساعدني كي أكون عطوفًا، لأنني أجد نفسي قد فقدت العطف؛ وأن يساعدني كي أُحبَّ، إذْ أجد نفسي أبعد من أن أقدر على المحبّة.»

إنني أعجب من لطف يسوع في تعامله مع أشخاص عبَّروا عن مثل هذه الأشواق. يُسجِّل يوحنا محادثة يسوع العفويّة مع امرأة على بئر. ففي تلك الأيام كان للرجل وحده حق البدء بالطلاق. هذه المرأة السامريّة نَبَذَها خمسة أزواج مختلفون. كان يمكن ليسوع أن يبدأ كلامه لها بإظهار تلك الفوضى التي أحدثتها تلك المرأة في حياتها. بَيْد أنه لم يقل لها: «أيتها الشابّة، هل تدركين كم هو لاأخلاقي العمل الذي تعملينه، ذلك أنك تساكنين رجلاً ليس زوجك؟» لكنه بالأحرى قال: «أشعر أنكِ عطشانة جدًّا.» تابع يسوع حديثه ليقول لها إنّ الماء الذي تشربُهُ لن يرويَ ظمأها، ومن ثَمّ قدّم لها ماءً حيًّا لكي يُطفئ ظمأها إلى الأبد.

أحاول أن أستعيد هذه الروح التي في يسوع، عندما أتواجه مع أناس لا أستسيغهم أخلاقيًّا. أقول في نفسي: «هذا الإنسان لا بد أنه عطشان كثيرًا.» تكلّمت مرة مع الكاهن هنري نُوين فور عودته من سان فرانسيسكو. فقد زار مؤسسات متعدّدة لضحايا الإيدز، وقد تأثر كثيرًا لدى سماعه قصصهم الحزينة، قال: «إنهم في حاجة ماسة إلى المحبّة، إن عدم وجودها يقتلهم.» وقد رآهم أناسًا عطاشًا يركضون وراء السراب.

عندما أُجرَّبُ بأن أُجفلَ هربًا وذعرًا من الخطاة، من «الناس المختلفين»، أتذكّر كيف كان عليه الأمر بالنسبة إلى يسوع، أن يعيش على الأرض. إنه الكامل، الذي بلا خطيّة، يسوع صاحب الحقّ المطلق في أنْ ينفر من سلوك الذين حوله. لكنه عامل مشاهير الخطاة بالرحمة وليس بالعدل.

إنّ الذي لَمَسَتْه النعمة لن ينظر في ما بعدُ إلى الذين أخطأوا باعتبارهم «أناسًا خطاة» أو «أناسًا يثيرون الشفقة ويحتاجون إلى مساعدتنا». كما لا يجوز أن نفتّش عمّا «يستحقّ المحبّة فيهم». فالنعمة تُعلّمنا أنّ الله يُحبُّ بسبب ماهيّة الله وليس بسبب ماهيّتنا. وفئات المستحقّين لا تنطبق عليها هذه الشروط. أخبر الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه في مذكّراته الشخصيّة عن قدرته على أنْ «يشتمّ» أعمق خفايا كل نفس بشريّة، وخصوصًا «القذارة الكثيرة المخبّأة في العديد من الشخصيّات.» كان نيتشه أحد أسياد عدم النعمة. نحن مدعوون لنعمل العكس، لنشتمّ بقايا القيمة المخبّأة.

في مشهد من فيلم (Ironweed)، تصطدم الشخصيّتان الممثّلتان بجاك نيكولسون وميريل ستريب بامرأة عجوز من الأسكيمو مغمورة بالثلج، مخمورةً على الأرجح. وبما أنهما كانا هما أيضًا في غاية السّكر، لذلك، راحا يتناقشان ماذا سيفعلان بها.

«أهي مخمورة أم متسوّلة؟» سأل نيكولسون.

«متسوّلة فقط. هكذا كانت طيلة حياتها.»

«وقبل ذلك الوقت؟»

«كانت عاهرة في ألاسكا.»

«لم تكن عاهرة طيلة حياتها. وقبل ذلك؟»

«لا أعلم. طفلة صغيرة وحسب، كما أعتقد.»

«حسنًا، طفلة صغيرة أمرٌ آخر. إنها ليست متسوّلة وليست عاهرة. إنها شيء ما. لنأخذها إلى الداخل.»

هذان الرحّالان رأيا المرأة التي من الأسكيمو من وراء عدسة النعمة. فحيث رأى المجتمع مجرّد متسوّلة وعاهرة، رأت النعمة بنتًا صغيرة، إنسانًا مخلوقًا على صورة الله بصرف النظر عن التشوّه الذي حصل لتلك الصورة.

إنّ المسيحيّة تسير وِفق مبدأ، «إكره الخطيّة لكنْ أَحِبِ الخاطي»، نحن للأسف نَعظُ عن ذلك بسهولة أكثر بكثير مما نمارسه. وإن استطاع المسيحيّون أن يمارسوا هذا العمل، كما فعل يسوع بطريقة رائعة، فسوف يتقدّمون على طول الطريق نحو تتميم دعوتهم كواهبين لنعمة الله. يسجّل سي. إس. لويس أنه ولمدة طويلة، لم يستطع أن يفهم المماحكة في التمييز بين أن تكره خطيّة الخاطي أم الخاطي. إذْ كيف تقدر أن تكره ما يفعله الإنسان دون أن تكره الإنسان؟

> لكن بعد سنوات، ما خطر ببالي هو أنْ كان ثمّة رجل واحد كنت أفعل كل ذلك بحقه طيلة حياتي. إنه أنا بالذات. على أيّ حال، مهما كنت أكره جبانتي وخداعي وطمعي، إلا أنني استمرّيت أحبّ نفسي. لم يكن ثمّة أدنى صعوبة في ذلك. في الواقع، إنّ السبب الأساسي في كرهي تلك الأشياء هو أنني أحبّ الإنسان. ولأنني فقط أحبّ نفسي، تأسّفت إذ وجدتُ أنني كنت ذلك الإنسان الذي فعل كل تلك الأشياء.

يقول لويس: لا يجوز للمسيحيّين أن يقدّموا تنازلات في مسألة كره الخطيّة. ينبغي أن نكره الخطيّة في الآخرين بالطريقة عينها التي نكره الخطية

في أنفسنا: نأسف لأنّ هذا الشخص فعل هذه الأشياء ونرجو أنه في وقتٍ ما، وبطريقة ما، وفي مكان ما، هذا الشخص بالذات سوف يُشفى.

إنّ فيلم بِلْ مويرز الوثائقي حول الترنيمة «ما أعجب النعمة» (Amazing Grace) يتضمّن مشهدًا مصوَّرًا في مدرّج ويمبلي في لندن. اجتمع العديد من الفرق الموسيقيّة، ومعظمها فرق الرّوك، محتفلين بسبب التغييرات الحاصلة في جنوب أفريقيا، ولسبب ما أدخل متعهّدو الحفلة في برنامجهم مغنّية الأوبرا جيسّي نورمان بمثابة مسك الختام.

يقوم الفيلم بتصوير مشاهد متقطّعة للجمهور الصاخب الذي يصعب ضبطه في المدرّج بينما تجري المقابلة مع جيسّي نورمان. وعلى مدى اثنتي عشرة ساعة كانت جماعات مثل (Guns 'n' Roses)، تغني للجماهير المحاطة بمكبّرات الصوت المدوّية، فيما الجماهير تفوح منها روائح المسكر والمخدرات. الجمهور يصرخ من أجل معاودة رفع الستارة، ومغنّو الروك يتجاوبون. في تلك الأثناء، كانت جيسّي نورمان تجلس في غرفة الملابس تناقش «ما أعجب النعمة» مع مويرز.

كلمات الترنيمة طبعًا هي من تأليف جون نيوتن، وهو تاجر عبيد فظّ وشرير. طلب الرب لأول مرّة وسط عاصفة هوجاء كادت أن تلقيه من فوق ظهر المركب. من ثمَّ بدأ نيوتن يرى النور الإلهي تدريجيًّا، وقد استمرّ في تجارته حتى بعد تجديده. كتب الترنيمة: «اسم يسوع لي يطيب» بينما كان ينتظر في مرفأ أفريقي ليشحن العبيد. بَيْدَ أنه في ما بعد، هجر هذه المهنة وأصبح خادمًا وانضمّ إلى وليام وِلْبرفورس في محاربة الرّق. لم ينسَ جون نيوتن قط الهوّة السحيقة التي انتُشِل منها. كما لم يغب نور النعمة عن عينيه.

ويوم كتب: «...من بعدما ذقت العمى ها إنني بصير»، كان يعني هذه الكلمات من كل قلبه.

في الفيلم، جيسّي نورمان تخبرُ بِلْ مويرز أنّ جون نيوتن قد يكون استعار لحنًا قديمًا كان العبيد يردّدونه، وقد أنقذ اللحن كما أُنقِذَ هو بالذات.

أخيرًا، حان وقتها لترنّم. دائرة منفردة من الضوء كانت تتبع نورمان، تلك المرأة الأفريقية الأميركية التي كانت ترتدي الداشيكي (رداء أفريقي فضفاض وملوّن)، في ما كانت تتنقّل على المسرح. لا فرقة موسيقيّة داعمة، ولا آلات موسيقيّة، فقط جيسّي.

الجمهور يتحرّك بحماسة دون توقّف. قلّة هم الذين يعرفون مغنّية الأوپرا الشهيرة هذه. ويعلو الصراخ لعودة فريق (Guns 'n' Roses).

راحت جيسّي نورمان ترنّم ببطء، ومن دون موسيقى:

ما أعجب النعمة لـــي　　من قلبك الكبير
من بعدما ذقتُ العمى　　ها إنني بصيـــر

أمرٌ لافتٌ حصل تلك الليلة في مدرّج ويمبلي. سبعون ألف مشجّع صاخب لاذوا بالصمت أمام ترنيمة النعمة.

عندما وصلت نورمان للعدد الثاني الذي يقول:

النعـمة قد وضـعـت　　خوفك فـي القلبِ
والنعـمة قد حـررت　　قلـبي مـن الـرعبِ

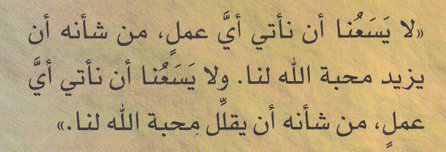
كان صوتها السوپرانو قد شدّ الجمهور إليها. وحين وصلت إلى العدد الثالث الذي يقول:

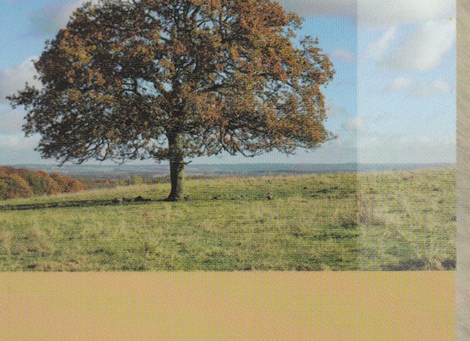
كم من تجارب رأت　　　　عيناي في الحياة
تكفي لنا نعمتك　　　　يا ربنا الإله

ابتدأ بضعة آلاف من المشجّعين يرنّمون، وهم يحفرون بعيدًا جدًّا في الذاكرة لعلهم يعثرون على تلك الكلمات المنسيّة التي سمعوها منذ زمن بعيد:

إذ نرتقي دار العلى　　　　تبدو لنا الأعوام
مع طولها وعرضها　　　　ليست سوى أيّام

وقد اعترفت جيسّي نورمان في ما بعد بأنها لم تدرك ما هي تلك القوة التي هبطت على إستاد ويمبلي تلك الليلة. لكنني أنا أعرف. إنّ العالم يظمأ للنعمة. وعندما تنزل النعمة يجثو العالم صامتًا أمامها.





«لا يَسَعُنا أن نأتي أيَّ عمل، من شأنه أن يزيد محبة الله لنا. ولا يَسَعُنا أن نأتي أيَّ عملٍ، من شأنه أن يقلِّل مِحبة الله لنا.»

كثيرًا ما نتحدَّث عن النعمة؛ ولكن هل نعرفها حقَّ المعرفة؟ ثم، هل حقًّا نؤمن بها؟ وهل حياتُنا تُظهِرُ فاعليَّتَها، بالمستوى الذي تُظهِرُها كلماتُنا؟

في هذا الكتاب، يضع المؤلِّفُ النعمةَ على بساط البحث والتمحيص، مُوجِّهًا هذه التساؤلات: ماذا تُشبِهُ النعمة؟ بِمَ تتفرَّد؟ لِمَ المؤمنون فقط يستطيعون، بل ينبغي لهم، أن يُعلِنوا النعمة، التي طالما بحث العالمُ عنها.

ما قيل في هذا الكتاب:

كتاب رائع لا بدّ من قراءته، فهذا الكتاب هو من الكتب التي تصنع الثورات. ونحن بحاجة إلى ثورة النعمة. عندما قرأته فتح عيني على آفاق لم أرَها من قبل، وكشف لي حقائق قيّمة عن النعمة التي «يُفترض» أن نكون نحن فيها مقيمون، وما أبعدنا عنها. إنها دعوة إلى حرّية أولاد الله، إنها دعوة إلى التحرّر من «قتلة النعمة» واسترداد بهجة الخلاص الذي حصُلنا عليه بالنعمة.

القس تشارلي قسطه



